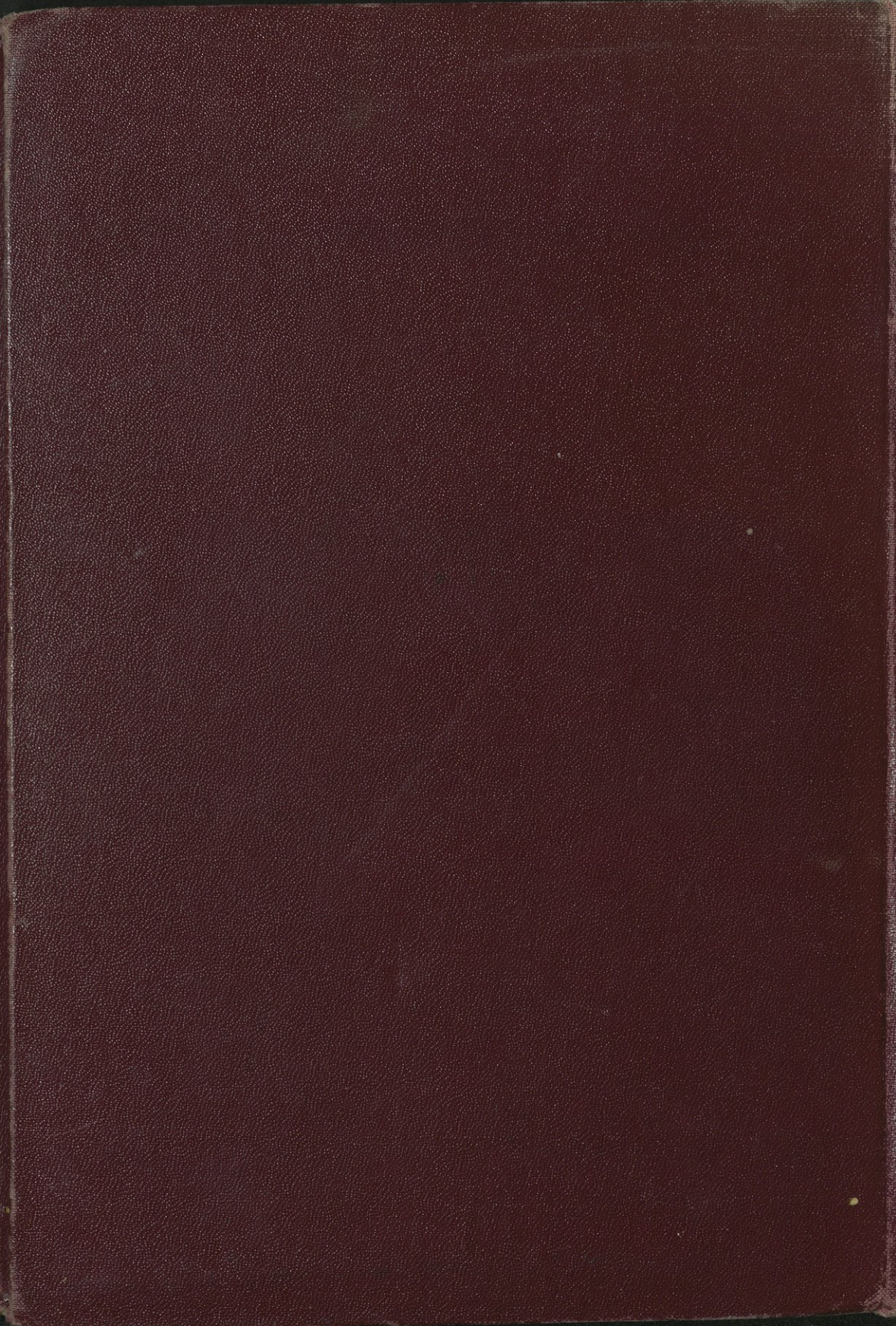
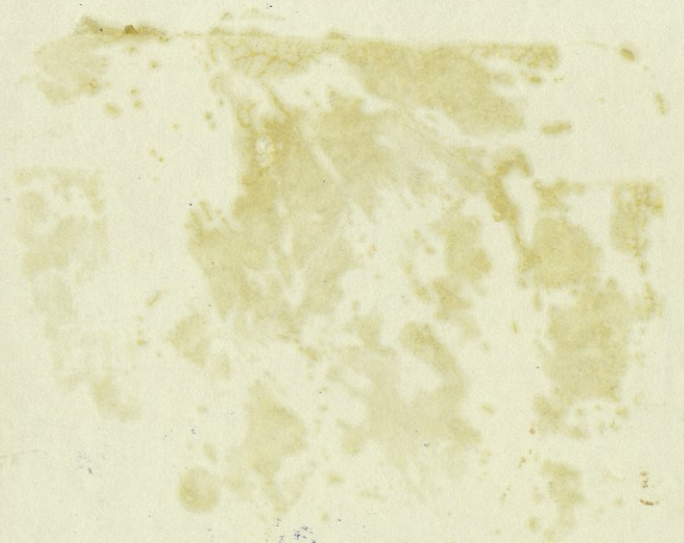




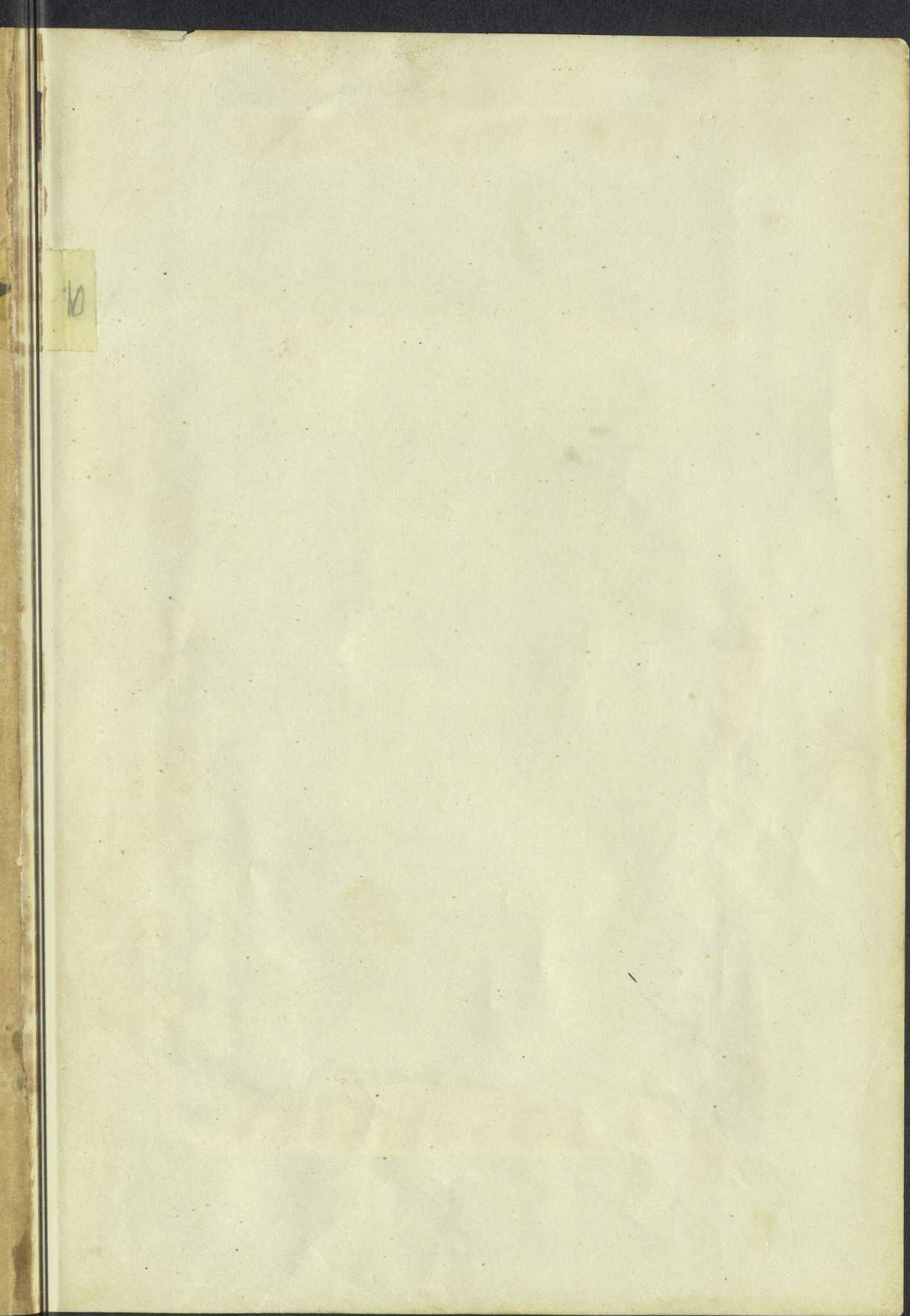


تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

1969

25 May 68

1 June 68



الدكتور
أحمد محمد الحوني

أستاذ مساعد بكلية دارالعلوم
جامعة القاهرة

892.78

Sh5985YhuA
C.1

وَطَنِيَّةٌ شَوْقِيَّةٌ

دراسة أدبية تاريخية مفتارة



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر

١٨ شارع كامل صدقي الفجالة

طبعة نهضة مصر بالبنمالة



الاهْدَاءُ
إِلَى الْأَعَزَّةِ الْأَحْرَارِ
مِنْ شَبَابِ مِصْرَ وَالْعُرُوبِ
مُمَثِّلِينَ فِي وَلَدِي أُيْسَامَةِ
أَهْدِي هَذَا الْكِتَابَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ — يجتاز العالم العربي اليوم آخر مرحلة من مراحل جهاده الدائب ، ونضاله السكادح الصابر ، في طريق الخلاص من الاحتلال وسيطرة الدخيل .

ومصر مُشْرِقة على أن تجني ثمرات نضالها ، بعدما أروت شجرة الحرية بدماء أبطالها ، منذ الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ إلى ثورتها الأخيرة في ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢ بقيادة الأحرار من جيشها ، ومؤازرة الأبرار من أبنائها .

ومن حق الثورة على الأدب أن يمدّها بما يذكّيها ، ويصل حاضرها بماضيها ، فإن الشجرة تستمد غذاءها من جذورها الضاربة في أعماق الثرى ، وتستمدّه أيضاً من أوراقها الخفّاقة في الضوء والهواء .

ومن حق الأمة أيضاً على الأدب أن يوحى إليها بالثقة في نفسها ، والاعتداد بجلال ماضيها ، والأسى مما كُرِّبها في غمرة الاحتلال والضعف ، واليقين بالمجد الموموق في مستقبلها المشرق .

وإذا فلزامٌ على الأدب أن ينهض بأداء هذه الحقوق ، كما نهض بها من قبل . فلطالما تجاوب مع النهضات والثورات ، فأثر فيها وتأثر بها . فهو يسبقها بالتمهيد لها ، ويصاحبها بتوجيهها وتأييدها ، ويعقبها بتخليدها والإشادة بها ورسم أهداف لما بعدها . وهو إذ يضرّم الثورات بناره ، ويهدي النهضات بنوره ، يأخذ منها كما يعطيها ، ويتقوى بها كما يقويها .

٢ — وقد سلك أدبنا الحديث في نهوضه بواجبه هذا مسالك شتى ، منها ما قاله في الوطنية أمير الشعراء أحمد شوقي .

لذلك تخيرت شعره الوطني موضوعاً للدراسة ، لأن فيه رِيّاً للعطاش إلى حرية مصر وعزتها ، وهتافاً بَعْلانها ومجدها في غابرها ، وأينناً من ضعفها وتخلفها في فترة من ماضيها ، ولأنه يمجّد الأبطال من رجالها ، ويُسبِّح نوراً في طريق بُنائتها والناهضين بها .

على أني كَلَفْتُ بشعره منذ الصبا ، حينما كنا نحفظُ بعض أناشيده الوطنية ونردها جماعات ، وحينما كنا نحفظ بعض قصائده ، ونلقينا فرادى . ولقد كنت أطرب لها ، وأُعجِبُ بها ، على حين أني كنت لا أفهم منها ما فهمت بعد ، وكنت لا أعرف عن شوقي شيئاً مما عرفت فيما بعد . ومرت السنوات فإذا بشوقي يودع الحياة ، وإذا بي أكتب أول بحث لي في دراسة النسيب في شعره عقب وفاته ببضعة أسابيع ، وأنا طالب أدرج في أولى خطوات التعليم العالي .

وجدت بعد ذلك ما شغلني عنه أو كاد ، من مطالب الحياة وشئون العمل . ثم اضطررتي تدريسي بالجامعة أن أفرغ لغير شوقي . لكن صلتني به لم تنقطع ، فقد كنت أحن إليه ، وآوى إلى جنته ، لآستجم من نصب ، أو لآستجيب لهتاف النفس ، أو لآنشر مقالا في ذكره .

فلما قضيت للدراسات الأخرى حقها عدت إلى صاحبي شوقي ، لأصل ما انقطع ، ولأمد في أسباب الاتصال ما وسع الجهد ، وأسعف الزمن .

٣ — وقد اقتضتني هذه الدراسة الأآقف عند النصوص أشرحها وأستنبط منها ، وإنما أنفَبَ عما وراءها ، لأعترف التاريخ ، وأتعرف البواعث والملايسات ، وأنظر في ضوءها إلى الشعر وإلى الشاعر .

ولهذا تحدثت عن العوامل الفعالة في وطنيته منذ فجر الوطنية في مصر إلى ضحاها ، ومهدت لكل رأى من آرائه ، أو دعوة من دعواته الوطنية بنبذة كاشفة من التاريخ . واقتضتني الدراسة أيضاً أن أدرس بعض النزعات في الشعر الشامي والعراقي ،

وأن أعقد موازنات بين شوقي وشعراء العصر الحديث في مصر ، وأن أكثر من الموازنة بينهما وبين حافظ إبراهيم بخاصة ، لأن حافظاً كان يسمى شاعر الوطنية ، فمن الإنصاف لشوقي أن نقايس بينهما ، ولا سيما في المواضع التي اتهم فيها شوقي بضعف الوطنية ، بل إن إنصاف شوقي يستدعي أن نوازن بينهما حتى في المواضع التي لا تهمة فيها لشوقي ولا تحامل عليه .

ولم يمنعني الإعجاب بشاعرية شوقي من أن أتحرى الحق في كل رأى ذهبت إليه ، لأنني أعتقد أن الحقيقة أخلد من الإعجاب وأولى بالاتباع ، وأعتقد أننا لا نكتب لأنفسنا بقدر ما نكتب للقراء من المعاصرين ومن الأجيال القادمة ، فعلينا أن نتخير لهم ، وأن نبسط أمامهم الأدب والتاريخ خالصين من آثار الهوى والميل ، ومن آثار التحامل وغمط الحقائق .

ولعل من مظاهر حرصي على الإنصاف أنني لم أتعجل الحكم لشوقي أو عليه في رأى من آرائه ، وإنما اعترفت ظروفه وبواعثه والجو العام الذي شعر فيه ، لأحكم له أو عليه حكم الذي عاش في جوه ورافقه في حياته .

ولم تمنعني رعاية الحب له من أن أنحس عليه باللائمة في المواضع التي يستحق فيها الملام كما لم تمنعني من نشر قصائده الثلاث المجهولة التي قالها في عراق حينما عاد من منفاه ، فقد اهتمت إليها منشورة باللواء غير منسوبة إلى شوقي ، لكنني عرفت من اللواء نفسه أنها لشوقي . وكان من الميسور أن أتغاضى عنها ؛ لأن شوقي لم ينشرها باسمه ، ثم لم يثبتها بديوانه في طبعته الأولى والثانية ، ولم ينشرها ورثته في الجزء الرابع الذي طبع منذ سنوات . وكان من المجاملة لشوقي ألا أبعث هذه القصائد ؛ لأنها لا تتسرق مع وطنيته التي أشيدُ بها ، والأحى دونها .

لكي آثرت أن أنشرها إكباراً للبحث العلمي على المجاملة والهوى والإعجاب ، ورأيت من الأمانة والإنصاف أن أثبت ما كتبه مصطفى كامل بجريدة اللواء ،

وما نشرته اللواء من كلمات آخر في التحامل على البطل العائد من منفاه ، حتى لا يكون
شوقي وحده حامل الوزر .

وكذلك فعلت في دراسة نزعة الإسلاميه العثمانية ، وبينت أنها لا تعارض
نزعة الوطنية .

وبعد :

فأرجو أن تكون هذه الدراسة الوطنية بشير خير لمصر في حاضرها الناهض
ومستقبلها المجيد .

أحمد محمد الحوفي

رحب ١٣٧٤
مارس ١٩٥٥

فهرس الكتاب

صفحة

ح

س

الإهداء

المقدمة

الباب الأول

العوامل الفعالة في وطنيته

الفصل الأول

فجر الوطنية

٢٤ - ١

تمهيد . محاولات للاستقلال : المحاولة الأولى . المحاولة الثانية . على بك الكبير وأعماله الاستقلالية . المحاولة الثالثة . قيمة هذه المحاولات (١ - ١٣) .

وطنية الشعب وقوته . مقاومته للاحتلال الفرنسي . اختياره الوالى . هزيمته للإنجليز (١٣ - ٢٤)

الفصل الثانى

ضمما الوطنية

٧٣ - ٢٥

البعوث العلمية . رفاة الطمطاوى (٢٥) التعليم (٣٢) الأفغانى (٣٣) الصحافة (٣٩) الثورة العرابية (٤٦) الدستور العثمانى (٥٦) مصطفى كامل والحزب الوطنى (٦٣) سعد زغلول والوفد المصرى (٦٧) ثورة سنة ١٩١٩ (٦٩) .

الفصل الثالث

بنايع وطنية

٨٥ - ٧٤

تأثره بالأحداث السابقة . مصريته (٧٤) حبه لمصر (٧٥) صلته بمصطفى كامل (٧٧) صلته بالخدوي عباس (٨١) صلته بسعد زغلول (٨٢) صلته بغيرهم (٨٤) إشعال النقي لوطنيته (٨٤) .

الباب الثاني

فنون وطنيته

تمهيد : شعر الوطنية قبل شوقي (٨٦)

الفصل الأول

٩٠ — ٩٧

حب مصر

مظاهر حبه لها . نفيه بسبب حبه لمصر . حنينه في المنفى (٩١) فرحته بالعودة (٩٤) جلجلته بحبه ونفخه (٩٥) موازنة (٩٦)

الفصل الثاني

٩٨ — ١٢٤

الفخر بمصر

تمهيد . الماضي المجيد : الحضارة (٩٩) الملوك الأقوياء (١٠٥) الأهرام (١٠٩) أبو الهول (١١١) قصر أنس الوجود (١١٢) آثار توت عنخ أمون (١١٤) الآثار عاملة (١١٦) غيرة على الآثار (١١٨) دفاع عن الفراعنة (١٢٠) موازنة (١٢٣)

الفصل الثالث

١٢٥ — ١٦٥

مناضلة الامم ليهول

تمهيد . بغضة شوقي للاحتلال . مظاهرها . تحقيره للراضين بالاحتلال (١٢٦ — ١٣١) مظالم الاحتلال (١٣١) تعويق التعليم (١٢٢) إضعاف الجيش (١٣٨) دنشواي (١٣٩) موازنة (١٤٥) رحيل كرومر (١٤٨) موازنة (١٥٢) حملة على احتلال البلاد العربية (١٥٥) زلة (١٥٩) موازنة (١٦١)

الفصل الرابع

١٦٦ — ١٩٧

المجاهد والابطال

إشادته بمبغضى الاحتلال (١٦٦) إشادته بثورة مصر سنة ١٩١٩ (١٦٨)

شعره في الثورة العراقية . حقائق عن الثورة لا بد منها (١٧٢) عرابي
بين أنصاره وخصومه (١٧٨) الجو الذي هجا فيه شوقي عرابي . مقالات
مصطفى كامل وجريدة اللواء (١٨٠) قصائد شوقي في عرابي (١٨٣)
خطاً شوقي (١٩٤) المجاهدون العرب (١٩٦)

الفصل الثامن

١٩٨ — ٢٠٧

الاستقلال التام

رأيه في مشروع ملبر (١٩٩) رأيه في تصريح ٢٨ فبراير
سنة ١٩٢٢ (٢٠٣) الجلاء أساس الاستقلال (٢٠٦) موازنة (٢٠٧)

الفصل السادس

٢٠٨ — ٢١٥

ومرة الواري

الروابط قديماً (٢٠٨) الروابط حديثاً (٢٠٩) شوقي والسودان (٢١٢)

الفصل السابع

٢١٦ — ٢٥١

الدستور

بيئته الدستورية (٢١٦) لماذا تعلق بالدستور؟ (٢٢٥) آراؤه
الدستورية . سخطه على حكم الفرد (٢٢٧) دعواته إلى الدستور (٢٣٠)
إشاداته بالدستور وبآثاره . بهجته بافتتاح أول برلمان مصري
(٢٣١ - ٢٤٢) حرصه على الدستور (٢٤٢) نصائح للنواب وللناخبين (٢٤٥)
موازنة (٢٤٨)

الفصل الثامن

٢٥٢ — ٢٦٠

استعراض العزائم

إشادة بحاضر مصر . بنك مصر (٢٥٢) مشروع القرش (٢٥٣)
أعمال شتى (٢٥٥) حفز عزائم الشباب (٢٥٦)

٢٦١ — ٢٧٧

العلم والتعليم

شغفه بالعلم (٢٦١) دعواته إلى العلم والتعليم . آثار العلم . جرائر
الجهل . الثقافة المستزيدة . تعليم الفتاة . الغاية من العلم (٢٦٢—٢٧٣) .
مكانة المعلمين (٢٧٣) الجامعة (٢٧٤) الفنون الجميلة (٢٧٦)

الفصل العاشر

٢٧٨ — ٢٨٥

الجهاد

تمهيد . آلام من ضعف مصر (٢٧٨) نخر بقوة مصر (٢٨٠)
دعوات إلى القوة الحربية (٢٨١)

الفصل الحادي عشر

٢٨٦ — ٢٩٣

الحزبية

شوقي شاعر قومي (٢٨٦) سخطه على الانقسام (٢٨٨)
فرحه بالوئام (٢٩١)

الفصل الثاني عشر

٢٩٤ — ٣٠٢

وعدة المسلمين والأقباط

علاقات الصفاء . دسائس الاستعمار . حرص مصطفى كامل ومحمد
فريد وسعد زغلول على الوحدة والوئام (٢٩٤—٢٩٦) دعوات شوقي
إلى الوحدة (٢٩٦) موازنات (٣٠٠)

البَابُ الثَّالِثُ

الإسلامية والوطنية

تمهيد (٣٠٣)

الفَصْلُ الأولُ

٣١٩ — ٣٠٤

الإسلامية التركية في عصره

في مصر: بواعثها. مظاهرها عند الساسة. مظاهرها عند الأدباء

(٣٠٤ — ٣١٤)

في الشام (٣١٤) في العراق (٣١٥) تعقيب على هذا النزوع (٣١٩)

الفَصْلُ الثاني

٣٣٣ — ٣٢٠

الإسلامية التركية في شعر شوقي

تمهيد. مبعث عاطفته الإسلامية التركية (٣٢٠) مظاهرها (٣٢٣)

هدفها (٣٢٨) خلافة أم أتراك؟ (٣٢٩) هل العاطفتان متعارضتان (٣٣١)

العرب اليوم (٢٣٣)

الباب الأول

العوامل الفعالة في وطنيته

الفصل الأول

فجر الوطنية

يصل كثير من المؤرخين بقطة مصر وطموحها إلى الاستقلال بالحملة الفرنسية ، متخذين من فورة الشعور الوطني في أعقاب الحملة ذريعة إلى الربط بين يةظة المصريين وحملة نابليون .

ولو أن هذا الرأي صحيح على إطلاقه ما كان على مصر غضاضة في أن توقفها حملة نابليون ، لأنها إذا نفخت في الهامدين فقاموا ، ونهت الغافلين الذين استناموا . وليس في هذا عجب ، لأن الأمم تتبادل منذ أقدم العصور التأثير والتأثر ، كما تنقايض السلع وعروض التجارة وألوان الثقافة ، ولأن الثورة الفرنسية كان لها صدى ودوى في أوروبا ، فأنثرت بها أمم شتى ، ولم تجد غضاضة في أن تعزو تأثرها إلى فرنسا . لكن الحق أن مصر لم تستفق من غفلتها أول مرة على قرع الجيش الفرنسي ، ولم تثر على الحكم المطلق مقتدية بثورة فرنسا فحسب في آخر القرن الثامن عشر .

فليس من الطبيعي أن تتطلب أمة مثلاً أعلى في حياتها تشبهاً بغيرها من الأمم إن لم تكن متبرمة بحالها ، بصيرة بما تعاني من عسف ومساءة ، توافة إلى أن تبدل بحالها خيراً منها ، جادة في مسعاتها لبلوغ أهدافها .

ولقد كانت مصر قبل الثورة الفرنسية ، وقبل غزوة نابليون ، تسخط حالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في كثير من الآونة ، وتشرب إلى حياة خير من هذه الحياة ، وتتخذ من الوسائل ما يكفل لها أن تحقق أملها .

وليس أدل على ذلك من أنها لم تصبر طويلا على حكم العثمانيين لها ، فسرعان ما استرد الأمراء المماليك نفوذهم ، وجعلوا من الولى العثمانى رمزاً للسيادة التركية ، لا حاكماً مُسلطاً يستأثر بالسلطان .

ذلك بأن مصر مُنيت بالفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) . إذ هجم عليها السلطان سليم الأول ، وقضى على سلطنة المماليك البرجية (الشراكسة) (١) فصارت مصر تابعة لتركيا إلى سنة ١٧٩٨ م .

وفى أول الحُكم العثمانى كانت السلطة العليا للولى العثمانى الملقب بالباشا ، وكان يساعده (الديوان) المكون من ضباط الفرق التركية ، وقلة من كبار المصريين . أما المماليك فقد اختصوا بحكم الأقاليم (المديرىات) .

لكن لم يمض إلا زمن قصير حتى تنازع الولاة ورؤساء الجنود ، فأخذ الأمراء المماليك يجدون فى الاستئثار بالحكم والنفوذ ، وساعدهم على ذلك ضعف الدولة العثمانية فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وكثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم ، ثم صار أكثر رؤساء الفرق وضباطها من المماليك ، وأصهر كثير من ضباط الجند والجند العثمانيين إلى المماليك ، فناصروهم بعد أن كانوا معادين لهم ومعدين لحربهم .

فضعف نفوذ الولاة العثمانيين ، وقوى نفوذ الأمراء المماليك ، واسترجعوا بمرور الزمن سلطة الحكم التى كانت لأسلافهم من المماليك البحرية والبرجية .

(١) المماليك نوعان : مماليك أصلهم من أواسط آسيا وشمالها ، استكثر منهم الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، وجعلهم خاصة جندة وحاشيته ، واتخذ منهم أمراء دولته ، وأسكنهم فى جزيرة الروضة بالمنيل ، وكان يسمى عند تفرعه بالبحر ، لعظم اتساعه ، فسموا بالمماليك البحرية . وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢ م . ومماليك أصلهم من بلاد الشركس والقوقاز ، وقد عهد إليهم المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية أن يحموا القلاع والحصون ، وأسكنهم فى الأبراج ، فسموا المماليك البرجية وهم الذين تولوا سلطنة مصر من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧ م .

وصار لرئيس المماليك الذي يختارونه زعيما لهم ويلقبونه (شيخ البلد) نفوذ لا يعارض ، وصارت مشيخة البلد بمثابة إمارة مصر . فلم يكن عجيباً أن عبث المماليك بالولاية ، وأن عزلوا من لم يرتضوه ^(١) ، وأن صار الديوان مؤلفاً من الأمراء المماليك وحدهم . قال الرحالة فانسليب Vansleb في وصفه لما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ م : إن كلية الأمراء (البكوات) نافذة في الديوان ، ولم يكن الباشا (الوالي) يخالف لهم أمراً ، وكانوا يستطيعون أن يعزلوه ^(٢) .

محاولات استقلالية

نبئت في مصر بذرة الوطنية قبل الحملة الفرنسية ، ممثلة في الأمراء المماليك تارة ، وممثلة في الشعب المصري تارة .

أما الأمراء المماليك فقد أشعروا الدولة العثمانية مرات أن مصر ليست ولاية عثمانية بالمعنى الذي تفهمه تركيا من تبعية ولاياتها إليها . بل لقد جعل أحدهم استقلال مصر حقيقة واقعة .

وبحسبنا هذه المحاولات الثلاث

المحاولات الأولى :

دبر الوالي التركي راغب باشا مكيدة للقضاء على المماليك ، ونجح تدبيره ، إذ قضى على كثير من زعمائهم غدرًا ، فنهض زعيما من الباقيين هما إبراهيم بك خيا (كئندا) وإسماعيل بك رضوان وتصديا لإحباط ما يريده الوالي من القضاء على ممالك مصر ، والخلاص من منازعتهم إياه ، والاطمئنان إلى زوال النفوذ المصري . فاحتل القلعة ومعهما الجنود ، وكان غرضهما أن يخلعا الوالي ، فأبى ، فأطلقوا عليه النار . فعلم أن الأمر جد ، فخنض ، واستسلم ، فسجنوه ، ثم سمحوا له بأن يغادر مصر سنة ١٧٤٨ م

(١) في سنة ١٧٦٣ م (١١٧٤ هـ) عزلوا الوالي أحمد باشا كامل المعروف بصبطان ، وولوا مكانه مصطفى باشا وكتبوا بذلك للدولة ، فقتلتهما معا ، وولت آخر (الجبرتي ٢٥٠/١) .

وفي سنة ١٧٦٨ م خلع على بك الكبير الوالي التركي وحاصره .

وفي سنة ١٧٧٣ م (١١٨٧ هـ) بعد مقتل على بك كان الوالي التركي مسلوب السلطة لأن الأمر

كان بيد محمد أبي الذهب والأمراء والأعيان (الجبرتي ٤١٣/١) .

(٢) تاريخ الحركة القومية ٢٠/١ الرافعي .

وصار إبراهيم ورضوان حاكمي مصر ، وصار الولاية الذين تبعهم الدولة بعد ذلك لهم من الولاية اسمها لا معناها . وتشجع المماليك بعد فوزهم على أن يخلعوا أي وال لا يرضون سياسته ^(١) .

المحاورة الثانية :

تتحقق فيما بذله على بك بلوط قبان ^(٢) ، وهو الذي سمى الكبير فيما بعد . كان مملوكا لإبراهيم كتنخدا القازدغلي ، ثم وصل إلى مشيخة البلد سنة ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) باختيار أكثر الأمراء ^(٣) .

وكان منذ بزغ نجمه طموحا إلى الاستئثار بالحكم ، طُلِعَ إلى الاستقلال بمصر . وقد سلك إلى تحقيق مطامعه عدة خطوات :
(١) عزل الوالي التركي ، إذ وافته الحالة على عزله ، ذلك بأن الحرب كانت قد نشبت بين روسيا وتركيا ، فاستمدد السلطان ثلثي عشر ألف مقاتل ، فلبى رغبة السلطان ، على ما يحقق حلمه هو ، فأخذ يجمع في المدد المطلوب أعداءه من كبار المماليك الذين تحرروا من سادتهم ، ولم ينضموا إلى ممالكه ، ومن السناجق الكُشَاف ، ومن ضباط الجيش التركي بمصر ، ومن يمتون إلى أصل تركي . وكانت هذه خطة بارعة يتخلص بها من خصومه ، ويحقق بها رغبة السلطان .

لكن أعداءه اتفقوا مع الوالي التركي على الوشاية به ، فكتبوا تقريراً إلى السلطان يدعون فيه أن على بك إنما يريد بالجيش الذي يجمعه أن يعُضِدَ روسيا ليستقل بمصر . فأرسل السلطان إلى الوالي محمد باشا أمراً بقتله وإرسال رأسه إلى الآستانة سنة ١٧٦٨ م (١١٨٢ هـ)

وعلم على بك بذلك من أصدقائه بالآستانة ، فاحتال حتى أخذ الفرمان قبل أن يصل إلى الباشا ، وجمع الديوان ، وبين للبكوات أن القتل ليس له وحده ، وإنما لهم

(١) تاريخ الجبرتي ٢٥١/١ وتاريخ مصر الحديث ٥٠/٢ — ٥٥ جرجي زيدان .

(٢) بلوط قبان : مهالك اللصوص ، لقب بذلك لأنه ساعد سيده إبراهيم بك في القضاء على منافسيه في مشيخة البلد ، متذرعاً بأنهم لصوص سرقوا أموال الحج ولم يوصلوها إلى مستحقها في الحجاز .

(٣) الجبرتي ٢٥٤/١ — ٢٥٨

جميعاً ، ثم قال لهم : « دافعوا إذاً عن حياتكم وحقوقكم ، واعلموا أن مصر ما برحت منذ القدم يحكمها المماليك الذين كانوا سلاطين أشداء ، تفاخر بهم الأرض السماء ، فأعيدوها إليهم . وهذه فرصة ، فلا تضيعوها ، فإنكم لن تعثروا على مثلها . هلموا نسعى إلى الاستقلال ، فإن فيه حياتنا وحريتنا » فتأثروا بقوله وعاهدوه على العمل والوفاء .

أما خصومه من المماليك فقد خشوه ، ولاذوا بالسكينة^(١) . فلم يكن أمامه إلا أن يخلع الوالى التركى ، فاستصدر أمراً من الديوان بعزله ، وحاصره بمجندة ، وأنزله من القلعة إلى منزل اعتقله فيه ، وتولى هو حكم مصر (قائمقامية مصر) عوضاً عن الباشا المخلوع فى أكتوبر سنة ١٧٦٨ م (١٧ رجب سنة ١١٨٢ هـ)^(٢) .

وأراد أن يتألف الدولة فأرسل هدايا إلى السلطان ورجاله . وظل الوالى محمد باشا محجوراً عليه حتى توفى سنة ١٧٦٩ م (أوائل سنة ١١٨٣ هـ)^(٣) .
(٢) أراد أن يمهّد لحكم الشام ، فشكا إلى السلطان من واليه عثمان بك ابن العظم ، وطلب عزله ، لأنه يؤوى بعض المصريين الذين نفاهم على بك ، ويعاونهم^(٤) .
(٣) جدّ فى التخلص من منافسيه بمصر بدهائه وقوته وصرامته^(٥) .

(٤) بعث حملة كبرى إلى الحجاز سنة ١٧٧٠ بقيادة محمد بك أنى الذهب ، فنجحت وصار شريف مكة موالياً له ، ونادى به على أنه (سلطان مصر وخاقان البحرين)^(٦) .
(٥) بعد أن اطمأن إلى موالاة الحجاز مد نظره إلى الشام ، وكان صديقه الشيخ

(١) الجبرتي ٣٠٨/١ وتاريخ مصر الحديث ٥٩/٢ جرجى زيدان .

(٢) الجبرتي ٣٠٨/١ (٣) الجبرتي ٣٣٤/١

(٤) الجبرتي ٣٠٨/١ — ٣٠٩

(٥) الجبرتي ٣٠٦/١ ، ٢٥١ ، ٣٨٠ وتاريخ مصر الحديث ٥٥/٢ — ٥٨ جرجى زيدان .

(٦) استنجد الشريف عبد الله بن حسين بعل بك أول مرة سنة ١٧٦٩ م ١١٨٣ هـ (الجبرتي ٣٥ / ٢) وكان على بك مشغولاً بالأمر فى مصر ، فأكرمه ووعد . واستنجد به ثانياً سنة ١٧٧٠ م فلباه . وكان يريد بذلك أن يوسع ملكه ، ويكسب مجداً وسمعة ، ويستولى على جدة ليضمن السيطرة على الطريق التجارى فى البحر الأحمر بين الهند وأوروبا . وقد انتصر الجيش المصرى ، وولى الشريف عبد الله إمارة مكة (الجبرتي ٣٥٠/١ ، ٣٨١)

ظاهر العمر ثائراً على الدولة العثمانية بفلسطين ، فاتفق معه على إجلاء العثمانيين عن سوريا وفلسطين . وسير حملة لتعاونيه بقيادة صديقه أبي الذهب سنة ١٧٧١ م ففتحها مدينة بعد أخرى ، حتى لقد شارفت جنود مصر أبواب حلب ^(١) ، ودانت له سوريا كلها .

وكان غرضه من هذه الحرب أن يوسع ملكه ، وأن يؤمن حدود مصر من الشرق حتى لا يهجم عليها العثمانيون المسيطرون على الشام . وقد تجلّى هذا الغرض منذ شكّا إلى الدولة من وإلى الشام عثمان بك ابن العظم . فلم تكن هذه الحرب تأثراً بإغراء ظاهر العمر الشائر بفلسطين ، ولا استجابة لإغراء روسيا .

لكن على بك لم يقنع بوصول الجيش المصرى إلى حلب ، وتمادت به نشوة النصر ، فبعث إلى محمد بك أبي الذهب يأمره بأن يواصل زحفه إلى أن يستولى على ما يشاء ، وأن يخترق الحدود ولا يثنيه عن الفتح عائق ، ويأمره بأن يولى الأمراء الذين معه على الولايات والبلاد التى فتحوها .

فعرض أبو الذهب عليهم ما أمر به على بك ، فتكاثفوا جميعاً بأن نفوسهم قد ضاقت ، وأنهم سئموا الحرب والغربة ، وتعاهدوا مع أبي الذهب على العودة إلى مصر ، مخالفين أمر على بك ، ومقسمين على أن يبقوا بعضهم لبعض .

والحق إن أبا الذهب انتفض على سيده لأسباب شتى ، فقد أغرته تركيا بالعفو وبولاية مصر ، وكان حاسداً لسيده حاقداً عليه ، وكان يخشى أن تنكل به تركيا إذا ما فرغت من حرب روسيا ، وقد أرسلت إليه تركيا من نقره من على بك ، لأنه يتبع قيصرة روسيا عدو المسلمين ، ويستعين بها على الخليفة المسلم .

وبعد عودتهم صمم على بك أن يعود أبو الذهب ليستأنف الفتح ، فصمم على الرفض ، وحينئذ انكشف الصراع .

فدبر على بك مكيدة سنة ٧٧١ م (١٤ من شوال سنة ١١٨٥ هـ) لقتل أبي الذهب ، لكنه نجا وفر إلى الصعيد ^(٢) ، فكان من الحتم أن يتحاربوا .

نشبت الحرب ، فهزم جيش على بك ، فخرج من مصر إلى الشام في سنة ١٧٧٢ م (٢٥ من المحرم سنة ١١٨٦ هـ) وفي اليوم التالي دخل محمد بك القاهرة ، وصار أميرها^(١) . لكن على بك لم يستسلم ، فشنخص إلى غزة ، وانضم إلى حليفه ظاهر العمر ، وحارب الأتراك وهزمهم في يولية سنة ١٧٧٢ م واستولى على فلسطين كلها .
وحينئذ مكر به أبو الذهب ، فأوعز إلى بعض ضباط الفرق أن يكتبوا إليه كتباً يشكون فيها من ظلم أبي الذهب ، ويطلبون منه أن يسرع بالعودة إلى مصر ليناصروه^(٢) ، فاعتز بوعودهم ، وزحف على مصر سنة ١٧٧٣ م (١١٨٧ هـ) بجنود من الشام ، ومعه أولاد صديقه ظاهر العمر .

فلعب أبو الذهب لعبته الثانية ، إذ أذاع في أهل القاهرة أن على بك يوالى الكفار ، وأنه ميال إلى المسيحية ، وأنذرهم بأنه سيقدم إلى مصر بجيش من الروس ، يحتلون بلادهم ، ويستحلون نساءهم وأموالهم^(٣) .

(١) الجبرتي ٣٧١/١ (٢) الجبرتي ٤١٨/٤ .

(٣) كانت تركيا قد اشتبكت في حرب مع روسيا . من سنة ١٧٦٨ إلى ١٧٧٤ م وألبت روسيا على تركيا ولايات البلقان ورومانيا وسواحل الايدرياتيك وغيرها . وكانت الأحوال مضطربة في بلاد العرب والعراق وسوريا وفلسطين ومصر ، وقوات تركيا مضعفة ، ونظمها الداخلية فاسدة ، في هذه الأثناء هاجمتها روسيا من كل ناحية براً وبحراً ، وانتصرت في مواقع شتى فرأى على بك أن ينهز هذه الفرصة ليستقل بمصر .

فطلب المساعدة الخارجية من ناحيتين .

(١) قبل أن يسير حملته لمساعدة صديقه ظاهر العمر عرض على جمهورية البندقية أن تساعد بقرية بحرية ، على أن يساعدها في امتلاك جزر الدولة العثمانية في البحر ، وأن يفسح المجال لتجارها فتزدهر كما كانت ، فردت شاكرة معذرة .

(ب) كتب إلى قائد الأسطول الروسى الكونت ألكسيس أرلوف يعرض رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا — وكانت في حرب مع الدولة العثمانية ، وكان الأسطول الروسى يقوم بعمل هام في البحر الأبيض المتوسط — على أن يمد الروس بالمعونة والمال ، وطلب منه مدافع ومهندسين ، فرد عليه أمير البحر . مشجعاً ومهتماً بحركته ، ووعد أنه يرسل طلبه حالا لعرضه على القيصر . ولكن لم يتم شيء (على بك الكبير ١٦٠ محمد رفعت رمضان) .

فلما فر إلى الشام حين حربه مع أبى الذهب أرسل مرة ثانية إلى أمير الأسطول الروسى يخبره بما حدث ويطلب منه مدداً من الجنود والمدافع والخبراء ، ليستعين بهم على العودة إلى مصر (على بك الكبير ١٨٥) .

ثم استجابه مرة ثالثة حين زاره قائدان من الأسطول الروسى وهو مريض بالمعسكر قرب عكا (على بك الكبير ١٨٧) . وبعد ذلك مده أمير الأسطول بضابطين وثلاثة مدافع وسبعة بنادق وخمسةائة =

ولما اطمأن إلى ثقتهم بما يقول ، وجزعهم على مستقبلهم دعاهم إلى حمل السلاح . ونهّد للقاء على بك ، فالتقيا عند الصالحية ، فانصرف على بك أولاً ثم انهزم ، وجرح ونقل أسيراً إلى أبي الذهب ، فقبل يده وأكرمه ، ونقله إلى منزله بالقاهرة ، واستدعى الأطباء لعلاجه . لكنه توفى في ٨ مايو سنة ١٧٧٣ م (١٥ صفر سنة ١١٨٧ هـ)

هل استقل بمصر ؟

(١) لقد كانت عزيمة على بك منذ رأى أن يعزل الوالى التركى متجهة إلى الاستقلال بمصر ، وقد أسلفت تصريحه للبلأ المجتمعين من الأمراء ، وحسبنا منه قوله : « واعلموا أن مصر ما رحت منذ القدم يحكمها المماليك الذين كانوا سلاطين أشداء .. فأعيدوها إليهم ، وهذه فرصة فلا تضيعوها .. هلم إذا نسعى إلى الاستقلال فإن فيه حياتنا وحررتنا ^(١) » .

والحق أن أمله في الاستقلال لم يكن حليماً طارئاً ، بل كان أملاً يجيش في نفسه ويكتمل ، يدل على ذلك قول الجبرتى : « كان قوى المراس ، شديد الشكيمة ، عظيم الهمة ، لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى والرياسة الكبرى وكان يطالع كتب الأخبار والتواريخ وسير الملوك المصرية ، ويقول لبعض خاصته إن ملوك مصر كانوا مثلنا ، ممالك الأكراد مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم وكذلك ملوك الحراكسة ، وهم ممالك بنى قلاوون إلى آخرهم كانوا كذلك . وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها . وهو ينوه ويشير بمثل هذا القول إلى ما فى ضميره وسريته ^(٢) » .

فهو إذاً يطمح إلى أن تستقل مصر كما كانت مستقلة فى عهد أسلافه ، ويطمح إلى

== طلبة وثلاث جرارات للدفاع ، ووعدته أن النجدة ستصل سريعاً ، واشترك معه الضابطان فى حصار يافا (على بك الكبير ١٨٠) ثم تلقى ثلاثة مدافع أخرى حارب بها فى الشام . ثم استنجد به مرة رابعة .

وساهمت قطع من الأسطول فى ضرب يافا من البحر ، وتمكن على بك وظاهر العمر من دخولها

سنة ١٧٧٣

وبعد ذلك تعجل العودة إلى مصر قبل أن يصله المدد الموعود .

(١) الجبرتى ٣٠٨/١

(٢) الجبرتى ٣٨٠/١

أن تكون مصر دولة كبرى تضم ولايات عدة ، كما كانت في عهد الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون .

(٢) ثم جاءت أعماله التي تحدثنا عنها تحقيقاً لهذا العزم . فقد عزل والى التركى ولم تستطع تركيا أن ترسل في عهده والياً آخر (١) .

واستقل بشئون مصر استقلالاً تاماً من سنة ١٧٦٩ إلى ١٧٧٣ م .

ولم يرسل الجزية السنوية إلى تركيا (٢) .

وفتح الحجاز بغير أن يستأذن السلطان العثمانى ، بل حارب العثمانيين أنفسهم بالشام مرتين .

وسعى إلى أن يعقد معاهدة تحالف مع جمهورية البندقية سنة ١٧٧٠ م ؛ وسعى أربع مرات ليعقد معاهدة مع روسيا .

وهذه كلها مظاهر للاستقلال التام ، أو هي على أقل تقدير كما يقول المؤرخ شارل روز Charles-Rouz تكافئ الاستقلال التام ، نتيجة للتطور الذى بدأ منذ عشرات السنين ، إذ شرع الأمراء المماليك يغتصبون شئون الحكيم من الولاة ، والآن صار الاستقلال حقيقة واقعة (٣) .

لكنه لم يعلن هذا الاستقلال فلماذا ؟

لقد يكون السبب فى ذلك أنه اكتفى بالاستقلال العملى ، فلم يجد حاجة إلى إعلانه ، لأن أعماله قد أعلنت هذا الاستقلال وأيدته . وقد يكون السبب أنه كان يعتزم أن يعلن هذا الاستقلال حينما يقضى على العثمانيين بالشام ، ويطمئن إلى أن حدود مصر الشرقية بمأمن من هجومهم .

وربما كان مبعث ذلك أنه شغل بحروبه عن إعلان هذا الاستقلال ، وكان ينوى أن يعلنه حينما تهدأ سيوفه فى الأغماد .

وما الذى يتعجله إلى إعلان الاستقلال ، وهو يجد الاستقلال حقيقة واقعة لا ريب فيها ؟ على أن الذى نستشفه أنه كان يريد الاستقلال التام ، لكن على ألا تنسلخ مصر من نطاق الخلافة الإسلامية . وهذا لا يضيرها ولا ينتقص من حقوقها ،

(١) الحربى ٣٨١/١ (٢) الحربى ٢١٨/٣

(٣) على بك السكبير . محمد رفعت رمضان .

لأن الخلافة الإسلامية رابطة دينية روحية ، ووشيجة قوية بين الدول والجماعات الإسلامية .

ولعل هذه الفكرة تتضح في مظهرين :

الأول : أنه سك بعض نقود في سنة ١٧٦٩ و ١٧٧١ م ، وكان على وجه منها اسم السلطان مصطفى الثالث ، وعلى الوجه الآخر أنها ضربت في مصر بإذن على بك^(١) على أن الجبرتي ذكر أنه سك نقوداً باسمه في سنة ١٧٦٩^(٢) .

الثاني : أنه لم يلقب نفسه بسلطان مصر ، وإنما كان يلقب نفسه في الأوراق الرسمية بقاتمقام مصر . والمؤرخون جميعاً يسمونه على بك ، أو على بك الكبير ، أو الأمير على المصرى ، أو على بلوط قبان ، أو الجن^(٣) . وقد عاقب خطيب المسجد الذى دعا له ، وقرن اسمه باسم السلطان العثمانى ، وأنكر على الخطيب أن يلقبه بالسلطان^(٤) .

لمحة عن مسرحية (على بك الكبير) لسوقى

اتخذ سوقى الصراع الأخير بين على بك ومحمد أبى الذهب موضوعاً لمسرحية (على بك الكبير) . فصوره بطلاً تواقفاً إلى الاستقلال :

وأرجع حرّاً تحتى النيل كلّه ومامن بنى عثمان فوقى وال^(٥)

وحاول أن يبرئه من الاستعانة بالروسيا ، يريد بذلك أن يبرر موقفه ، وأن يضيف عليه البطولة غير مشوبة بلوم . ولا تثير على سوقى فى ذلك ، لأنه يقصد إلى غرض وطنى سام ، فمن حقه أن يلون التاريخ بفنه ، ولن يضار التاريخ بهذا التلوين ، لأن المسرحية ليست مصدراً وثيقاً من مصادر التاريخ .

تخيل سوقى أن على بك ناجى نفسه بعد ما عرض عليه القائد الروسى أن ينقله إلى مصر فى أسطوله ، ويساعده على استعادة الحكم ، فقال :

رباه . ماذا يقول المسلمون غداً إن خنت قومى وأعمامى وأخوالى
يقال فى مشرق الدنيا ومغربها فعلتُ فعلة نذل وابن أنذال

(٢) الجبرتي ٢١٨/٣

(١) على بك الكبير ٦٢ محمد رفعت رمضان

(٣) الجبرتي ٣٣٦/١

(٥) على بك الكبير ٣٩

ثم يقول للقائد :

أَجَلْ سَمَوْتُ لِمَلِكِ النِّبْلِ أَطْلَبُهُ بِهَمَّتِي وَبِإِقْدَامِي وَأَفْعُ إِلَى
لَا أَسْتَعِينُ عَلَى الْآهْلِ الْغَرِيبِ وَلَا أَرْمِي الذَّنَابَ عَلَى غَانِي وَأَشْبَالِي
بُعْدًا وَنَحْقًا لِعَلِيَاءِ الْأُمُورِ إِذَا لَمْ أَلْتَسْهَأْ بِخُلُقٍ فَاضِلٍ عَالٍ^(١)

المحاولة الثالثة

لما مات علي بك عادت مصر ولاية عثمانية ، وخلصت مشيختها لأبي الذهب^(٢) .
لكن أبا الذهب كان هو الحاكم الفعلي لمصر ، لأنه بعد انتصاره على مولاه حبس
الوالي التركي بالقلعة ، وانفرد بالحكم . يقول الجبرتي : انتهت سنة ١١٨٨ هـ
(م ١٧٧٣) ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ، ليس له من الولاية إلا الاسم ،
والعلامة على الأوراق ، والتصرف كله للأمير الكبير محمد بك أبي الذهب^(٣) .

ثم ظاهر أبو الذهب تركيا في القضاء على الشيخ ظاهر العمر ، طماعية في أن ترك
له مصر ليستقل بها .

ولما أخضع مدن الشام واحدة إثر واحدة أرسل إلى إسلامبول يطلب إمارة مصر ،
وبعث الهدايا والأموال مع رسوله ، فأجابه الدولة إلى ما طلب ، ووافاه النبأ يوم
دخوله عكا ، فاشتد به الفرح إلى أن حم ، ومات بعد ثلاثة أيام^(٤) في ٨ يونية سنة
١٧٧٥ م (٨ ربيع الآخر سنة ١١٨٩ هـ) .

وبعد ذلك خسرت مصر ما كانت قد كسبته ، إذ تنازع إبراهيم بك ومراد بك
وإسماعيل بك ، وصار إبراهيم شيخاً للبلد ، إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م

فيمر هذه المحاولات

لست أستبعد أن يصبَّ إلى هذه المحاولات الاستقلالية تساؤل أو اعتراض ،
لأن كثيراً من الدارسين قد أخذوا أنفسهم بالتدقيق في كل شيء ، وباستكناه كل فكرة ،

(١) علي بك الكبير ٨٣ - ٨٨

(٢) الجبرتي ١/ ٤١٨ (٣) الجبرتي ١/ ٣٧٧

(٤) الجبرتي ١/ ٤١٨ - ٤١٩

ولأننا قد بلغنا من الشعور القومي مبلغاً يضطرنا إلى التدقيق والاستكناه ، فصار من واجبنا ألا نأخذ الأمور بظواهرها البادية ، لأن الظواهر كثيراً ما تلوى عن الحق ، وتصرف عن الصواب .

(١) فقد يقال إن إبراهيم كئخدا وإسماعيل رضوان وعلى بك الكبير ومحمد أبى الذهب ليسوا مصريين ، وإنما هم مماليك طامعون فى الاستقلال بمصر . ونحن لا ننكر أن هؤلاء أصلهم من المماليك ، لكننا لا ننسى أنهم تمصروا ، وعاشوا فى مصر أحقاباً طويلاً أنستهم أوطانهم الأولى التى استجلبوا منها منذ عدة قرون ، فهم لا يعرفون لهم وطناً غير مصر .

وجدير بنا ألا ننسى حقيقة أخرى ، أن تركيا شغلت مدة من الزمن بحروب مع جيرانها ، فلم تمد حاميتها فى مصر بجنود جدد ، فتمصر ضباطها وجنودها المقيمون بمصر ، واندمجوا بالشعب ، ولم تعد تربطهم بأوطانهم الأولى روابط .

ثم إن بعضهم كانوا يتوفون ويتركون الجيش فيخلقهم فى مكانهم مصريون . وإذا فيحق لنا أن نعتبر الجيش التركى بمصر جيشاً مصرياً يجمعه والمماليك غرض واحد ، ويأتى بأراء العلماء والزعماء من المصريين .

ولقد استقلت مصر فى عهد الإخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، ولم يكن ملوك هذه الدول المستقلة من المصريين .

ثم استقلت بعد ذلك منذ سنة ١٩٢٢ م ولم يقدح فى استقلالها أن أسرة محمد على تركية الأصل .

وإننا لنجد فى تاريخ الأمم أشباها لهذه الحال .

فبريطانيا ارتقى عرشها جورج الثالث سنة ١٧٦٠ م وهو جرمانى ؛ بجهل اللغة الإنجليزية . وإسبانيا حكمها ملوك من أسرة بربون الفرنسية ، وحكموا أيضاً صقلية وسردينيا .

والروسيا حكمتها كاترين الألمانية

(٢) وقد يقال إن هؤلاء أصحاب مطامع شخصية ، فهم يريدون الاستئثار بالنفوذ والحكم ، على أن مصر غنيمة لهم .

ولسنا نستطيع أن ندفع عنهم هذه التهمة ، لأنها تهمة يجوز أن تلمصق بمن يتصدى لزعامة الشعب ، والدأب على نفعه وخيره .

فكل زعيم معرض لأن يتهم زوراً بأنه طامح أو طامع ، وكل حاكم يجاهد لنيل الاستقلال ، أو لتوسيع النفوذ ، وبسط الرقعة ، وكسب مجال حيوى لشعبه ، عرضة لأن يقال عنه بالباطل إنه يسعى لكسب شخصى .

والذى نطمئن إليه أن هؤلاء المماليك كانوا يريدون بسعيهم إلى الاستقلال أن يكفلوا لأنفسهم أبهة الملك وعظم السلطان ، وأن يحققوا لمصر استقلالاً يطلقها من قيود التبعية لتركيا ، فيعيش المصريون فى بلادهم أحراراً من التبعية للأتراك .

وجدير بنا ألا نطبق آراءنا ومثلنا فى هذا الوقت الذى نعيش فيه على أولئك الذين سبقونا بنحو مائتى عام . فقد كان الملوك والأمراء فى ذلك الوقت هم محور السياسة وقطب الشؤون العامة فى كل بلاد العالم .

ولم تكن للشعوب فى ذلك الزمان قيمتها التى تستمتع بها الآن . على أن على بك الكبير لم يغفل الشعب ، ولم يهضم حقاً من حقوقه ، وهذا هو الذى حمل زوجته — التى تزوجها مراد بك فيما بعد — على أن تقول للمماليك الذين كانوا يزورونها : إياكم واغتصاب حقوق الشعب ، فإن زوجى كان دائماً يرعاها حق رعايتها . وهى صادقة فيما قالت ، لأنه دأب على الإصلاح ، وإقرار العدالة ، وكفالة الأمن ، وتشجيع العلوم إلى حد ما ، وحبس كثيراً من جهوده على خدمة الشعب فى وقت كانت فيه مرافق الشعب مهمة ، حتى لقد دهش الجميع من الحضارة التى بلغها ذلك الشعب فى مدة قصيرة ^(١) .

وطنية الشعب

لقد يقال إن الشعب المصرى لم يكن يتطلع إلى هذا الاستقلال ، لأنه لم يكن يفهمه . وعجيب أن يوصف الشعب بأنه كان يعيش تابعا لتركيا ، ولا يفهم أن التبعية غير الاستقلال ، بل لا يفهم أنها تنافى الاستقلال .

(١) على بك الكبير ٢٠٩ محمد رفعت رمضان .

الحق أن الشعب كان يعلم أن التبعية صلة المسود بالسيد ، وأنه لم يكن راضيا عن سيادة تركيا ، إلا لأن صلتها بمصر صلة اسمية في وصفها العام ، وأن تركيا تمثل الخلافة الإسلامية ، وينضوى تحت لوائها كثير من الدول العربية ، فالإسلامية عوض بعض العوض عن الوطنية .

وسنجد هذه الفكرة حية قوية في مصر إلى أواخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين .

وكثيرا ما كان الشعب يشايح الأمراء المماليك ، ويرى في انتصارهم انتصارا له . اذلك كان علماء الأزهر — وهم قادة الأمة في ذلك الوقت — أعوانا للأمراء الذين يستحقون معونتهم وتأييدهم ، فهم يشيرون عليهم ، وينشرون الدعاوة لهم ، ويجمعون لهم المال ، ويساعدونهم على تنفيذ الخطط .

(١) فقد ثار الشعب على الظلم قبل أن يطمح على بك إلى الاستقلال بنحو قرن من الزمان ، وكان لزعمائه رأى مسموع يطيعه الأمراء .

ففي سنة ١٦٩٤ م (رجب سنة ١١٠٦ هـ) ثار الشعب والتجار والأعيان وتوجهوا إلى الأمراء يشكون من يامسف اليهودى — كان ملتزما بدار الضرب في عهد الوالى المعزول على باشا — لأنه أدلى في تركيا بمعلومات كاذبة عن مقدرة المصريين المالية ، والتزم بتحصيل مال زائد على المعتاد ، فلما عاد إلى مصر تلقاه اليهود بالترحاب ، ووافقه الوالى على تنفيذ الأوامر التى جاء بها ، وأعلن ذلك فى شوارع القاهرة . فلما شكا الشعب إلى الأمراء ركبواهم والصناجق إلى القلعة ، وفاوضوا الوالى فأجابهم بما لا يرضيهم ، فقاموا عليه قومة واحدة ، وسألوه أن يسلمهم اليهودى ، فامتنع . فأغلظوا عليه وصمموا ، فأمرهم بوضعه فى العرقانة (السجن) حتى ينظروا فى أمره ، ففعلوا . لكن الجنود مضوا إلى السجن وأخرجوه وقتلوه ، وجمع الشعب حطبها أحرقه فى ناره . وقص الشيخ حسن البدرى هذا الحادث فى شعر^(١) .

وبعد ذلك بعشرات السنوات ، وقبل مقدم الحملة الفرنسية عارض زعيم مصرى رغبة الأمراء فى إصرار وتوحد ، فلم يستطيعوا خلافة . ذلك بأنه فى سنة ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) اتفق الأمراء على تجريد حملة إلى المنية لقتال على بك وصالح بك وأعوانهما ، فصاح

الشيخ الحفناوى فى مجلسهم برفض ما يعتزموه ، وأخفهم بكلامه ، وقال : « خربت
الأقاليم والبلاد . فى أى شىء هذا الحال ؟ وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد على
على بك ؟ هذا الرجل أخوكم . أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته ، واصطلحتم
وأرحتم أنفسكم والناس ؟ » وحلف أنه لن يسافر أحد فى حملة مطلقا ، وإن فعلوا
ذلك لا يحصل لهم خير أبدا . فقالوا : إنه هو الذى يحرك الشر ، ويريد الانفراد بنفسه
وماليكه ، وإن لم نذهب إليه أتى هو إلينا ، وفعل مراده فينا . فقال لهم الشيخ : أنا
أرسل إليه كتابا ، فلا تتحركوا بشىء حتى يأتى رده . فلم يسعهم إلا الامتثال ، فكتب
له كتابا ونحى فيه وزجره ونصحه ووعظه .

لكن الشيخ لم يلبث بعد هذا المجلس إلا أياما ، ومريض ورعى بالدم وتوفى .
وقيل إنهم سموه ليتمكنوا من أغراضهم ^(١) .
كان الشيخ محمد بن سالم الحفناوى أو الحنفى قطب الرحى فى مصر ، لا يتم أمر
من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه ^(٢) .

ولما ناضل على بك تركيا فرح الشعب بنضاله ، وحين انتصر بالشام سنة ١٧٧١ م
(١١٨٥ هـ) . أقام الناس الزينات والأفراح ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وأولموا
الولائم ، وصدحت الموسيقى ، وأطلقت المدافع ، وعملوا شنكا وحراقات ^(٣) .
وقد احتفلوا مثل هذا الاحتفال فى سنة ١٧٧٥ م (١١٨٩ هـ) حين جاءتهم
البشائر بانتصار أبى الذهب على ظاهر العمر ، وفتح يافا ثم عكا ، وسقوط بلاد
الشام فى يده ^(٤) .

(٣) لم يكن عجيبا إذا أن يرهب الأمراء قوة الشعب ، ونفوذ زعمائه كما رأينا ،
بل لقد كانوا يتجاوزون هذه الرهبة أحيانا إلى الزلنى والتصاغر . ففى سنة ١٧٨٥ م
(١٢٠٠ هـ) وصل الوالى حسن باشا وأرسل لهما نزل بالشعر عدة فرمانات إلى مشايخ
البلاد يدعى فيها أن حملة تركية قادمة إلى مصر لعقاب مراد بك وإبراهيم بك ،

(٢) الجبرتي ١/٣٨٩ - ٤٠٤

(١) الجبرتي ١/٢٥٧

(٣) تاريخ الجبرتي ١/٣٦٥

(٤) الجبرتي ١/٤١٣

ولإصلاح ما فسد من شئون مصر . فلما عاد الأمراء اتفقوا على حربه ، واستعدوا للقاءه وعزله . وخشى إبراهيم أن يشور عليهم الشعب ، فتزلف إلى زعمائه ، وذهب إلى الشيخ البكرى والشيخ العروسى والشيخ الدردير « وبكى وتضاغر في نفسه جدا ، وأوصاهم بأن يحافظوا على الأمن ، ويكفوا الرعيعة عن الثورة في مثل هذا الوقت ، لأنه كان يخاف ذلك جدا ، وخصوصا لما أشيع أمر الفرمانات التي أرسلها الباشا للمشايع ، وتسامع بها الناس » (١) .

أرى أن في هذه الأمثلة الكفافية ، للدلالة على أن الشعب المصرى لم يكن خائفا خاضعا سلب الإرادة ، وللدلالة على أنه كان قويا ذا تأثير في السياسة العامة ، يرهبه الى تارة ، والأمراء تارة ، ويتزلف إليه الطامع في السيطرة ، لأنه القوة القوية في مصر .

وقد كان ذلك كله قبل أن تخطأ أقدام الفرنسيين أرض الوطن .

(٤) وسنجد الشعب يهب بعد قليل في وجه الجيش الفرنسى ليصدّه عن مصر ، ثم يشور عليه ليخرجه من مصر . وهذا لا يحدث من شعب مستكين لا يفرق بين الاستقلال والاحتلال . فلو أن المصريين كانوا في غفلة عميقة عن حقوقهم وكرامتهم ، ولم يتنبهوا إلا حينما دوت في أسماعهم مدافع نابليون ، لكان من الطبيعى ألا تظهر آثار يقظتهم إلا بعد الحملة الفرنسية . لكن الذى حدث أنهم كانوا أيقاظا إلى وطنيتهم ، حراصا على استقلال بلادهم وحمايتها من الغزو الأجنبى قبل أن تخطأ أقدام الفرنسيين مصر ، وحين دخل الفرنسيون مصر ، وفي الزمن القصير الذى قضوه بها .

ذلك بأن المصريين ناصبوا نابليون — على قوته ودوى سمعته — العداء منذ توغل في بلادهم ، بل قبل أن يجوس خلالها .

فقد ثار أهل الإسكندرية لما رأوا أسطول نلسون — قبيل مقدم أسطول نابليون — ظانين أنه الأسطول الفرنسى القادم لاحتلال مصر ، لأنهم كانوا يعلمون ذلك منذ احتل نابليون مالطة ، واستعدوا للمقاومة ، وحصنوا القلاع ، وجيشوا جيشا ، وحملوا الأسلحة .

(١) الحبلى ١١١/٢

ولما رسا الأسطول الفرنسى بالشغرى هب السكان إلى سلاحهم ، ونصبوا مدافعهم على أسوار المدينة ، وناولوا بعض فرسانهم قوات فرنسا ، ثم أطلقوا مدافعهم وبنادقهم ، وكافوا القوات الفرنسية فى شوارع المدينة وأزقتها ، وقاوم السيد محمد كريم مقاومة الأبطال إلى أن يئس من النصر ، فسلم ، وتلقاه نابليون بحفاوة وتقدير ، وأبقاه حاكماً على الإسكندرية ^(١) .

وفى هذه المقاومة كاد يقتل نابليون ، وأصيب الجنرال كليبر فى جبهته بطلق نارى ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور ، وجرح باسكال جرحاً غائراً فى ذراعه ، وقتل اللواء ماس وخمسة من الضباط .

يقول الجنرال منو : « لقد دافع الأعداء — يقصد الأهلىين — عن المدينة بشجاعة فائقة وثبات عظيم » ثم هزم سكان البحيرة فرقة فرنسية يقودها الجنرال ديموى كانت تعتزم الطواف بالإقليم للاستطلاع ، وأرغموها على الارتداد إلى الإسكندرية .

ونهد مراد بك للقاء نابليون عند شبراخيت ، وأبلى جنوده بلاء مجيداً مشرفاً ، ثم هزموا : لجهلهم بفنون القتال الحديثة . قال أحد ضباط الحملة : لو كان جيش المماليك مدرباً على فنون القتال الحديث ، ويقوده ضباط متعلمون لاستطاعوا أن يهزموا الجيش الفرنسى ، أو لأجبروه على التقهقر إلى الإسكندرية ^(٢) .

وقد جمع المماليك قواهم للقاء نابليون عند إمبابة ، وجاهدوا ما استطاعوا لصدّه . وكان من الفدائين الذين باعوا أنفسهم فى الدفاع عن القاهرة الأمير أيوب بك الدفتردار . كان قبيل المعركة يقول : أنا بعت نفسى فى سبيل الله . فلما التقى الجمعان توجساً ولبس سلاحه وصلى ركعتين وركب فى مماليكه وقال لهم : إني نويت الجهاد فى سبيل الله . واقتحم صفوف الفرنسيين وألقى بنفسه فى نارهم واستشهد . وفى ذلك يقول الشيخ خليل المنير فى قصيدة يرثيه فيها ، وينوه ببطولته ، ويندد بفرار إبراهيم بك وغرقه فى النيل بعد هزيمته :

أمّ الجهاد شهير السيف مجتهداً فى كفة الحق إعلاء على الفرق

(١) الجبرتي ٢/٢

(٢) تاريخ الحركة القومية ٢٠٢١/١ الرافعى .

الله أكبر والتوحيد يَصَحِّبها نداؤه في عَجَاجٍ مَظْلَمٍ غَسِيقٍ
لقد تولى على عرض الصفوف إلى أن ضمه القلب فاستولى على الحَلَقِ
ما زال ينقض حتى انقضَّ كوكبه وطار منه بهاء النور للأفق
مضى شهيداً وحيداً طاهراً سَمِحاً مَغْسِلاً بدم الهيجه لا غرق^(١)
على أن المصريين قاوموا ببسالة في مواطن عدة، وانتصروا، ثم انهزموا (بين
الخانكة وأبي زعبل والصالحية وبليبس). وفي مجال المقاومة تبرز ثورة القاهرة الأولى
في ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨. لقد كانت ثورة شعبية قوية يتزعمها علماء الشعب وكبرأؤه،
ويشترك فيها سكان القاهرة وبعض المدن القريبة منها، لكن الفرنسيين خشوا عواقبها
فقمعوها بوحشية وغلظة. بيد أن لهيب الحماسة التي أُخمدت إلى حين طار إلى كثير
من الأقاليم في الوجه البحري والوجه القبلي فثارت. ثم هاجت أقاليم شتى بعد ذلك
سنة ١٧٩٩ م كالشرقية والبحيرة.

ولم تستكن القاهرة، فثارت ثورتها الثانية في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ م أيام كبير،
وأدهش المصريون الفرنسيين ببسالتهم وأعمالهم، على ما يعانون من نقص السلاح،
وجهد الفرنسيون في إخماد هذه الثورة كما أخذوا سابقتها^(٢).
وإذا كان نابليون قد جهد في استمالة المصريين إليه، تارة بادعائه الإسلام،
وطوراً بدعواه أنه جاء ليخلصهم من عسف الحكم، وحيناً بإنشائه ديوان القاهرة
ودواوين الأقاليم والديوان العام سنة ١٧٩٨ ليشارك زعماءهم في الحكم والإصلاح،
فإن ذلك كله لم يلهمهم عن معرفة الاحتلال، ولم يخفف من بغضتهم للفتح المستعمر.
يقول المسيو مارتن martin أحد مهندسي الحملة وعضو لجنة العلوم بها: «لقد
احتل الفرنسيون مصر، ولكن لم يستقر لهم قرار في البلاد، وكان مركزهم فيها
مزعزعا، ومحفوفا بالمتاعب، ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا
اتبعوها، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة».

(١) الجبرتي ٦٦/٢

(٢) الجبرتي ٣/٢ - ٢٥، ٩١

ويقول : « إن دعاة الفتنة — يقصد الوطنيين — ما فتئوا يشعلون نار الثورة في مختلف أنحاء القطر المصرى ، وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذى أعلنته فرنسا ، وهو أن مقاومة الاضطهاد أقدس واجبات الشعب » .

ويقول المسيو ريبو Reybaud : « لم يثق المصريون بحكامهم الفرنسيين ، ولم تغير المنشورات والكلمات المعسولة نفسية الشعب ، لذلك كان الوجه البحرى — على أنه انهزم — غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مربها الجيش الفرنسى ، ورفعت علم الثورة » (١) .

نعم ، فإن المصريين الذين غلبوا في كفاح نابليون لم تزايد عزيمتهم ، ولم ينسوا أن الفرنسيين أعداء لهم معتدون على وطنهم ، فقد ظل المتصلون منهم بنابليون — لأنهم أعضاء في الديوان الذى أنشأه للمشاركة في شئون الحكم — حانقين على فرنسا ، معتصمين بقوميتهم . يقول الجبرتي : إن نابليون دعا أعضاء الديوان في ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ (أول سبتمبر ١٧٩٨ م) إلى داره ، وأراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ، ووضع بيده الطيلسان على كتفي الشيخ الشرفاوى رئيس الديوان تكريماً له وتعظيماً ، فرمى به الأرض مُخنقاً غاضباً ، واستقال من الديوان ، ولم يقبل عضو من المصريين أن يلبس الطيلسان .

إذاً فلم تكن الحملة الفرنسية وحدها هى التى استفاد منها المصريون على دويها فتطلعوا إلى الاستقلال ، وعرفوا معنى القومية والوطنية .

وإنما كانت الحملة الفرنسية ريجاً هبت على النار المتقدة فأذكتها وأورتها .

(٥) ثم تجلت قوة الشعب في صورة رائعة إذ اختار زعماءه محمد على واليا

عليهم .

ذلك بأنه منذ سبتمبر سنة ١٨٠١ م ، أخذت تصطرع في مصر ثلاث قوى ، طموحا إلى الاستئثار بالحكم : الأتراك ، ولهم في مصر جيش كبير — قدم في آخر عهد الفرنسيين بمصر — والإنجليز ، ولهم جيش يحتل مواقع عدة كالإسكندرية

(١) تاريخ الحركة القومية ١٦٠/١ الرافعى .

ودمهور ورشيد ، والمماليك حكام مصر قبل الفتح العثماني ، وأمرأؤها في عهده الطويل ، وأصحاب النفوذ الحقيقي .

وفي الوقت الذي كانت تضطرع فيه هذه القوى كانت القوة الشعبية الغالبة تستجمع وتتخفف ، عازمة على ألا تدع مصر لدخيل .

في هذه الفترة نجد الشعب يشتبك مرات كثيرة في معارك مع جنود الدولة العثمانية ، وجنود بعض الأمراء من المماليك^(١) . ونجده يثور على مظالم المماليك وكثرة ضرائبهم ، ونهبهم ما في أيدي الناس . ويشكو إلى زعمائه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ، فيطلب هؤلاء من المماليك أن يكفوا عساكرهم عن العدوان ، فيعدهم المماليك ، لكنهم لا يفعلون شيئاً ، فيثور الشعب وينضم إليه الزعماء والعلماء . وكانت ثورة شديدة ، يخاف العسكر منهم ، وتملقوهم بقولهم : إننا معكم ، أنتم الرعية ونحن العسكر ، ولم نرض بهذه الضريبة . ثم انضم محمد على إلى الثوار فحشى المماليك وفروا إلى الصعيد ، وكان أولهم البرديسي ، وأبطلت الضريبة^(٢) ونجد الوالي التركي أحمد باشا خورشيد يحاول أن يستعين بالشعب في إضعاف محمد على وحسن باشا^(٣) ، ثم نجد محمد على يتقرب إلى الشعب وإلى زعمائه .

وليس من شك في أن محمد على مدين بتوليته للشعب ولزعمائه ، فإن القادة — مثل السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدي والسيد أحمد المحروقي وهم مصريون — وآلاف من الأهليين اتفقوا على تولية محمد على بشروط ، وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى الكرك والقفطان ، ونادوا في الشعب بأنهم اختاروه والياً .

ولكن الوالي أحمد خورشيد رفض أن ينزل من القلعة بأمر الفلاحين ، وأعلن أنه لا ينزل إلا بأمر السلطان ، وشكا إلى القاضي من ضرر هذا العمل بمصر ، فرد

(١) الجبرتي ٣ في مواضع كثيرة .

(٢) الجبرتي ٣ ومصر الحديثة . فولابل . وتاريخ الحركة القومية ٣٥٢/٢ — ٣٥٧ الرافعي

(٣) الجبرتي ٣٢٧/٣

عليه أن تشبثه هو الضار بمصر ، وقال له إن أربعين ألفاً من الأهالي جاءوا إلى داره مطالبين بعزل الوالى أو محاربته .

واستعد الشعب كله لتنفيذ رغبته بالقوة ، فحاصروا القلعة ، ورموها بالبنادق ، وكان الفقير يبيع ملابسه أو يستدين ويشتري سلاحاً . وما زال الشعب يقاوم بقيادة السيد عمر مكرم حتى اضطر الوالى إلى النزول من القلعة ، وصعد إليها الوالى المنتخب^(١) . ولهذا البيعة دلالتها العظيمة ، فإن الشعب الممثل فى زعمائه اشترط أن يكون الحكم شورياً لا فردياً مطلقاً ، واشترط جلاء الجنود التركية لتكون مصر مستقلة ، وفى لباس الزعماء لمحمد على الكرك والقفطان إشعار بأن الشعب هو الذى ولّاه ، وأن الشعب مصدر السلطة .

ولقد فطن المؤرخون الإفرنج إلى ما فى ثورة سنة ١٨٠٥ م من معان سامية ، فنوهوا بها . قال تولابل فى كتابه مصر الحديثة : « لأول مرة وقع تغيير سياسى خطير فى الشرق بإرادة الشعب وباسم الشعب ، ولا جدال فى أن المطالب التى فرضها الزعماء تدل على ما بجيش فى صدورهم من الإحساس بالحرية ، وما يشعرون به من الحاجة إلى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة . وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت إلى محمد على أو أجمعت آراء الزعماء على تقليده سلطة الحكم فى ذلك الوقت ، فذلك إلا أن محمد على قد دعا إلى مبادئ الحرية ، وأعلن فى كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصلحه ، ونادى بأن علة المحن راجعة إلى سوء الإدارة ، وعدم وجود الرقابة على الحكومة »^(٢) .

ولكن الحق أنه كان الأجدر بالزعماء المصريين أن يجمعوا على أحدهم ، ليكون والياً على بلاده وقومه ، بدلاً من إجماعهم على وافد غريب . لكنهم انصرفوا عن أنفسهم ؛ لأن بوادر الشقاق كانت قد بدأت تدب فيما بينهم ، ولم يكن بد من صراع بعضهم لبعض ، فى الوقت الذى يحتل مصر فيه جيش تركى وجيش إنجليزى . ويظهر

(١) الجبرتي ٣/٣٢٧ — ٣٤٤

(٢) عصر محمد على للرافعى

أنهم خالوا سلامة الوطن في أن يولوا بأنفسهم والياً عليهم من غيرهم يختارونه ، ويشترطون عليه .

(٦) وما زالت قوة الشعب مستعلنة في السنوات الأولى من عهد محمد علي ، فإن السيد عمر مكرم جهد مرات في تدليل العقبات التي كانت تعترض طريق محمد علي ، وأحمد ثورات ناشبة ومؤامرات خطيرة كانت ترمى إلى تنحيته . وفي هذه الفترة أثبت الشعب يقظته وقوته مرة أخرى ، ذلك أن الإنجليز أرسلوا إلى مصر أسطولا ليساعد الألفي ، وكان عدد جنودهم نحو ستة آلاف ، لكن المنية عاجلته قبل أن يتم نزولهم بمصر . فحاولوا أن يغرروا بالأهلين بوعود شتى ، فلم يفلحوا ، ونزلوا رشيد فهزمهم المصريون هزيمة ساحقة ، وأسروا كثيراً منهم ، وعرضوا الأسرى ورءوس القتلى في القاهرة في موكب كبير .

وخشى السيد عمر مكرم أن يثار الإنجليز ، فنبه على الناس أن يتسلحوا ويتأهبوا للجهاد ، وأمر طلبة الأزهر ومدرسيه بتعطيل الدراسة . وقد استجاب له الشعب ، فتنادى الناس بالجهاد ، وكثر المتطوعون ، وأنفق القادرون على المتطوعين من الفقراء ، وامتدع الشعب للمقاومة في رشيد وفي القاهرة . فلما كرر الإنجليز على الحاد هزمهم الشعب ، وقتل وأسّر كثيرين ، وعرض الرءوس والأسرى بالقاهرة ^(١) .

كانت هذه الحرب بين الإنجليز والمصريين ميداناً للمقاومة الشعبية لا الحكومية . فلما دانت الأمور لمحمد علي أغرته نفسه بأن يتخلص من هذه القوة الرهيبة ، ونقم بعض الزعماء على السيد عمر مكرم ، أنه أثير عند محمد علي ، وأنه الزعيم الرفيع المكانة في الشعب ، فتملقوا الوالى ، ودسوا للسيد عمر مكرم ، وكانت ثمرة دسهم أن نفاه إلى دمياط سنة ١٨٠٨ م ، خفّت صوت الشعب . ثم جاءت مذبحه القلعة سنة ١٨١١ م إرهاباً للأحرار ، ووأدأ للشجاعة والتطلع إلى مراقبة الحكام .

استبد محمد علي بالحكم ، ولما استتب له الأمر رنا إلى الاستقلال التام عن تركيا ، فقد أحس بضعفها وبقوته .

وقد حاول محمد على أن يجمع العرب جميعاً في قبضته ، وأن ينتزعهم من السيطرة العثمانية ، في وقت تداعت فيه تركيا ، وأطلق عليها الأوروبيون (الرجل المريض) وتطلعوا إلى أن يرثوه حياً ، وقد ساعدوا اليونان على الانفصال ، وأعانوا الرومانيا الحديثة على الاستقلال ، وأغارت فرنسا على الجزائر في شمالي إفريقيا .

فلم يكن عجيباً أن يريد محمد على إنقاذ البلاد العربية المجاورة لمصر من مطامع الأوروبيين ، بأن يضمها إلى مصر ، لأن فتوحه دليل على التوسع ، وطمعه في ضم ولايات إلى مصر يقتطعها من الخلافة .

« ومن الراجح الذي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم إليها البلاد العربية في إفريقيا وآسيا .

ففي إفريقيا قد استقل بمصر ، وفتح السودان . وفي آسيا فتح معظم جزيرة العرب ، وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية . وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس الدولة المصرية الكبيرة على أنقاض الدولة التركية المتداعية .

ويؤيد هذه الفكرة رجحانا بعض أحاديث لإبراهيم باشا خلال الحرب السورية ، فقد ذكر المسيو كادلفين وبارود في كتابهما^(١) أنه بينما كان الحصار مضروباً على عكا سئل إبراهيم باشا : إلى أي مدى تصل فتوحه إذا تم له النصر والاستيلاء على عكا ؟ فقال : إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربي .

وقد قابله البارون (لبوالكونت) سنة ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهية ، وجاء في حديثه عن إبراهيم أنه ينوي إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب حقوقهم ، وإمسان المناصب إليهم وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً ، ويشركهم في إدارة الشؤون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم وأنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالذ وهو في صلاته بأهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعد نفسه عربياً ، ولذلك لا ينفك يطعن في الأتراك .

وقد سأله أحد جنوده : كيف يطعن في الأتراك وهو منهم ؟ فأجاب : أنا لست

(١) حرب مصر ضد الباب العالي في سوريا والأناضول سنة ١٨٣١ — ١٨٣٣ كادلفين وبارود ٤١٢

تركيا، فإني جئت مصر صيبا، ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته عربيا»^(١).

لكن إنجلترا وحلفاءها وقفوا لطموح محمد علي بالمرصاد مدعين الدفاع عن تركيا، فقد اعترم أن يعلن استقلال مصر سنة ١٨٣٤ بعد الحرب السورية الأولى، ثم في سنة ١٨٣٨، فعارضته الدول في المرتين. ثم تألبت عليه، واضطرته في سنة ١٨٤٠ إلى قبول معاهدة لندرة.

وبهذه المعاهدة عادت جيوش مصر من الشام، وصارت مصر دولة مستقلة وراثية في أسرة محمد علي استقلالا شبه تام. ثم وثق إسماعيل هذه الوراثة، ومضى قدما بهذا الاستقلال، إلى أن جاء الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ م

(١) كتاب مهمة البارون لبو السكتنت ٢٤٨، ٢٤٩ عن تاريخ الحركة القومية للرافعي ٢٣٢/٣

الفصل الثاني

ضحايا الوطنيات

عرفنا أن المصريين كانوا يشربون إلى الاستقلال بين الحين والحين ، فمن الإنصاف ألا نجحد جهودهم التي بذلوها ، وإن كانت بواذر للبقطة ، وبشائر للنهضة ، وفجراً لهذا الضحا الذي سنحدث عنه .

وثمة عوامل فعالة في نقلة الشعب من الفجر إلى الضحا ، وهي عوامل متشابهة ، كل منها نتيجة لغيره ، وسبب في غيره ، وهي جميعها الضوء الوهاج الذي نقل الشعب من الغبش إلى وضوح النهار .

البعوث العلمية

رفاعة الطرطاوى

عادت البعوث العلمية التي أوفدها محمد على ومن بعده ، تحمل إلى مصر تفكيراً جديداً ، وترسم لمستقبل الوطن صورة أرقى من صورته .

فلم يكن أولئك المبعوثون أوعية يُصبُّ فيها العلم صبا ، ثم لا يعون غير العلم الصرف شيئاً ، وإنما كانوا يدرسون ، ويتذوقون ما يدرسون ، ويفكرون في حالة وطنهم وهم يدرسون . كانوا مصريين غيراً على وطنهم ، وكانوا أصحاب عيون تنظر ، وأذان تسمع ، وعقول تفكر .

وهم لا شك يرون في فرنسا وغيرها حضارة لم يروها في مصر ، ويعرفون من نظم أوربا وحريتها ما لم يعرفوا بمصر . فإذا ما عادوا إلى وطنهم ودّوا له أن يرقى ، وجدّوا في أن يبدل بحاله خيراً منها .

وما زالت البعث تشخص إلى أوربا في عهود مختلفة ، وكل مبعوث يرى حالة أوروبا ، ويوازن بين حال مصر وما يرى ، فيعود إلى مصر طموحا إلى الإصلاح والتغيير . وكثير من المبعوثين عادوا فترجموا وألفوا وكتبوا ، فكانوا من عوامل الإنهاض والإيقاظ .

وحسبنا أن نضرب المثل بمبعوث قديم من عهد محمد علي ، هو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣)

رأى رفاعة في فرنسا نوابا يمثلون الشعب ، ويدافعون عن حرياته وحقوقه ، ولما عاد إلى مصر تحدث عن مجلس النواب معجبا^(١) . وتحدث عن الملك وحقوقه وواجباته^(٢) ، وتحدث عن الحرية وأنواعها ، وعن الحرية السياسية والمساواة^(٣) ، وقد لخص الثورة الفرنسية ، واستهجن رأى الملك شارل العاشر في مجافاته للدستور ، وفي جنوحه إلى الحكم المطلق ، وتضييقه على الأقلام الحرة^(٤) .

وترجم الدستور الفرنسى ، فبصر المصريين بحقوق الأمم الراقية ، ولم يقف قلبه عند الترجمة ، بل علق برأيه ، كقوله : من ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنسية هي قانون مقيد ، بحيث إن الحاكم هو الملك ، بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين^(٥) .

وكقوله تعقياً على المادة الأولى من الدستور : « الفرنسيون سواسية أمام القانون » : سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون ، حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر إلى هذه المادة الأولى ، فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم^(٦) .

وعلق على المادة الخامسة عشرة باستحسان أن توزع السلطة على الملك ومجلس النواب ومجلس الأشراف^(٧) .

(١) تخلص الإبريز في تلخيص باريز ١٨٢

(٢) مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية ٣٤٨ — ٣٥٥

(٣) المرشد الأمين للبنات والبنين ١٢٧ — ١٣٠

(٤) تخلص الإبريز ١٧٢ (٥) المرجع السابق ٧٢ (٦) المرجع السابق ٨٠

(٧) المرجع السابق ٨٢

ونوه بالصحافة وأثرها في تعليقه على المادة الثانية « بأنها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلاً عظيماً أو رديئاً وكان من الأمور المهمة كتبه أهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة . وكذلك إذا كان الإنسان مظلوماً من إنسان كتب مظلّمته في هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم ، وتصل إلى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر »^(١) .

وهذه الآراء التي كتبها رفاة سنة ١٨٣٠ متسمة بالميل إلى الدستور وإلى الحرية والديمقراطية « ولا تصدر إلا عن نفس أشربت روح الأنفة ، والشعور بالحقوق القومية . ولو لم يكن رفاة بك بمثل هذه الصفات لما صدر منه هذا القول . بل أغلب الظن أنه كان يضرب صفحا عما شاهده في باريس من ثورة الشعب على الحكم الاستبدادي ، وما كانت هذه الثورة ترك في نفسه من أثر سوى استنكار قيام الرعية على ولي الأمر »^(٢) .

وقد ضمن مؤلفاته آراءه الجديدة الهادية ، ففي كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) عني بتعليم الفتاة وآدابها . ولم يكن في مصر حينئذ مدرسة للبنات ، ولكن بعد طبع كتابه بعام أنشئت في مصر سنة ١٨٧٣ أول مدرسة لتعليم البنات هي مدرسة (السيوفية) أنشأتها إحدى زوجات الخديو إسماعيل ، وأمتها مائتا تلميذة حين افتتاحها ، يتعلمن بالمجان ، ويأكلن ، ويلبسن .

وفي كتابه هذا مقالات وطنية ، كاعتزازه بمصر^(٣) ، وواجب المصري نحو وطنه ، كقوله : « فالوطني المخلص في حب الوطن يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر ... »^(٤) . على أنه امتاز من الشعراء الذين عاصروه بعاطفته الوطنية ، فهو معتز بمصريته ، نفور بماضى مصر ، دءوب على استنهاض الهمم لاستعادة ماضيها المجيد .

(٢) عصر محمد علي ٤٨٣ الرافعي

(١) المرجع السابق

(٤) المرشد الأمين ٩٣

(٣) المرشد الأمين ٩٣

من ذلك أنه ألف أول نشيد وطني عرفته مصر ، يبدو فيه نزوعه الوطني كقوله :

فهيّا يا بني الأوطان هيّا فوق فخاركم لكم تهيّا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا مدّيا
عليكم بالسلام أيا أهالي ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا في دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم في كل حال
وجودهم غدا فيكم جليّا

وله قصائد كثيرة يمزج فيها قليلا من المدح بكثير من الفخار بمجد مصر ، كهذه القصيدة التي طبعت سنة ١٢٧٢ هـ

وسأذكر مختارات منها ، لاجودة أسلوبها ، وأطرافة خيالها ، وأحلاوة موسيقاها ، فإنها لا تتصف بشيء من هذا ، وإنما للنزعة الوطنية التي تتجلى فيها .

فهو يفخر بعراقة مجد مصر ، ويحض المصريين على حبها ، وعلى العمل خيرها .
وينوه بعظمتها القديمة ، ويتحدث عن رمسيس الثاني (سينوستريس) وإنهاضه العلوم ، وفتحه الممالك .

ويباهي بفتوح مصر الحديثة ، وبسالة جنودها ، ويشيد بعزيماتها وشبابها .
ولقد تكون هذه أول نغمة وقعت عليها يد على قيثاره الوطنية المصرية في العصر الحديث .

بشرى لمصر سعدها بالعز لاح و (سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

أبناء مصر نحن موطننا أصيل
حسب عريق زانه مجد أثيل
ونغارنا في الكون جل عن المثل
لرحابتنا تطوى المهامه بالطلاح^(١)

بشرى

(١) الطلاح : النوق المهزولة . المهامه : الصحارى

نحن السَّراةُ وشأننا حب الوطن
ولشأننا السامى تزاحم من قطن
شأنى حمانا ليس من أهل الفطن
فهو الدعى وعرضه شرعا مباح^(١)

بشرى

وطن عزيز لا يهان ولا يضام
ورحمى تعزز من على علياه حام
بجد له لا زال يخرق الغمام
عين الشها لفخاره ذات التماح^(٢)

بشرى

يا أهل مصر بر مصر فرض عين
في البر نبذل عن رضا نفساً وعين
ولذا الرقيب رنا لها بلحاظ عين
ما عندنا في فقئها إلا الرماح

بشرى

في كل قطر في الممالك أو بقيع
أضواء مصر سرت لتنوير الجميع
تديرها في بدئها سام رفيع
فليبكها كأبي العيال به الصلاح

بشرى

سيزوستريس لقد أقام شئونها
وهو الذى أعطى لها قانونها

(١) السراة : الأشراف الأجداد . الفطن : الذكاء والإدراك .

(٢) حام : حارس وحافظ . التماح : نظر

قوى معارفها وصاغ فنونها
ورموزه للعارفين بها صحاح

بشرى

فتح الممالك مشرقاً أو مغرباً
وأبانَ عن حُبِّ الفَخَارِ وأعربا
دفعوا الخراج مُقرَّراً ومُرتباً
لمليك مصر على وفاق الإقتراح

بشرى

ثم شرع يفتخر ببسالة الجنود المصرية في العصر الحديث كقوله :

لما نزلنا كالسحاب والمطرُ
الجندُ هامَ وما تعاطى بل عقرُ
وبفتكه بالضد قد بلغ الوطرُ
حزِنَ العدو على خسارته وناح

بشرى

فصفوفنا كل الشجاعة جامعة
وسيوفنا عند العجاجة لامعة
آذاننا لنسدا الإغارة سامعة
بعزيمة عظمى تنادى : لا براح

بشرى

ثم خايل بشيوخ مصر وشبانها في قوله :

وشيوخنا كم مارسوا يوماً عصيبُ
وسلاحهم لا شك في الأعداء مصيبُ

ومن الغنائم أحرزوا أوفى نصيب
خير الليالى عندهم ليل الكفاح

بشرى

شباننا فى فضلهم مثل الشيوخ
أقدامهم وقت الزال لها رسوخ
شم الأنوف على السرى لهم الشموخ
كم بددوا شمل الجموع بلا جناح

وله قصيدة فى وصف الجيش المصرى ، والمباهاة بعدده وشجاعته ، منها :

ننظم جندنا نظما عجيبا يعجز الفهما
بأسد ترعب الخصما فمن يقوى يناضلنا

إلى أن يقول :

مدافعنا القضا فيها وحكم الحنف فى فيها
وأهـ — ونها وجافها تجود به معاملنا
لنا فى المدن تحصين وتنظيم وتحسين
وتأييد وتمكين منيعات معاقلنا

وفى نشيد آخر دعا إلى التضحية فى خدمة الوطن ، وفدائه بالمال والدم والروح :

وعزيز الموطن نخدمه برضا فى النفس نحمه
مال المصرى كذا دمه مبذول فى شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرنا
تهدى فى نيل نظائرنا بشرى العلى أعلى ثمن

التعليم

كان التعليم قبل عهد محمد علي مقصوراً على الأزهر والمكتاتيب ، فنهض به محمد علي إذ أنشأ مدارس عدة ، وأوفد بعوثاً إلى أوروبا . ولما جاء الخديوي إسماعيل خطاً بالتعليم خطاً فساساً ، فأكثر من المدارس ونوعها ، وأكثر من البعثات إلى أوروبا ، فأخذ التعليم يزدهر عاماً بعد عام ويتطور في نظمه وفي أنواع المدارس والمعاهد من أولية وابتدائية وثانوية وعالية ، إلى أن أنشئت الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ م .

والذي يعيننا في هذا الموضوع من المدارس والمعاهد والجامعة والأزهر أن الطلبة درسوا تاريخ بلادهم وعرفوا مفاخره ، فاشتاقوا أن يستعيدوها ، وعلّموا مخازي هذا التاريخ ، فخرجوا منها ، وتاقوا إلى أن يبذلوها . وهم بدراساتهم للغة العربية وأدبها ، وللثقافة العامة استناروا ، وصاروا أرهف حساً ، وأبعد أملاً ، وأحد حماسة ممن لم يتعلموا .

وهم يتأثرون بمدرسيهم وأساتذتهم ، ولا شك في أن أكثر هؤلاء كانوا يعرفون على الموضوعات الوطنية في دروسهم ، وكانوا كثيراً ما يتخذونها موضوعات لدروسهم ومحاضراتهم ، فيحيون الماضي المشرق المشرف ، وبأسون من الحاضر القائم المخزي ، ويرسمون صوراً للمستقبل المجيد المأمول .

وفي المدارس والمعاهد والكلية انطلقت السنة الطلاب بالخطابة ، ودربت أقلامهم على الكتابة ، ومرنت عقولهم على التفكير الصحيح ، فصاروا عدة المستقبل ، وقادة الشعب .

ولسنا نبعد عن الصواب إذا ما عزونا إلى العلم والمعلمين والمتعلمين حماسة الشباب التي كانت تتقد غيرة على مصر في الربع الأول من القرن العشرين .

أما المتخرجون في المعاهد العالية وفي الجامعة ، والدارسون بأوروبا ، فهم أوفر معرفة ، وأشد حمية ، لذلك كان منهم الزعماء والقادة كمصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويز ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي وغيرهم .

كان التعليم إذاً باعثاً على القومية وعلى الوطنية ، وليس معنى هذا أن التعليم ليس في تطوره ونمائه متأثراً بالقومية والوطنية ، وإنما معناه أنه مؤثر ومتأثر ، فهو يستمد

من الوطنية ما يفسح مجاله ، ويجدد برامج ، ويبدل من أهدافه ، وهو أيضاً يمدّها بالقوة ويعضدها بالعقول المفكرة ، والخطط المدبرة ، والقيادة الرشيدة .

جمال الدين الأفغانى

عالم مفكر حرّ ناثر ، غيور على العالم الإسلامى كله ، تواق إلى الإصلاح ، مشتاق إلى الاستقلال وتقويض الاستعمار . رجل يدين له الشرق بنهضته ، حينما كان الشرق كله فى غفلة ، وتذكر له مصر أنه ربّ أشبالها ، ونفخ من روحه القوى فى رجالها ، فتقرن اسمه بتاريخها الحديث .

من أسرة عريقة فى بلاد الأفغان ، هبط مصر سنة ١٨٧١ م كالصّيب الهائل على أرض خصيبة ، فيها نبات يحتاج إلى الرّى ليكتمل ويشمر .

قضى بمصر ثمانى سنوات يبث آراءه فى تصحيح العقائد ، وتهذيب الأفكار ، واستنهاض العزائم ، والدعوة إلى الحرية والحياة الدستورية ، ومناهضة الاستعمار ، وإيقاظ الشرق ، والاعتزاز بالقومية واللغة العربية والدين الإسلامى .

كانت الفترة التى قضّاها جمال الدين بمصر موالية لنشر آرائه وتقبلها ، لأن الديون تضخمت حتى بلغت فى سنة ١٨٧٥ نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات ، فجاءت بعثة كيف Cave سنة ١٨٧٥ لدراسة الحالة المالية ، واقترحت إنشاء رقابة أجنبية على مالية مصر ، وأن يخضع الخديو لمشورتها ، وألا يقترض إلا بإقرارها ، وأنشئ صندوق الدين . فكانت فى مصر حكومة أجنبية تسيطر على الحكومة المصرية ، وأنشئ النظام الثنائى (مراقب إنجليزى ومراقب فرنسى) لحراسة المالية والمصرفات ، ثم دخل وزيران أجنيبيان (إنجليزى وفرنسى) فى وزارة نوبار .

تبرم المصريون بهذه الحال ، وضاق بها الثائر المناوى للاستعمار ، جمال الدين ، فانغمس فى السياسة .

فقد « كان مقصده السياسى الذى وجه إليه أفكاره ، وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته هو إنهاء دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدین الحنيفى مجده . ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الشرق ،

وتقليص ظلها عن المسلمين ، وله في عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها ^(١) .
وقد جهر مراراً بكراهيته للإنجليز ، ونشر في جريدة مصر فصولاً ناطقة بذلك .
ولم يغفل الإنجليز عن كراهيته لهم ، وخطره عليهم ، فلما عظم شأن المحفل الماسوني
الذى أنشأه داخل الخوف قنصل إنجلترا ، فوشى به إلى الحكومة المصرية وبث
الرقباء في المحفل ، فسعوا فيه فساداً ^(٢) .

كان من وسائله لبث آرائه أن يلقى دروساً في داره ، وفي خارج داره ، وكان كثير
من المصريين يتخلق حوله لينهلوا من علمه ، ويقتبسوا من روحه القوى الثواب ،
منهم محمد عبده وسعد زغلول ومحمود سامي البارودي وأديب إسحاق وعبد السلام
المويلحي وإبراهيم المويلحي وإبراهيم اللقاني وعلي مظهر وسليم نقاش وأحمد الجداوى
وأبو الوفا القوني ، وكثير من هؤلاء صاروا من القادة فيما بعد .

ولم يكتف بأن يث فيهم الدعوة إلى تطهير العقول من الخرافات ، وفهم الدين
على حقيقته ، والتطلع إلى الحرية والاستقلال ، بل أخذ يعدم للعمل فيدربهم على
الخطابة والكتابة في موضوعات شتى ، ويشجعهم على نشر مقالاتهم في الصحف ،
ويحضهم على إنشاء الجرائد . فهو الذى حض تلميذه أديب إسحاق على إنشاء جريدة
(مصر) بالقاهرة ثم جريدة (التجارة) بالإسكندرية ، وكان لهما صوت مسموع
وتأثير قوى ، فأغلقهما رياض . وشجع يعقوب صنوع على إنشاء مجلة فكهة اسمها
(أبو نضارة) كانت تنتقد سياسة إسماعيل ، وساعد سليم عنجورى على إصدار
(مرآة الشرق) .

وكان يكتب في هذه الجرائد أحياناً باسم مستعار (مظهر بن وضاح) ويستكتب
القادرين من تلاميذه ، مثل محمد عبده وإبراهيم اللقاني ، فاستل الكتاب أقلامهم
ليكتبوا في موضوعات تتصل بحياة الشعب ، وحقوقه ، وتوجيهه . من ذلك قول محمد
عبده في إيقاظ الوعى القومى : « إن الحاكم — وإن وجبت طاعته — هو من البشر
الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، ولا يردده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته

(١) من مقال لمحمد عبده ، في ترجمة جمال الدين . تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٣٤/١

(٢) من مقال أديب إسحاق في ترجمته . تاريخ الأستاذ الإمام ٤١/١

إلا نصيح الأمة له بالقول والفعل . وقول أديب إسحاق في الموازنة بين حال أوروبا والشرق : « قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبت به أيدي الأجانب من كل جانب » .
وبذلك أنشأ كتاباً لا يشق غبارهم ، وأغلبهم أحداث في السن ، شيوخ في الصناعة . وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو حاكي المتصلين به ، ^(١) .

إذاً نجح جمال الدين في توجيه الأدب إلى صالح الشعب ، ونجح في إيقاظ الغافلين ، ومشى باليقظي قدماً . يقول تلميذه محمد عبده في وصف حال مصر قبل مقدمه : « إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧١ م) كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن ينفيه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتبرون أن سعادتهم وشقاءهم موكلان إلى أمانته وعدله أو خيائته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يديه في إدارة بلاده وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة غير التي يوجهها إليه الحاكم لما أمكنه ، فإن بجانب كل نظر نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال ، ^(٢) .

ويذكر في بيانه لأثر أستاذه في طلابه أنهم « كانوا ينتقلون بما يكتبونه من معارفه أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد ، خصوصاً في القاهرة ، ^(٣) .
ولما أحس بأن مجال آرائه يجب أن يزداد اتساعاً فيتخطى حلقات دروسه ومجامعه الخاصة انضم إلى المحفل الماسوني الأمكنندي ، لأن فيه كثيراً من العلية مصريين وأجانب ، وهو يريد أن يذيع آراءه السياسية فيهم . لكنه ما كاد يستقر به حتى غلبته صراحته ، فلم يرقه من الجمع تنجيه عن السياسة ، وفي ذلك يقول : « أول ما شوقني للعمل في (بناتة الأحرار) عنوان كبير خطير : (حرية ، مساواة ، إخاء) وأن غرضها منفعة الإنسان ، والسعي لدك صروح الظلم ، وتشديد معالم العدل المطلق . وكنت

(١) مقال محمد عبده في ترجمة جمال الدين . تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٣٢/١

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٣٦/١

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٣٧/١

أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكن أن يدخل من بين أسطوانتى المحفل الماسونى .

إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة السكون - وفيها كل بناء حر - وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم القديم ، وتشديد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة . ثم استقال منه وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسى ، وتوافد عليه الأعضاء حتى زادوا على ثلاثمائة من علية المصريين النابهين . وكان من أعضاء هذا المحفل ولى العهد محمد توفيق^(١) ، وكان يتظاهر بالميل إلى آراء جمال الدين ، وقد وعده بالدستور والحكم الصالح إذا ما تولى الحكم .

وهنا انفسح له المجال ، فأنشأ شعباشى لدراسة شئون مصر ، كل شعبة تدرس وتقترح وسائل الإصلاح ، وتبلغها للوزير المختص فى مشورة صريحة حازمة^(٢) .

وحينئذ عظم تدخله فى السياسة . يذكر تليذه سليم عنجورى أنه تدخل فى السياسة جهرة سنة ١٨٧٨ ، وأنه كان يستشير العزائم بقوله : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وريتم فى حجر الاستبداد ، تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ، ثم الفرنسيون والعلويون ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم - الذى تجمع بما يتحلب من عرق جباهكم - بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون .

فلو كان فى عروقكم دم فيه حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر ففتير النخوة والحمية ، لما رضيت بهذا الذل والمسكنة . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقي الأمم أحراراً مسعداً ، أو مأجورين شهداء . »

(١) من مقال أديب إسحاق . تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١/١

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى محمد الخذوى باشا ٣٥ وتاريخ الأستاذ الإمام ١/١

فبدأ الناس يشكون من حكومتهم متململين ، ومنذ ذلك الحين طارت الثورة الأولى من شرارات الثورة العرابية ^(١) .

ولما خشيت الحكومة المصرية والخديو صولة هذا المصلح الباعث أمرته بالرحيل من مصر خضوعاً لدسائس مستر فيفيان قنصل إنجلترا ^(٢) ، فغادرها بعد ما تعهدت الحرية حتى اكتمل ، وبذر بذورها لتنبث نباتاً ينمو ويكتهل . نعم فإنه قد تعهد تلاميذه الذين كانوا في حاجة إلى توجيه وقيادة مثل محمد عبده وسعد زغلول ، وتأثر به آخرون من الشادين فساروا في القافلة . فبعد عن مصر بجسده لابر وحه وآرائه .

وحين نفى محمد عبده من مصر بعد الثورة العرابية استدعاه جمال الدين إلى باريس ، وأنشأهما وميرزا محمد باقر جريدة العروة الوثقى ، وظهر منها ثمانية عشر عدداً من ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ إلى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ . وكان من أهدافها تبصير الشرقيين بحقوقهم ، وبعث الأمل في نفوسهم ، والدفاع عن الإسلام وعن الشرق ، وإطلاع الشرقيين على ما يهمهم من أحداث العالم ، وتقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، ومناصرة الدول الغربية التي لا تحيف على الشرق ، ولا تعضد الحيف عليه ، والدعوة إلى الحكم الدستوري في الدول الإسلامية ، وكانت تحرض العالم الإسلامي على الاحتلال البريطاني ^(٣) . لكن الاستعمار ضيق السبل عليهما ، فاضطرت إلى الاحتجاب ، وإن لم يحتجب أثرها في الإيقاظ والبعث .

لقد كان جمال الدين يؤمن بحق الشعب في حكم نفسه ، لذلك لما استدعاه الخديو توفيق وقال له : « إني أحب كل خير للبصريين ، ويسرني أن أراهم في أعلى درجات الرقي والفلاح ، لكن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح لأن يستمع إلى ما تلقونه عليه من الدروس والآراء المبهجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » . أجابه جمال الدين بقوله : « ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من الخامل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه غير محروم

(١) من مقال سليم عنجورى تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ٤٧/١

(٢) مقال محمد عبده في ترجمة جمال الدين . تاريخ الأستاذ الإمام ٣٣/١

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ٣٣٢/١ — ٣٨٨

من العالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب ينظر إليكم . وإن قبلتم نصيح هذا المخلص ، وأسرعتم إلى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم كان ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم^(١) .

ثم خرج من قصر الخديو يخطب فى هذا الموضوع ، ويستثير تلاميذه ومريديه ليكتبوا فيه .

وطبق هذه العقيدة عملياً حين تميل النفس إلى التحلل من عقيدتها ، ذلك أن اللورد سالسبورى عرض عليه عرش السودان إبان الثورة المهدية ، فرفض قائلاً : « هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها »

ولما طلب منه شاه إيران أن يضع القانون الأساسى لمملكة فارس وضعه على أساس أنها مملكة دستورية ، ينتخب فيها الشعب حكامه . فلما اعترض عليه الشاه قال له : « إن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأثبت مما هى الآن^(٢) » .

رحم الله جمال الدين ، لقد كان كما قال فيه براون وجولديهر : « فيلسوفا كاتباً خطيباً صحفياً سياسياً . وكان له أثر بالغ فى النزعات الشورية التى حدثت فى عشرات السنين الأخيرة فى الحكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوروبية^(٣) » .

وسنرى فى وطنية شوقى أنه متصل ببعض تلاميذ الأفغانى ، ومتأثر بهم . وسنعرف أن دعوة الأفغانى كان لها أثر عظيم فى الوعى الوطنى العام الذى عاش شوقى فيه .

(١) خاطرات جمال الدين ٨٩ محمد الخزومى باشا

(٢) جمال الدين الأفغانى ٣٢ قدرى حافظ طوقان

(٣) زعماء الإصلاح ١٠٦ أحمد أمين

الصحافة

١ — كانت مصر أسبق بلاد الشرق إلى معرفة الطباعة والصحافة ، لأن نابليون أصدر بمصر صحيفتين ، إحداهما إخبارية لضباطه وجنوده ، تطلعهم على أنباء أوروبا ومصر ، والأخرى علمية لشئون مصر التاريخية والاجتماعية والاقتصادية . والصحيفتان معاً باللغة الفرنسية .

على أن الفرنسيين حاولوا في الأيام الأخيرة أن يصدروا جريدة باللغة العربية ، وأعدوا العدة لها ، لكن هذه المحاولة لم تتحقق .

وفي سنة ١٨٢٢ كان لمحمد علي جريدة يومية يصح أن نسميها (جريدة الوالي) يُطبع منها مائة نسخة باللغة العربية والتركية ، توزع على كبار الدولة ، تنشر أخبار الأقاليم ، وأعمال الدواوين ^(١) ، وهى النواة التى نبتت منها جريدة الوقائع سنة ١٨٢٨ وفى سنة ١٨٣٣ أنشأ جريدة للجيش سميت (الجريدة العسكرية) ^(٢) .

ثم تنوعت الصحف الرسمية فى عهد إسماعيل ، مثل يعسوب الطب سنة ١٨٦٥ أقدم الصحف الطبية فى الشرق كله ، والحكومة تشرف عليها وتمدها بالمال ، والجريدة العسكرية المصرية سنة ١٨٦٥ ، وجريدة أركان حرب الجيش ، ومجلة روضة المدارس ^(٣) سنة ١٨٧٠ وهى علمية أدبية يشرف عليها رفاة الطهطاوى وعبد الله فكرى وعلى مبارك .

٢ — أما الصحافة الأهلية — باللغة العربية — فقد كان مولدها سنة ١٨٥٥ م ^(٤)

(١) تطور الصحافة المصرية . إبراهيم عبده ٢٥ — ٢٩ (٢) المرجع السابق ٣٦

(٣) المرجع السابق ٤٧ — ٥١

(٤) أصدر رزق الله حسون الحلبي (مرآة الأحوال) ، وخبيل الخورى (حديقة الأخبار) سنة ١٨٥٨ م بسوريا ، وأحمد فارس الشدياق (الجوائب) سنة ١٨٦٠ م بالستانة .

ثم أوعز الخديو إسماعيل إلى عبد الله أبي السعود ناظر المدرسة السككية التى أنشأها محمد علي أن ينشئ (وادى النيل) سنة ١٨٦٦ م لتكون لسان الخديو .

ثم صدرت (مجلة نزهة الأفسكار) سنة ١٨٦٩ لعثمان جلال وإبراهيم المويلحى . و (مصباح الشرق) لإبراهيم المويلحى وابنه محمد سنة ١٨٦٩ م .

ثم أصدر محمد أنسى بن عبد الله أبي السعود جريدة (روضة الأخبار) سنة ١٨٧٥ م فى القاهرة وصدرت (الأهرام) لسليم تقلا فى سنة ١٨٧٥ ، وكان هدفها الدفاع عن فرنسا .

وبعد ذلك أوحى الأفغانى إلى يعقوب صنوع أن يصدر (أبو نضارة) سنة ١٨٧٧ م تحمل على =

أثر الصحف في الوطنية

يعتينا من تأثير الصحف أنها غدت الوعي الوطني ، وألهبت المشاعر ، ونهت إلى الأخطار ، وأنارت الرى العام .

١ — حتى الجرائد الرسمية كانت تساهم في البعث ، فجريدة الوقائع تنتقد الحكومة

= الخديو والاحتلال . وأوعز إلى أديب إسحاق أن يصدر (مصر) سنة ١٨٧٧ م و (التجارة) ، وهدفهما معاً الدعوة إلى دولة عربية كبرى . وكذلك شجع جمال الدين على إنشاء جريدة (مرآة الشرق) لسليم عنجورى ، وكتب فيها مقالات عدة ، وكانت وطنية تناهض الاحتلال ، ثم تولاها إبراهيم اللقاني . وفي سنة ١٨٧٣ م صدرت (الكوكب الشرقى) لسليم حموى ، وفي سنة ١٨٧٧ م صدرت (الوطن) لخالى عبد السيد ، وفي سنة ١٨٨٠ م صدرت (المحروسة) .

ثم أنشأ عبد الله نديم جريدة (النسيكيت والتبكيك) سنة ١٨٨١ م ندد فيها بمن يرامون على الغرب وينسون شريقتهم ولغتهم ، وندد بحالة مصر وسوء الحكم فيها . ثم أنشأ (الطائف) نقد فيها سياسة الخديو إسماعيل في صراحة ، وكانت لسان الثورة العربية تدعو لها وتعجق قادتها ، وتذم الخديو توفيق . وظهرت (الحجاز) تحمل على الأجانب و (المقيسد) لحسن باشا الشمسى ، تدعو إلى الحرية والإصلاح ، وتناصر العربيين ، وتحدث عن ذل المصريين ، ويؤس الفلاح (السيد في صورة العبد ، ورب الدار في موقف الخادم) (١) .

وظهرت (البرهان) سنة ١٨٨١ م لمعوض فريد ويحررها حمزة فتيج الله ، ومهمتها الدفاع عن الخديو توفيق ، ومناصرة الحكم المطلق جبهة (٢) .

وصدرت (المقطم) سنة ١٨٨٨ م لمناصرة الإنجليز والاحتلال . و (المؤيد) سنة ١٨٨٩ م للشيخ على يوسف للدفاع عن الخديو ومناهضة الاحتلال . و (الأستاذ) لعبد الله نديم سنة ١٨٩٢ م لمهاجمة الاحتلال والدعوة إلى الإصلاح . وبلغ من نفوذها وذبوعها ، أن الصحف الانجليزية انبرت للرد عليها ، وحملت على صاحبها ، وحذرت من أن تشعل ثورة كالثورة العربية . وفي المؤيد يقول حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٦ إذ أظهرها على يوسف في ثوب جديد .

أحببت ميت رجائنا بصحيفة	أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحت مصلى للبلادة عند ما	سجدت برحب فنانها الأفلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية	وعلى مؤيدك القديم سلام (٣)

ثم في سنة ١٩٠٠ صدرت (اللواء) ثم (العلم) ثم (الشعب) معبرة عن آراء الحزب الوطني . ثم صدرت (الجريدة) لأحمد لطفي السيد تدافع عن مصالح مصر في اتزان واعتدال ، وكانت لسان حزب الأمة ...

وتوات الصحف بعد ذلك كالبلأغ وكوكب الشرق والسياسة والجهاد .

(١) المقيسد ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، ٢٣ يناير سنة ١٨٨٢ وتطور الصحافة المصرية ١٢٢ .

(٢) البرهان ٢٦ مايو وأول ديسمبر ١٨٨١ .

(٣) ديوان حافظ ١٥٠/١

ورجال الدولة نقداً لاذعاً قبيل الثورة العراقية ^(١)، كما تدافع عن الحكومة ، وتعدد مآثرها وأنواع إصلاحها ، وتدحض ما يراه الأجانب من مساوئ في سياستها، كما حدث يوم تولى رفاة الطهطاوى تحرير الوقائع قبيل أن تفرض على مصر معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ . وفي عهد إسماعيل سلكت الوقائع المسلك نفسه ، وهاجمت خصوم مصر .

وظلت الوقائع الرائد الأول للمفكرين وحملة الأقلام من طلاب البعثات ، ومن غيرهم ، وكانت تفتح صدرها لمقالات ينشرها أناس من الشعب ^(٢) .

ولها ولغيرها من صحف رسمية (الجريدة العسكرية) و (جريدة أركان حرب الجيش) أثر عظيم في إيقاظ الشعب ، وبث الثقة في نفسه . وقد تخرج في (الوقائع) كثير من القادة فيما بعد كرفاعة الطهطاوى ، وعثمان جلال ، وأبى السعود ، ومحمد عبده . ولما أشرف محمد عبده على تحريرها ضم إليه سعد زغلول وإبراهيم الهلباوى وغيرهما ، فألحقوا بها قسما غير رسمى يكتبون فيه مقالات اجتماعية وإصلاحية .

٢ — استغلت الصحف الأهلية الحرب بين تركيا وروسيا ، فنشرت أنباء المعارك ومقالات في أحوال الدولة وسياستها . وكادت جريدة (الوطن) و (مصر) تقفان جهودهما على أنباء الحرب .

جريدة (الوطن) كان تحمل على تركيا ، وتنادى باستحقاق الشعوب الخاضعة لتركيا للحرية والدستور ، وتعتبر جريدة الوطن سجلا دقيقاً لأطوار الحرب الروسية والمعاهدات التى تمت فى نهايتها .

أما جريدة (مصر) فقد كانت إلى جانب السلطان العثمانى ، تحزن لانكسار جيوشه .

وانتهزت (الأهرام) فرصة الحرية التى أباحتها الحكومة ، فنشرت مقالات عنيفة عن الحكم المطلق وجرائره والظلم وآثاره ^(٣) .

يقول الشيخ محمد عبده : « لما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا سنة ١٨٨٧ وجد الناس من أنفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة

(١) تطور الصحافة ٥٦ إبراهيم عبده (٢) المرجع السابق ٥٤

(٣) تطور الصحافة المصرية ٧٦

العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا، فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب، وسهلت كثرة الأجانب في مصر ورود الجرائد الأوروبية إلى طلابها من الأوروبيين، ومهدت مخالطتهم للعامة والخاصة الطريق إلى العلم. وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية، فانطلقت إلى إيراد الحوادث ونشرها، وظهر فيها الميل إلى إطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ما كان ينسب إلى الجنود العثمانية. فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها.

وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل. ولم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب، بل اجتراً الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والمعاشية « وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية، وأخذ جمال الدين يحمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول.... وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة تخيل للناس أنه في عالم خيال، ومن يطلع على أعداد جريدة مصر والتجارة ومراة الشرق والأهرام وصدى الأهرام يرى حقيقة ما ذكرنا »^(١).

٣ — مهدت الصحف للشورة العراقية، فكانت كالريح التي تهب على وميض النار خلل الرماد، ثم ناصر أكثرها هذه الثورة، مثل (الطائف) و (الحجاز) و (المفيد)
٤ — دعت الصحف صراحة إلى الدستور وإلى مجلس النواب، لتكون الوزارة مسئولة أمامه.

فلما انعقد استبشرت به، وجهرت بنقد الحكومة، وحملت على ريفرز ولسن. على أن وزارة نوبار شجعت الصحافة من حيث لا تريد، لأنها أساءت إلى الضباط من المصريين، ورضيت أن يكون بها وزيران أجنيبيان، فقرب الخديو الصحف إليه، لتسند، وترد عنه هجمات الدول. فلما فض رياض باشا مجلس النواب، حملت عليه وأشادت بأعضاء المجلس الذين انعقدوا في جمعية عمومية في غير دار المجلس.

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٣٨٠/١

٥ — فلما مُنيت مصر بالاحتلال البريطاني بعد الثورة العراقية ، أغلقت صحف ، وضيق على الباقي ، وجَدَّت صحف . وترعمت (الأهرام) الحركة الوطنية منذ سنة ١٨٨٤ وحملت على السياسة الإنجليزية بمصر ، وهى فى حملتها هذه موالية لفرنسا ، مخلصه للدولة العثمانية ولمصر . وخصصت حجرة لمصطفى كامل وأنصاره ، وفسحت صدرها لمقالاته سنة ١٨٩٥ ^(١) .

ولم يجد لورد كرومر بُدأ من أن تكون له فى مصر صحيفة تدافع عنه وتناصره ، فأُنشئت (المقطم) سنة ١٨٨٨ . وكانت تدافع عنه وعن أصدقاء إنجلترا من المصريين ، وتحمل على تركيا والسلطان ، فأحس المصريون بحاجتهم إلى جريدة مصرية تستمد قوتها من الشعب لا من قنصل فرنسا ولا من المعتمد البريطانى ، فكانت (المؤيد) سنة ١٨٨٩ للشيخ على يوسف ، وكتب فيها مصطفى كامل متطوعا . وظهرت (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ لعبد الله نديم . ثم (اللواء) سنة ١٩٠٠ وهى لسان الحزب الوطنى . فلما احتجبت اللواء ظهرت (العلم) .

والصبغة العامة للمؤيد واللواء والأستاذ مناصرة الوطنيين ، والدفاع عن الإسلام ، والدعوة إلى اتحاد المسلمين جميعاً فى ظلال الخلافة العثمانية .

والصبغة العامة لجريدة (البرهان) و (الوطن) و (الاعتدال) مناصرة الخديو توفيق على الثورة العراقية ^(٢) .

وكانت (الجريدة) لأحمد لطفى السيد تدافع عن صواخ مصر لتركيا . ونستطيع أن نقرر أن الكثرة الغالبة من هذه الصحف ومما جَدَّ بعدها كانت تعارض الاحتلال البريطانى منذ نكبت به مصر إلى اليوم ، حتى إن (اللواء) لم تجبن عن لوم الخديو عباس لما رآته يمالئ الإنجليز ، ويهادنهم .

٦ — على أن لهذه الصحف محمدة جديدة بالذكر . فقد كانت — بعد إخفاق الثورة العراقية — توحى إلى المصريين بأن يستردوا ثقتهم بأنفسهم . وتعلمهم أن الهزيمة لا تقعدهم عن السعى إلى الاستقلال ، وترد على الإنجليز الذين يمينون على مصر

(١) تطور الصحافة المصرية ١٤٨ — ١٤٩

(٢) مذكرات عرابي ٢٠٦/١

ببعض إصلاحهم بأن هذا بعض حقوق المصريين التي يجب أن ترد إليهم .
ونجحت في تكسير الحواجز التي كانت تحول بين الحاكم والنقد . ذلك بأن
الحديث إسماعيل شجع الصحافة أولا ، ثم جدت ظروف اضطرته إلى أن يقاوم بعض
الصحف المصرية ، فثارت عليه .

ثارت عليه الصحف المصرية التي تحتمى بقنصلية أجنبية (الأهرام تحتمى بقنصل
فرنسا . أبونضارة تحتمى بقنصل إيطاليا) ، كما ثارت عليه الصحف الإفرنجية الصادرة
في مصر ، ثم جاهرت صحف شتى بنقد توفيق وعباس .

٧ — ثم جاهدت الصحف جهاداً مجيداً في ثورة ١٩١٩ وما بعدها . وكانت المنبر
العام الذي يتصل منه الزعماء والقادة والمفكرون بالشعب يغذونه بالآراء ، وينبرون
له سبيل الجهاد . وكانت تطلع الشعب على أسرار السياسة وعلى الأحداث التي تتوالى
في الخفاء . وكثيراً ما نشر فيها شعراء الوطنية قصائدهم الملتهبة للعاطفة الوطنية والدينية ،
وفي الصدارة شوقي وحافظ . وإلى ذلك يشير شوقي في قصيدته (شهيد الحق)
فيخاطب مصطفى كامل بقوله :

أذكر قبل هذا الجيل جيلا	سهرنا عن معلمهم وناما
مهأر الحق بغضنا إليهم	شكيم القيصرية واللجاما
(لواؤك) كان يستقيم بحام	وكان الشعر بين يدي جاما
من الوطنية استبقوا رحيقا	فضضنا عن معتقها الختاما
غرسنا كرمها فزكا أصولا	بسكل قرارة وزكا مداما ^(١)

ويقول في رثائه :

قد كنت تهتف في الوري بقصائدي

وتُجمل فوق النيرات مكاني^(٢)

٨ — ولم يكن قانون المطبوعات الذي صدر في أول عهد الاحتلال (٢٦ نوفمبر
سنة ١٨٨١) ينفذ بشدة في عهد كرومر أي منذ سنة ١٨٩٤ ، لأن هذا الرجل كان بعيد

(١) الشوقيات ١/ ٢٧٧

(٢) الشوقيات ٣/ ١٧٠

النظر ، يجد في تكميم الصحف تأريثاً للوطنية ، وإشعاعاً للحقد على بريطانيا . فلما ارتحل من مصر شهر خلفه سلاح هذا القانون « ففي أوائل سنة ١٩٠٩ ، أعيد قانون المطبوعات ونفذ برفق كثير ، وربما بولغ في تنفيذه ، فأندرت جريدتان عربيتان وألغيت ثلاثة ، وحكم على محررها بالسجن اثني عشر شهراً ، وحكم أيضاً على الشيخ جاويش محرر اللواء بالسجن ثلاثة أشهر . . . لكن هذه الإنذارات لم تفلح في منع الصحف الوطنية المتطرفة من المثابرة على نشر المثالب والمطاعن في ولاية الأمور والازدراء بهم . . . فلم يكن بد من تنفيذ قانون المطبوعات بشدة أكثر من قبل »^(١) .

والحق أن التطرف والمثالب والمطاعن - كما يزعم السير غورست - لم تكن إلا دفاعاً عن مصر ، ونقداً لسوء أحوالها ، وتنديداً ببعض أبنائها الذين يماثلون الاستعمار ويهادنونه .

لذلك طبق قانون المطبوعات على الصحف المعارضة خاصة ، وبسببه سجن الشيخ عبد العزيز جاويش لأنه كتب في (اللواء) مقالا عن ذكرى دنشواي^(٢) ، عرض فيه برئيس الحكومة بطرس غالى .

لذلك جزع حافظ إبراهيم من هذا القانون الذي صدر في وزارة بطرس غالى باشا سنة ١٩٠٩ ، فقيد حرية الرأي والكتابة في الصحف ، فقال :

كانت توأمينا على آلامنا	صحف إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعونا الدمع فاستعصى بكت	عنا أسى حتى تغص وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما	نرمي بها وسوابقاً يوم اللقا
كم نفست عن صدر حر واجد	لولا الصمام من الأسى لتمزقا
مالى أنوح على الصحافة عاجزاً	ماذا ألم بها وماذا أحدا ؟
قصوا حواشيها وظنوا أنهم	أمنوا صواعقها فكانت أضعقا
وأثروا بحاذقهم يكيد لها بما	يثنى عزائمها فكانت أحدا ^(٣)

(١) تقرير غورست عن مصر سنة ١٩٠٩ صفحة ٥ (٢) اللواء ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٩

(٣) الديوان ٦٠/٢ السوابق : الخيل السريعة . حاذقهم : بطرس غالى رئيس النظار .

٩ — الفكرة الشائعة أن الشاميين سبقوا المصريين إلى إنشاء الصحف بمصر .
وهي فكرة تعوزها الدقة ، لأنه في عهد الخديو إسماعيل كانت في مصر صحيفتان
مصريتان قبل أن تولد صحيفة شامية . إذ أنشأ أبو السعود جريدة (وادي النيل)
سنة ١٨٦٦ لتأييد الخديو إسماعيل ، وأنشأ عثمان جلال وإبراهيم المويلحي جريدة
(نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ وهي حرة ناقدة فعطلت .

على أن الشاميين أصدروا صحفهم بمصر ، لأنهم اطمأنوا بها إلى حرية الرأي التي
كانت محظورة بتركيا والشام ، ولأنهم وجدوا مصر أرقى ثقافة وأكثر ملاءمة لنشر
الصحف ، وقد كان الخديو إسماعيل في حاجة إلى صحف تؤيده في مسعاه لإنشاء
المحاكم المختلطة ، فشجع الشاميين على إصدار صحف بمصر ، ثم إن الكتاب المصريين
والكتاب الوافدين على مصر آزرُوا هذه الصحف بمقالاتهم ، كالسيد جمال الدين
الأفغانى والشيخ محمد عبده . وكانت الأحوال السياسية والمالية في مصر غداء للأقلام
ومددا للكتاب .

١٠ — وكانت لشوقي صلة وثيقة بجريدة (اللواء) كما سبق .
وكان ينشر بعض قصائده في غيرها كالأهرام . على أنه كان يقرأ صحف عصره
ويعرف منها أبناء مصر والعالم ، وقد ظهر أثر هذا في كثير من شعره . وسنعرف أنه
ردد في قصائده في (عرابي) كثيرا من المعاني التي نشرتها جريدة (اللواء) في الحملة
على عرابي ، وفي وصف مقدمه إلى مصر .

الثورة العرابية

أسبابها

قيل أن تلتهب ثورة المصريين بزعامة أحمد عرابي كان وعيهم قد نضج ، استجابة
للعوامل السابقة ، ونتيجة لانتشار التعليم ، وثمره للنهضة الأدبية في الكتابة والخطابة
والشعر ، وضيقة بالامتيازات الأجنبية .

(١) نعم فقد ناء المصريون بالامتيازات زمنًا طويلاً^(١) ، والعجب من هذه

(١) بدأت الامتيازات منحة من الحكومات الشرقية للأوروبيين الراغبين في الرحيل لزيارة
القدس أو الإقامة به في عهد الحروب الصليبية . ثم توسع فيها السلطان سليمان القانوني ومن بعده
ليشجعوا التجار على الإقامة في تركيا والبلاد الخاضعة لها .

الطاقة التي احتملت مظالم الدخلاء الذين يحتمون بالامتيازات في البلاد العربية . ولو أن هؤلاء الأفاقيين كانوا على قسط من العدالة أو المجاملة للمصريين لكان الخطب ، لكنهم طغوا وبغوا ونظروا إلى المصريين على أنهم الغرباء الأذلاء المستباح ذمارهم ، فيميزون أموالهم ويستلبون حقوقهم ، ويستبدلونهم في ديارهم ، وهم آمنون من القصاص العادل ، واثقون أن الحكومة المصرية لا تستطيع لهم ضرراً ، وحسبنا أن الإنجليز أنفسهم جاهرُوا بمساوئ الامتيازات وأضرارها .

قال لورد كرومر في كتابه (مصر الحديثة) إن هذه العهود — عهود الامتيازات قد تحولت إلى أغراض خسيسة ، من أمثلتها أن تحمي جهنم القمار كما تحمي بائع الخمر المغشوشة ، وبائع السلع المسروقة . والصيدلى الذى يبلغ به التهاون أن يعطى السم القاتل بدلاً من الدواء الموصوف (١) .

واعترف بآثارها السيئة في مصر وتعويقها كثيراً من ضروب الإصلاح السير لـدون غورست (٢) .

ثم قال كتشنر سنة ١٩١١ « أكثر سلفائى من بيان الحوائل التي تعوق سبيل التقدم بمصر من جراء الامتيازات الأجنبية ، حتى أغنيانى عن الإشارة إلى تعويق الدول الأجنبية لتقدم مصر ، والمأمول أن الاحتجاج الذى احتجته مصر في المؤتمر الصحى الدولى الأخير يؤول إلى تخفيف وطأة هذه الوصاية التي لا تزال وهقاً في عنق مصر » (٣) .

وقال لورد ملر في كتابه عن إنجلترا بمصر إن الحركة الوطنية من الطبيعى أن تتجه باهتمامها إلى المساوىء الشنيعة التي نجمت عن امتيازات الأجانب في الديار المصرية . استخزى المصريون من هذه الامتيازات التي يتبجح بها الأوروبيون وغيرهم من المحتمين بحكومة أوربية ، وبعد صبر طويل لا يطاق ضنجوا بالشكوى إلى السلطان نارة وإلى الخديوتارة ، فلم يُشكِّهم هذا ولا ذاك . ثم اجتمع إلى برَمهم برَمُ الخديو إسماعيل بما تفرضه عليه الامتيازات من قيود ، فبدأ يتخذ الوسائل للحد من سلطانها الواسع ، فوحد القضاء وأنشأ المحاكم المختلطة .

(١) ١١ يولييه وضرب الإسكندرية ٢٧ العقاد (٢) تقرير عن مصر والسودان سنة ١٩٠٧

(٣) تقرير كتشنر عن مصر والسودان سنة ١٩١١ ص ٨

٢ — وكان الشعب قد استنار وبلغ حدّاً من اليقظة يؤهل للشورة . يدل على يقظة الشعب قبل الثورة العراقية قول أحمد شفيق في مذكراته : « وانقلبت مصر مسرحاً للخطب في كل مجتمع وناد حتى في المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء ، واعتلوا منصة المغنين بعد إقصائهم عنها ، حتى لقد سممت أن محمد عثمان المغني الشهير كان إذا سئل : في أي نوع تغنى الليلة ؟ أجاب : في الفرح الفلاني مع عبد الله نديم .

وكثيراً ما كان الخطيب يستصحب معه بعض طلبة المدارس ، وبعد خطابته يقدم أحدهم إلى الجمع ليخطب فيهم ، فينبري الطالب مثيراً في الحاضرين الغيرة والحمية . وقد شاهدت عبد الله نديم يقدم فتحي أفندي زغلول الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب في حفلة عظيمة ، وبعد أن جال بخطبته في السياسة كل مجال أمسك عبد الله نديم بذراعه وقال للحاضرين : ألا تعجبون لما أبداه هذا التلميذ في خطبته من العلم والبيان والافتنان في الموضوعات ، مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً في خطبته ؟

وقدم مرة أخرى في إحدى الحفلات الطالب مصطفى أفندي ماهر ، فخطب القوم وراقبهم خطبته ، فقال عبد الله نديم : أشهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها .

وكان عرابي وعبد العال حلي والبارودي وعلى فهمي وغيرهم من زعماء الحركة يحضرون أكثر هذه الحفلات ويتصدرونها ، فإذا انتهت خرج الناس منها ، وكانهم أهل سياسة ورياسة ، وحينئذ أصبح الناس كلهم عرابي ، وأصبح عرابي الناس كلهم ^(١) .

(٣) على أن عرابي كان يتقد وطنية منذ عهد سعيد ، فقد كان سعيد يذكر في أسى عصور الاحتلال منذ القدم ، ويحض على صيانة مصر من أي عدوان آخر ، وقد أهدى إلى عرابي كتاباً في تاريخ نابليون ، وأعلم الكبراء في حفل عام أنه عازم على إعداد المصريين لخدموا وطنهم ويستغنوا عن الأجانب .

قال عرابي في مذكراته : ولشدة إعجاب سعيد باشا بي اهدى إلى (تاريخ نابليون

(١) مذكراتي في نصف قرن ١/١٤٦

بونابرت) باللغة العربية ، طبعة بيروت ، وهو بادى الغيظ من تغلب الفرنسيين على البلاد المصرية . وكان يحرض على حفظ الوطن من طمع الأجانب .
ويقول : « ولما طالعت ذلك الكتاب شعرت بحاجة بلادنا إلى حكومة شورية دستورية ، فكان ذلك سبباً فى مطالعتى كثيراً من كتب التاريخ العربى . وازداد هذا الشعور تأصلاً فى نفسى عندما سمعت خطبة ألقاها المرحوم سعيد باشا فى مادبة أدبها بقصر النيل للعلماء والرؤساء الروحانيين وأعضاء العائلة الحاكمة وأعظم رجال الحكومة ملكيين وعسكريين ، وبعد تناول الطعام فى مرادق كبير . قال سعيد باشا :
أيها الإخوان : إني نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مستعبداً لغيره من أمم الأرض ثم أغارت فرساً على مصر واحتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بونابرت .

وحيث إني أعتبر نفسى مصرياً فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً ، لأجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفسك إلى العمل .
فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين بما سمعوا . أما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . وأما أنا فقد اعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام (مصر للبصريين) (١).
(٤) أما الأسباب المباشرة للثورة العربية — عدا هذه اليقظة — فإنها كلها تفرق فى ظواهرها لكنها تتوافى على غرض واحد هو الوطنية .

فالحالة المالية سيئة يتفاقم شرها ، والشعب ينوء بالمغارم والضرائب التى يحتملها ، وينوء بوسائل الإعانات فى جمعها ، والمستنيرون من الشعب يأنفون من خنوع حكومة رياض للحكومات الأوروبية ، وخنوعها لمطالب الدائنين ، ومن التدخل فى شئون مصر المالية وغير المالية ، ومن احتكار الأجانب لثروة مصر .

كتب عرابى فى مذكراته : « كنت مأمور الحملة إلى الحبشة سنة ١٢٩٢ هـ وفى عهدى عشرة آلاف حيوان من الجمال والخيول والبغال ، وأغلبها أخذ من المصريين

غصباً بلا ثمن ، وكذلك العلف من الشعير والفول والذرة والتبن . وقد أخذت من المصريين بلا عوض غير الوعود الكاذبة بخضم الأثمان من الضرائب المطلوبة منهم ، وتلك الضرائب لانهائية لها ، فلا يمكن لأى حاسب أن يعرف ماله وما عليه : لكثرة الضرائب غير القانونية ^(١) .

والأحوال السياسية أسوأ ، لأن الحكومة تستبد وتهمل المرافق العامة ، وتشتط في جباية الأموال ، وتستجيب لأوامر الأوروبيين ، بل إن الأوروبيين هم الذين يسيرون شئون الحكم . فلم يجد المستثمرون وسيلة للخلاص من هذا الفساد إلا الدستور والبرلمان والحياة النيابية التي تكفل العدل والحرية والطمأنينة والهيمنة على الحكام . لذلك أجمع المنثورون من الضباط ومن الشعب على المطالبة بالمجلس النيابي .

وكان الشعب يأمل الخير في توفيق ، لكنه تنكر لما كان يأمله فيه . ذلك بأنه في في أواخر عهد إسماعيل وضع شريف باشا دستوراً سنة ١٨٧٩ فيه أحدث الأسس العصرية ، ولم يكده يتمه حتى خلع إسماعيل ، فترقب الناس أن يرحب توفيق بالدستور لكنهم كانوا واهمين ، فاضطر شريف باشا إلى الاستقالة .

فلم يكن بدعاً أن يتذمر الشعب من حكم توفيق وهو في مستهله ، وأن يجاهد لنيل دستوره المنشود وإلى ذلك يشير البارودي ^(٢) . وبهذا التذمر سنحت الفرصة لتقوية التأثيرين والانضمام إليهم .

وكان رياض باشا ظهيراً للخديو توفيق وللنفوذ الأوروبي ، فأخذ يجمع الحركة الإصلاحية ما استطاع ، فزاد الناس سخطاً وتبرماً .

وكانت بمصر صحف جريئة تشهر بالفساد ، وتندد بالاستبداد ، وتدعو إلى الإصلاح وإلى الدستور ، وتحتمل في دعوتها ألواناً من الاضطهاد فكانت وزارة رياض تنذرها أو تعطلها ، كجريدة (مصر) و (التجارة) لأديب إسحاق ، و (مرآة الشرق) و (المفيد) و (مصر الفتاة) و (الإسكندرية) و (المحروسة) . ومنعت جريدة (النحلة) و (أبو نضارة) و (القاهرة) و (الشرق) من دخول القطر المصري .

(١) مذكرات عرابي ٢٩/١

(٢) ديوان البارودي ٣٥٩/٢

وقد التأم شمل الداعين إلى الحرية والتحرر في حزب واحد، سموه الحزب الوطني (قبل أن ينشئ مصطفى كامل حزبه)، وكان من رجاله أحمد عرابي. وأصدر الحزب أول بيان له في ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩. وأنشئت بالإسكندرية جمعية مصر الفتاة، وقدمت للخديو عريضة تطالب فيها بالحرية. وأنشأت هذه الجمعية جريدة باسم (مصر الفتاة). ورأت إنجلترا أن الحزب الوطني يعظم تأثيره، وتذيع أفكاره، ومنها المطالبة بحياة نيابية، والتخلص من الرقابة المالية، ورأت أن وزارة محمود سامي البارودي قد خلفت وزارة شريف الثانية واتجهت إلى تحقيق الحياة النيابية الصحيحة، فكبر عليها وعلى فرنسا الأمر، واتفقتا على إطفاء نور الحرية بمصر، وطمس مظاهر الوطنية، فانهزت إنجلترا فرصة استنجاد الخديو توفيق بها وأرسلت هي وفرنسا بعض قطع من أسطولهما، وسقطت وزارة البارودي^(١).

وثمة سبب من أسباب الثورة، هو في ظاهره سبب خاص بالضباط المصريين في الجيش، لكنه في باطنه أنفة من تمييز الأتراك والجر كس على نظائرهم من ضباط الجيش، فالغضب من التفرقة في المعاملة تضرب بأسباب إلى الاعتزاز بالقومية، والسمو بالوطنية، والأنفة من أن يقدم تركي أو جر كسي يتقاضى مرتبه من مصر على ابن مصر الجدير بخير بلاده، وبخدمتها.

وقد تجلى تمييز الأتراك والجر كس في عهد إسماعيل، ثم استفحل في عهد توفيق، حتى صار الضباط المصريون مضطهدين منبوذين. وتبينوا أن عثمان رفيق — ناظر الجهادية — مصر على حرمانهم من الترقية، وعازم على أن يؤثر عليهم الأتراك والجر كس. وقد عزل بعض الضباط المصريين الأكفاء. وكان الضباط الجر كس يجتمعون في منزل خسرو باشا ويتذاكرون تاريخ دولة المماليك على مسمع عثمان رفيق، ويلعنون خيرى بك لتسليمه وإذعانه للسلطان سليم، ويقولون إنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم إليهم، يريدون أن يستأثروا بمصر كما فعل المماليك من قبلهم. فاتفق الضباط مع عرابي على تقديم الوطن بأرواحهم، فكتب عرابي إلى رئيس النظار مصطفى رياض باشا يشكو تعصب عثمان رفيق لبني جنسه، وإجحافه بحقوق المصريين،

وطلب عدة مطالب ، منها تأليف مجلس نواب من نهاء الأمة تنفيذاً لأمر الخديوى الصادر عقيب ارتقائه الأريكة الخديوية^(١).

ثم تعقدت الأمور يوماً بعد يوم ، وكان تعقدها موافقاً للانفجار ، مقوياً للأحرار الثوار .

ففى سبتمبر ١٨٨١ م اتفق الجيش على التلاقى بميدان عابدين لتقديم طلبات عادلة إلى الخديو . وفى حوار عرابى للخديو يستبين إلى أى مدى بلغ الوعى القومى ، والشعور الوطنى . فقد سأل الخديو عرابى عن سبب حضوره بالجيش ، فأجابه : جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة .

فقال الخديو : وما هذه الطلبات ؟ قال عرابى : هى إسقاط الوزارة المستبدة — وزارة رياض — وتأليف مجلس النواب على النسق الأوروبى .

فقال الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساننا . فقال عرابى : لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا ترثاً وعقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

فدخل الخديو القصر وعاد المستر كوكسن — قنصل إنجلترا فى الإسكندرية — والمستر كلفن — المراقب المالى الإنجليزى — وخاطبنى القنصل نيابة عن الخديو قائلاً : إن طلب إسقاط الوزارة وتأليف مجلس نواب من حقوق الأمة لا من حقوق الجيش . فقلت : إن طلباتى الخاصة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائباً عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم إخوانهم وأولادهم وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى المطالبة بحقوقهم . ثم استجاب الخديو مطالب الجيش ، وعين شريف باشا رئيساً للوزارة ، وأقبل على الوزارة كراء الأمة مهشين ومؤيدين عرابى ، وقدموا إليه طلباً بتأليف مجلس النواب^(٢).

(١) مذكرات عرابى ٥٦/١ — ٥٨

(٢) مذكرات عرابى ٧٤/١ — ٨٤ والثورة العرابية ١٢٧ للرافى وكتاب محمد عبده عن الثورة العرابية . تاريخ الأستاذ الإمام ٢٢٢/١ وفيه أن عرابى لم يرد على الخديو . وأن الذى كلم عرابى هو المستر مالت قنصل إنجلترا .

هزيمة الخديو توفيق

ولم يلبث الشعب إلا قليلاً حتى اشتبك في صراع حربي بانجلترا المعتدية ، وأيقن في خلاله أن الخديو يستعدى الإنجليز وأنه ابتهج بضرب بوارجهم الإسكندرية في ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، فاشتد الحنق عليه ، وفكر العراييون في خلعه ، ودبروا الأمر لذلك ^(١) . ثم دعا عرابي إلى عقد مجلس وطني للنظر في أمر الخديو ، وواجب الشعب نحو أعماله ^(٢) . فاجتمع المجلس في ١٧ يولية سنة ١٨٨٢ ، وكان عدد المجتمعين أربعمائة من ممثلي الشعب وزعمائه ، وقرروا الاستمرار في الاستعداد الحربي ، وبقاء عرابي في وزارة الحرية — وكان الخديو قد عزله — ثم اجتمع المجلس مرة ثانية بعد خمسة أيام ، وشهد اجتماعه خمسمائة من ممثلي الأمة على اختلاف طوائفها ، وتليت عليه منشورات الخديو ومنشورات عرابي . وتليت فتوى شرعية من كبار رجال الدين بأن الخديو مرق من الدين مروق السهم من الرمية ، لحياسته دينه ووطنه ، وانحيازهم إلى الجيش المحارب لبلاده . وقرر المجلس وقف أوامر الخديو ونظاره ^(٣) وعدم تنفيذها ، وأن يعرضوا قرارهم على السلطان عن طريق وكلاء النظارات ^(٤) .

كان الثوار يأملون أن يظفروا في صد الإنجليز ، وفي خلع الخديو ، لكن عوائق داخلية وخارجية حرمتهم الظفر بما يشتهون ^(٥) . وقد ذكر البارودي صراحة أنهم كادوا يودون انقلاباً يسعد مصر :

كنا نود انقلاباً نستريح به حتى إذا تم ساءتنا مصايه
فالقلب مضطرب فيما يحاوله والعقل محتبل بما يحاذره ^(٦)

ونجده يشير في إحدى قصائده إلى طموحه أن يكون خديو مصر ، ولعله وجد نفسه أحق زعيم بهذا المنصب ، فهو رجل سيف وقلم ، وهو ينتسب إلى المماليك الذين حكموا مصر قروناً ، وطالما خايل بهم ، وفاخر بنفسه وبأصله .

(١) الثورة العرابية ٣٧٤ الرافي (٢) مذكرات عرابي ١/ ١٨٨ والثورة العرابية ٣٩٤

(٣) كان النظر في الإسكندرية مع الخديو .

(٤) مذكرات عرابي ١٩٤/ ١٩٦ والثورة العرابية ٣٩٥ ، ٤٠٣

(٥) راجع الثورة العرابية للرافعي ٥٥١ — ٥٦٠ (٦) ديوان البارودي ١٢٧/ ٢

يدل على ذلك أنه حمل على الحديد وحملته مستورة ، ودعا الشعب إلى أن يختاره هو :
 قامت به من رجال السوء طائفة
 أدهى على النفس من بؤس على شكل
 من كل وغد يكاد الدست يدفعه
 بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
 دلت بهم مصر بعد العز واضطربت
 قواعد الملك حتى ظل في خلل

فالم لا تعاف الضيم أنفسكم ولا تزول غواشيكم من الكسل ؟
 فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
 وشكالة الريث فالدنيا مع العجول
 وقلدوا أمركم شهماً أختة
 يكون رداء لكم في الحادث الجلل
 ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت
 مسالك الرأي صاد الباز بالحجل
 إن قال بر وإن ناداه منتصر لبي ، وإن هم لم يرجع بلاقل^(١)
 وليس يبعد هذا الاستنباط أن البارودي زعم في ديوانه أنه قال هذه القصيدة
 في عهد إسماعيل ، ولا أنه حنق على الثورة ، ولأم الثوار فيما بعد^(٢) ، وحصر جهوده
 في أنه كان يطالب بالدستور وبالعدل^(٣) .

ويؤيد جنوح العراقيين إلى عزل الخديو وتولية أحدهم أن قنصل إنجلترا قال
 لعراقي والجلس مجتمع بميدان عابدين : علمت من كلامك أنك ترغب في تنفيذ مطالبك
 بالقوة . فقال له عراقي : إنهم سيقاومون من يتصدى لمعارضتهم إلى أن يفنوا عن آخرهم ،
 وإنه يستطيع أن يحشد مليون جندي يلبون إشارته . فقال له القنصل : وماذا تفعل
 إذا لم تجب إلى ما تطلب ؟ فقال عراقي : أقول كلمة أخرى . فسأله القنصل : ما هي ؟
 فأجابه : لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط^(٤) .

فإذا عسى أن تكون هذه الكلمة إن لم تسكن عزل الخديو ؟

(١) ديوان البارودي ٢/٢٢٨ طبعة المنصوري . شكالة : الصواب شكال وهو الحبل . الحجل :
 جمع حجلة وهو الذكر من القيج أو أثى اليعاقب . يريد أنه يصل بحسن حيلته إلى مقصده بقليل من العمل .
 النفل : الغنيمة . (٢) ديوان البارودي ٢/٣٣٥ طبعة الجارم (٣) الديوان ٢/٣٥٩
 (٤) مذكرات عراقي ١/٨٠

ويؤيد ذلك أيضا في مذكراته : « في أوائل شهر يناير ١٨٨٢ خلوت بالمغفور له محمود سامي باشا ناظر الجهادية ، فأطنب في الشئ على . . ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحي حياته في تنفيذ رغبتي ، ويجرد حسامه وينادي باسمي خديويا لمصر إذا رغبت في ذلك . فرددت عليه بأن لا أريد إلا تحرير بلادى ، ولا أريد انتقال الحكم من الخديو ، مع علمى بأن البارودى أولى منى ، لأنه ينتسب إلى الملك الأشرف (برسبای) فقال لى البارودى : بل أنت أحق ^(١) »

قيمة الثورة

هذه الثورة كانت عسكرية وشعبية . كانت عسكرية لأن الجيش هو الذى تزعمها ، فكان معبرا عن نفسه وعن الشعب ، فهو الهيئة التى ظلت بعيدة عن المراقبة ، ولها نظام ، وفيها قوة ، فكان لابد أن يتجمع فيه استياء الأمة ، وأن يقودها إلى الدفاع عن كرامتها وحياتها . مثله فى ذلك مثل الجيش الباسل فى ثورته فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وقد صدقت جريدة التيمس فى قولها عن ثورة العراقيين : « يجب أن نذكر أن الجيش هو الهيئة الوطنية الوحيدة التى تملكها مصر الآن ، وكل هيئة سواه قد عدا عليها مثلوا فرنسا وإنجلترا ، فأخذوا بزمامها وغيروا نظامها » ^(٢) .

وكانت الثورة شعبية ، لأن هؤلاء الضباط من الشعب ، ثم لأن الشعب أسهم فى الثورة بنصيب عظيم ، وحسبنا أن نذكر فى خطباء الثورة وكتابها : محمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم وحفى ناصف وأديب إسحاق ^(٣) .

(١) مذكرات عرابى ١٠٠/١

(٢) تاريخ المسألة المصرية ١٢٠

(٣) كان عبد الله نديم خطيباً مفوها ، كثيراً ما خطب فى المحافل ، ولا سيما بعد أن أعلن الدستور فى أول عهد توفيق ١٨٨٢ وكان محور خطبه الدستور والحياة النيابية واتحاد الأمة ورعاية مصالحها . ولما اشتعلت الثورة العراقية كان خطيبها فى كل مكان (زعماء الإصلاح ٢٢٨) فهو بقله ولسانه موقظ للوعى منه للشعور . وكان حفى ناصف يناصر الثورة بقله فى الجرائد بإمضاء مستعار (إدريس ابن محمد بن) على لسان سودانى مقيم فى مصر ولما لم تجنده الحكومة لأنه كان وحيداً أبويه وحافظاً للقرآن تطوع فى الجيش ومكث شهرين فى قشلاق عابدين (من مقال لمجد الدين حفى ناصف بأخبار اليوم ١٢/١٢/١٩٥٣) .

وقد عرفنا أن الكتاب والخطباء قد مهدوا للثورة ، ثم صاحبوها وناصروها وهي مشتعلة ، وعرفنا أن الحزب الوطني الأول قد سبق الثورة ، وهذه كلها جهود شعبية . على أن الشعب قد ناصر الثورة برجاله وبماله وبشعوره ، ووجد فيها الخلاص من ربقة الاستعمار ، والاطمئنان إلى حكم عادل صالح .

وهل ننسى أن مصر اجتمعت في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ ممثلة في خمسمائة من كبرائها فيهم أمراء وعلما وشيخ الإسلام وقاضى القضاة والمفتى ونقيب الأشراف وبطريق القبط وحاخام اليهود ووكلاء الوزارات (لأن الوزراء كانوا محاصرين عند الخديو بالإسكندرية) والنواب وكثير من الباشوات وكبار الضباط وكبار الموظفين وكبار التجار والأعيان ورؤساء العشائر والعمد — اجتمع هؤلاء في مؤتمر وطني عظيم من جهات مصر قاطبة ^(١) . وأيدوا عرابي ، ولم يعترفوا بقرار الخديو بعزله من نظارة الجهادية والبحرية ، وأوقفوا العمل بأى قرار يصدره الخديو ، ووافقوا على الفتوى بأن الخديو مارق من الإسلام .

فما الذى يدل على شعبية الثورة إن كان هذا كله لا يدل ؟ وإذا كانت الثورة قد منيت بالخيبة ، فإن هذا لا يغض من شأنها ، أو يدعو إلى ثلب زعمائها والانتقاص من حيوية الشعب ، لأن الثورة يجب أن تقدر بالبواعث عليها ، والآمال المنوطة بها ، كما تقدر بشمراتها ونتائجها . وسنعرف هذا حينما نتحدث عن قصائد شوقي في عرابي .

الدستور العثماني

نجحت (جمعية الاتحاد والترقي) في جهادها لنيل الدستور ، فصدر في ٢٣ يولية سنة ١٩٠٨ أيام السلطان عبد الحميد ^(٢) ، وانتخب من الأقاليم العربية نواب يمثلون العرب بدار السعادة (الأستانة) . وكان عدد نواب العرب يزيد على ربع أعضاء المجلس ^(٣) .

(١) لم تتخاف إلا جرجا وأسوان لبعدهما .

(٢) كان الأحرار قد حملوا السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور والحكم النيابي حين توليته سنة ١٨٧٦ م ولم يدم الدستور طويلا ، فقتل وليدا ، وعاد نظام الحكم المطلق . ثم عاودوا جهادهم .

(٣) كان مجلس النواب مؤلفاً في دورته الأولى من ٢٧٣ للعرب منهم ٧٠ عضواً .

(١) ورأى أحرار العرب في الدستور كفالة لحريتهم ، فانطلقت ألسنتهم من عقابها ، وانفلتت أقلامهم من أغلالها ، واجتمع الناس في كل مكان ، وتنفس الذين كانوا محتقنين بالإرهاب والاستبداد ، فتيقظ العرب ، وأدركوا أنهم عنصر مهممل في الدولة العثمانية ، وأنهم أصحاب حقوق يجب أن ينالوها ، وورثة مجد يجب أن يبعثوه ، وصدرت صحف عدة في ظل الدستور بمصر ودمشق وبغداد والقدس ويافا وطرابلس واللاذقية وحلب وجدة وبغداد والبصرة والآستانة ، وكان لها تأثير عظيم في إيقاظ الرأي العام ، وبث الروح القومية .

ففي مصر شد الدستور العثماني أزر الداعين إلى الدستور والحكم النيابي ، وحفلت الصحف بالمطالبة بالدستور ، ولما عارض السير إللدون غورست بدعوى أن مصر لم تبلغ من النضج مبلغا يؤهلها للحكم الدستوري — لأنه على ثقة من أن الخديوي لا يرضى بالدستور الذي يكف يده عن السلطة ، وقد أطلق الاحتلال يده بعض الإطلاق بعد أن كانت مغلوطة زهاء خمسة عشر عاما ، ولأن الحكومة الدستورية ستسلب الاحتلال سلطانه — انبرت له الصحف الوطنية ، وفي مقدمتها (اللواء) تفند دعواه وتحمل عليه . وآزرها مجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٨ فطالب الحكومة بإعداد مشروع قانون يمنح الأمة حق الاشتراك الفعلي مع الحكومة في إدارة الأمور الداخلية ، ومشروعات القوانين الخ .

(٢) ثم استبان العرب — بعد طردهم بالدستور العثماني وانضمامهم إلى جمعية الاتحاد والترقي — أن أقطاب العهد الجديد يسرون كسابقيهم في الحكم ، فيعززون قوميتهم التركية ، ويقاومون العناصر الأخرى ، وأخذت الصحافة التركية تكشف عن نيات الأتراك ، وتنال من العرب ، فانبرت الصحف العربية ترد على التهجم بمثله ، وانظم الشعراء من الترك ومن العرب قصائد ، وكان في هذا الصراع إذكاء للقومية العربية ^(١) .

ونجم عن هذا الشعور أن انفض العرب عن الاتحاديين ، وأن شرعوا ينشئون جمعيات عربية في عواصمهم : بالقاهرة وبغداد ودمشق وبغداد ، وفي الآستانة أيضاً ،

لتعزيز شأن العرب ، والدفاع عن حقوقهم ، وتسوييتهم بالترك في الوظائف والأعمال . وكان لهذه الجمعيات وللصحف وقصائد الشعراء أثر عظيم في تقوية الرأي العربي العام ، وإيقاظ الشعور القومي . من هذه الجمعيات جمعية الإخاء العربي سنة ١٩٠٨ بالآستانة ، ثم المنتدى العربي من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١٥ . والجمعية القحطانية بمصر من سنة ١٩٠٩ — إلى ١٩١٤ والعلم الأخضر سنة ١٩١٢ .

وأنشئت في باريس الجمعية العربية الفتاة ثم انتقلت إلى بيروت سنة ١٩١٢ . وكانت جمعيات وأحزاب أخرى مثل حزب اللامركزية العثماني ، وجمعية بيروت الإصلاحية ، وجمعية البصرة الإصلاحية ، والنادي الوطني العلمي ببغداد ، ومؤتمر باريس العربي ، وجمعية العهد بالآستانة (أنشأها عزيز علي المصري) ، وجمعية الجامعة العربية ^(١) .

وهذه الجمعيات كلها تدعو إلى حكم عربي داخلي ، وإلى تعاون العرب على ما فيه خيرهم ، وقد ناصرتها جرائد شتى بالأقطار العربية ، بلغ عددها نحو العشرين ، منها بمصر المقطم والأهرام والمنار والمؤيد .

(٣) ومن الحق أن نذكر أن النزوع إلى القومية كان أقدم من إعلان دستور سنة ١٩٠٨ ، فقد نشأت جمعيات في البلاد الخاضعة لتركيا منذ أواخر القرن التاسع عشر تطالب بحقوق العرب ، وتستحث همهم مسلمين ومسيحيين إلى الاتحاد والحرص على أن يكون لهم كيان ، وتذهبهم إلى الغبن النازل بهم . من هذه الجمعيات « جمعية حفظ حقوق الملة العربية » سنة ١٨٨١ والجمعية التي انعقدت بباريس من شبان العرب والأتراك سنة ١٨٩٦ تدعو إلى الإصلاح الداخلي ، وأن يحكم الولايات العربية حكام من العرب مستقلين في ظل الخلافة العثمانية ^(٢) .

(٤) وليس أدل على الاستبشار بالدستور من حفاوة الناس به ، وتديبهم المقالات والخطب والقصائد في الترحيب به ، وفي الإشادة بزعماء الانقلاب . ففي مصر شوقي وحافظ وصبري .

(١) الثورة العربية الكبرى ١٢/٦-١٢ و ١٤-٥٠ .

(٢) العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث ٥٩ أنيس المقدسي .

وفي سوريا ولبنان عبد الله البستاني ، وشكيب أرسلان ، وفارس الخوري ،
ونقولا فياض ، ومحيي الدين الخياط ، وشبلي ملاط ، وبشارة الخوري .
وفي العراق الزهاوي والرصافي والشبيبي .

قال شوقي قصيدته (الدستور العثماني) بين فيها فرح الشعوب الخاضعة لتركيا
بالدستور ، وأثنى فيها على السلطان عبد الحميد ، وعلى الأتراك ، وأشاد بنعمة الشورى
وآثارها في سياسة الشعوب . منها :

بُشِّرَى البرية قاصيها ودانيها	حاط الخلافة بالدستور حاميا
لما رآها بلا ركن تداركها	بعد (الخليفة) بالشورى وناديا

.....

أسدى إلينا (أمير المؤمنين) يداً	جلّت كما جلّ في الأملاك مُسديها
بيضاء ما شابهها للأبرياء دم	ولا تكدر بالآثام صافيتها
إن الندى والرضا فيه وأسرته	والله للخير هاديه وهاديتها
قوم على الحب والإخلاص قدملكوا	وحسب نفسك إخلاص يُركيها

.....

الرأى رأى أمير المؤمنين إذا	حارت رجال وضلت في مرائيتها
وإنما هي شورى الله جاء بها	كتابه الحق يُعلمها ويُعلمها

.....

أما ترى الملك في عرس وفي فرح	بدولة الرأى والشورى وأهلها ؟
لما استعد لها الأقوام جئت بها	كلما عند غليل النفس صادها
فضل لذاتك في أعناقنا ويد	عند الرعية من أسنى أيادها
خلاقه الله جر الذيل حاضرها	بما منحت وهز العطف بادها
طارق قناها سروراً عن مراكرها	وألقت الغممد إعجاباً مواضعها

.....

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها
 نلت الذي لم ينله بألقنا أحد فاهتد لأنورها واحمد نيازها ^(١)
 ولم ينس شوقي أن يلهم إلى ما تريده مصر من دستور كال دستور العثماني :
 ما بين آمالك اللاتي ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدريها ^(٢)
 ولما نكت السلطان بعهد خلع الأحرار وولوا بديلا منه السلطان محمد رشاد
 الخامس فحياه شوقي بقصيدة أشاد فيها بالدستور ^(٣) .

ولهذا الدستور ذكر مُردّد أيضاً في شعر حافظ إبراهيم ، كقوله في تهنته للسلطان
 عبد الحميد بعيد جلوسه سنة ١٩٠٨ م :

أنتي الحجيح عليك والحرمان وأظّل عيد جلوسك الثقلان ^(٤)
 أرضيت ربك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوان
 وجمعت بالدستور حولك أمة شتى المذاهب جمّة الأضغان

.....

فجعلت أمر الناس شوري بينهم وأقت شرع الواحد الديان
 تليجت صدورهم وقرّ قرارهم لما حلفت بأرق الأيمان
 ورحب بشهر (تموز) الذي أعلن فيه الدستور ، وود أن يكون لمصر نصيب
 من خيرات هذا الشهر وفأله بهيج :

تموز أنت أبو الشهور جلالة تموز أنت مني الأسير العاني
 هلا جعلت لنا نصيباً علنا نجرى مع الأحياء في ميدان
 أبعود منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمان ^(٥)
 وقال في سنة ١٩٠٩ :

وإن لم يدرك الدستور مصرا فلحياتها أبدا قوام ^(٦)

(٢) الشوقيات ٣٥٨/١
 (٤) الثقلان : الإنس والجن
 (٦) ديوان حافظ ٥٧/٢

(١) أنور و نيازي بطلا الدستور العثماني
 (٣) الشوقيات ٢٠٤/١ — ٢٠٨
 (٥) ديوان حافظ ٣٨/١

ولما خلع الثوار عبد الحميد واستردوا الدستور عبر حافظ عن فرح الشعوب، وعن الألفة والوحدة بين سكان الولايات العثمانية في ظلال الدستور من مسلمين ومسيحيين ويهود، وبهجتهم بإنهاء عهد الاستبداد وخلع عبد الحميد، ثم توعد من ينتكر للدستور.

هنيئاً لهم فالكونُ في يوم عيدهم مشاركةٌ وضّاء ومغاربة
رعى به شعباً جمع العدل شمله وتمت على عهد الرشاد رغبته
تحالف في ظل الهلال إمامه وحاخامه - بعد الخلاف - وراهبه
فمن يطلب الدستور بالسوء بعدما حتمه يد الفاروق فالله طالبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه وولّت أفاعيه وماتت عقابه
وفي الشرق عيد لم ير الشرق مثله تدفق في دار السلام مواكبه ^(١)
وكان ولي الدين يكن من دعاة الحرية، فأمسهم في مهرجان الدستور بقصيدة منها.

بالأمس كنا معشرا تبكي لحالتنا المعاشر
تقتادنا الأيدي الأثيمة للسجون وللبقابر
ويصول أنصار المليـك على الأكابر والأصاغر
لله قصر شـاخ مدّ النواظر عنه قاصر
قصر به يعلو التسـاوى رأس مأمور وآمر
لم يبق ظلم يتقى دارت على الظلم الدوائر ^(٢)

وقال في سنة ١٩١٠.

يا عصر قد حسدتك اليوم أعصار الأمر شورى وكل الناس أحرار
الناس تحت قيود الأسر قد وقعوا دهرأ ومذأدركوا حرية طاروا ^(٣)

(١) ديون حافظ ٤٨/٢: يريد بالفاروق السلطان محمد رشاد • وبالعقارب والأفاعى جواسيس السلطان عبد الحميد ودار السلام القسطنطينية وبالهلال الخلافة العثمانية وبالامام المسدين وبالحناخام اليهودى وبالراهب النصارى .

(٢) ديوان ولي الدين يكن ٥٤ (٣) الديوان ٣٩

وقال الزهاوى :

وقفت والعين تبكى من مسرتها
أمام بحر من الأفكار مضطرب
إن الشعوب إذا هاجت عواطفها
البحر أهدي لنا بشرى بها هدأت
بشرى كما تبتغى الآمال صادقة
لقد أقرّ لعمري أعيناً سخنت
أمام شعب من الأفراح عجاج
أمام جيش من الأصوات رجراج
كالبحر يضرب أمواجاً بأمواج
أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
أجلّمنا الناس من قاصٍ ومقرب
ماناله فئسة الأحرار من أرب^(١)

فلما تنكر السلطان عبد الحميد للدستور ، واغضبته الأحرار على رده ، وسقطت
وزارة كامل باشا قال الرصافي :

سقتنا المعالي من سلاقتها صرفاً
وزفت لنا الدستور أحرار جيشها
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكراً
ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا
ترجع فى صدر الوزارة كامل
لقد أغضب الدستور فعلاً ونية
فيأياها (الصدر)^(٢) الجديد اتعظ به
ويا مجلس النواب سر غير عاثر
وغنت لنا الدنيا تهنئنا عزفاً
فأهلاً بما زفت وشكراً لما زفا
وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ببعض هتافاً يصعق الظلم والحيفا
نخط من النقصان فى وجهها حرفاً
ومن أعلنوا الدستور والشعب والصحفا
فإياك أن تطغى وأن تثنى العظفا
إلى المجد لا تلقى كلالاً ولا ضعفاً^(٣)

ولما وجد الرصافي أن الاتحاديين — بعد إعلان الدستور — يؤلفون الوزارات
من غير رجالهم ، ويخضعونهم لخططهم ، هاجم سياستهم الخادعة ، وبين أن لا طاعة
إلا للدستور والعدل والحق :

شكاية قلب بالأسى نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق

(١) ديوان الزهاوى ٢٧٤

(٢) الصدر الجديد : حسين حامى باشا (٣) ديوان الرصافي ١٠٧

ملوك على كل الملوك ثلاثة لها الحكم دون الناس في الفسق والرفق
وأقسم أني لا أكون لغيرها مطيعا ولو من أجلها ضربت عنقي
فهل أيها الدستور تسمع شاكيا بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق

.....

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد لديهم فيا لله للمسعدي المشقى
كأننا لهم شــــــــــــــــاء فهم يحلبوننا وكم مخضوا أوطاننا مخضه الزرق
أترضى بأن تختص بالحكم معشرا وتصبح للباقيين حبرا على رق

.....

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا وشيب وشبان على ضمير بلق^(١)

مصطفى كامل والحزب الوطني

١ — قبيل الثورة العراقية (سنة ١٨٧٤) ولد الطفل الذي أشعل الوطنية فيما بعد ، وسار بها إلى الأمام أميالا^(٢) ، في وقت كاد المصريون يستسلمون فيه للقنوط بعد هزيمة الثورة العراقية ، والاحتلال البريطاني ، وبمناطة انجلترا في الوفاء بوعودها المتكررة بالجلء عن مصر ، وتخلي الدول الأوروبية عن المسألة المصرية تدعها لانجلترا تصرفها كيفما نشاء ، وإلغاء الجيش المصرى والاستعاضة بجيش ضعيف قليل العدد والعدد يهيمن عليه البريطانيون ، وخضوع الحكومة المصرية لمشية بريطانية ، وتدخل الإنجليز في شئون الحكومة كلها ، وإلغاء الدستور الذى صدر سنة ١٨٨٢ ، وتأليف مجلس الشورى ضعيف الحول ، وجثوم لورد كرومر على صدر مصر جثوم من لا يرتجى براحه .

أحس مصطفى كامل بذلك كله ، وضاق به ذرعا ، وكان وطنيا عبقريا جادت به العناية الإلهية على وطن يعوزه من يوقظه بعد غفلة ، ويبشره بعد ياس .

(١) ديوان الرصافي ٣٧٥

(٢) مصطفى كامل ٢٦ للرافعى

فجاهد وهو طالب بالمدرسة الخديوية سنة ١٨٩٠ ، وبمدرسة الحقوق . ثم تخرج ففرغ للجهاد في مصر وفي أوروبا بالقلم وباللسان ، محرراً على إخراج الإنجليز من مصر ، ومطالباً بالدستور داعياً إلى الاتحاد وإلى نشر التعليم القومي ، ومندداً بفظائع الاحتلال في مصر .

وفي سنة ١٩٠٧ دعا إلى تأسيس الحزب الوطني ^(١) . والانضمام إليه ، وجعل هدفه الأول (الجلاء) حتى صار أصبح تعريف له أنه حزب الجلاء . فانهالت عليه طلبات الانضمام من جميع طبقات الشعب . وعقدت أول جمعية للحزب بدار اللواء في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، وخطب مصطفى كامل خطبة ضافية ، جاء فيها عن أغراض الحزب « إننا لسنا حزباً سياسياً فقط ، بل نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة وإنهاض لها . فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة . حزب يرمى إلى الاستقلال أس كل سعادة ، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلاً تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة ، وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى . هو يرمى قبل كل شيء إلى أن يكون المصري إنساناً بأسمى معاني الكلمة ، ولا أقصد بالمصري ذلك الذي نراه في المدائن يجرد ويعمل فقط ، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذي قضى القرون وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له . فأسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز ، وإعلاء مكانته ، لأنه يمثل النشاط المصري ومصدر كل خير ونعيم . فليحى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية ، وصار رجلاً حراً بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين في سبيل حريته وسعادته .

إننا إذا دعونا الناس للدخول في هذا الحزب لاندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ، باسم كرامة الإنسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم . ثم نفي تهمة الثورة التي نسبها بعض خصومه إليه ، وشبهوه بحزب العرابيين ، وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال ، واستنكر الحكم المطلق ، ودعا إلى التمسك

(١) أطلق هذا الاسم على حزب كان قبيل الثورة العرابية . وظل يطلق على جماعة الوطنيين الأحرار إلى أن أسس مصطفى كامل الحزب الوطني .

بالنظام الدستوري ، وحث على الثبات والاتحاد ^(١) .

لكن مصطفى كامل لم يسعد بازدهار غراسه وجهاده ، فقد أسلم الروح في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فبكته مصر كلها بكاء متفجعاً ملتاعاً .

(٢) ولقد كان مصطفى كامل يستقي وطنيته من ينبوع نفسه ، ويروي الشعب من منهل ، ثم يتجاوب مع الشعب فيسقي ويستقي .

وكان أول الأمر يزدد حماسه بما يضيفه عليه الخديو عباس الثاني من تأييد وإكبار وتشجيع .

ذلك بأن عباساً تولى بعد هزيمة الأمة في الثورة العرابية ، غير راض عما اقترفه جده إسماعيل من سرف وترف وديون ، وأسيفا لما فعله أبوه توفيق من استعانه بالإنجليز واستسلامه لهم ، وقد جاء إلى مصر بعد أن تعلم في فرنسا ، وارتوى بأفكار النهضة بأمتة وإشراكها في شؤون الحكم ، فوجد الشعب والشباب المستنير يقدر فيه هذه المشاعر ، ويتلقاه بالحماسة والإكبار .

وكانت الفرص مواتية له ، فإن تركيا تلح في جلاء الإنجليز عن مصر ، وفرنسا تندم على أن فقدت نفوذها في مصر ، فتحاول أن تستعيده بتأييدها لعباس .

كان عباس عظيم الأمل في أن تسترد مصر استقلالها في عهده ، فقاوم التدخل البريطاني في مطلع حكمه ^(٣) .

(١) مصطفى كامل ٢٦٢ — ٢٧١ للرافعي

(٢) أهل رئيس النظار مصطفى فهمي باشا في ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ (بعد توليه الخديوية بعام) فهاج لورد كرومر ، وأصر على عودته ، فلم يعأ به عباس ، فتوعده كرومر . وابتهج الشعب بجرأة الخديوى وصلاته ، وعبر عن مؤازرته له بمظاهرات عمت قصر عابدين في ١٨ يناير سار فيها الموظفون والقضاة والأمراء وأعضاء مجلس الشورى (مصطفى كامل للرافعي ٣٠٦ — ٣١٠) .

ورفض أن يكون له مستشار إنجليزي في القصر يسترشد بأرائه (أحمد شفيق ١٥/٢) وغير كبار الحاشية لأنهم كانوا موالين للإنجليز منذ أيام توفيق (أحمد شفيق ١٦/٢) ورفض أن يجعل يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٩٧ عطلة رسمية في مصالح الحكومة بمناسبة احتفال الجالية الإنجليزية في مصر ببلوغ ملكتهم الستين وكان كرومر يريد ذلك ، ومصطفى فهمي يوافق (أحمد شفيق ٢٥١/٢) .

وفي سنة ١٨٩٢ عفا عن الذين اشتركوا في النزوة العرابية (أحمد شفيق ٣٥/٢ — ٣٧) وفي عام ٩٨ ، ٩٩ عفا عن زعماء الثورة ومنهم البارودي وطلبه عصمت (أحمد شفيق ٣١٧/٢) .

وقد وجد في الزعيم الشباب مصطفى كامل الشخصية الفذة، والحماسة المتقدة، والوطنية الملهمة، فقرّبه إليه، ومده بالمال منذ سنة ١٨٩٤ وتعاهدا على الجهاد لتخليص الوطن من الاحتلال، فكانا يجتمعان باللجنة السرية في مسجد الشيخ التبري بناحية قصر القبة^(١)، وعملا معاً أعواماً، ثم افترقا^(٢).

وقد أيقن الإنجليز أن الخديو كان يوعز إلى مصطفى كامل باشا صاحب (الواء) والشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) بانتقاد الاحتلال وكبار رجاله، وشنّ الغارة على لورد كرومر وأساليب حكمه.

وسمع الإنجليز أنه أعان مصطفى كامل بالمال، لإصدار المصحف الإفرنجية، ونشر الدعاية في البلدان الأوربية^(٣).

وعرفوا أنه يستكتب كاتباً ليحمل على لورد كرومر في المصحف الإنجليزي، وأنه يقرب إليه زعماء الحركة الوطنية^(٤).

لكن حماسة الخديو انطفأت منذ عقدت إنجلترا مع فرنسا الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، فظهر انحيازه إلى الاحتلال، ومهادنة المحتلين، فحضر عرض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين سنة ١٩٠٤، ولما سخط الشعب على حضوره اضطرت (المعية) أن تعتذر كاذبة بأنه حضر مصادفة. لكنه عاد فحضر العرض في العام الثاني^(٥).

فأعلن مصطفى كامل أنه قطع علاقته بالخديو، وكتب في اللواء يقول: «إن المخلص في عمله يجب أن يؤدي الواجب عليه وإن ضحى في سبيله بمصلحته الذاتية وأعز ما تميل إليه نفسه»^(٦).

وانتقد مصطفى كامل وقوفه تحت العلم البريطاني في حفل استعراض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين في نوفمبر سنة ١٩٠٤.

ولما استقال لورد كرومر سنة ١٩٠٧ وخلفه السير إدون غورمست ضلع الخديو مع السياسة البريطانية، وصرح بأنه لا يناوئ الاحتلال، وبأنه مستعد للتعاون معه،

(١) مذكراتي في نصف قرن ١٥/٢ أحمد شفيق ومقال للأستاذ محمود عزمي بالأهرام عقب وفاة عباس (٢) مصطفى كامل ٣٢٦ الرافعي (٣) سعد زغلول ١٣٨ العقاد

(٤) مذكراتي في نصف قرن أحمد شفيق باشا القسم الثاني من الجزء الثاني ١٢٠، ١٢٤، ٣٤٢

(٥) مصطفى كامل ١٨٦ الرافعي (٦) مصطفى كامل ٣٢٩ الرافعي

إذ لا جدوى من تغيير احتلال بآخر ، بل إن الاحتلال البريطاني أفضل من غيره^(١) ،
فهاجمه مصطفى كامل في مقالين ملتهبين^(٢) ، وأعلن أن الحركة الوطنية ماضية
إلى غايتها معتمدة على قوتها^(٣) .

(٣) ولما مات مصطفى خلفه محمد فريد ، وحمل لواء الجهاد عاليا ، فدافع عن قضية
مصر بلسانه وبقلمه وبماله في مصر وأوروبا ، وجاهر بعدائه للاحتلال ، واستمسك
بالجلاء ، وطالب بالدستور ، ودعا إلى الوحدة وإلى التضحية .
وما زال يروى غرس الوطنية بدمه وماله وجهده حتى اضطر إلى أن يهجر مصر
سنة ١٩١٢ ، فتابع جهاده في سويسرا والسويد وإنجلترا ، إلى أن توفاه الله في ١٥ نوفمبر
سنة ١٩١٨ وهو في برلين .

وسنعرف أن شوقي كان وثيق الصلة بمصطفى كامل وبالخديو عباس ، وأنه شارك
مصطفى في جهاده ، وكان شاعر الخديو وصفيه ، وظهيره في مناضلة الاحتلال
في مطلع حكمه .

سعد زغلول والوفد المصري

تلقف سعد زغلول لواء الجهاد منذ أواخر الحرب الكبرى إلى أن حم فيه القضاء
ولا شك أنه كان متأثراً بمصطفى كامل ، وكان يدين له بأنه السابق إلى الإيقاظ
والإنهاض^(٤) .
وقد بدأ يمثل المقاومة الشعبية منذ كان عضواً في الجمعية التشريعية ،
ووكيلها المنتخب .

(١) المرجع السابق ٣٣٣ ومحمد فريد ٦٥ الرافي

(٢) اللواء ٢٧، ٢٦ مايو سنة ١٩٠٥ (٣) مصطفى كامل الرافي ٣٢٩

(٤) يدل على ذلك قوله سنة ١٩٢١ « أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال ، وأن حركتها الاستقلالية
بدأت من زمان طويل ، خصوصاً من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل ، وتلاه المرحوم محمد فريد .
هؤلاء اللذين أسسوا ، وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة (مصطفى كامل ٤٢٦)
وقال في سنة ١٩٢٣ : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطباءكم . لا أقول ذلك ولا أدعيه ،
بل لا أتصوره . إنما نهضتكم قديمة تنبئ من محمد علي ، وللمحركة العراية فضل عظيم فيها ، وكذلك
للسيد جمال الدين الأناني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير ، والمرحوم مصطفى كامل باشا فضل عزيز فيها ،
والمرحوم محمد بك فريد (مصطفى كامل ٤٢٦)

وفي أعقاب الحرب الأولى بدأ سعد وبعض أصحابه يتشاورون فيما يجب أن يعملوه لإيقاظ وطنهم من قيود الاحتلال ، واتفقوا على إنشاء الوفد المصري .

فلما دوى نفير السلام بعد التطاحن العالمي ، وشرع المتطاحنون يمهدون للصلح رأى الوفد أن الوقت ملائم لإسماع صوت مصر ، مطالبة بحقوقها ، متطلبة من الحلفاء المنتصرين أن يحتمقوا وعدهم الذى طالما تصايحوا به مدة الحرب : أنهم يحاربون لإقرار الحريات ، ونصرة الأمم الضعيفة المستعبدة .

وبدءوا جهادهم فى الداخل وفى الخارج داعين إلى الاستقلال التام . ولم يمض إلا زمن قليل حتى نفت السلطة العسكرية سعداً ونفراً من صحبه إلى مالطة ، ثم أطلقت سراحهم ، فاتجهوا إلى مؤتمر الصلح ، فلم يحفل بصوت مصر . ثم نفت سعداً وصحبه سنة ١٩٢١ إلى سيشل بعد أن قطع المفاوضات مع إنجلترا ، لأنها لا تحقق الاستقلال التام .

وبينما كان سعد فى منفاه أصدرت إنجلترا من جانبها تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ثم أطلق سراح المنفيين فعادوا ، وقاوموا المشروع . لكن الدستور قد وضع والانتخاب تم ، ونال الوفد أكتريه ، فألف سعد وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ ثم تولى رئاسة مجلس النواب من ١٩٢٦ إلى ١٩٢٧ حتى وافاه القضاء

ولقد كان جهاد سعد وأعدائه شعلة قَبَسَ منها الشعب ناراً ونورا ، فازداد حماسه واشتعل وطنية ، وفدى مصر بالدماء والأموال ، كما سترى فى ثورة ١٩١٩ . وكان من أثر هذا أن اضطرت إنجلترا إلى إلغاء الحماية ، والاعتراف باستقلال مصر ، وإن كان استقلالاً مقيداً بشروط .

ونجم عن ذلك إصدار الدستور سنة ١٩٢٣ .

ولم يكن الأدب بمعزل عن هذا الميدان ، فقد غذى الأدباء الجهاد ، وأشادوا بالمجاهدين ، كما تأثروا هم ببلاء الأحرار فى ميدان النضال .

وسنعرف من دراستنا لشوقي أنه كان على وشيعة قوية بسعد زغلول منذ صباه ، وأنه أشاد به وبجهاده مرات ، وأبدى رأيه فى مشروع ملنر وفى تصريح ٢٨ فبراير ،

وأشاد بثورة سنة ١٩١٩ وبالدستور والاستقلال ، وسنعرف أنه كان يقف من الأحزاب موقف المراقب المحايد الحريص على سلامة الوطن .

ثورة سنة ١٩١٩^(١)

كان المصريون يكظمون غيظهم في سنوات الحرب الكبرى ، ويتدربون نهايتها ، لأنهم ساخطون على الحماية البريطانية وما جرته عليهم من ويلات :

١ — فهم ساخطون على الاحتلال ، وعلى إنجلترا التي نكشت بوعودها المتكررة بالجلاء ، والتي تسعى لفصل السودان وابتلاعه . وقد ألغت الجيش المصرى والبحرية المصرية ، ونصبت مستشارين من الإنجليز في كل وزارة يستأثرون بالحكم والنفوذ ، وجعلت المناصب الكبرى حُكْمَةً لَبنِها ، وأبطلت النظام الدستورى الذى نالته مصر قبل الاحتلال ، ثم عطلت الجمعية التشريعية التى كانت صورة ناصلة لمجلس النواب . فلما وضعت الحرب أوزارها ، أمل المصريون أن تنجز إنجلترا وعودها ، وأن تتذكر المساعدات القيمة التى قدمتها مصر لها في سنوات الحرب ، لكن إنجلترا خيبت الآمال ، إذ كافأت المصريين بأعمال تدل على اعتزامها توطيد الحماية .

٢ — وهم يرمون بمظالم السلطة العسكرية ، فقد قيدت الحريات ، وغلّت الصحافة ، وحظرت الاجتماع ، واعتقلت كثيراً من رجال الحزب الوطنى ، ونفت آخرين ، وراقبت كثيرين .

وقد تدمر الشعب لأن السلطة جمعت نحو مليون وربع مليون من فلاحى مصر وعمالها بدعوى أنهم متطرعون ، وهم فى الحقيقة مغتصبون اغتصاباً ، وقد فرقهم على ميادين الحرب ، فأهملوا أسوأ الإهمال ، وعوملوا أشنع معاملة ، وحسبنا أن بعض كتاب الإنجليز شهدوا بذلك ، واستنكروه^(٢) . كما أن السلطة العسكرية جمعت نحو ١٣,٠٠٠ جندي من رديف الجيش المصرى للعمل فى الميادين .

(١) راجع (ثورة ١٩١٩) فى جزأين للرافعى . و (سعد زغلول) للعقاد

(٢) ثورة ١٩١٩ للرافعى ٤٢/١

واغتصبت من الفلاحين أفقره دواب الحمل ، ومقادير عظيمة من المحصولات الزراعية بأثمان بخسة ، وأصحابها في حاجة إليها .
واقترست الأغنياء على التبرع للصليب الأحمر البريطاني بأن فرض رجالها على الأغنياء إتاوات في صورة تبرع ، حصلوها بطريق الإحراج والتوريط ، وبطريق الضغط والتهديد .

٣ — ولم يطق المصريون أن يعيث جنود الإمبراطورية فساداً ببلادهم ، وأن تتوالى جرائمهم وعدوانهم على الشعب : سراته ، وسوقته ، وهم جنود أفظاظ لم يستطع رئيس الشرطة الإنجليزي بالقاهرة أن يصدّم عن بعض جماعاتهم إلا بإطلاق النار عليهم^(١) . وحسبنا في تمثل فظائعهم أن يقول المستر روبرستن عضو البرلمان الإنجليزي بعدما قص مارأي بعينه : إن ما أحدثه جنود المستعمرات في مصر لا يمحى أثره في قليل من السنين . وإنى — والحق يقال — كنت أخجل أشد الخجل من انتسابي إلى بلادى ، وكثيراً ما أنبت الإنجليز تأنيباً مرأ^(٢) .

٤ — ومن عجب أن تستبيح بريطانيا من خزانة الحكومة المصرية ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه باسم المنحة^(٣) .

وقد زادت الحال المالية سوءاً ، لأن مساحة القطن قلت ، ولأن أسعاره هبطت إلى أقل من خمس الثمن الذى كان يجب أن يباع به .

٥ — وكانت الامتيازات الأجنبية ما زالت قائمة ، وما زال المحتمون بها يعيشون بين الناس فساداً ، ويقابلون هذا الحق الذى منحهم إياه الدولة العثمانية بالجحود والغدرو العدوان .

يمثل حالهم قول حافظ إبراهيم :

وفى الرومى موعظة لشعب جدّ فى اللعب
يقتلنا بلا قود ولا دية ولا رهب

(١) سعد زغلول ١٨٢ العقاد وثورة ١٩١٩ للرافعى ٢٧/١

(٢) ثورة ١٩١٩ للرافعى ٣/١ ؛ (٣) ثورة ١٩ للرافعى ٣٨/١

وَيَمْشِي نَحْوَ رَأْيِهِ فَتَحْمِيهِ مِنَ الْعَطَبِ^(١)

وقول إسماعيل صبرى سنة ١٩١١ م :

وَيَحْمَهُمْ مَا لَصَنَعَهُمْ أَبْطَرُ الْقَوَى
وَلَمَّاذَا تَمَخَّضَ السَّلْمُ عَنْ حَرْبٍ لَظَاهَا يَشْوِي الْوَجُوهَ عَوَانٍ
مِنْحٌ قَدْ بُذِرْنَ فِي شَرٍّ أَيْدٍ كُنَّ مَذْكَرٌ مَنَّبَتِ الْكُفْرَانِ

٦ - وضع السير ولیم برونييت في نوفمبر سنة ١٩١٨ مشروع قانون نظامى لمصر يهبط بها إلى مستعمرة بريطانية ، إذ ينص على إنشاء مجلس نواب مصرى مؤلف من المصريين . ولكنه استشارى محض ، بجانبه مجلس شيوخ يملك وحده سلطة التشريع ، وهو خليط من المصريين والأجانب ، بحيث يكون أكثره من الأعضاء الرسميين - هم الوزراء المصريون والمستشارون الإنجليز ومن في مرتبتهم من الموظفين البريطانيين - والأعضاء الأجانب المنتخبين .

ولم يكد الشعب يعلم بهذا المشروع حتى سخط عليه وعلى نيات بريطانيا ، لأنه يهدم الاستقلال الداخلى الذى نالته مصر منذ سنة ١٨٤٠ ، فهو رجعة إلى تفكير لورد كرومر سنة ١٩٠٤ فى إنشاء مجلس تشريعى مختلط ، ينزل بمصر إلى حضيض الذل والمهانة .

٧ - أعلن الرئيس ولسن شروطه الأربعة عشر ، ومنها إنصاف الأمم الضعيفة وتخويلها الحق فى تقرير مصيرها ، وأنكر على الدول القوية استعباد الشعوب ، كما أنكر حكم الشعوب لسلطات مطلقة .

فاستشارت هذه الدعاوى - التى لم تتحقق فيما بعد - النزوع إلى استقلال والحرية فى الشعوب المغلوبة . وكان المصريون أسبق الأمم الصغيرة إلى المطالبة بحقوقهم . وزادهم حماسة أن الحلفاء - ومنهم بريطانيا - وافقوا على مبادئ ولسن ، وأن إنجلترا وفرنسا أعلنتا فى نوفمبر سنة ١٩١٨ أنهما تعتزمان تحرير الشعوب التى أنقذت من الحكم العثمانى تحريراً نهائياً ، وتأسيس حكومات وإدارات أهلية يختارها الشعب اختياراً حراً

٨ — في هذا الجو الخائق المنذر بالعاصفة كان الشعب كله متيقظاً إلى حقوقه المسلوقة ، حريصاً على استرجاعها .

وكان قريب العهد بنهضة السابقة ، وبالثورة العراقية التي قامت لمصاولة الاستبداد الداخلي والتدخل الأجنبي ، ولتوطيد دعائم الحكم الدستوري .

وكان ملتهباً بالروح الوطني الذي بثه مصطفى كامل والحزب الوطني من سنة ١٨٩٠ إلى ١٩١٩ .

وقد رقد ذلك كله انتشار التعليم ، وتنبيه الغافلين ، وصيحات الصحافة والشعراء والكتاب .

فأنف الشعب أن يحتمل العسف والمغارم في الأنفس والأموال والكرامة والاشتغال ، وأن يُجبر على البذل في غير طائل ، بل هو يجبر على البذل فيما يجز عليه الوبال .

٩ — ثم تألف الوفد المصري في نوفمبر سنة ١٩١٨ ليجهاد لنيل الاستقلال التام ما استطاع إليه سبيلاً .

فكان تأليفه ، وتوكيل الشعب إياه ، ورفض سعد زغول إنذار الجنرال وطسن له في ٦ مارس سنة ١٩١٩ الوقود الذي أعدته الثورة .

فلما اعتقل سعد وصحبه في ٧ مارس ١٩١٩ كان اعتقالهم الشررة الأولى لثورة مصر العاتية سنة ١٩١٩ .

وقد ظن الإنجليز أنهم إذا ما نفوا سعدا ورفاقه غفلت الأمة عن مطلبها الأسمى ، فنفوههم إلى مالطة سنة ١٩١٩ لكنهم كانوا واهمين في ظنهم ، فإن النفوس كانت تغلي وتقارب الانفجار قبل نفيه ، فجاء نفيه وصحبه آخر ضغط على الرجل المستعمر فلم يطق أن يحتبس ما بداخله .

وإذا فقد ابدلت الثورة وأخذت تتفاقم وتتفاقم ، وكلما استشهد نفر من المصريين زاد التفاقم ، وقويت الحماسة . والمصريون العزل يقابلون الجنود البريطانيين المدججين بالسلاح أو المستترين بالدبابات والمصفحات غير هيايين ، بل أحياناً يقهرونهم . وإذا

ما سقط حامل العلم صريعاً تسابق إلى حمله إخوانه ، لينالوا شرف الجهاد أو شرف الاستشهاد .

١٠ - وما زالت مصر تجاهد وتناضل جهاداً لا هوادة فيه ولا لين إلى أن تعددت الأحزاب ، وتهاقت على حطام الحكم . حينئذ تصدعت الوحدة ، وتفرقت الكلمة ، وانفلتت القوة الرهيبة ، ووجد القصر والإنجليز الفرصة سانحة للتلاعب بالأحزاب ، والعدوان على حقوق الشعب .

ثم شاء الله لمصر أن تبرأ من سقامها بثورة جيشها الباسل في ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢
١١ - ولقد حققت ثورة ١٩١٩ بعض ما كان مأمولاً .

ذلك بأن إنجلترا اضطرت إلى إلغاء الحماية بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، واعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة .

وهذا لا ينفي أن مكانة مصر الدولية بعد التصريح خير منها في عهد الاحتلال والحماية بكثير .

ونجحت الثورة في تقرير النظام الدستوري بمصر ، وبه توطدت سلطة الشعب ، فاستمسك بحقوقه وحرية الشخصية . وكانت الثور غذاء روحياً للشباب وللأحرار في الجهاد الطويل الذي تلاها ، وفي الاعتزاز بمصر ، والسعي إلى إنهاضها في العلم والاقتصاد والصناعة والتجارة وكل ما يعلى من شأنها ويرفع قدرها .

وقد حفلت الثورة بضروب شتى من النخوة والأريحية والإخاء ، فاتحد فيها المسلم والقبطي ، والمتعلم والأمي ، والفقير والغني ، والحضري والريفي ، وخرجت العقائل والأوانس من خدورهن يتعرضن لما يتعرض له الرجال من عدوان الجند الغاشم .

وأثمرت الثورة ثمرتها فاضطرت إنجلترا أن تفرج عن سعد وصحبه . لكنهم ائتمنوا جهادهم في مصر وفي باريس وفي لندن وفي أمريكا .

فلما يئس الإنجليز من إقناعهم بمعاودة لا يرضونها نفوهم إلى سيشل في آخر سنة ١٩٢١ .

أما أثر ثورة ١٩١٩ في الأدب فهو محتاج إلى دراسة مستقلة .
وسنرى شوقي يلهج بهذه الثورة وإن لم يكن قد شهد بها بنفسه ، لأنه كان في المنفى .

الفصل الثالث

يَنَابِيعُ وَطَنِيَّة

(١) عاصر شوقي كثيراً من الأحداث السابقة في (ضحا الوطنية) ، وأسهم في بعضها ، وتأثر ببعضها تأثراً مباشراً . أما الأحداث التي لم يعاصرها ، لأنها سبقت نشأته ، فقد عاش في أعقابها ، فتأثر بها تأثراً غير مباشر ، على أنه تأثر بما نجم عنها من وعى وبقظة .

وقد كان لهذا كله أثره القوى العميق في وطنية شوقي .

وسنرى في (فنون وطنيته) المدى البعيد الذي كان لهذه الأحداث في شعره .
(٢) وهو إلى ذلك مصرى المولد والمنشأ والإقامة ، ومصرى الأب والأم مولداً ومنشأ وإقامة ، وإن كان يضرب بأجداده إلى الأتراك والعرب واليونان والجرس . فقد قدم جده لوالده — أحمد شوقي — إلى مصر يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزائر إلى والي مصر محمد علي باشا ، فأدخله في معيته ، وجعل يترقى إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجهاز المصري .

أما والد شوقي فقد ولد بمصر ، وبها نشأ وعاش ، وفيها مات .
وأما جده لوالدته — أحمد بك حلبي — فهو من الأناضول ، وقد وفد على مصر قى كصره ، فاستخدمه والي مصر إبراهيم باشا ، ثم زوجه بمعتوقته جدة شوقي لأمه . وهذه الجدة أصلها من المورة ، جلبت أسيرة حرب ، وكانت رفيعة المنزل عند مولاها ، وكان زوجها أثيراً عنده .

فهو إذاً كما حدث عن نفسه : عربي ، تركي ، يوناني ، جركسي بجذته لأبيه ، أصول أربعة في فروع مجتمعة ، تكفله لها مصر ، كما كفلت أبويه من قبل . على أنها بلادى ،

وهي منشئ ومهادى ، ومقبرة أجدادى ، ولدلى بها ولدان ، ولى فى ثراها أب وجدان ،
ويعبض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان ،^(١) . ثم رزق أمينة فيما بعد .

ولد شوقى بمصر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠ م . فلما بلغ الرابعة أدخله أبوه
فى مكتب الشيخ صالح ، ثم ألحقه بالمدرسة الثانوية . فلما اجتازها دخل مدرسة الإدارة
(الحقوق) سنة ١٨٨٥^(٢) ودرس بها سنتين ، وكان قسم الترجمة قد أنشئ بها فعدل
شوقى إليه ، ولبت به سنتين آخرين ونال الشهادة النهائية .

وكان يمدح الخديو (توفيق) وهو طالب ، فلما تخرج ألحقه بمعيتة . ثم بعثه
إلى فرنسا سنة ١٨٨٧ م على نفقته ، ليدرس القانون والآداب الفرنسية فى أربعة
أعوام ، ف قضى شوقى بمدينة مونبليه عامين ، وفى باريس عاماً ونصف عام ، وأحرز
الشهادة النهائية ، فرأى الخديو توفيق أن يبقى بفرنسا ستة أشهر ، ففعل . ثم عاد
إلى مصر وتولى منصبه فى معية الأمير . فلما توفى توفيق سنة ١٨٩١ تولى ابنه عباس ،
فقرب شوقى إليه . وما برح يتدرج فى المناصب بالقصر حتى تولى رئاسة القلم الإفرنجى .
وسمّت مكانته فى عهد الخديو عباس ، فسمّى شاعر الأمير ، وكان من خاصة
عباس ومستشاريه . ولما نشبت الحرب الكبرى ١٩١٤ — ١٩١٨ أعفى من منصبه
فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ثم نفي من مصر ، فاختار برشلونة مثوى له ولأسرته ، ولم يؤذن
له فى العودة إلى مصر إلا فى آخر سنة ١٩١٩ .
وعاد إلى مصر فى أوائل سنة ١٩٢٠^(٣) .

عاد شوقى فى أعقاب الثورة المصرية على الاحتلال والمحتلين ، فائتلف تغريده
لمصر وللعالم العربى والإسلامى بصوت أقوى ، وبغنى أشجى ، وبنفس أطول ،
وبعاطفة أشد وأمضى ، إلى أن توفى فى ١٤ يونية ١٩٣٢ .

(٣) وهو يحب مصر ، لأنها وطنه الذى امتزج به امتزاجاً ، وارتبطت به عواطفه
بروابط شتى .

(١) مقدمة الشوقيات بقلم شوقى ١٤ — ١٥ طبعة سنة ١٨٩٨

(٢) مقال أحمد زكى باشا بمجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ صفحة ٣٨٢

(٣) أبى شوقى . حسين شوقى ، ٥٥ ومذكراتى فى نصف قرن . أحمد شفيق ٢٥٦/٣ .

فقد استهل على أرضها، ونشأ في ربوعها، وطعم من خيرها، وهى موطن أبيه وأمه، ومشوى جديده وجدتيه :

على جوانبها رَفَّتَ تمائمنا وحولَ حافاتها قامت رواقينا
ومطلعُ لسُعودٍ من أواخرنا ومغربُ لجدودٍ من أوالينا
أرضُ الأبوةِ والميلاد طيِّبها مرُّ الصِّبا في ذيول من تصايينا^(١)
وفى مصر رزق أبناء يحبهم، وسيمضى عنهم ويخلفهم لهذا الوطن ودبعة، يقول
في مناجاة النيل .

لى فيك مدح ليس فيه تكلف أملاه حب ليس فيه تملُّق
مما يَحْمِلُنَا الهوى لك أفرُّخ سنطير عنها وهى عندك تُرزق
تهفو إليهم فى التراب قلوبنا وتكاد فيه بغير عرق تَخْفِق
تُرْجى لهم واللهُ جلَّ جلاله منا ومنك بهم أبرُّ وأرفق
فاحفظ ودائعك التى استودِعَها أنت الوفى إذا أوْتِمت الأصدق^(٢)
ويكرر هذا المعنى فى قوله :

مصر العزيرة مالى لا أودعها^٣ وداعَ محفظ بالعهد مدَّكر
خلَّفتُ فيها القطا ما بين ذى زَغَبٍ وذى تمائم لم يَنْهَضْ ولم يَطِرْ
أسلَّتهم لعيون الله تحرسهم وأسلمونى لظل الله فى البشر^(٣)

وحبه للنيل حبَّ إليه أن يختار بيته مطلا عليه ، إذ كان دائماً يحب أن يكون بالقرب منه . لذلك كانت له (ذهبية) قبل الحرب ، أى وقت ما كنا نقطن بالمطرية . كما كان يردد هذا البيت ، وهو لأحد شعراء عصر الفاطميين .
إذا كنت فى مصر ولم تك ما كنا على نيلها الجارى فما أنت فى مصر^(٤)
ثم بنى على النيل قصره (كرمه بن هانىء) .

(١) الشوقيات ١٢٨/٢ ، ١٣٢ ، (٢) الشوقيات ٨٧/٢

(٣) الشوقيات ١٥٥/٢ (٤) أبى شوقى ٩٧

وقد صاغ في النيل قصيدته الرائعة :

من أى عهد فى القرن تندفق وبأى كف فى المدائن تُندَق^(١)
كما كان مفتونا بجمال مصر : ريفها ، ومناظرها الطبيعية ، وجزيرتها ، وشمسها^(٢) .
(٤) وكان شوقى على صلة وثيقة منذ صباه بمصطفى كامل . يدل على ذلك
أن مصطفى ألف رواية وهو طالب بمدرسة الحقوق ، وأهداها إلى والد شوقى بعبارة
واضحة الدلالة على قوة هذه الصلة : هدية المؤلف لحضرة والده الأجل على بك شوقى
حفظه الله ، وهى رواية تاريخية تمثيلية عن فتح الأندلس .

وقد حدث شوقى أنه كان مع مصطفى كامل عند ما اختار شعاراً له جملته المشهورة
(لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة) وكان مصطفى قد وجد الجزء الأول منها
(لا حياة مع اليأس) فأشار عليه شوقى أن يضيف إليها (ولا يأس مع الحياة)^(٣) .
ثم شارك مصطفى فى جهاده ، فكتب فى (اللواء)^(٤) . وقد ذكر مشاركته
فى البعث والدعوة إلى الاستقلال والحرية فى قوله يناجى مصطفى سنة ١٩٢٥ م :

أتذكر قبيل هذا الجليل جيلاً سهرنا عن معلمهم وناما
مِهَارُ الحَقِّ بَغَضْنَا إِلَيْهِمْ شِكِيمَ القَيْصَرِيَّةِ واللِّجَامِ
لِوَاؤُكَ كَانِ يَسْقِيهِمْ بِحَامِ وَكَانَ الشَّعْرَ بَيْنَ يَدَيْ جَامَا
مِنَ الْوَطَنِيَةِ اسْتَبَقُوا رَحِيقَا فَضَضْنَا عَنْ مُعْتَقِيهَا الْخَتَامَا
غَرَسْنَا كَرْمَهَا فَزَكَ أَصُولَا بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَزَكَ مُدَامَا^(٥)

وهو من أصدق أصدقاء مصطفى كامل وأكثرهم به إعجاباً^(٦) . وكان مصطفى
يبادلّه الإعجاب ، يدل على ذلك قوله فى كتاب لمحمد فريد : « وإذا قابلت شوقى فقبله
لى مرتين » وقل له أن يرسل ما طبع من ديوانه مع صورته ، وأعطه عنوانى^(٧) .

(١) الشوقيات ٢/٧٧

(٢) الشوقيات ٢/٥٥ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٩٥

(٣) أبى شوقى ١٣٣

(٤) مصطفى كامل ١٤٤ الرافعى

(٥) مصطفى كامل ٢٨١

(٥) الشوقيات ١/٢٧٧

(٧) مصطفى كامل ٣٥٦ ومحمد فريد ٣٤

وكان يحب بشعره ، ويصفه بأنه « الغدير الصافي في أنفاس الغمام ، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون ». وكان يخصص لقصائده أسمى مكان في اللواء ^(١) . وفي ذلك يقول شوقي في رثائه :

قد كنت تهتف في الورى بقصائدى وتُجِلُّ فوق النيرات مكانى
ماذا دهانى يوم بنتَ فعقنى فيك القريض وخاتنى إمكاني ^(٢)
وزار الفقيد وهو فى فراش مرضه الأخير، فطلب إليه أن يرثيه ، وفى ذلك يقول :
ولقد نظرتك والردى بك مُحْدِق والداء ملء معالم الجثمان

.....

فهششت لى حتى كأنك عائدى وأنا الذى هد السقام كيانى

.....

وجعلت تسألنى الرثاء فهأكهُ من أدمعى وسرائرى وجنانى ^(٣)
ويقول فى ذكره سنة ١٩٢٦ .

با أبا النفس فى الصبا لذة الروح فى الصغر
وخلى لا ذخرته لم يقوم بمُدْخَر
حال بينى وبينه فى فجاءته القَدَر
كيف أجزى مودةً لم يشب صفوها كدر ^(٤)

وقد بقيت هذه الصلة قوية لم يُضعف من قوتها الجفاء الذى رتق بين مصطفى كامل والخديو عباس ، إذ جنح الخديو إلى سياسة المصادقة والوفاق مع السير إلدون غورست الذى خلف لورد كرومر ، ولم يرتض مصطفى كامل هذه المصادقة ، وأعلن بخطه فى كتاب شديد اللهجة وجهه إلى الخديو ، ونشره فى الصحف ، وقطع علاقته بعباس .

فى هذه الآونة لم يتخل شوقي عن صديقه مصطفى ، على ما فى صلته به من إخراج ، بل على ما فى هذه الصلة من تعرض لغضب الخديو ، وفصل من القصر . بل كان

(٢) الشوقيات ٣/ ١٧٠

(٤) الشوقيات ٣/ ١٠٠

(١) مصطفى كامل ٣٧٩

(٣) الشوقيات ٣/ ١٦٩

شوقي « المواسى الوحيد لمصطفى فى مرض الموت »^(١).
وهنا تساءل : متى نشر شوقي رثاءه الأول لمصطفى كامل ؟
ذهب بعض الذين كتبوا عن شوقي إلى أنه نشر رثاءه بعد عام كامل^(٢) . وهى
إشاعة كادت ترسخ فى أذهان الدارسين ، كأنها حقيقة لا ريب فيها .
لكن الحق أن شوقي نشر مرثيته بعد وفاة مصطفى كامل باثني عشر يوماً ، لا بعام
ولا بشهر ، فقد قرأتها فى (اللواء) بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ م .
لكن هنا سؤال آخر : لماذا حبس شوقي عاطفته الحزينة ، فلم يتفلسف عنها
فى يوم الفجعة ؟

يعمل الدكتور شوقي ضيف لذلك — بعد أن ذهب إلى أن شوقي قال قصيدته
بعد عام كامل — بأن « أنظار الأمير متجهة إلى تركيا ، وقد أصاب القدر الشعب فى أعز بنيه وأحبهم
فالتجهم إبرة الشاعر مع القطب . . . وقد أصاب القدر الشعب فى أعز بنيه وأحبهم
إليه ، مصطفى كامل ، وكان صديقاً لشوقي فى صباه وشبابه ، ومع ذلك لم تتحرك القيثارة ،
ولم ينبض قلب الشاعر ولم يخفق إلا بعد عام ، لأن سيده لم يكن راضياً عن مصطفى ،
لاختلافهما قبيل وفاته فى بعض وجوه الرأى ، فلم يستطع أن يتلو شعراً أو ينشده
فيه يوم مضيئة الوطن به »^(٣)

وقد عرفنا أن شوقي رثى مصطفى بعد أيام قليلة ، فالتعليل لتأجيله الرثاء بأنه
مجاملة للخديو عباس تعليل غير صحيح .
وعلى الرغم من ذلك فإنى أتساءل : لماذا لم يرث شوقي مصطفى كامل يوم وفاته
كما رثاه حافظ وصبرى ؟

فقد حزن إسماعيل صبرى أشد الحزن لما مات صديقه مصطفى كامل ، وألقى على
قبره يوم تشييده فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م مطلع قصيدته الباكية :
أداعى الأسى فى مصر ويحك داعياً هددت القوى إذقت بالأس ناعياً

(١) من مقال داود بركات . مجلة أبولو صفحة ٣٦٥ ديسمبر سنة ١٩٣٢

(٢) شوقي شاعر العصر الحديث ١٤٥ شوقي ضيف

(٣) شوقي شاعر العصر الحديث ١٤٥

فبكى بكاءً أعجزه عن إلقاء ما بعد المطلع ، ثم ألقاها في حفل تأبينه .
وألقى حافظ إبراهيم على قبر مصطفى يوم وفاته قصيدته التي مطلعها :
أيًا قبر هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا
أكان سبب ذلك أن شوقي خاف الخديو فلم يرث مصطفى كامل ؟
لا . فقد رثاه بعد اثني عشر يوما ، فلا خوف إذاً ولا مجاملة .
لأن هذه الأيام القلائل ليست من السعة بحيث تغير رأى الخديو في مصطفى
كامل ، وتخفف من بغضه له . ولو أن صمت شوقي كان خوفاً من الخديو أو مجاملة
له ، أو انتظاراً لتغير رأى الخديو فيه لكان على شوقي أن يصمت عاما أو بضعة
أعوام ، ثم يرثي مصطفى كامل .
وإنما السبب فيما أرى أن عاطفة الحزن أحيانا تغل الشعاعية ، وتشل التفكير ،
وتطغى على الإبانة ، فيضطر الشاعر إلى مهلة من الزمن يستجم فيها ، ويستعيد صوابه ،
فيرثي أحبابه .

أما في معمعة الآسى فإنه كثيراً ما ينجح إلى الدموع ، ويركن إلى الزفرات والأنات ،
ويستريح إلى الأخيلة والذكريات والحسرات ، في صمت حزين .

وها هو ذا شوقي يقرر هذا المعنى في رثائه لوالده حوالى سنة ١٨٩٧ :

سألوني لم لم أرث أبى ورثاء الأب دين أى دين

أبها اللوام ما أظلمكم أين لى العقل الذى يسعد أين^(١)

ويقول في رثائه لمصطفى كامل :

ماذا دهانى يوم بنت فعقى فيك القريض وخاننى إمكاني^(٢)

ومن هنا تعود كثير من من الشعراء أن يلقوا مرثيهم في حفلات التأبين ، بعد
أربعين يوما أو أكثر أو أقل .

على أنه من الراجح أن شوقي رثى مصطفى كامل يوم الفاجعة ، أو شرع يعد
قصيدته في رثائه من يوم وفاته ، فإن صديقه داود بركات يقول : إن قصيدته في رثاء

مصطفى كامل من أروع الشعر ، نظمها شوقي في الليل ، ونشرت في الصباح ،^(١) . فلعلها لم تنشر والتبس الأمر على الكاتب ، أو لعله يقصد بنشرها أن شوقي قرأها كلها أو قرأ ما تم منها على بعض خاصته .

والصبغة العامة لمراثية شوقي الأولى أنها زفرات ملتبهية ، وأنات موجهة ، من صديق على صديق . وليس فيها من الإشادة بجهاد مصطفى كامل في السياسة والوطنية إلا لمحات . فهو كما قال صديقي الأستاذ عمر الدسوقي : « رثى بقصيدته هذه صديقاً حميماً ، ولم يرث زعيماً عظيماً ووطنياً وإماماً من أئمة الجهاد ، لأنه قد تأثر في رثائه بسياسة القصر حينذاك ، ولأن علاقة مصطفى كامل بعباس قد انقطعت . . . على أن شوقي قد تدارك فيما بعد ما فاتته في هذه القصيدة »^(٢) .

هـ — وكان صفى الخديو عباس ، ومستشاره ، وشاعره . وكان الخديو كلفاً به ، يستدعيه في كل وقت^(٣) ، ولم يكن يخيب له رجاء .

لذلك عرف الناس دالته على عباس ، فكان أصحاب الحاجات يحتشدون عند شوقي ، وهو يسأم من الشفاعة والرجاء^(٤) .

وقد حضر الخديو وزوجته زفاف أمينة بنت شوقي ، في وقت لم يكن الخديو يحضر فيه عرساً من أعراس الشعب^(٥) .

ولا شك أن الخديو وشوقي كانا يتجاوبان معاً بالوطنية ، وبالضيق من الاحتلال البريطاني ، وبالتعاون على تقويضه . فشوقي هو الذي كان وسيطاً بين الخديو عباس وكاتب أرمي يحمل في الصحف الإنجليزية على لورد كرومر^(٦) .

وأدرك الإنجليز أن شوقي من أعدائهم الخطرين على سياستهم ، فنصح لورد كرومر الخديو عباساً أن يتعد عن مصطفى كامل وعلى يوسف وأحمد شوقي^(٧) .

(١) مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ صفحة ٣٦٥ .

(٢) في الأدب الحديث ٩٤-٩٦ عمر الدسوقي

(٣) أبي شوقي ٤ (٤) أبي شوقي ١٤ (٥) أبي شوقي ١٥

(٦) مذكراتي في نصف قرن . أحمد شفيق باشا . القسم الثاني من الجزء الثاني ١٢٤

(٧) المرجع السابق ١٢٠

ثم حالوا بين الخديو عباس والعودة إلى مصر ، لأنهم خشوا أن يعرقل هو وحاشيته أعمالهم ، وهم يريدون أشخاصا من الحاشية أحدهم شوقي^(١)

وبعد خلع عباس وتولية السلطان حسين لم يستطع شوقي أن يخفي حنقه على الإنجليز « فكان أشجع إنسان مصر في ذلك العهد المملوء بالخوف والأهوال ، إذ كانت السلطة العسكرية البريطانية قابضة فيه بيد من حديد على كل النواصي والأقدام ، بل على الأفكار والأوهام ، فقد صرح شوقي السلطان حسين بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان ، إذ أرسل قاصدته المشهورة التي أشار فيها إلى الحال القائمة بقوله : إن الرواية لم تتم فصولا . والتي يقول فيها :

أ أخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بيباب إسماعيل

فقامت قيامة السلطة العسكرية البريطانية لهذا النذير ، واضطربت كل الاضطراب ، لأنها خشيت أن تنتشر بقعة الزيت في رقعة مصر ، بسبب هذه الصيحة الشوقية التي كان لها أثر بعيد في النفوس ، ووقع فعال في القلوب ، فأمرت بنفيه^(٢) .

(٦) أما صلته بسعد زغلول فكانت وثيقة ، ثم عرته الجفوة مالبثت أن انقضت . يقول حسين شوقي : « كانت العلاقة بين سعد باشا وأبي في ذلك الوقت على أحسن ما يرام ، وكان قد اعترأها في الماضي شيء من الفتور . ويرجع الفضل في إزالة الجفوة إلى مساعي الأستاذ الجديد الذي كان يحبه كل منهما ويقدره .

كان أبي يذكر على الدوام عهداً كريماً كانت بينه وبين سعد باشا ، وكان من أغلى الذكريات عنده ساعة أهداها إليه سعد في مناسبة كريمة ، ذلك أن أبي كان بسويسرا والتقى هو وسعد ، وكان سعد يختار هدية الزفاف بأمر المصريين ، فاشترك أبي في الاختيار ، ثم اختار سعد في الوقت نفسه تلك الساعة وأهداها لأبي .

وقد ذكر لي الأستاذ الجديد أن التقاء سعد باشا وأبي لأول مرة — بعد الجفوة — كان مؤثراً ، تبادلوا فيه ذكريات عزيزة ، وذكر أصدقاءهما في الماضي ، وذكر

(١) المرجع السابق ٣٤٢

(٢) من مقال أحمد وكي باشا . مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ صفحة ٣٨٥

نكات عبد الكريم سلمان وحفنى ناصف ، واجتماعات الأميرة نازلى ، وقاسم أمين ، واستطاب سعد المجلس ، واستزاد أبى من حديثه ، (١) .

ويقول أيضاً : « وكان أبى كثير التردد إذ ذاك على بيت الأمة ، وكان يستصحبنى أحيانا إلى هناك ، فكنت أذهب معه وأنا مغنبط ، لأن شخصية سعد باشا كانت جذابة جداً ، ولأن دولته كان يتفضل بملاطفتى ، (٢) .

وقد كان كل منهما معجباً بصاحبه ، يدل على ذلك أن سعداً لما حضر زفاف على التقط مصور صورة له هو وشوقى ، ودار بينهما حوار رقيق يبين عما يكنه سعد لشوقى من تقدير صحيح وود مكين ، ولما نظر الأستاذ الجديد إلى الصورة وقال : هذه صورة الخالدين ، قال سعد مشيراً إلى شوقى : هنا الخلود (٣) .

يتضح إعجاب شوقى بسعد ، ووده له من قوله فى رثاء سعيد بك زغلول ابن أخى سعد :

سيقولون مارتاه على الفضل ولكن رثاه زلنى لخاله
أيهم من أتى برأس كليب أو شفى القطر من عياء احتلاله
ليس بينى وبين خالك إلا أنتى ما حميت فى إجلاله
أتمنى لمصر أن يجرى الخير لها من يمينه وشماله
لست أرجوه كالرجال لصيد من حرام انتخابهم وحلاله
هو أهل لأن يرد لقومى أمرهم فى حقيقة استقلاله
وأنا المرء لم أر الحق إلا كنت من حزبه ومن عماله (٤)

ويقول فى رثاء عاطف بركات باشا ابن أخت سعد :

ولم تحو الكنانة آل سعد أشد على العدا منك نباعا
ولم تحمل كشيخكم المفدى نهوضاً بالأمانة واضطلاعا

(٢) المرجع السابق ١٢٦

(٤) الشوقيات ١٤٣/٣

(١) أبى شوقى ١٢٣

(٣) المرجع السابق ١١٨

وما سعد بمتجر إذا ما تعرضت الحقوق شري وباعا
ولكن تحمي الآمال فيه وتدرع الحقوق به أدراعا^(١)

أما رثاؤه لسعد زغلول فهو قصيدة بأكية ، وتمثال رائع لجلال سعد وجهاده وزعامته ، وفيها إشارات إلى الصداقة التي جمعتها ، كقوله :

أين من عيني نفس حرة كنت بالأمس بعيني أراها ؟
كلما أقبلت هزت نفسها وتوآسى بشرها بي ونداها
وجرى الماضي فإذا أذكرت وأدكار النفس شيء من وفاها
ألمح الأيام فيها وأرى من وراء السن تمثال صباها
لست أنسى صفحة ضاحكة تأخذ النفس وتجري في هواها
وحديثا كروايات الهوى جدد للصّب حنين فرواها
أين مني قلم كنت إذا سمته أن يرثي الشمس رثاها
خاني في يوم سعد وجرى في المراثي فكبا دون مداها^(٢)

ويطول بنا المقال إذا ما عرضنا لصلاته بالسياسة والزعماء ، فحسبنا هذه الأمثلة ، وحسبنا الإشارة إلى صلاته بغيرهم كعبد الخالق ثروت^(٣) ، وعبد العزيز جاویش^(٤) ، وعمر لطفي^(٥) .

(٧) لكن من الإنصاف للحقيقة أن شوقي كان قبل نفيه مقيداً بالقصر ، وبسياسته المرسومة ، فكان يحاق بجناح غير طليق ، لأن للقصر قيوده الملزمة ، وأحكامه المطاعة . ومن هنا كان شعره الوطني قبل النفي أقل من شعره بعد النفي ، وأضعف . فلما نفي أرث النفي وطنيته ، لأنه انطلق من إيسار القصر ورسومه ، ولأنه ذاق مرارة العدوان البريطاني على حريته وحرية قومه .

(١) الشوقيات ١٠٨/٣ النباغ : جمع نبع وهو شجر للقسي والسهم (٢) الشوقيات ١٩٠/٣

(٣) الشوقيات ٧٠/٣ (٤) الشوقيات ٧٤/٣ (٥) الشوقيات ٩٥،٩٣،٩٢/٣

لهذا نجد شعره بعد النفي يلهب وطنية ، ويمتد فيشمل مصر والعرب والإسلام
على نطاق أوسع مما كان قبل أن ينفي .

كان فيه إذاً نعمة على مصر ونعمة على الأدب ، وكان اتصاله بالقصر نقمة
على مصر ونقمة على الأدب . كما كان تحرر حافظ من الوظيفة الحكومية خيراً
على الأدب وعلى مصر ، وتقيده بالوظيفة ضيراً على الأدب وعلى مصر .

فلم يكن عجيباً أن سكنت شوقي إذ كان حافظ ينطق ، وأن نطق شوقي إذ كان
حافظ يصمت .

فيا ليت شوقي لم يبتغ إلى القصر وسيلة ، ويا ليت حافظاً لم يجد إلى دار الكتب
طريقه . لكن الحياة لا تنيلنا كل ما نتمنى ، فليس لنا إلا أن نردد قول الشاعر
العربي القديم :

ليت وهل ينفع شيئاً ليت

الباب الثاني

فُوزُ وَطَنِيَّتِهِ

تمهيد

شعر الوطنية قبل شوقي

مضى أكثر الشعراء في القرن التاسع عشر إلى ثلثيه على خطا سابقهم من شعراء العصر المملوكي والعثماني ، يصوغون الشعر في موضوعات ضيقة المجال من مدح وعتاب وغزل . يعبرون عنها بأساليب ركيكة سقيمة ، مثقلة بالبديع المتكلف . وليس في شعرهم حرارة العاطفة ، أو جمال الإبداع ، لأن أجنتهم مهيضة ، وأذواقهم مريضة ، والمثل التي يحاكونها لا تبعث على تجويد . ونريد في هذه الدراسة أن نستشف ما بنفوس هؤلاء الشعراء أو ما بشعرهم من وطنية فلا نكاد نجد لها إلا في قلة ضئيلة منهم .

١ - وهم جميعا كلفون بالمدح على إكثار وإقلال . منهم السيد إسماعيل الخشاب (١٨١٥ م) والشيخ حسن العطار (١٨٣٤ م) والسيد علي الدرويش (١٨٥٣ م) . والسيد صالح مجدي (١٨٧٢ م) والساعاتي (١٨٨٠ م) والسيد علي أبو النصر (١٨٨٠ م) وعبد الله فكري (١٨٨٩ م) وعلي الليثي (١٨٩٦ م) . وقد أغرق بعضهم في المدح إغراقا ، مثل محمود صفوت الساعاتي (١٨٢٥ - ١٨٨٠ م) ، وله مدائح شتى في إسماعيل ^(١) وسعيد ^(٢) وتوفيق ^(٣) ، وليس في مدائحه

(١) ديوان الساعاتي ٨١،٤٥٥ (٢) الديوان ٨٨،٣٠،٢٧،١١،٩ (٣) الديوان ٤٢،٣٩،٤٣

إشارة إلى حرية أو دستور أو استقلال . بل إنه طرب بمقدرة الخديو توفيق على القضاء على بوادر الثورة للحرية وللعدل ، ونستطيع أن نفهم ذلك من قوله :
 عليك بحسن الرأي دبر ملكه وقد يبلغ المأمول شهم تدبرا
 أذل له التدبير عزة من طغى وحاول أن يسمو العلا فتحذرا^(١)
 وقد مدح شريف مكة محمد بن عون بقصائده كثيرة .
 ثم جاء البارودي وصبرى وشوقي وحافظ ، فمدحوا أيضا .
 فللبارودي مدائح في إسماعيل وتوفيق وعباس^(٢) .
 وللآخرين مدائح في توفيق وعباس وحسين وفؤاد . عدا مدائحهم للكبراء والأصدقاء .

(٢) والجدير بال العناية — في هذا المقام — من شعر هؤلاء الشعراء ما يتصل بالوطنية .

فنحن نجد في شعر الشيخ حسن العطار بصيصاً من الوطنية في قوله حينما شرع نابليون يستعد لغزو الشام .

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم في مصر بين حمار وخمار
 وعن قريب لهم في الشام مهلكة يضيق لهم فيها آجال أعمار^(٣)
 ونجد في شعر السيد صالح مجدى تعريضا بالخديو إسماعيل وسرفه وترفه ، ودعوة إلى اليقظة لتدارك أمره في قوله :

رمى بلادكم في قعر هاوية من الديون على مرغوب جوسيار
 وأنفق المال لا منأ ولا كراما على بغى وقواد وأشرار
 والمرء يقنع في الدنيا بواحدة من النساء وهو لم يقنع بمليار
 ويكتفى ببناء واحد وله تسعون قصرا بأخشاب وأحجار
 فاستيقظوا لا أقال الله عثرتم من غفلة ألبستم ملابس العار

(١) الديوان ٤٣ (٢) ديوان البارودي ١/١٥، ١٦، ٤٥، ١٣١، ٢/٢٦، ٩٩، ١٠٧، ١٦٣ .

(٣) الجبرتي ٤٤/٢ إشارة إلى ولوعهم بركوب الخمر وشرب الخمر .

وإن الفتى إن لم ينازل زمانه تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا عنان الخيل نحو نخيم تَقَلَّبْهُ بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة فشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفاً فكن أرضاً وطأة فليس لمع — لمول اليمين حريم

وختم خطبته بقوله : وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال :
مات شهيد الأوطان . فنادى الجميع : رضينا بالموت في حفظ الأوطان^(١) .

وما زال يحدو للثوار إلى أن انفلت قواهم ، لكن عزيمته لم تُقل ، فبقى حياته كلها
وطنياً ثائراً مؤمناً بوطنه وحقه في الاستقلال .

لكن هذه الوثبة انتكست بالهزيمة في الثورة العراقية ، فضغفت النفوس الأبية ،
وخمدت الجذوة المتقدة ، فرأينا البارودي يتنصل من الثورة والثوار كما سيأتي في الحديث
عن قصائد شوقي في عراقى .

ووجدنا خوراً من عبدالله فكرى في استعطافه الخديو توفيق ، وقد سجنه في الثورة
العراقية ثم أطلق سراحه :

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العُمرا
لئن كانت أقوامٌ علىّ تقولوا بأمر لقد جاءوا بما زوروا نُكُرا
فما كان لى فى الشر باعٌ ولا يد ولا كنتُ من يَبْغى مَدَى عمره الشُرا
فعفوا أبا العباس لا زلت قادرا على الأمر إن العفو من قادرٍ أخرى
وحسبى ما قد مر من صنك أشهر تجرعتُ فيها الصبرَ أطعمه مرّاً
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ويعدل فيها اليوم فى طوله شهراً
أجملُ فى دين المروءة أنى أكابد فى أيامك البؤس والضرا ؟

(١) شعراء الوطنية ١٣ عبد الرحمن الراغى .

الفصل الأول

حُبُّ مِصْرَ

وطنى لو شفت بالخلد عند نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
شوق

شوقى يحب مصر حبا يسرى فى دمه ، ويستعذب الشقاء فى هذا الحب وإن تخايل له
النعيم فى الغدر ، ويعتقد أن قلبه أمضى فى نصرة الوطن وسحق عداته من السيف :
يقول فى سنة ١٩٠٤ :

أحبك مصر من أعماق قلبى	وحبــــــــــــــــك فى صميم القلب نام
سيجمعنى بك التاريخ يوما	إذا ظهر الكرام على اللــــــــــــــــام
لأجلك رحت بالدنيا شقيا	أصد الوجه والدينــــــــــــــــامى
وأنظر جنــــــــــــــــة جمعت ذنابا	فيصرفنى الإباء عن الزحام
وهبتك غير هية أب يراعا	أشد على العــــــــــــــــدو من الحسام (١)

ولقد كانت وطنيته هى الباعث على نفيه من مصر ، لأن المحتلين أيقنوا خطورة
شعره فى التآليب عليهم ، والتنفير منهم ، فأمره مبعد عن ملكه ، ومصر كلها برمة
بقيود الحماية ، وتركيا تحارب إنجلترا ، وشوقى شاعر الأمير وصفيه ، وشعره يوقظ
الغفلى ، ويشدو به الصبية والكهول .

ثم كان الإنجليز على ثقة من عدائهم لهم ، واشتراكه فى زعزعة الاحتلال كما سبق
فى (ينابيع وطنيته) . فأمروا بنفيه من مصر سنة ١٩١٥ (٢) ، فاختار الأندلس ،

وبقى بها إلى آخر سنة ١٩١٩^(١)، فبرَّح به ألم النفي، وألم الغربة، وألم الحنين إلى مصر. فهو في إحدى قصائده يناجي طائراً رآه في وادي الطلح، أو تخيله، مناجاة تكشف عن لوعة وهمٍّ لا عَج.

في هذه المناجاة نعى على الظلم الذي يفطم المرء عن وطنه، وامتزج بالطائر النائح امتزاجاً وجدانياً، ولم لا؟ ألم تجمع البلوى بينهما؟ أليس الطائر يحن إلى مائه وإلى عشه؟ وشوق يحن إلى النيل وإلى وطنه؟ أليس الطائر مهيضاً مريضاً ينتقل من غصن إلى غصن في تشاقل وإعياء، وشوق سقيم أليم يجر ساقيه جرأ؟ أليس الطائر غليل النفس، وكذلك شوق يجد الطب الذي يرى جسمه ولكنه لا يجد الطب الذي يشفى نفسه؟ أليس كل منهما يشعر بالوحشة وإن كان المكان جميلاً؟

يَنايُحُ الطَّلَحَ أَشْـبَاهَ عَوادِينَا	نَشْجِي لَوادِيكَ أُم نَأْسَى لَوادِينَا
مَازَا تَقْصُ عَلَيْنَا غَيْرَ أَنَّ يَدَا	قَصَتْ جَنَاحَكَ جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا
رَمَى بِنَا الْبَيْنَ أَيُّكَ غَيْرَ سَامِرْنَا	أَخَا الْغَرِيبِ وَظِلًّا غَيْرَ نَادِينَا
كُلُّ رَمْتِهِ النَّوَى، رِيَشُ الْفِرَاقِ لَنَا	سَهْمًا وَسُلَّ عَلَيْكَ الْبَيْنَ سَكِينَا
إِذَا دَعَا الشُّوقَ لَمْ نَبْرَحْ بِمَنْصَدِرِ	مِنَ الْجَنَاحِينَ عَمَّى لَا يُلَبِّدُنَا
فَإِنْ يَكُ الْجُنْدُ يَابَنُ الطَّلَحِ فَرَقْنَا	إِنْ الْمَصَائِبُ يَجْمَعُنُ الْمَصَائِينَا
لَمْ تَأُلْ مَائِكَ تَحْنَانًا وَلَا ظَمًا	وَلَا ادِّكَارًا وَلَا شَجْوًا أَفَانِدُنَا
تَجْرُ مِنْ ذَنْنِ سَاقَا إِلَى فَنِّ	وَتَسْحَبُ الذَّيْلَ تَرْتَادُ الْمَوَاسِمَ
أَسَاءَ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ	فَنَ لِرُوحِكَ بِالنُّطْسِ الْمَدَاوِينَا؟
أَهَّا لَنَا نَازِحِي أَيُّكَ بِأَنْدَلُسَ	وَإِنْ حَلَلْنَا رَفِيفًا مِنْ رَوَائِينَا ^(٢)

ولم يستخط على مصر لأنها نفته، فهو يعلم أن الحكومة المصرية أجبرت على إبعاده،

(١) أبي شوقي ٨٩ ومذكراتي في نصف قرن. أحمد شفيق ٢٥٦/٣.

(٢) الشوقيات ١٢٧/٢ الطلح: واد بظاهر لمشبية كان ابن عباد شديد الولع به. عوادينا: مصائبنا. ريش السهم: ألصق به الريش. ادكارا: تذكرنا. أساءة. أطباء. النطس: الأطباء الخذاق. رفيف: خفيف.

ويعلم أن مصر تجزيه حجاب حب وإعجاباً بإعجاب وأملاً بأمل . لهذا يلتمس لها المَعذرة ، بل يذهب إلى أبعد من الإعذار ، فيصور مصر حانية عليه ، رائمة له ، أبعدته وقلبها معلق به ، وخيالها لا يزاله ، أبعدته تريد سلامته ، وترتقب أوبته ، وليس أليق بحالها هذه إلا حال أم موسى وقد وضعت وليدها في النهر على رعاية الله تريد نجاته من الذبح :

لكن مصر وإن أغضت على مِقة عَيْن من الخلد بالكافور تسقيناً
بنا فلم نخل من رَوْح يراوحنا من بر مصر وريحان يغاديناً
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقيناً^(١)

ويجن إلى مصر في منفاه حنين الصب المستهام ، لم يسألها قلبه ، ولم يبرأ لفرقتها جرحه ، بل لا تزيده الأيام إلا حنيناً وأنيناً ، فقلبه يهفو إلى مصر ولا يغفو ، وكلما استطال زمن الغربة اشتعل شوقاً ، على أن المعهود أن الأشواق تفرح حدثها بالزمن وطوله .

وهو يبرع في تصوير قلبه يتطاير إذا ما سمع أجراس البواخر تصلصل ، أو سمع صفيرها يدوى ، فكلمات صفرت حاجت فؤاده ، وود لو شارف بلاده ، ويدفعه الحنين إلى أن يتخيل أنفاسه الحرار مرجلا يفور ويحرك ، وقلبه شرعاً يرف ويدفع ، ودموعه بحراً يموج ، فالبخرة تسير بنفسه وقلبه ودمعه ، ويود أن تأخذ سميتها صوب الإسكندرية الثغر الحبيب .

ثم يعلو به الحب والشوق فيتجاوز ما عرف عنه من توقير الدين ، فيقول : لو أن الجنة جعلت مثواه لهما فيها قلبه إلى مصر ، فلا تشغله أطايبها ونعيمها عن وطنه . ويشهد الله على أن صورة وطنه ذابت في مقلتيه فلم تزايلهما .

وكأنما تعتمد أن يقيم في منزل على البحر ليشهد السفن غادية إلى مصر ورائحة منها . يقول ابنه حسين : لم نلبث أن استأجرنا منزلاً في ضاحية جميلة من ضواحي برشلونة تدعى فلقد ريرا ، وهي مرتفعة كثيراً عن قلب المدينة ، فكان في استطاعتنا

أن تشهد بسهولة بحرنا الأبيض المتوسط الجميل ، والسفن وهي رائحة غادية فيه ليل
نهار ، فيبعث منظرها فينا الحنين إلى الوطن^(١) .
يقول شوقي :

وسلامصر : هل سلا القلب عنها أو أسبا جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليلى — الى عليه رَقَّ والعهدُ فى الليالى تُقسى
مستطارٌ إذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس
راهبٌ فى الضلوع للسفن فطن كلما ثرت شاعن بنقس
نفسى مرجلٌ وقلبي شراع بهما فى الضلوع سبرى وأرسى
واجلى وجهك (الفنار) ومجرا ك يد (الثغر) بين رمل ومكس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتى إليه فى الخلد نفسى
شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعة ولم يحل حسى
يصبح الفكر والمسلة نادى — وبالسرحة الزكية يمضى^(٢)
ويكرر هذا الشوق فى قصيدة أخرى^(٣) .

وهو يستنكر أن يحرم الإقامة بوطنه بينما ينعم فيه الأجانب والإنجليز الغاصبون ،
ويعجب من هذا الحيف الذى يحرم الدوح على بلبله ، ويحله لأجناس الطيور
الوافدة ، ويدفع شريعة الحيف بحكمة رائعة أن كل وطن أحق بأبنائه ، وأبنائه أولى
به ، وأن شريعة الاستعمار التى تؤثر بخيرات الوطن غير بنيه خبيثة حقيرة لا توائم
الطبيعة الإنسانية :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ماله مولعاً بمنع وحبس ؟
أحرام على بلبله — الدو ح حلال للطير من كل جنس ؟
كل دار أحق بالأهل إلا فى خبيث من الشرائع رجس^(٤)

(١) أبى شوقي ٣٧ . (٢) الشوقيات ٤/٢ هـ أسا : داوى . مستطار : المراد نائر هائج .
جرس : صوت . فطن : منته . النفس : ضرب الناقوس والمراد الخفقان . المسلة : مسلة عين شمس بالقرب
من بيته القديم بالمطرية . السرحة الزكية : دوحة بالمطرية يقال إن المسيح والسيدة مريم استظلا بها
(٣) الشوقيات ٢/١٢٩ . (٤) الشوقيات ٤/٢ هـ اليم : البحر . ابنة اليم : الباهرة . رجس : إثم .

وإذا ما هبت نسيمات من ناحية الجنوب تخيل أنها من مصر ، فانتشى بتسمها ،
ودبت الحياة في أوصاله ، كادبت في أوصال يعقوب لما استنشق رائحة يوسف
من قميصه ، وهي تستحق أن يفديها بروحه :

ويا معطرة الوادى سرت بجرأ فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلاتها قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا بالورد كتباً وبالرياً عناويننا
فلو جزيناك بالأرواح غالية عن طيب مسر الكم تهض جوازيना^(١)
وإنه ليقرن حبه لمصر بحبه لأمه ، فهو بالاندلس سنة ١٩١٨ يعلل نفسه بالعودة
إلى وطنه ولقاء آله بعد إعلان الهدنة ، لكنه ما كاد يهدد نفسه بهذا الأمل حتى بلغه
نعي أمه ، فرثاها بقصيدة حارة لاجعة ، وجاء في رثائه أنه نزل بالاندلس جنة الدنيا
فما أحس بجماها ، لأنه قلبه معنى بأمه ومتميم بوطنه ، ومقسم بينهما في الهوى :

نزلت ربا الدنيا وجنات عدننا فما وجدت نفسى لأنهارها طعنا
فما رحت مصر من خاطرى ساعة ولا أنت في ذى الدار زايلت لى وهما
إذا جننى الليل اهتزت إليكما فجنحاً إلى سعدى وجنحاً إلى سلمى^(٢)
لذلك كان يتعجل العودة إلى مصر ، فلما سمح له بالعودة آخر سنة ١٩١٩ سافر
إلى جنوا بجرأ ، ثم إلى البندقية بالقطار ايدرك أول سفينة تغادر أوروبا إلى مصر ،
لأن حينه إلى مصر شديد^(٣) ، فوصل أول سنة ١٩٢٠ .

وقد تجملت فرحته بالعودة ، وبروعة استقبال الشباب له في الإسكندرية
والقاهرة^(٤) ، فصور فرحته بالعودة بأنها فرحة الشيخ برجة الشباب إليه ، وجعل مصر
الدين الذى كان يلقي عليه ربه لو أن قضاءه حم وهو بالمنفى ، فهو يدير إليها وجهه قبل
أن يدير وجهه إلى البيت الحرام . وفى هذا غلو وتجاوز للتوقير الدينى ، لكن الشاعر
معذور ؛ لأن عاطفة الفرح جاوزت به الحد :

(٢) الشوقيات ١٥٨/٣ جنح الليل . طائفة منه .

(٤) أبى شوقي ٨٩ - ٩٠

(١) الشوقيات ١٢٩/٢

(٣) أبى شوقي ٨٩

ويا وطني لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشباب
ولو أنى دعيت لكنت ديني عليه أقابل الحتم المجرأبا
أدير إليك قبل البيت وجهي إذا فهِت الشهادة والمتابا

وأتسق خياله فى جو من تقديس الوطن ، فجعل نور الإسكندرية قد هدى
الباخرة على بعد ثلاث مراحل كما تهدى المدينة المنورة الحجاج ، وجعل منارها يغشى
البحر بنوره كما غشت الأنوار الإلهية الطور أمام سيدنا موسى ، وجعل ثرى مصر
طاهراً عمقاً .

هدانا ضوء ثغرك من ثلاث كما تهدى (المنورة) الركابا
وقد غشى المنار البحر نورا كمنار الطور جللت الشعابا
وقبيل الثغر فأنادت فأرست فكانت من ثراك الطهر قابا ^(١)
فلا عجب أن يذهب شوقى إلى جدارة الوطن بالعبادة :

وجه الكنانة ليس يُغضب ربكم أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولوا إليه فى الدروس وجوهكم وإذا فرغتم ، واعبدوه هجودا ^(٢)

ويستهل قصيدته فى تمثال (نهضة مصر) بالجر بحبها ، والفخر بهذا الحب ،
فقد زين مصر بشعره ، وأقام لها تمثالا من قصائده الروائع ، وهذه قصيدته تطير
فى سماء الخيال محتالة ببراعتها وجلالها ، حتى لقد مشت على النجوم مزهوة مشية
العروس يوم زفافها .

وليس فى هذا عجب ، لأنه شاعر مصر ، وكروانها الصداح ، طالما غنى لها ، وتغنى
بها ، جزاء وفاقا لخيراتنا التى طعمها ، ومائها العذب الذى أرواه .

لذلك كانت مصر مجتلى قريحته ، ولباب شاعريته ، وهدفه الذى يقصد من شعره .

(١) الشوقيات ٥٦/١ قاب : قريبة .

(١) الشوقيات ١٢٧/١ .

وإنك لترى في شعره علامات حبه لمصر، وإشادته بذكرها، وغزله فيها، فكأن كل بيت من أبيات قصائده مقصورة مزينة لمصر، وحلى تتحلى بها .
وقد عزف عن الغزل بالحسان إلى الغزل بوطنه ، وصرف مدائح عن الملوك إلى مديح مصر .

فإذا ما افتخر بسؤدها وعراقتها جليل وصلصل ودوى ، وإذا ما عرض لحاضرها بكى وشكى وصدق ، يروض بصدقه النشء على القوة والجلد ، وينفخ فيهم روح الحماسة والعزة ، فهو يمزج الألم بالأمل ، والحزن بالحث على الجهاد ، يتغنى بأكيا ، ويبيكى مغنياً :

جعلت حلاها وتمثالها	عيون القوافى وأمثالها
وأرسلتها في سماء الخيال	تجر على النجم أذيالها
وإلى لغريد هذه البطاح	تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره	وكل معلقة قالها
وتلخ بين بيوت القصيد	حجال العروس وأحجالها
أدار النسيب إلى حبه	وولى المدائح إجلالها
أرن بغابرها العبقري	وغنى بمثل البسكا حالها (١)

موازنة

١ - إذا وازنا بين شوقي وحافظ في حبهما لمصر ، وجدنا شوقي أكثر من حافظ لهجاً بحبها كما سنجدده أعظم مخيلة بمجدها .
وحسبنا من شعر حافظ في حب مصر قوله :

أجمل بالآديب أديب مصر بكاء الطفل أرهقه الفطام ؟

(١) الشوقيات ٢٣١/٢ حجال العروس : الحجال جمع حجلة (على وزن شجرة) موضع يزبن بالثياب والستور للعروس . أحجالها : جمع حجل (على وزن شبل أو على وزن فهد) وهو الخنخال .
أرن : صاح وأشاد .

ويصرفه الهوى عن ذكر مصر
ومصر في يد الباغي تضام
لعمرك ما أرقّت لغير مصر
ومالى دونها أمل يرام^(١)

٢ — وإذا ما قايسنا بين شوقي والبارودى وجدنا شعركما غنيا بحب مصر ،
وبالحنين إليها ، وهما على درجة واحدة من حرارة العاطفة وصدقها .

لكن البارودى يتميز بكثرة حنينه ، لأن له قصائد كثيرة حنّ فيها إلى مصر . ولعل
مرد ذلك إلى أن زمن نفيه كان أطول ، وإلى أنه كان يائساً في منفاه من العودة
إلى مصر .

أما شوقي فقد قضى في المنفى نحو خمس سنوات ، وكان يؤمل أن يعود بين الحين
والحين . فقد كان الرأى العام في مصر وغيرها من البلاد العربية أن ألمانيا وحلفاءها
ومنهم تركيا سينتصرون على الإنجليز وحلفائهم ، وكانت جريرة شوقي أهون من جريرة
البارودى ، فهو لا يئأس من العودة إلى مصر يئأس البارودى ، ولذلك حدث حسين
شوقي أن جده لأمه حسين شاهين باشا « أوصى أبى وهو يودعه بأن يهون على نفسه ،
لأن الحرب لن تطول أكثر من سنة . بل ربما عدنا قبل ذلك ، إذ أن الجيوش التركية
تتأهب لتحرير مصر من هؤلاء الإنجليز الشياطين »^(٢) .

وشوقي يتميز من البارودى بافتتانه وطلاقة خياله .

وكلاهما كان يتعزى بالفخر في غربته . أما البارودى فكان يفتخر بحسبه وشجاعته
وشعره ، وأما شوقي فقد كان يفتخر بماضى مصر المجيد ، وبعظمة الإسلام وملوكه .
وقد وازنت بين قصيدتين طويلتين لـ « كليهما »^(٣) . وهاتان القصيدتان صورة
من حبهما لمصر ، وحنينهما إليها في المنفى .

(١) ديوان حافظ ٥٤/٢ (٢) أبي شوقي ٣١

(٣) مجله الرسالة العدد ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ مايو سنة ١٩٤٧

الفصل الثاني

الفخر بمصر

وأنا الممتنى بتاريخ مصر

من يصنع مجد قومه صانه عرضا

شرق

عمد الاحتلال إلى تاريخنا القومي فحاول أن يطمس معالمه ، ويباعد بيننا وبين الزهو به ، حتى لا نستلهمه ، فنشور ولا نتطامن للأيام القاتمة . وحاول الاحتلال أن يصبغ تاريخنا بصبغة الخور والضعف ، بينما يطلعنا على تاريخ إنجلترا وغيرها من الشعوب الناهضة ، بل يطلعنا على مفاخر هذا التاريخ ، لا لتأسي به ونتعلم ، بل ليزداد يقيناً بهزال تاريخنا ، وضآلة شأننا بالقياس إلى تاريخ الأمم .

وجرى كثير من مؤرخينا في هذا المضمار ، أو قل لإنهم اضطروا إلى الجريان فيه ، فنسينا كثيراً من مفاخر ماضينا ، وذكرنا بعضه ممسوخاً مشوهاً مقلوب الحقائق . وكان لهذا أثره السيئ في ضعفنا ، وازدراء بعضنا لما يمت إلى قوميتنا ، حتى لقد خيل إلى فريق منا أن الضعف طبيعة فينا ، وأن بلادنا — من دون بلاد الأرض — ضربت عليها الذلة والمسكنة . وزين لهذا الفريق أن يردد ما يردده خصومنا من حاجتنا إلى قوامه ووصاية ، وصار الانتقاص من شأننا حديثاً تلوكه الألسنة ، وتخطه الأقلام ، وشهوة من شهوات النفوس المريضة .

فلما استفقنا ، فتحنا عيوننا على مجد لم يدانه مجد ، وعلى تاريخ ذهبي عبقرى خلقه لنا الفراعنة والعرب ، وعلينا أننا ورثنا مجدين ، وحفدة شعبين عظيمين ، فكذبنا ترهات التاريخ المزيف ، وعرفنا حقائق التاريخ الصحيح .

حينئذ عرفنا من نحن في ركب الحضارة ، وشرعنا نهض من رقدتنا ، ونستحث الخطا لنقبوا مكانا عالياً تحت الشمس .

وسأعرض فخر شوقي بتاريخ مصر ومجدها ، ونفخه بحاضرها الناهض ، لنعرف إلى أى مدى كان محبا لمصر ، مزهوا بعظمتها ، مشوقا إلى أن تستعيد عزتها .

الماضى المجيد

الحضارة :

طالما زهى شوقي بحضارة مصر القديمة ، وزهى بهديها للعالم . وهو على الحق في زهوه ، لأن مصر الوادى المبارك الذى اختالت فيه الحضارة وازدهر العلم ، وازدهى الفن ، وفى جامعاتها ومدارسها نبغ العلماء ، ونهل المواطنون والغرباء .

لقد كانت التلمذة فى جامعة عين شمس نفراً للعالم اليونانى ، ثم كانت جامعة الإسكندرية ومكتبتها منارة العلم ومثابة العلماء ، وبحسب مصر من الفخار أن هو مير نقل من أقاصيصها وأساطيرها فى الأوديسة ، وفيها أسس بطليموس نظريته التى تثبت أن الأرض مركز الكون ، وقاس إيراتستين رئيس مكتبة الإسكندرية محيط الكرة الأرضية .

وقد زار مصر كثير من فلاسفة اليونان أو درسوا بها ، مثل ليكورغ المشرع الإمبراطى ، وسولون المشرع الأثينى ، والفلاسفة فيثاغورس وأفلاطون وديموكريت . على أن الحضارة المصرية أثرت فى الإغريق من طريقين آخرين ، فقد انتقلت إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط ولا سيما كريت عن طريق التجارة العظيمة ، وأثبت هذه العلاقة (سليمان) الألمانى و (سير أرثر أفانز) الإنجليزى وغيرهما من المنقبين ، ووجدوا آثار تلك الحضارة فى (كنوسس) عاصمة كريت القديمة ، وكانت حضارة كريت المتأثرة بمصر مزدهرة فى القرن السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد . وفى القرن الخامس عشر احتلت مصر كريت وغيرها من جزائر الأرخيل ، ثم دخلت كريت ومستعمراتها فى حوزة الإغريق ، فتأثروا بحضارتها المصرية .

ثم قوى اتصال الإغريق بمصر فى القرن السابع قبل الميلاد ، إذ اعتمد إيسماتيك

على الجنود المرتزقة منهم ، وشجعهم على استيطان مصر . وما زال خلفاؤه يعطفون عليهم ويستقدمون منهم حتى امتلأت مصر بهم . وفي عهد أحسن الثاني (٥٦٩ ق . م) أسسوا لهم مدينة إغريقية في كل شيء إلا أنها على أرض مصر ، هذه المدينة هي (نوقراطيس) .

تأثر الإغريق بحضارة مصر عن هذين الطريقين : كريت أولا ، والاتصال المباشر ثانيا ، وتسربت الأفكار من هنا إلى هناك ، فحق لكهنة مصر أن يقولوا لفلاسفة اليونان : (إنكم أيها اليونانيون أطفال تهرفون بما لا تعرفون ، ولا تعلمون من أمر الماضي شيئا) .

وليس في العالم من يحدد فضل مصر على المدنية وسبقها الدنيا كلها . يقول أناتول فرانس أكبر أدباء فرنسا : « إن أرض منفتاح القديمة لا ينقصها ما يستوجب اعتراف العالم بحميلها ، فهي المربية الروحية لليونان ، وكهنتها هم الذين رفعوا النقاب لأول مرة عن أسرار هذا الوجود ، وأهل الفن فيها هم الذين تمسكنوا بفطرتهم من أن يجعلوا آية الجمال مبصرة » (١) .

أليس من حق شوقي أن يفخر بهذا المجد ؟

بلى . ومن أولى من شوقي بأن يخيل بمجد مصر القديم المنوع الأفانين ؟ إن شوقي كلف بالتاريخ ، كلف بالعظمة ، مصرى معتر بمصريته ، صداح بجلال الماضي ، يرى الإشادة به فرضا عليه .

أليس هو القائل :

وأنا المحتفى به — تاريخ مصر
من يرضن مجد قومه صان عرضا (٢)

وهو القائل في مناجاة توت عنخ آمون .

ملك الملوك تحية — وولاء محفظ أمين

هذا المقام عرفته وسبقت فيه القائمين

ووقفت في آثاركم أزن الجلال وأستبين

(١) من مقدمة لكتاب (صوت مصر) بقلم فيسكتور مرجريت الكاتب الفرنسى .

(٢) الشوقيات ٦٩/٢

وبنيتُ في العشرين من أحجارها شعري الرصين
سالت عيونُ قصائدِي وجرى من الحجر المَعين
أقعدتُ جيلاً للهوى وأقمتُ جيلاً آخرين
كنتم خيال المجـديـر فَعُ للشباب الطامحين^(١)

يفخر شوقي في قصيدته الكبرى (أيها النيل) المهداة إلى الأستاذ المستشرق
مر جليوت بأن النيل مهد الحضارة، في واديه نبتت، وعلى عبريه ترعرعت، وضاع
عبرها فنيه الأمم. وهذه الآثار الخالدات، وصحائف البردي العتيقات، نواطق
وشواهد. وإلى مصر وفد العطاش إلى المعرفة فارتووا، ومنها تبلّج نور التوحيد
منذ إخناتون:

أصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتها حسنٌ عليك مُخلَق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظلم منـك الحـفـي المشـفـق
ملأت ديارك حكمةً، مأثورها في الصخر والبردي الكريم منمق
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لمن مغـرب ومشرق
واستحدثت ديناً فكان فضائلا وبناء أخلاق يطول ويشفق
مهد السيل لكل دين بعـده كالمسك ريّاه بأخرى تفتق^(٢)

والمصريون أساتذة اليونان والرومان، لأن الحضارة الرومانية متأثرة باليونانية:
فكانوا الشهب حين الأرض ليلٌ وحين النـاس جدٌ مضللينا
مشت بمنارهم في الأرض روما ومن أنوارهم قبست أثينا^(٣)

(١) الشوقيات ١١٩/٢

(٢) الشوقيات ٨٥/٢ مخلق: مطيب. منمق: مصطف منسق. يشفق: يرتفع. تفتق: من فتق
المسك بغيره إذا استخرج رائحته بشيء يدخله عليه.

(٣) الشوقيات ٣٣٥/١

ويباهى بأن الفراعنة كانوا ينابيع الحكمة ، وأنهم عرفوا ما جهله الناس إلى أن جاءت الأديان السماوية . عرفوا أن الحياة سلم إلى الآخرة ، فاحتفلوا بالآخرة .

الموردون الناس منهل حكمة	أفضى إليه الأنبياء ليستقوا
الرافعون إلى الضحا آباءهم	فالشمس أصلهم الوضي المعرق
بلغوا الحقيقة من حياة علمها	حجب مكشفة وسر مغلق
وتبينوا معنى الوجود فلم يروا	دون الخلود سعادة تتحقق
يننون للدينه — كما تبني لهم	خرباً غراب البين فيها ينق
فقصورهم كوخ وبيت بداوة	وقبورهم صرح أشم وجوسق ^(١)

وكثيراً ما أشاد ببراعتهم ، وبعظمة أخلاقهم ، وبذلهم أقصى الجهد فيما يعملون . يقول في إحدى قصائده في توت عنخ آمون :

حب الخلود بنى لكم	خلقاً به تتفردون
لم يأخذ المتقدمو	ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقم إلى ال	إحسان فيما تعملون
لم تتركوه في الجليل	ل ولا الحقير من الشئون
السبق من عاداتكم	أترى القيامة تسبقون ؟
أنتم أساطين الحضارة	والبنائة المحسنون
المتقنون وإنما	يخزي الخلود المتقنون ^(٢)

ويقول :

صنعة تدهش العقه — ول وفن^(٣) كان إتقانه على القوم فرضاً^(٣)
وكان نهضة للفرص ينوه فيهن بمجد مصر وفضلها ، يريد أن يبعث في شبابها

(١) الشوقيات ٧٩/٢ جوسق : قصر .

(٢) الشوقيات ١١٧/٢

(٣) الشوقيات ٩٩/٢

النخوة، ويحي لهم مثل البطولة ومعالم السبق، ويستحثهم إلى إعادة ما مضى .
ويريد أيضاً أن يفاخر الأمم بهذا المجد ليعلى شأن مصر . من ذلك أنه لما انعقد
في القاهرة المؤتمر الجغرافي حياه بقصيدة أشاد فيها بفضل مصر على الجغرافيا الفلكية
والإقليمية، ونوه برحلات المصريين وجوبهم البحار في عصور لا كهرباء فيها ولا بخار:

نزلن أول دار في الثرى رفعت للشمس ملوكاً والأقمار سلطانا
تفنتت قبل خلق الفن وانفجرت علماً على العصر الخالي وعرفانا
أبوّة لو سكتنا عن مفاخرهم تواضعاً نطقت صخرأ وصوانا
هم قلبوا كرة الدنيا فما وجدت أقوى على صولجان الملك أيماننا
وصيروا الدهر هزماً يسخرون به حتى ينال لهم بالهدم بنيانا
لم يسلك الأرض قوم قبلهم سبلاً ولا الزواجر أثاباً وشطانا
تقدم الناس منهم محسنون مضوا للموت تحت لواء العلم شجعانا
جاءوا العباب على عودٍ وسارية وأوغلوا في الفلا كالأسند وحادانا
أزمان لا البر (بالوالبور) منتهياً ولا البخار لبنت الماء رباناً

فجدير بالمؤتمر أن يقف في مصر وقفة العالم ليناجي عليه مهده ، ويذكر عهده ،
أزمان شب وترعرع في رعاية السكهان والنبين :

يا موكب العلم قف في أرض منف به يُناج مهدياً ويذكر للصبا شاناً
بكي تمامه طف _____ لا بها وبكى ملاعباً من ربا الوادي وأحضانا
أرض ترعرع لم يصحب بساحتها إلا نبين قد طابوا وكهاناً^(١)
وهو يوجه الخطاب إلى الشباب مؤكداً أن مصر كانت أستاذة العالم ، والعالم كله
في غياهب الجهل :

إن الذي قسم البلاد حباكم بلداً كأوطان النجوم مجيداً

(١) الشوقيات ١/٣٤٤ حتى ينالهم بالهدم بنيانا : أى يسخرون بالدهر لأنه عاجز عن هدم بنيانهم .
الزواجر : البحار . الأثاب : جمع ثبج وهو معظم الماء . الفلا : جمع فلاة وهي الصحراء .

قد كان والدينِ الحود كلها للعبقريّة والفنون مهوداً^(١)
ويكرر هذا في قوله :

قم قبل الأحجار والأيدى التي أخذت لها عهداً من الآباد
وخذ النبوغ عن السكناة إنها مهد الشمس ومسقط الآراد
ما زال يغشى الشرق من لمحاتها في كل مظلمة شعاع هاد^(٢)
ويفاخر بنسب الفراعنة إلى رع إله الشمس وأمون^(٣) ، ويشيد بأخلاقهم
التي تفردوا بها ، فما تجمل بها سابق ، ولا تكمل بمنلها لاحق ، ويمدحهم بأنهم كانوا
كلفين بالإتقان والإجادة والتفوق وسبق عصرهم والعصور التي من بعدهم ، حتى
لكأنهم حاولوا أن يسبقوا يوم البعث . يقول في مناجاة توت عنخ آمون :

يا ابن الثواقب من رع وابن الزواهر من أمون ؟
نسب عريق في الضحى بز القبائل والبطون
حب الخلود لود بني لكم خلقتاً به تنفردون
لم يأخذ المتقدمون به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى ال إحسان فيما تعملون
لم تتركوه في الجاهل ولا الحقيير من الشؤون
السبق من عاداتكم أترى القيسامة تسبقون ؟
أنتم أساطين الحضارة والنسابة المحسنون
المتقنون وإني أعجزى الخلود المتقنون^(٤)

ويكرر هذا في قوله :

ملوك الدهر بالوادي أقاموا على (وادي الملوك) محجينا

(١) الشوقيات ١/٢٢٨
الآراد : جمع رآد والمراد رآد الضحا وهو ارتفاعه .
(٢) مصر القديمة ١/٣٦٠ سليم حسن .
(٣) الشوقيات ٢/١١٦ رع وأمون : معبودان مصريان .
(٤) الشوقيات ١/١٣٠ الآباد : جمع أبَد وهو الدهر .

تعالى الله كان السحر فيهم أليسوا للحجارة منطقينا ؟
عَدُوا يبنون ما يبقى وراحوا وراء الآبدات مخلدine —
إذا عَمِدُوا لمأثرة أعدوا لها الإتقان والخلق للمتنا (١)

الملوك الأقوياء :

أشاد شوقي ببعض ملوك مصر الفرعونية ، فقد خص توت عنخ آمون بثلاث قصائد (٢) ، لأن الكشف عن مقبرته شغل العلماء ، وجلا كثيراً مما كان مجهولاً من حضارة مصر .

وكان يشير أحياناً إلى الملك مناموحد القطرين أول ملوك مصر ، وإلى خوفو باني الهرم الأكبر ، كقوله في مناجاة الشمس يستحث عزائم الشباب :

فناجهم بعرش كان صنواً لعرشك في شببته سفيننا (٣)
وكان العز حليمته وكانت قوائمه الكتائب والسفيننا
وتاجر من فرائده ابن ستي ومن خرزاته خوفو ومينا (٤)

أما رمسيس الثاني فقد كان شوقي حقياً به ، يضرب بقوته الأمثال ، ويتوق

(١) الشوقيات ٣٣٥/١ .

(٢) الشوقيات ٣٣٥/١ و ١١٦/٢ ، ١٩٧ .

(٣) شببته : شبابه . سنين : مثل

(٤) الشوقيات ٣٣٦/١

مينا : المؤرخون مختلفون في تحديد السنة التي بدأ فيها يحكم مصر المتحدة ، فمنهم من يرجع إلى ٣٢٦ ق.م. ومنهم من يذهب إلى أقدم من ذلك فيجمله نحو ٥٠٠ ق.م. ومنهم من يرى أنه أحدث من ذلك فيجمله عام ٢٩٠٠ ق.م. أو ٢٧٠٤ ق.م. غير أن الآراء صارت متفقة الآن على زمن وسط بين هذين الحدين هو ٣٢٠٠ ق.م. وقد اتخذ مينا وخلفاؤه مدينة منف مركزاً حربياً هاما لصد غارات اللوبيين الزاحفين على الدلتا من الغرب . ومينا هو الذي وحد الوجهين ، لذلك كانت له مهابة في قلوب الفرعنة الذين خلفوه ، حتى إنهم أهوه بعد موته ، وبقيت عبادته زمناً طويلاً (مصر القديمة . سليم حسن ١/١٥٤ ، ٢٧٦)
خوفو : باني الهرم الأكبر وهو من عصر بناء الأهرام (٢٩٨٠ — ٢٧٤٥ ق.م.) وقد بسط نفوذه على الليبيين .

ابن ستي : رمسيس الثاني ، وستخصه بكلمة بعد .

إلى أن تستعيد مصر مجدها الذى كان لها فى عهده^(١)، وقد حكم بعد والده سبتي الأول حوالى (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق. م) وطال حكمه ، وعظم مجده ، وتوالى نصره ، فبلغ إعجاب خلفائه به إلى أن عشرة منهم سمو أنفسهم باسمه على التوالى . ويسمى أيضا رمسيس الأكبر وسيزوستريس . وقد مدحه شاعر مصر القديمة ببناءور^(٢) .

يدل على إعجاب شوقى به أنه خصه فى همنيته (كبار الحوادث فى وادى النيل) بأكثر من خمسة وعشرين بيتاً ، صور فيها تطلع النفوس إلى ملكٍ عظيم ، وتشوقها إلى حكمه ، حتى لقد تخيل أن الشعب قد بايعه وهو فى صلب أبيه سبتي .

فلما حكم رمسيس كان البعث والابتهاج ، ولبست الأرض زيفتها فرحاً به ، فقد كان مجيد العهد ، جليل القدر ، عظيم الإصلاح .

وصور شوقى جود الزمان به توبة من إساءته السابقة إلى مصر . وفضله على الملوك جميعاً ، لأنه فتح وحكم ، وساس فما ظلم ، وشاد وخلد وعلم :

وَأَتَى الدَّهْرُ تَائِباً بَعْظِمٍ مِنْ عَظِيمِ آبَائِهِ عَظَمَاءِ
مَنْ كَرَّمِيسَ فِي الْمُلُوكِ حَدِيثاً وَلَرْمِيسَ الْمُلُوكِ فِدَاءِ

(١) هو من الأسرة التاسعة عشرة . اشترك مع والده فى الحكم منذ سن مبكرة ، ثم انفرد ، وامتد حكمه نحو ٦٧ سنة على أقل تقدير .

وهو ذو حروب كثيرة وفروح ، منها حربه للحيثيين (مملكة خيتا فى آسيا . بقى النضال بينها وبين مصر أطول من عشرين عاماً وقد هزمها الجيش المصرى فى مواقع عدة . فأرسل ملكها إلى رمسيس يطلب عقد محالفة دائمة بين البلدين ، فعقدت المعاهدة ، وهى مطولة ذات مواد كثيرة منظمة ، التزام الطرفان نصها نحو ٤٦ سنة) وغزوة بلاد النهرين ، وهزيمة اللويين ، والنوبيين ، وأهل البحار الذين يعرفون بالشمر دانا (قوم من حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل أن اسم جزيرة سردينيا مشتق من اسمهم) ولما هزمهم بأسطولهم أمن سكان الوجه البحرى .

وله أعماله عظيمة وآثار عدة فى مصر والنوبة والسودان وفلسطين وآسيا ، منها بمصر معبد الكاب والأقصر والكرنك ومقبرته فى وادى الملوك ومعبد الرمسيوم وسبتي الأول ورمسيس الثانى بالعبادة المدفونة وتحوت بمنف . ومنها بالنوبة معبد بيت الوالى وجرف حسين والدر وبوسمبل . وخلف مسلات شتى ونقوشاً عدة . وآثاره منتشرة فى أنحاء القطر المصرى حتى لا تسكاد توجد بقعة أثرية إلا فيها أثره (مصر القديمة . سليم حسن ١٩٨/٦ — ٥٠٨) .

(٢) مصر القديمة . سليم حسن (١٩٨/٦ — ٥٠٨) والسكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ٨٢/١ — ٩٠) ميخائيل شارويم .

بايعته القلوب في صلب ستي يوم أن شاقها إليه الرجاء
 واستعد العبد ——— اد للبولد الأك ——— بر وأزيت له الغم ——— براه
 جل سيزوستريس عهد وجلت في ص ——— باه الآيات والآلاء
 وسما لل ——— لا فتال مكانا لم ينله الأمت ——— ال والنظراء
 وجيوش ينهضن بالأرض ملكا ولواء من تحت ——— ه الأحياء
 ووجود يساس والقول فيه ما يقول القضاة ——— اة والحكام
 وعلوم تحي ال ——— لاد وبنتا هور نخر ال ——— لاد ، والشعراء
 ليت لم يملك الزمان ولم ي ——— ل ملك البلاد فيه ——— لك رجاء^(١)

✓ هذا الاحتفال بالملوك الأقوياء جعل شوقي يخيل بموكب فرعون وقد عاد من غزاته مظفرا ، فهو موكب جليل رهيب . هو مخيلة الدنيا وزينتها ، إذ يقبل فرعون في موكبه الحافل المنسوق ، فيشرق بين الصفوف والكتائب والقنا ، كالشمس تسفر في دكنة السحب ، فتخشع الأبصار لرؤيته ، ويخشع بصره للشمس أصله وإلهته . وفي لحق من ركبته ملوك أسرى أذلة ، هم ملك يمينه ، فإن شاء قتلهم ، وإن شاء أعتقهم :

كم موكب تتخايل الدنيا به يحلى كما تحلى الهموم وينسق
 فرعون فيه من الكتائب مقبل كالسحب قرن الشمس منها مفتق
 تعنو لعزته الوجوه ووجهه للشمس في الآفاق عان مطرق
 آبت من السفر البعيد جنوده وأتته بالفتح السعيد الفيلق
 ومشى الملوك مصفدين ، خدودهم نعل لفرعون العظيم وتمرق
 ——— لوكة أعناقهم ليمينه يأبى فيضرب أو يمن فيعتق^(٢)

(١) الشوقيات ٤/١ — ٦ .

(٢) الشوقيات ٨١/٢ مفتق : باد . الفيلق : الكتيبة ، لذلك جاز تأنيث الفعل على إرادة المعنى .
 تمرق : وسادة أو طنفسة .

ومن مفاخر مصر أن جوها قد عطر بعير الرسل إبراهيم وموسى وعيسى
ويوسف عليهم السلام ، وأن قبضها سُرُوا بمصاهرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام .
وأى فخار يطاول هذا الفخار ؟

إن الأمم لتتنازع أحيانا في العبقرى العظيم فتدعيه كل منها ، ومن كالرسل سموا
وشرفا وعظمة ، وهم الذين اجتباهم الله هداة ، واصطفاهم قادة ، واختارهم للتبليغ عنه ؟
وشوقى يهتبل المناسبات للتذكير بذلك وتكريره ، ففي مناجاته للنيل يقول :

أين الفراغنة الألى استذرى بهم	عيسى ويوسف والسكيم المصعق
تابوت موسى لا تزال جلالة	تبدو عليك له ورىا تنشق
وجمال يوسف لا يزال لواؤه	حولىك في أفق الجلال يرتق
ودموع إخوته رسائل توبة	مسطورهن بشاطئك منمق
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل	يزكو لذكرها النبات ويسمق
وخُطأ المسيح عليك روحا طاهرا	بركات ربك والنعيم الغيدق
وودائع (الفاروق) عندك دينه	ولواؤه وبه — انه والمنطق
بعث الصحابة يحملون من الهدى	والحق ما يحيى العقول ويفتق ^(١)
ويقول في علم مصر :	

أرض ترعرع لم يصحب بساحتها	إلا نبين قد طابوا وكهانا
عيسى بن مريم فيها جر بردته	وجر فيها العصا موسى بن عمران ^(٢)
وفي قصيدة للكاتب الإنجليزى المستر هول كين :	

إن مصر رواية الدهر فاقرا	عبرة الدهر في الكتاب العتيق
ملعب مثل القضا — اه عليه	في صبا الدهر آية (الصديق)
والمحاه (السكيم) أنس نارا	والتجاء (البتول) في وقت ضيق ^(٣)

(١) الشوقيات ٢/٧٩، ٨٥ استذرى بهم : التجأ إليهم . ربا : رائحة عطرة . يرتق : يخفق . يسبق :

يطول . الغيدق : الكثير . الفاروق : عمر بن الخطاب (٢) الشوقيات ١/٣٤٧

(٣) الشوقيات ٢/٩٥ الصديق : سيدنا يوسف . الحكيم : سيدنا موسى . البتول : السيدة مريم

الآثار

استقى شوقي مفاخره من تاريخ مصر وحضارتها وقوتها، وكانت الآثار ينابيع ثرة تمدّه بفخر مرّد متجدد.

وهو في نخره بالآثار لا يباهى مباهاة المعجب المشدوه الذي يصور مشاعره في معان عامة، وإنما يباهى في إعجاب وفي علم بقيمة الأثر وخصائصه ومعالم العظمة فيه. ذلك بأنه كان عالماً بالتاريخ طالما استلهمه وضرب منه الأمثال. وقد رأى الآثار التي تحدث عنها، فزار الأهرام وأبا الهول مراراً، وسافر إلى الأقصر وأسوان فتعلّى النظر إلى ما هنالك من مجد مؤثّل.

الأهرام

يعجب ببقائها منذ أربعة آلاف عام، كأنما بناها الدهر الخالد لا الفراعنة الفانون، فهي راسية كالطود الأشم تُفسي الملوك والقصور العظيمة. ثم يصورها وهي تبدو من بعيد وحولها بحر من الرمل الذي يستوى بعضه ويرتفع بعضه بسفينة في البحر وارتها الأمواج إلا سواربها وشرعها، وكأنها والضحا المضىء يكسوها أشعة من لهب كنوز فرعون ملأ ذهبها كفات الموازين الكبار وغطاها وتكوم فوقها، وهو يشير بهذا التصوير إلى الحضارة القديمة التي توارت ولم يبق منها إلا رموز وإشارات تدل عليها، كالسفينة غرقت في البحر، ولم يبق منها إلا ساريتها، ويشير إلى غنى مصر وعظم خيراتها، حتى لكان ذهبها أهرام:

كأن أهرام مصر حائط نهضت	به يد الدهر لا بنيان فانبنا
إيوانه الفخم من علّيا مقاصره	يفسي الملوك ولا يَبقى الأواوين
كأنها ورمالا حولها التظمت	سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لآلاء الضحا ذهباً	كنوز فرعون غطين الموازينا ^(١)

(١) الشوقيات ١٣٢/٢ الأواوين: جمع إيوان وهو القصر العظيم. الأساطين: جمع أسطوانة وهي سارية السفينة. لآلاء: ضوء واشتعال

ويذكرها مرة أخرى ^(١) ويفتح بها قصيدته في تحية طيارين تركيين ^(٢)
 وإذا ما وقف على قبر نابليون ، واستلهم من تاريخه وحياته ما استلهم ، لم يفته
 أن يناجي به أن يقوم إلى الأهرام خاشعاً لا مزهواً بفتوحه ، وأن يمشى في رحابها متدأً ،
 لأنها محراب الزمن وحرمة المنيع ، لها من جلالها وجلال بناتها قداسة . ثم ذكره بكلمته
 التي قالها لجنوده قبيل موقعة إمبابه (أيها الجنود إن أربعين قرناً تنظر إليكم من هذه
 القمة) ، وعجب من أن يستلهم الأجنبي الغاصب النخوة والقوة من الأهرام ويغفل
 المصريون عن هذا الاستلهام :

قم إلى الأهرام واخضع واظرح	خيلة الصيد وزهو الفاتحين
وتمهل إنما تمشي إلى	حرم الدهر ومحراب القرون
هو كالصخرة عند القبط أو	كالخطيم الطهر عند المسلمين
وتسمن منبرا من حجر	لم يك قبلك حظ الخاطبين
وأعدها كلمات أربعة	قد أحاطت بالقرون الأربعين
ألهبت خيلاً وحضت فيلقا	وأحالت عسلا صاب المنون

.....

فترى الأحياء في معترك	وترى الموتى عليهم مشرفين
عظلة قومي بها أولى وإن	بعد العم — د فهل يعتبرون ؟
هذه الأهرام تاريخهم	كيف من تاريخهم لا يستحون ؟ ^(٣)

ولم يفته وهو يحيي الطائرين الفرنسيين القادمين إلى مصر سنة ١٩١٤ أن يذكر
 أن الأهرام قد تأثرت لعزتها من نابليون ، فكأنما صبت عليه لعنة الفراعنة فانهزم
 في واترلو ، ثم أسر ونفى :

(١) الشوقيات ٥٦/٢

(٢) الشوقيات ٢٦٧/١

(٣) خيلة الصيد : كبر الملوك . الصخرة : صخرة بيت المقدس . الخطيم : جدار الكعبة أو حجرها
 أو ما بين الركن وزمزم والمقام أو ما بين المقام والباب أو ما بين الركن الأسود والباب والمقام . صاب
 المنون : مرارة الموت

جرح الأهرام في عزتها فمضى للقبر مجروح الإباء
أُخِذَتْ تاجا بتاج ثأرها وجَزَتْ من صلفٍ بالكبرياء^(١)
والأهرام الثلاثة أجل من الجبال وأقوى ، ولها روعة قدسية ، وعليها روحانية
العابدين . وقد بناها الفراعنة بعقول جبارة ، وأخلاق عالية .

قل للأعاجيب الثلاث مقالة من هاتف بمكانهم وش—اد
لله أنت فما رأيتُ على الصفا هذا الجلال ولا على الأوتاد
لك كالمعابد روعة قدسية—ية وعليك روحانية العباد
أسست من أحلامهم بقواعد ورفعت من أخلاقهم بعماد^(٢)

أبو الهول^(٣) :

ذلك التمثال الرابض في سفح الأهرام يصارع الزمن ويغالب العوادي ، ناجاه
شوق بقصيدتين . أما مناجاته في الأولى فإنها تتم عن العجب من طول بقائه حتى لقد
سماه لذة الدهر وقرينه ، وقرع الجبال الراسيات ، لا يزول إلا معها يوم البعث .
ثم استنبأه فلسفة الحياة والموت ، وعرض للحيرة فيما يرمز إليه شكله ، وقص بعض
ما شهد أبو الهول من تاريخ مصر في زمن الفراعنة والفرس واليونان والرومان
والعرب ، وبعض ما شهد من تتابع الديانات في مصر^(٤) .

وفي الثانية قال إنه رهين الصحراء ، وقد فطس أنفه من طول ما أثرت فيه عوامل
الريخ والجو ، لكنه من صنع جن ذوى عزة وأنوف شم ، وإنه صورة حقيقية للبشر ،
فهو أسد في قالب إنسان ، يريد أن النامس يحملون غرائز الوحش في مظاهرهم الآدمية .

(٢) الشوقيات ١٢٩/١

(١) الشوقيات ٢/٢

(٣) نحت في عهد خوفو أو قبله أو بعده . ومما يؤسف له أننا إلى الآن لم نعتز على تاريخ أو نقش
معاصر له يدلنا على زمنه ، لذلك عدّه الأثريون لغزا في تاريخ مصر .

والراجح أنه كان معبودا من المعبودات المصرية القديمة ، لأن الإله (أتوم) كان يمثل برأس إنسان
وجسم أسد . ثم أثبت الكشف الحديث أنه صنع في عهد الملك خفرع وعلى صورته ، لكنه يمثل إله
الشمس عند الغروب وقد كان المصريون يطلقون عليه اسم أتوم (مصر القديمة سليم حسن ١/٣٠٠-٣١٠)

(٤) الشوقيات ١٥٣/١-١٦٥

وإذ مات ذكرنا أنه نظم هذه القصيدة في المنفى علمنا الباعث على هذه الإشارة ، فقد كان ساخطاً على الأخلاق الإنسانية ، وعلى عدوان الدول القوية على الأمم الضعيفة ، ومتبرماً بالمنافقين في مصر . ثم تخيل أن القضاء قد استعار من أبي الهول عينيه لينظر بهما ويتفرس ويتخير فرائسه ، وأنه قد استعار مخليته ليمطش بهما ويفترس قنائصه ، فأصاب كسرى وهرقل و نابليون . يريد أن أبا الهول أقدم من هؤلاء وأبقى :

و (رهينُ الرمان) أفطسُ إلا	أنه صنع جنّة غير فطسُ
تتجلى حقيقة الناس فيه	سبع الخلق في أسارير إنسى
لعب الدهر في ثراه صبيا	والليالى كواعبا غير عس
ركبت صيد المــــ قنادير عينيه	لنقدٍ ومخليته لفــــ رُس
فأصاب به الممالك : كسرى	وهرقلا والعبرى الفرئسى ^(١)

قصر أنس الوجود :

زار مصر سنة ١٩١٠ المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة - جد روزفلت الذى كان رئيسا إلى سنة ١٩٤٥ م - فرأى شوقى أن خير هدية يقدمها إليه قصيدة في قصر أنس الوجود ، قدم لها بمقدمة ثرية تاريخية ، عتب فيها عليه أنه خطب في الخرطوم فأطرى الحكم البريطانى في مصر ، وامتدح المسيحية وتحدث بمزاياها . يخالف سنة الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك ، فطارد الشعور وهو يهب ، والوجدان وهو يشب . والحياة وهى تدب في هذا الشعب . ومن حرمة العواطف السامية ألا تطارد كأنها وحرش ضارية ، على صحراء أو بادية . وكان شوقى يأمل أن يكسب عطف الرئيس الأمريكى لمصر ، فيؤازر بنفوذ حقه في طلب الاستقلال . ثم تبين أن هذا الأمل سراب خادع ، لأن الإنجليز استمالوه إلى باطلهم . فخطب في مصر معلنا أن المصريين لا يصلحون للاستقلال ولا للحكم الدستورى .

افتتح شوقى القصيدة بتبنيه المستر روزفلت أن يخلع نعله ، ويخفض طرفه ،

(١) الشوقيات ٥٦/٢ عس : جمع عانس وهى الفتاة التى طال مكثها فى أهلها ولم تتزوج والمراد أن الليالى كانت شابة . صيد : جمع صائد . فرس : افتراس .

ويخشع إذا ما هبط قصر أنس الوجود ، وألا يحاول التهوين من معجزة الدهر .
إن شوقي بهذا التنبيه الذي لا نسميه أمرا ولا نسميه دعاء ولا رجاء ينظر إلى آثار
وطنه نظرته إلى الأماكن المقدسة يدخلها المؤمنون حفاة خاشعين .
ثم وصف القصر أبدع وصف ، وصفه غريقاً في النيل بعد تعلية خزان أسوان ،
وقد تماسكت جدرانه وتآزرت مخافة أن تتقوض ، وأشفق شوقي من إشرافها على الزوال
وهي التي كانت فيما مضى أعلى من الكواكب شأنها .

ثم تحدث في إعجاب عن جمال الفن وروعته بهذا القصر ، فنقوشه زاهية يخيل
لمن يراها أن الصانع فرغ منها أمس ، ودهان النقوش وضّاء فكأنه في هذا القصر
زيت صاف براق أضاء به السراج عصوراً طويلاً وهو باق لم ينفد ، والخطوط
الدقاق في الرسوم تشبه أهداب الطباء دقة وجمالاً وانسجاماً ، وهنالك رسوم الضحايا
بلغت من الإتقان أنها تكاد تمشي وترعى لو نفخت فيها الحياة . ثم تحدث عن المحاريب
والمقاصير ، وتحسر على هذه القصور التي قاربت الفناء ، وناجها بذكريات عن مواكب
فرعون وإيزيس .

أيها المنتجى بأسوان دارا	كالثريا تريد أن تنقضا
إخلع النعل واخفض الطرف واخشع	لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك القصور في اليم غرقى	تمسكا بعضها من الذعر بعضا
مشرفات على الزوال وكانت	مشرفات على الكواكب نهضا
شباب من حولها الزمان وشابت	وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا	نع منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرت	أعصر بالسراج والزيت وضّا
وخطوط كأنها هذب ريم	حسنّت صنعة وطولا وعرضا
وضحايا تكاد تمشي وترعى	لو أصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالـ — بروج بنها	عزّمت من عزمة الجن أمضى

.....

يا قصوراً نظرتها وهى تقضى فسكبت الدموع والحق يُقضى
أنت سطرٌ ومجدٌ مصر كتابٌ كيف سام البلى كتابك فضاً ؟

.....

حار فيك المهندسون عقولا وتولت عزائم العلم مرضى

.....

أين فرعون فى المواكب تترى يركض المالكين كالخيل ركضا

.....

أين إيزيس تحتها النيل يجرى حكمت فيه شاطئين وعرضا^(١)

.....

آثار توت عنخ آمون^(٢)

أشاد شوقى به فى ثلاث قصائد . عرض فى إحداها لاثاره الدالة على حضارة عصره ، ولإعجاب العالم بها حتى لقد ظننا من صناعة باريس ، وعرض للذهب والتوايب ، وعبر عن روعتها بأن الموتى لو فطنوا لها لاستلبوها ، وعرض للتحنيط والأ كفان والتماثيل التى يخيل إلى من يراها أنها تتحرك وتنطق ، وللنقوش الغضة التى لم ينل منها الدهر ولا طول النظر واللمس . ثم عرض لصور الغلمان والصائدين وللبوق ، وكلاب الصيد ، والوحش ، والطير :

(١) الشوقيات ٦٥/٢ — ٧٠ وضا : وضاء . ريم : غزال . تقضى : تتداعى .

(٢) وجدت فى مقبرته صور رائعة افتن المصور فيها فأبرز الفكرة كأنه كاتب لبق ، بعضها يفيض بسالة وإقداما ، وبعضها يتدفق حبا وحنانا ، سواء فى ذلك صورته مع زوجته (عنخس إن آمون) أم فى نزهته لصيد الطيور فى قارب من سيقان البردى ، أم فى عودته من رحلة الصيد وخلفه أتباعه ، أم صورته وهو يتمرن على الصيد ومعه مجموعة من أدواته رصع بعضها بالأحجار الكريمة وغطى بصفائح من الذهب المطرز .

وقد خلف قطعة من الحجر أمام مقبرته تظهر شجاعته وهو يطعن بجرته أسدا ضاريا ، ويساعده كلبه الأمين . وفى الصورة من الدقة ما يدهش .

وفى قبره صندوق من الحشب المطلى ، وعلى وجوهه سلسلة مناظر ملونة بديعة ، وغطاؤه الخشب يزدان بمناظر صيد مختلفة وبخاصة صيد الأسود ، وجوانبه حافلة برسوم الوقائع الحربية يقاتل فيها توت عنخ آمون وحاشيته قتالا عنيفا ، وعلى طرفى الصندوق مليكنا فى صورة أسديدوس الأعداء بقدميه (مصر القديمة ٤٤٨/٥ — ٤٥٧)

لم يبقَ غالٍ في الحضرة لم يحزه ولا ثمين
 ميتٌ تحيط به الحياة زمانه معه دفين
 وذخائر من أعصر وأت ومن دنيا ودين
 حملت على العجب الزمان وأهله المستكبرين
 فتلفقت باريس تحسب أنها صنغ البنين
 ذهب بيطن الأرض لم تذهب بلحمته القرون
 استحدثت لك جنوداً وصفاحاً منه القيون
 ونواوياً وهاجة لم يتخذها الهامدون
 لو يفظن الموتى لها سرحوا الأنامل ينبشون
 وتنازعوا الذهب الذي كانوا له يتفانون
 أكفان وشي فصلت برقائق الذهب الفتيين
 قد لفها لف الضما د محط أسرين
 وكأنهن كائنات وكأنك الورد الجنين
 وبكل ركن صورة وبكل زاوية رقيقين
 وترى الدمي فتغالها انشئت على جنبات زون
 صور تريك تحركا والأصل في الصور السكون
 ويمر رائع صمتها بالحس كأنطق المبين
 صبح الزمان دهاها حيناً عهداً بعد حين
 غص على طول البلى حتى على طول المنون
 خدع العيون ولم يزل حتى تحدى اللامسين
 غلمان قصر في الركا ب ينالون ويطر دون
 والبوق يهتف والسها م ترث والقوس الحنون

وكلاب صيدك لهُثَّ والحيل جُنَّ لها جنون
والوحش تَنسِفُ في السُّهُو ل وتارة تثب الحزون
والطير تَرْسُفُ في الجرا ح وفي مناقرها أنين
وكأن آباء البرية في المدائن مُحْضَرُونَ
وكأن دولة آل شمس عن شمالك واليمين^(١)

الآثار عامة :

كان شوقي أحياناً يعرض للآثار بعامة ، وأحياناً يعرض لبعضها بخاصة .
وهو في العرض العام يشيد بالقوة والعظمة والسبق ، كقوله في قصيدته الكبرى
(كبار الحوادث في وادي النيل) سنة ١٨٩٤ :

وبنينا فلم نخلَّ لبان وعلونا فلم يحزنا علاء
وملكنا فالما لكون عبيد والبرايا بأسرهم أسراء
قل لبان بني فساد فغالى لم يحز مصر في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تُنْقَلِ الأَجْـ بال شُما وأن تنال السماء
أَجْفَلَ الجُنُّ عن عزائم فرعو ن ودانت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان ولا أنشأ عصر ولا بني بناء^(٢)

.....

هذه الآثار قد سمك المصريون بناءها حتى شارفت النجوم ، بعضها كالبروج
وبعضها كالجبال الشامخ ، وكلها جديدة كأنها بنيت اليوم لم ينل منها تقادم العهد . ويصور
عظمتها وضخامتها بأن الأرض تنوء بحملها ، ويكاد فضاؤها لا يسعها ، ويصور تأيها

(١) الشوقيات ١١٧/٢ جندل : المراد التابوت . نواوس : توابيت . الذهب الفتين : الذي أذيب
لبصاغ ويطرق . آس : طيب . رفين : كتاب . زون : موضع الأصنام تنصب فيه وتزين . عهد : قدم .
يطردون : يصيدون . الحزون : جمع حزن وهو المكان المرتفع . آل شمس : الفراعنة لأنهم انتسبوا إليها .
(٢) الشوقيات ٢/١

على الفناء بأنه عاجز عن تسليقها والصعود إليها ليهدمها :

ولمن هياكلٌ قد علا الباني بها بين الثريا والثرى تنسّق
منها المشيد كالروح وبعضها كالطود مضطجع أشم منطّق
جددٌ كأول عهدا وحيالها تتقدم الأرض الفضاء وتعقّ
من كل ثقلٍ كاهل الدنيا به تعبٌ ووجه الأرض عنه ضيق
عالٍ على باع البلى لا يهتدى ما يعتلى منه وما يتسلّق
متمكن كالطود أصلاً في الثرى والفرع في حرَم السماء مُخلّق^(١)

وهو يرى التماثيل المصرية فيدهش ، يراها خالدة لم يعد الدهر على جمالها ، وقد مرت القرون على نحتها لكن رونقها ما زال غضاً ، يالها من دمي حسان يخيل إلى رائيتها أنها — وهى جماد — تكاد تتحرك كالأحياء ، ونحن لا نستطيع أن نعرف من سرها إلا القليل :

وكّل مخدّدة في الدمي هنالك لم تُحصِ أحوالها
عليها من الوحي ديباجةٌ ألح الزمان فما ازدألها
تكاد وإن هى لم تتصل بروح تُحرك أوصالها^(٢)

قلت إن حب شوقي لمصر وإعجابه بآثارها كان يتجاوز به الحد أحياناً ، فيذهب يصور مصر معبوداً ، ويصور آثارها أما كن مقدسة .

لذلك يخاطب الطيارين التركيين بقوله يا راكب الريح أد النحية للنيل وللهرم ، وعظم سفح الهرم الذى يشبه فى قداسته طور سيناء والحرم ، واخفض جناحك لإجلال هذه البلاد الطاهرة التى خطر على ثراها موسى وعيسى ، وعلمت العالم الحكمة والكتابة والحرب والشجاعة ، وشرفت بملوك أقوياء طالما فتحوا وظفروا وأسروا

(١) الشوقيات ٨٠/٢ تنسق : تنتظم منطوق : مرتفع . تعقّ : تقدم .

(٢) الشوقيات ٢٣٢/١

الملوك . وهذا الفضاء الذى تحلق فيه فضاء مقدس تمر به الريح خاشعة ، ويمشى به الدهر فى وقار وإجلال :

يا ركب الريح حى النيل والهرما
وقف على أثر مر الزمان به
واخفض جناحك فى الأرض التى حملت
وأخرجت حكمة الأجيال خالدة
وشرفت بملوك طالما اتخذوا
هذا فضاء تلم الريح خاشعة
ويقول فى مقبرة توت عنخ آمون :

وخصاً بالعمار وبالتحايا
وقبرا كاد من حسن وطيب
يُخال لروعة التساربخ قدت
غبرة على الآثار :

فى سنة ١٩٢٢ استطاع مستر هوارد كارتر — وكان يموله اللورد كارنارفون — بعد جهود طويلة متصلة أن يستكشف مقبرة توت عنخ آمون ، وعثر فيها على مومياة الملك فى تابوت من الذهب ، موضوع فى آخر من الخشب المغطى بصقائح من الذهب المرصع بزجاج متعدد الألوان ، وهذا كله فى تابوت ثالث من الخشب والذهب ، والتوايت الثلاثة المتداخلة على سرير من الخشب المذهب ، وكلها فى تابوت من الحجر . وكان بالمقبرة كثير من النفائس العظيمة ، والتماثيل البديعة ، والأمتعة الفاخرة . وكان لهذا الكشف دوى فى العالم كله ، لأنه الأول من نوعه فى تاريخ التنقيب بمصر ، ولأنه كشف عن عجائب بقيت فى جوف الثرى ثلاثة آلاف عام ونيف .

(١) الشوقيات ٢٦٧/١

(٢) الشوقيات ٣٢٩/١ العمار : الريحان والتعبية . يوضع : نفوح رائحته الزكية . قدت : قطعت .

فلم يكن بدعا أن تغنى شوقي في ثلاث قصائد بهذا الملك ، ليدكرنا بمجدنا العظيم ،
ويستحث الهمم لاستعادته .

ويهمنا في هذه الفقرة أمران :

أما الأول فهو أن اللورد كارنارفون قد اتهم بأنه أخذ خفية أغلى ما في مقبرة
الملك من تحف بينها تاج الملكة وعقدها ، وسكت على هذه التهمة ، فلامه شوقي ،
وبين له أن المصريين حراس على آثار آبائهم ، لا يرضون أن يملكها غيرهم ،
لأن امتلاك غيرهم لبعض هذه الآثار عدوان على الأجداد والأحفاد ، واغتصاب
لأعز ما يجب ان يسان . وقال له : لقد علمت بالتهم الموجهة إليك فسكت ولم تنفها ،
ولو أنك برىء لرددت على هذه التهم فعلننا براءتك .

ثم وخز اللورد ووخز بريطانيا كلها وخزة لبقة موفقة ، إذ قال إن المصريين
لا يستبعدون أن تسرق بعض النفائس ، لأنك من الإنجليز الذين سرقوا السلطان
وحيد الدين وهو حي ، وسرقة الموتى أسهل من سرقة الأحياء . يشير إلى أن إنجلترا
هي التي نقلت السلطان وحيد الدين من قصره في الآستانة إلى المدرعة البريطانية ،
وقاية له من الكمالين ، فأبحرت به إلى مالطة في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

وقد ذاعت الأنباء بأن اللورد كارنارفون أهدى إلى ابنة ملك الإنجليز عقدا
مصريا قديما عظيم القيمة ، وأنها لما علمت بوفاته بعد أن عضته بعوضة من القبر نزعت
العقد من عنقه خوفا من انتقام توت عنخ آمون ، إذ نسب الناس إليه وفاة كارنارفون ،
وأذاعوا ما سموه لعنة الفراغة :

رَأَيْتَ تَنْسَكِرًا وَسَمِعْتَ عَنَّا	فَعُذِّرَا لِلْغِيصَابِ الْمُحَنِّقِينَا
أَبُوْتُنَا وَأَعْظَمُهُمْ تَرَاثُ	نَحَاذِرُ أَنْ يَقُولَ لآخِرِينَا
وَنَأْنَى أَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ ضَمِيمٌ	وَيَذْهَبَ نُهْبَةً لِلنَّاهِبِينَا
سَكَتٌ فَخَامٌ حَوْلَكَ كُلُّ ظَنٍ	وَلَوْ صَرَّحْتَ لَمْ تُثِرِ الظَّنُونَا
بِقَوْلِ النَّاسِ فِي سِرِّ وَجْهِهِ	وَمَالِكَ حِيلَةٍ فِي الْمَرْجِفِينَا

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفينا^(١) ؟

وأما الثانى فهو أن المستر كارتر صد المصريين عن أن يشهدوا ما كشف ، فثار شوقى ، وصرح بأنه لولا أنه يدين للكشف بالفضل ويعزه ، لأن اقترابه من جثة توت عنخ آمون وآثاره أ كسبه عازاة ، لولا هذا وذاك لرجا توت عنخ آمون أن يضرب يد كارتر فيقطعها ، أو أن يرسل له بعوضة تلسعه لسعة فيها حتفه ، كما لسعت أخت لها من قبل لورد كارنارفون :

أبوأبك اللاتى قصدنا قصدها (كارتر) فى وجه الوفود ردها
لولا جهود لا نريد جحدها وحرمة من قربك استمدها
قلت لك : اضرب يده وقدها وابعث له من البعوض نكدها^(٢)

وفاع عن الفراعنة :

ردد بعض المؤرخين من الإفرنج أن الفراعنة شادوا آثارهم بالعسف والاضطهاد وتسخير الشعب وخيرات مصر . وتناسوا أن الفراعنة يمنحون العمال أجورا على عملهم ، وكانوا يشغلونهم فى موسم الفيضان حيث لا زراعة ولا عمل^(٣) ، لأن الأرض مغمورة بالماء ، فمن الحكمة شغل الأيدى العاملة ، وقد شغلها الفراعنة فى عمل مجيد خالد .

رد شوقى على هؤلاء الحاقدين على مصر ، بأن هذه التهمة باطلة ، وبأن تسخير الفراعنة للشعب فى هذا العمل الجليل — على فرض صحة التهمة — خير من عسف حكومات أوروبا فى القرون الوسطى ، إذ كانت تضطهد الشعوب ، وتعنف فى معاملتها فى عهد الإقطاع ، وكان الأمراء يبتزون أموال الزراع ، ويسخرونهم فى أعمال لا تخلد للأمم مجدا . وإذا كانت أوروبا بعد عصر النهضة لم تسلم حكومتها من النقائص فمن التعسف أن يطالب الفراعنة بالسكال الذى حرّمه العالم المتمدن الحديث .

(١) الشوقيات ١/٣٣٨

(٢) الشوقيات ٢/١٩٨

(٣) مصر القديمة . سليم حسن ١/٢٩٢

ثم ذكر أوروبا بسجن الباستيل^(١) وويلاته ، وبمحاكم التفتيش وسلطان رجال الدين وحجرهم على الأفكار ، واضطهادهم الأحرار .

وما زالت أوروبا إلى اليوم تسخر الشعوب بدعوى الاستعمار ، وهى شعوب لا تمت إليها رابطة من جنس ولا لغة ولا دين ولا مصالح مشتركة :

ولستُ بقاتل ظلموا وجاروا على الأجراء أو جلدوا القطينا
فإننا لم نُوقِ النقصرَ حتى نطالب بالكمال الأولينا
وما البستيلُ إلا بنتُ أمس وكُم أكل الحديد بها سجيننا
وربةٌ بيعةٌ عزّت وطالت بناها الناسُ أمسَ مسخرينا
مشيدةٌ لشافى العمى عيسى وكُم سَمَلُ القسوسُ بها عيوننا^(٢)
ويقول :

هى من بناء الظلم إلا أنه يبيض وجهُ الظلم منه ويُشرق
لم يرهق الأممُ الملوكُ بمثلها خُرا لهم يَبْقَى وذكرُا يعقب^(٣)
وعزو هذه التهمة إلى حقراء اليونان الذين كانوا يعيشون بمصر أيام الفراغة
مرتزقين ومجذنين .

ويرد على اتهامهم بتسخير الأسرى بأن هذا التسخير كان في العالم القديم ، وما زال في العالم الحديث . وهو على الحق لأن الدول الحديثة تقتل الأسرى أحيانا ، أو تكلفهم أعمالا حربية ضد أوطانهم ، كما حدث في الحرب الأخيرة . ولكن مصر كانت تستخدمهم في بناء آثار خالدة يعتز بها العالم المنحضر :

فاعذر الحاسدين فيها إذا لا موا فصعبٌ على الحسود الثناء

(١) سجن أنشئ في فرنسا سنة ١٦٤٩ م في عهد الملك شارل الخامس . وكان عقابا للمصلحين الأحرار من سياسة ومفكرين . وقد كرهه الفرنسيون وكرهوا اسمه ، وما كادوا يثورون على حكومتهم سنة ١٧٨٩ حتى هدموه واتخذت النساء فئات أحجاره عقودا يتحلين بها كالآلئ . ثم أقيم تمثال الحرية في مكانه .

(٢) الشوقيات ٣٣٧/١ القطين : الخدم والأنباع . البيعة : الكنيسة . سَمَل العين : فقأها .

(٣) الشوقيات ٨٠/٢

زعموا أنها دعائم شيدت بيد البغي ملؤها ظلمة —
دمر الناس والرعية في تشييدها والخلائق الأسراء
أين كان القضاء والعدل والحكمة — ممة والرأى والنهى والذكاء
وبنو الشمس من أعزة مصر والعلوم التي بها يستضاء
فادعوا ما ادعى أصغر آتينا — ودعواهم خناً وافتراء
ورأوا للذين سادوا وشادوا سبة أن تسخر الأعداء
إن يكن غير ما أتوه بخار — فأنا منك يا بخار براء^(١)

وهو لم يخرج في دفاعه عن حقائق التاريخ .

فالظاهر أن أسرى الحرب — في الدولة القديمة — كانوا يخصصون لأشق الأعمال
في المناجم أو ضياع الحكومة أو المصانع الملكية . وعند الحاجة كان الجنود يطلبون
للأعمال الهامة ، حينما لا تنشب حروب .

أما الأعمال التي تحتاج إلى مرانة وخبرة فنية فمن الراجح أن القائمين بها كانوا
يتقاضون أجرهم . وتؤكد النقوش التي يكشف عنها يوماً بعد آخر أن العمال والصناع
كانوا أحرار غير تابعين لفرد معين أو للحكومة^(٢) .

أما فكرة العدل والقضاء التي ذكرها شوقي فإنه على الحق فيها .
فمنذ أقدم العهود كانت فكرة الحق والعدل ذات سلطان على المصريين ، حتى لقد
مثلوا العدالة بإلهة تعبد ، يقوم بشعائرها القضاء ، وكانوا يخافون عاقبة الظلم في الآخرة .
وقد نقش أحد رجال الدين على قبره جملة منها : « لم يحدث قط أنى اغتصبت
شيئاً من إنسان لهذا القبر ، لأنى أذكر يوم الحساب في الغرب (الآخرة) . وقد
أقمت القبر بأجور للعمال من الخبز والجمعة والكنان ، ودعوا الله لى من أجل ذلك . .
والذى يطلع على نظام التقاضى عند الفراعنة في عهد الدولة القديمة يعجب بعدلهم
ودقة نظرهم للقضايا^(٣) .

(١) الشوقيات ٣/١

(٢) مصر القديمة . سليم حسن ٢١١/٢ — ٢١٥

(٣) مصر القديمة . سليم حسن ٣٨/٢ — ٦٦

يقول أحد رجال القضاء وهو كاهن معبد الملك في نقش على قبره : « إن كل الذين عملوا في مقبرتي صنعوا ذلك في مقابل الخبز والجمعة والمنسوجات والزيت والجبن بكمية عظيمة » .
وكذلك سجل أمير مقاطعة أن كل رجل عمل في قبره كان راضيا ، وقد أَرْضَى العمال جميعا .

ولا يفوتنا ما خلفه الكاهن الملوكي في مقبرته بالجيزة من قوله : لقد جعلت التمثال ينحت هذا التمثال وهو مرتاح للأجر الذي أعطيته إياه^(١) .
ولا شك أن دفاع هؤلاء عن أنفسهم سواء أكان حقا أم باطلا أم مبالغا فيه يؤكد أن العمال والصناع كانت لهم حقوق يجب أن تراعى .
موازنة

لم أجد في الشعراء السابقين لشوقي أو المعاصرين له ، من أشاد بالآثار بعض إشادة شوقي ، ولا من برع في وصفها والتمخار بها بعض ما برع شوقي وافتخر .
ولم أجد من بينهم من نوه بمجد مصر الغابر كما نوه شوقي ،
فالبارودي يصف الأهرام بالقوة التي غلبت الزمن ، وتحدث الخطوب ، ويتحدث عن النقوش التي فيها وعن أبي الهول حديثا عجلا :
سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر

لعلك تدري غيبَ ما لم تكن تدري	بناء ان ردا صولة الدهر عنهما
ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر	أقاما على رغم الخطوب ليشهدا
لبانيهما بين البرية بالفخر	فكم أمم في الدهر بادت وأعصر
خلت وهما أعجوبة العين والفكر	تلوح لآثار العقول عليهم ا
أساطير لا تنفك تنلى إلى الحشر	رموز لو استطلعت مكنون سرها
لأبصرت مجموع الخلائق في سطر	فما من بناء كان أو هو كائن
يدانيهما عند التأمل والخبر ^(٢)	

(١) مصر القديمة ٢١٤/٢

(٢) ديوان البارودي ٤٧/٢

وإسماعيل صبرى يصف الأهرام ، ويشيد بخلودها ، ويعرج على الآثار عامة :
أهرامهم تلك حتى الفن متخذاً من الصخور بروجاً فوق كيوان
قد مرّ دهرٌ عليها وهى ساخرة بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من أركان شهلان
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة تسعى اشتياقاً إلى ما خلد الفانى
فصغرت كلّ موجود ضخامتها وغضّ بنيانها من كل بنيان
وعاد منكرك فضل القوم معترفاً يثنى على القوم فى سرّ وإعلان^(١)
أما حافظ فقد خايل بمجد مصر القديم بضع مرات ، أهمها قصيدته على لسان
مصر التى مطلعها :

وفى الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى دعائم المجد وحدى^(٢)
تحدث فيها بلسان مصر حديثاً خاطفاً عن عراقة مجدها ، وعظمة آثارها ، وعلاء
حضارتها .

وشتان ما بين لمحة عجلى ونظرات فاحصات بعيدات المدى .
وهيات أن تبلغ الخطرة الطارئة ، أو فكرة المناسبة ، ما تبلغه الفكرة الأصلية ،
والوجدان العميق ، والدراسة الكاشفة .
ثم يبقى بعد ذلك الاقتتان فى التعبير والتصوير ، واستحياء الشعور الجياش .
وهذه كلها ألوان من ميزات شوقى على هؤلاء .

(١) ديوان إسماعيل صبرى .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ٨٩/٢ — ٩٣ .

الفصل الثالث

مناضلة الاحتلال

نمرود

الاحتلال ، الاستعمار ، الانتداب ، الوصاية .
هذه الكلمات ونظائرها تنبع كلها من حمأة واحدة ، وترمى إلى غرض واحد ،
أما الحمأة فهي الجشع ، وأما الغرض فهو الأثرة والتسلط وامتصاص دماء الشعوب .
ومن عجب أن بعض مفكرى الغرب يؤازرون نزوع الأقوياء إلى التسلط
على الضعفاء ، ويجدون فيه سلوكا طبيعيا . قال أحد الكتاب المتعصبين للاستعمار :
« الحركة الاستعمارية هي الحركة الوطنية ، تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى
البشرية العالمية »^(١) .

وهذه عبارة ليست واضحة المعنى ، لأن المعنى لم يكن واضحا في ذهن الكاتب ،
ولا عجب في هذا ، لأن الاستعمار قائم على الختل والمواربة ، فلا ينتظر من مؤيديه
إلا أن يختملوا ويواربوا .

وقال منتسيكو فى كتابه روح القوانين : « إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب
فى استعباد الزوج ، فإنى أقول إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا
الأصليين لم تجد بدا من أن تستعبد شعوب إفريقيا ، لى تستخدمها فى استغلال
هذه الأقطار الفسيحة . وشعوب إفريقيا ما هى إلا جماعات سود البشرة ، فطس
الأنوف فطسا شنيعا ، فيكاد يكون من المستحيل أن تثرى لها ، ولا يكاد المرء يتصور
أن الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية — قد وضع روحا — وعلى الأخص
روحا طيبة — فى داخل جسم حالك السواد »^(٢) .

(١) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ٣٠ محمد عوض محمد .

(٢) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ٣١

وهذا الزعم بأن الشعوب السود أو الحمر لا روح لها مظهر من مظاهر الاستعمار الأوروبي الحديث في أوائل عهده . ولم يتورع رجال الدين أنفسهم عن مثل هذه الأراجيف ، فقد كان قادتهم في أوائل الاستعمار الأوروبي لأمريكا الشمالية يدعون أن الهنود الحمر من سلالة الشيطان ، ويأمرون بالقضاء عليهم بكل الوسائل .

بغضة الاحتلال

أراني في حاجة قبل أن أعرض لمناضلة شوقي للاحتلال ، وقبل أن أتحدث عن الفنون الأخرى من وطنيته ، أراني في حاجة إلى أن أذكر أن الأستاذ العقاد ذهب إلى أن شوقي كان يحس الوطنية كما يحسها التركي المتمصر من طبقة الحاكمين أو المقربين إلى الحكومة ، ومصر التي كان شوقي ينظم في تاريخها هي مصر الأسر المالكة والعروش الحاكمة . . لأنه « كان بمعزل عن الأمة في شعوره ، لا يخامرها بعطفه ، ولا تخامرہ بعطفها ، ولا يناضل في ميدانها نضال من يهيمه النصر والهزيمة ^(١) » .

وسنرى أن شوقي طالما عبر عن بغضه للاحتلال ، وندد بمظالمه ، وأشاد بأبطال الوطنية والجهاد ، وحث الهمم على الثورة للتحرر .
وسنراه في أفانين الوطنية مصر يا غيورا على مصر ، حزينًا من ضعفها ، نفورا بعزها .

وسنعرف أنه كان وطنيا قبل أن ينفي ، فلما نفي وعاد من المنفى توهجت وطنيته ، فازداد مقاومة للاحتلال ، ودعوة إلى الاستقلال ، فصار شاعر الشعب ، وترجمان آماله وآلامه .

عاصر شوقي استقلال مصر قبل الثورة العراقية ، وعاصر احتلال مصر بعد الثورة العراقية ، وكان كما قدمت وطنيا متحمسا ، ومصريا محبا لمصر .

وماذا ننظر من شاعر مثقف محب لبلاده ، وقد منيت بعدوان الإنجليز عليها ، واستئثارهم بالنفوذ فيها ، وتعويقهم وسائل نهوضها ؟ لقد ولد شوقي ونشأ في عهد

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي . عباس العقاد ١٨٤

الاستقلال ، فلما شب وجد مصر قد نسكت بالاحتلال . نعم كانت مصر مستقلة لا تربطها بتركيا إلا سيادة اسمية في عهد إسماعيل ، وجزية سنوية مقدارها ستائة وثمانون ألفا من الجنيهات ، وليس لها من أثر يحد من استقلال مصر .
لذلك قال المارشال ويفل في كتابه (اللني) : « قليل من البريطانيين من كان يعرف أن مصر كانت تتمتع باستقلالها الذاتي تحت السيادة التركية منذ عهد محمد علي ، وأن هذا الاستقلال كاد يكون تاما إذا استثنينا الامتيازات الأجنبية » .

إننا لا نتوقع من شوقي إلا أن يحمل على خصوم بلاده حملات تدك قواعدهم دكا . ولا نتوقع منه إلا أن يقرع قومه على رضاهم بما هم فيه ، أو تغاضيتهم عما هم فيه . ولا نرتقب منه إلا حضا على الجهاد لطرد الغاصب من أرض الوطن .

(١) وقد تجلت بغضة شوقي للاحتلال منذ رزئت مصر باحتلال . فهو ساخط على احتلال الهكسوس والفرس والرومان والفرنسيين لمصر في قصيدته (كبار الحوادث في وادي النيل) التي ألقاها بالمؤتمر الشرقي بجنيف سنة ١٨٩٤ م^(١) .

(٢) وهو ساخط على الاحتلال الإنجليزي في معارض شتى ، ولكنه لم يصرح بلوم الخديو توفيق على تشييعه للإنجليز ، ومؤازرته إياهم على احتلال الوطن ، لأن إشارته إلى توفيق كانت في قصيدته التي ألقاها في المؤتمر الشرقي في سبتمبر سنة ١٨٩٤ ، وهو في ذلك الوقت موظف بقصر ابنه عباس ومقرب إليه ، ولعل الإشارة في هذا المقام تغني عن العسارة . فهو يقول إن توفيقا لم يكن أول من مهد للاحتلال البريطاني ، ولم يكن وحده الجاني ، لأن المصريين شركاء له في جنائته ، ويدعو المصريين ألا يتلاوموا ، لأن الاحتلال شقوة أرادها القضاء لمصر :

إن أتاها فليس فيها ببادٍ	أو جناها فذا الوري شركاء
أخطا الأقربون موضعها الداء	في وفازت بنيله البع — داء
لا يلم بعضكم على الخطب بعضا	أيها الق — وم كلكم أبرياء
ضلة زانهم — الشقاء لمصر	ومن الذنب ما يجيء الشقاء ^(٢)

(١) الشوقيات ٣/١ — ١٨ ونجد حملة على احتلال الفرنسيين لمصر ٢/٢

(٢) الشوقيات ١٩/١

(٣) وإنه ليصم الاحتلال في بيتين اثنين بما يغنى عن قصائد طوال .
وبماذا يوصم الاحتلال أبشع وأشنع من أنه عدوان على الحق الطبيعي للأمة
في أن تنتفع بخيراتهما ، وتعيش آمنة حرة في ديارها ؟ إن اغتصاب الوطن أو الطعام
أو حق الحياة ليس شريعة الإنسان المتحضر وإنما هو شريعة الوحش الضاري
أو الإنسان البدائي ، أما هذه الشريعة الجديدة التي يصطنعها الأقوياء ليطغوا على الأمم
الضعيفة فإنها إثم ورجس وقذر ورجعة بالإنسانية القهقرى إلى عهد الغاب والظفر
والمخلب والذئاب .

أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس ؟
كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من الشرائع رجس^(١)
(٤) كان شوقي يبغض الاحتلال ، ويحقر من يمتدحه أو يرضاه ، وإن كان
من العلية والسراة .

فقد أقامت جمعية العروة الوثقى بالإسكندرية احتفالا كبيرا في ٢٣ مايو سنة ١٩٠٤
لوضع الحجر الأساسى لمدرسة محمد على الصناعية ، ورأس الخديو عباس هذا الاحتفال ،
وحضره ، واعتذر لورد كرومر .

وفي هذا الاحتفال ألقى رياض باشا خطبة امتدح فيها الاحتلال ، وأثنى على كرومر ،
منها قوله : « جنابُ المحترم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور في هذا المحفل
لتغيبه عن مصر . كل يعلم ما له من المقام الأرفع ، والنفوذ الشامل في هذه البلاد ،
وبالأخص ماله من اليد الطولى في كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية ،
فهذه اليد الفعالة قد شملتنا ، وهى التى كانت لنا معوانا ، بل متمما ومكملا لهذا المشروع ،
فحق علينا أن نعرف هذه المبرة ، ونقدم لجنابه واجب الشكر ، ونثنى عليه أطيب الثناء .
ونرجوه ألا يترك هذا المولود في المهمل صبيا ، بل يراعيه بعين عنايته ، ويواسيه
ويواليه ، إلى أن يتربى ويبلغ أشده ، ويصير رجلا قويا يقوم بأود نفسه .

مولاي ! اسمح لى أن أتكلم بما يخالج ضميرى بحرية . إذا نظرنا وتأملنا الآن
إلى مجرى الأحوال ، وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأحوال والأفكار

قد تغيرت تغيرا كليا، واتخذت لها مجرى جديدا نحو التقدم والترقى وبث العلوم والمعارف... وكل ما نراه من المشروعات العلمية والأدبية والمؤسسات الخيرية لا نرتاب في أنه أثر من آثار هذا الانقلاب...^(١).

فقوبلت الخطبة بالدهشة والسخط، لأنها أماراة على الخضوع والخنوع والزلفى، وحمل عليها مصطفى كامل، واستنكر من رياض أن يغرق في الثناء على كرومر لأنه تبرع لجمعية العروة الوثقى بمائة جنيه، وأن يتغافل عن المنشاوى باشا الذى تبرع بمائة فدان، وختم مقاله بقوله: «لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين فى أن رياض باشا تعتمد انتهاز هذه الفرصة للتقرب من المحتلين والتملق لهم، وإعلان السياسة التى طالما أنكرها وتبرأ منها. وأجمع مريدوه قبل مبغضيه على أن حضوره فى حفلة وداع السير إلدون غورست أولا، وأقواله عن عميد الاحتلال فى حفلة مدرسة محمد على ثانيا، وتجنبه ذكر المنشاوى باشا لسكراهة اللورد كرومر له ثالثا، دلائل كافية على ما يريده من التجنب إلى الإنجليز لتعود الوزارة إليه»^(٢).

أما شوقى فقد صب على رياض حمما فى قصيدة وصفه فيها بالجحود والذلة والحق وبلادة الحس وسوء الفهم، وبين له أنه كان فى خطبته خطبا على مصر، وأن الوطنية كانت تقتضيه أن يهيب بالشباب لينهضوا خفافا سراعا إلى مقاومة الاحتلال. من هذه القصيدة قوله:

غمرت القوم إطراء وحمدا	وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالألمس أنفك فى الثريا	فكيف اليوم أصبح فى الرغام؟
أما والله ما علموك إلا	صغيرا فى ولائك والخصام
خطبت فكنت خطبا لا خطيبا	أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتمال وما أتاه	وجرحك منه لو أحسست دام
فهلا قلت للشبان قولا	يليق بحافل الماضى الهام؟
يئت تجارب الأيام فيهم	ويدعو الرابضين إلى القيسام

(١) مصطفى كامل للرافعى ١٧٥

(٢) مصطفى كامل للرافعى ١٧٧ — ١٧٨

خطبت على الشيبية غير دار بأنك من مشيبك في منام
ولولا أن للأوطان حبا يصم عن الوشاية كالغرام
جنبت على قلوب الجمع ياساً كأنك يذنبهم داعي الحسام
أراذك مقتل من مصر باق فقامت تزيد سهما في السهام ؟
وهل تركت لك السبعون عقلا لعرفان الحلال من الحرام ؟
إذا الأحلام في قوم تولت أتى الكبراء أفعال الطغام
فيا تلك الليلى لا تعودى ويا زمن النفاق بلا سلام^(١)

(٥) وقد سخط على من يخضع للإيجليز في تهنته السلطان حسين كامل يوم توليته بعد خلع الخديو عباس :

يا أهل مصر كلوا الأمور لرؤسكم فالله خير مؤثلا ووكيلا

.....

هل كان ذاك العهد إلا موقفا للسلطين وللبلاد وبيلا ؟
يعنز كل ذليل أقوام به وعزيزكم يليق القياد ذليلا
وأندر بأن الاحتلال يمثل في مصر رواية لم تتم فصولها :

دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت إلا نتائج بعد دها وذويلا
وانقض ملعبه وشاهده على أن الرواية لم تتم فصولا^(٢)

وقد علم وهو بالمتنى أن هذه القصيدة « قد فهمها الجبهة الأميون الذين لا علم لهم ولا أدب ، ولم يخلقوا لمجالسة الملوك والأمراء ، فهموها فهمًا خاطئًا ، فزعموا أنني خرجت على إخلاصى ، ومرقت من وطنيتى . ويكفينى أن ألوفًا من الشيبان الراقين الذين يفهمون لغتهم قد فهموا مغازيها ، وأكثرهم يحفظها عن ظهر قلب . والله يعلم أنه لو كان (بسمرك) فى مكانى فى تلك الأوقات التى كان هيجان السلطان حسين فيها لا يوصف ، لما خرج من مصر على الصورة التى تركتها بها من العز والكرامة »^(٣).

(١) الشوقيات ٢٥٩/١

(٢) الشوقيات ٢١٧/١ (٣) كتاب شوقى إلى أحمد شفيق باشا . مذكرات فى نصف قرن ٢٥٦/٣

وقد أسلفت في (ينايع) وطنيته أن هذه القصيدة كانت السبب المباشر لنفيه من مصر .

وأحققه من بعض المصريين أنهم يخنعون للإنجليز خنوعاً ذليلاً ، ويتظاهرون بالعجرفة والكبرياء ، فشبه أنوفهم المرفوعة في غير شمم بأنف الميت المسجى على فراشه مرفوعاً في غير حياة ولا مقدرة ، وكأنما لم يشف هذا التصوير ما بنفس شوقي ، فلجأ إلى تصوير آخر أقسى وأهجى ، هو أن هؤلاء الخونة فقدوا الشرف والحياء والمروءة ، وجاهروا بخيانتهم للوطن ، فهم كالبغايا المجاهرات ببعائهن . لذلك يشكر للبساخرة التي أقلته من مصر إلى المنفى أن أراحته من رؤية هؤلاء .

شكرت الفلك يوم حويت رحلى فيا لمفارق شكر الغرابا
فأنت أرحمتني من كل أنف كأنف الميت في النزع انتصابا
ومنظر كل خوان يرانى بوجه كالبعغى رمى النقابا^(١)

مظالم الاحتلال

أبغض المصريون الاحتلال لأنه عدوان عليهم لا مبرر له ، ولأنه عوق نهضتهم ، وحرهم خيرات بلادهم ، ورجع بهم القهقري في كل شئونهم ، وقد تحدثت عن ذلك في أسباب ثورة سنة ١٩١٩

ولقد يكون من التدليل على مساوىء الاحتلال بمصر أن أنقل هنا فقرات من كلام رجل إنجليزي لا شك في أن شهادته على قومه ليست إلا بعض الحق : « لقد كانت السيادة الإنجليزية طوال القرن التاسع عشر ترمى إلى أن تكون إنجلترا جسماً وروحاً مع السلطان — الخليفة العثماني — ضد الاستقلال الذي كانت تنتحله مصر لنفسها من حين إلى آخر بتشجيع فرنسا ، فإن فرنسا — وإن أرغمت على الجلاء عن مصر سنة ١٨٠١ — كانت لا يزال لها بمصر نفوذ أدبي عظيم فكان المنتظر والحالة هذه من الحكومة البريطانية عندما استعان بها السلطان على كبح جماح

(١) الشوقيات ٥٥/١

الخدو إسماعيل أن تذكر إسماعيل بما يجب عليه من طاعة السلطان « (١) . فهذا اعتراف صريح بأن إنجلترا كانت تعوق استقلال مصر .

ويعترف مستر ويلفرد سكاون بلنت بأن المصريين مقتوا الإنجليز، لأنهم لم يقدموا إليهم خيراً منذ احتلوا بلادهم، ولأنهم تعسفوا في حكمهم، فحكموا صحافتهم، وحكموا حكماً استبدادياً، ونكشوا بوعودهم بالجلء « أى دافع أخلاقى يدفعنا إلى حكم المصريين رغم أنوفهم ؟ وعلام يمتنوننا ذلك المقت كله إذا كنا حقيقة قد أوليناهم الجليل تلك السنين الطوال ، ولا نزال نوليهم إياه ، ولم يحرصون على أن نخرج من ديارهم إذا كنا قد أنقذناهم ، ولا نزال ننقذهم من أسباب الاحتلال والفوضى ؟ وفوق هذا كله ما الذى يضطرنا إلى أن نعامل المصريين معاملة الأمم المقهورة لا معاملة الأصدقاء كما نزع ، لنحتفظ بنظام أرغمناهم على قبوله ؟

لقد قضينا على حرية صحافتهم بعد أن احتلنا بلادهم طويلاً ، وأبيننا أن نبر بما وعدناهم به من ترقية نظمهم ، وبسطنا عليهم من جديد سلطان الحكم المطلق ، وسلطنا عليهم شرطة سرية جديدة لا تألوهم تحسباً وتهجماً على الدور واعتقالات ونفياً وسجناً ، كما كان يفعل بهم فى أسوأ أيامهم الأولى .

فإذا ما طالبونا بالجلء عن بلادهم وفاء بعهودنا عددنا ذلك تمرداً منهم ، وأنذرناهم بأن نرجع بهم — إذا لم يفد هذا الضغط — إلى الحكم العسكرى الصريح « (٢) .

تعويق التعليم

المجرب لا نجبا عليه جماعه

كيف الحياة على برى عزربه؟

شوقى

(١) لقد كان التعليم فى مصر يسير بخطا حثيثة منذ عهد محمد على ، فعدد تلاميذ المدارس سنة ١٨٤٠ بلغ ٩٠٠٠ (٣) ، وعدد المبعوثين إلى أوروبا بلغ ٣١٩ أنفق

(١) تاريخ المسألة المصرية هـ تيودور روثستين .

(٢) من مقدمة (تاريخ المسألة المصرية) صفحة ح بقلم المستر ويلفرد سكاون بلنت .

(٣) التعليم فى مصر ١٠ أمين سامى

عليهم ٢٧٣٣٦٠ جنيه^(١). وفي عهد إسماعيل بلغ المبعوثون ١٧٢ طالبا إلى سنة ١٨٧٩ أنفق عليهم ١٦٣٠٥٧ جنيه^(٢). وبلغ عدد التلاميذ والتلميذات سنة ١٨٧٥ في مراحل التعليم ١٤١٤٠٧ عدا المبعوثين إلى أوروبا والدارسين في منازلهم. وكان عدد التلميذات في هذه السنة ٤٠٨٠ بنتا^(٣).

أما في عهد الاحتلال فندع المقال لمؤرخ إنجليزي منصف ، ونجتزئ من قوله بفقرات فيها غناء .

يقول ثيودور روثستين : « إن إهمال التعليم في مصر لمن أظهر وجود حكم اللورد كرومر ، ومن مميزات إدارته كلها . لقد وعد اللورد دوفرين بأن ترقية التعليم ستكون من أهم ما يحرص عليه الحكام الجدد . ولكن ما أعظم الخلف بين القول والعمل في كل معاملة الإنجليز للمصريين ، وإنه لأعظم في دائرة التعليم منه في أية دائرة أخرى .

لقد وصفنا في الفصل الذي عقدناه لأعمال إسماعيل باشا عناية هذا الوالى العظيمة بالتعليم ، ورأينا أنه عندما أُرهِقَه الدائنون كان يستطيع أن ينفق على التعليم سنوياً ٨٧٠٠٠ جنيه منها ٢٣٠٠٠ جنيه من خاصة ماله . والآن نقول إنه بعد مضي خمس وعشرين سنة على عهد إسماعيل أى في سنة ١٨٨٨ بلغت ميزانية التعليم ٧٠٠٠٠ جنيه فقط . على أنها قد خفضت سنة ١٨٧٧ إلى ٢٩٠٠٠ جنيه .

ثم بدأت تزداد بعد سنة ١٨٩٠ حتى بلغت سنة ١٩٠٦ بعد إلحاح الرأى العام المصرى والبريطانى ٣٦٢٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ لا يستهان به إذا قورن بما كان ينفق إسماعيل على التعليم . لكن يجب ألا ننسى أنه قد مضى على عهد إسماعيل أكثر من ثلاثين سنة تضاعف فيها السكان أو زادوا على الضعف ، وزاد فيها الإيراد نحو ٥٠ ٪ وأصبح للحكومة في سنة ١٩٠٦ بدل الديون الفادحة احتياطى يقرب من ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه .

على أن التمهقر بالتعليم ليس مقصوراً على عدد المدارس ، بل إنه يتناول المنهج ، فقد انقلبت المدارس معامِل تخرج موظفى الحكومة ، وصارت أداة لجلنزة المصريين .

(١) المرجع السابق ٧

(٢) المرجع السابق ١٧

(٣) المرجع السابق ٣٢

وقد روج الوطنيون لإنشاء جامعة مصرية ، وشرعوا يجمعون المال ، فأظهر اللورد كرومر شيئاً من العطف التافه على المشروع ، وأشار بأنه لابد من الانتظار قليلاً . لكن الحركة كانت أقوى منه ، فلم يمض عام واحد حتى تحقق خلفه من نجاح المشروع ، ورأى أن تكون الجامعة تحت سلطة الحكومة ، فافتتحت في أواخر سنة ١٩٠٨ .

ولغة التعليم في المدارس العالية ليست العربية ، لكن الإنجليزية ثم الفرنسية إلى حدّ ما ، وهم يعتذرون عن ذلك بأن اللغة العربية ليست لغة علمية ، ولا توجد كتب مدرسية مؤلفة بها وافية بالغرض ، ومن الصعب الحصول على أساتذة يعرفون اللغة العربية . وهذا طعن سخيف أمام ذلك التاريخ المجيد لتاريخ الحضارة والعلوم العربية في القرون الوسطى .

ولغة التعليم لبعض المواد كالتاريخ والجغرافية والحساب والجبر والعلوم الطبيعية والأشياء هي الإنجليزية في المدارس الابتدائية والثانوية .

ولا يفوتنا أن نذكر أن تاريخ المصريين والعرب لا يزال غير داخل في برنامج المدارس الثانوية ، بحجة أنه غير ضروري لامتحان الشهادة الثانوية ، وهي الشهادة الوحيدة التي تفتح لحاملها باب الحياة الحكومية في الوظائف والتدريس .

أما التعليم الابتدائي فيكفي أن يقال عنه إنه ليس إجبارياً ولا مجانياً ولا زائداً زيادة كبيرة على القراءة والكتابة والحساب .

ومن العجيب أن مصر وهي بلاد زراعية قبل كل شيء لا تدرس علوم الزراعة في مدارسها . ومدرسة الزراعة الوحيدة التي بها لا تسد حاجة البلاد .

ليس من شك في أن من أكبر آفات التعليم في مصر إسناد وظائف التدريس إلى الإنجليز دون المصريين ، لأنهم يجتهدون في أن يفرضوا على أمة عددها أحد عشر مليوناً الغهم وطريقة تفكيرهم ، وهذا هو ما كان يسعى إليه اللورد كرومر فيما مضى .

إنك قلما تجد في قطر من الأقطار أو على الأقل في الطبقات الميسورة الحال في أي قطر من الأقطار ظمأ إلى ورود حياض العلم كالذي تجده في مصر .

ومع ذلك لا تجد حكومة ما قد سعت إلى إطفاء ذلك الظمأ سعياً أضعف من سعي الحكومة المصرية .

إن المصريين يسألون خبزاً فلم يعطهم الحكام البريطانيون خبزاً أو حجارة ، بل سقوهم سماً زعافاً^(١) .

لقد أقام لورد كرومر بمصر من سنة ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧ ، وكانت نسبة البنات المتعلّيات ثلاثاً في كل ألف في سنة ٨٣ ولم تتجاوز هذا الحد في سنة ١٩٠٧ .
أما نسبة المتعلّين من الذكور فقد كانت وقت مجيئه ست عشرة في كل مائة ، وهوت إلى النصف عند رحيله^(٢) .

وبعد فهذه شهادة من المستر بويد كاربنتر على المستر دانلوب ، وهي في غنى عن أى تعليق : « على المستر دانلوب تقع تبعه فساد التعليم المصرى ، والرجوع به القهقرى ، وإخراج موظفين جُلّ اعتمادهم في دراستهم على الاستظهار والحفظ ، لا على القوى العقلية السامية الأخرى من التفكير والموازنة والابتكار والاستنباط . إن الطالب المصرى يعتمد في تحصيله على ذاكرته ، وعلى التكرار الآلى للحقائق المحفوظة ، لا على ذكائه وتفكيره ، فينشأ عن ذلك ضيق أفقه ، وجهله بالحوادث المعاصرة ، وحاجته الشديدة إلى المعلومات العامة ، وإلى السرور والإقبال على ما يدرس ،^(٣) .

وهن مساوىء الاحتلال وخاصة في عهد كرومر أنه اقتسر الطلاب على تعلم اللغة الإنجليزية ليحارب اللغة العربية والثقافة الفرنسية ، وألغى البعثة المصرية في فرنسا في أغسطس سنة ١٨٩٥^(٤) .

وكان الشرق العربى أسوأ من مصر حالا .

وكانت الأمم القوية تزداد قوة ، والشعوب المتحضرة تستزيد من أسباب الحضارة ،
(٢) فأبى شوقى من ضعف مصر وسوء أحوال الشرق ، وسنعرّف أنه لم يقتصر على النواح والبكاء والتنديد بسوء الحال ، سنعرّف في فصل آخر أنه طالما حفر الهمم للعمل ، وطالما حبب إلى المصريين والشرقيين أن يطيروا إلى مثلهم العليا التي نصبها لهم ، وقربها إليهم .

(١) تاريخ المسألة المصرية ٢٩٣ — ٣٠١ (٢) الإحصاء الحكوى العام سنة ١٩٠٧

(٣) فى الأدب الحديث ٢٢٠/٢ عمر الدسوقي عن تقرير مستر بويد كاربنتر Boyed Carpenter

رئيس التفتيش بوزارة المعارف ١٩١٨ (٤) مصطفى كامل للرافعى ٥٤ .

وكان أساء يتخلل كثيرا من قصائده ، سواء أ كان يدافع عن مصر وحقوقها ، أم يخاليل بماضيها العظيم ، ويستحث على نهضتها ، أم يشجع على عمل نافع في العصر الحديث ، أم يعرض لشأن يتداعى معه الأسى من الحاضر الأليم . فهو يلوم اللورد كرومر على تعويقه نهضة التعليم بمصر ، واقتصاره على المظهر دون الجوهر :

هل من نذاك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفتيولا^(١)
ويعزو إلى مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٩
أنه كان عقبة في طريق التعليم ، فصارت مصر تمشى في ميدانه سخفا ، بينما تمشى الأمم
الأخرى عدوا ، وصار المصريون عاجزين عن صنع إبرة ، وهم الذين بنى آباؤهم
المسلات والأهرام في زمن لم تكن فيه روافع وآلات مسعفة :

وَنَيْتَ خُطَا التَّعْلِيمِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَمَشَى الْهُوَيْنَا بَعْدَ إِسْمَاعِيلَا
كَانَتْ لَنَا قَدَمٌ إِلَيْهِ خَفِيفَةٌ وَرَمَتْ بَدَنْلُوبٌ فَكَانَ الْفَيْلَا
حَتَّى رَأَيْنَا مِصْرَ تَخْطُو إِصْبَعًا فِي الْعِلْمِ إِنْ مَشَتْ الْمِمَالِكُ مَيْلَا
تَجِدُ الَّذِينَ بَنَى الْمَسَلَةَ جَدَّهُمْ لَا يَحْسُنُونَ لِإِبْرَةِ تَشْكِيلَا
الْجَهْلُ لَا تَحْيَا عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ كَيْفَ الْحَيَاةُ عَلَى يَدَيِ عَزْرِيلَا^(٢) ؟
ويقسم أن مصر ما كانت لتبلغ ما بلغته من رقى التعليم على الرغم من دنلوب
وخططه لولا ذكاء بنيها ، وإخلاص معلميها ، وحماسة شبابه ورجالها :

وَاللَّهِ لَوْ لَا أَلْسِنٌ وَقِرَائِحُ دَارَتْ عَلَى فُطُنِ الشَّبَابِ شَمُولَا
وَتَعَهَّدَتْ مِنْ أَرْبَعِينَ نَفْسُهُمْ تَغْزُو الْقُنُوطَ وَتَغْرِسُ التَّامِيلَا
عَرَفَتْ مَوَاضِعَ جَدِّهِمْ فَتَتَابَعَتْ كَالْعَيْنِ فَيْضًا وَالْغَمَامُ مَسِيلَا
تَسْدَى الْجَمِيلُ إِلَى الْبِلَادِ وَتَسْتَحْيِ مِنْ أَنْ تَكَا فَا بِالْثَنَاءِ جَمِيلَا
مَا كَانَ دَنْلُوبٌ وَلَا تَعْلِيمُهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ يَغْنِيَانِ فَيْتِيلَا^(٣)

(١) الشوقيات ٢١١/١ الفتيول : كرة القدم (٢) الشوقيات ٢٢٥/١ داء الفيل : ورم بصيب الساق .

(٣) الشوقيات ٢١٦/١ الفطن : جمع فطنة وهي الحذق والذكاء . الشمول : الخرج .

وقد كان من أثر الاحتلال وتعويقه نهضة العلم والتعليم بمصر أن صارت المدارس لا تعلم إلا ما يعد للوظيفة الحكومية ، وصار التعليم عاجزا لا يعد للمستقبل ، لأن برأجه محددة ، ممسوخة ، فأخلى المصريون ميدان التجارة والصناعة للأجانب ، واضطروا إلى القناعة بفئات أربابهم :

أرى وطناً تحير ناشؤه فما يجدون من عمل قواما
فلا أسس التجارة فيه قرت ولا ركن الصناعة فيه قاما
مدارس لم تهيئهم لكسب ولم تبين الحياة ولا النظاما^(١)

وكان من أثر ذلك كله أن قل التابعون بمصر ، وأن قل الأتخياء على التعليم بمالهم ، وأن تأخرت الزراعة ، واعتمد المصريون على القطن وحده ينبوعاً للثروة ، فإذا كسدت سوقه اضطربوا ، وكادوا يشغلون بسوء حالهم المالية عن متابعة الجهاد ، ومناهضة العدو الغاصب :

فاض الزمان من النبوغ فهل فنى عمر الزمان بعلمه وبيانه ؟
أين التجارة وهى مضمار الغنى أين الصناعة وهى وجه عنانه ؟
أين الجواد على العلوم بماله أين المشارك مصر فى فدانه ؟
أين الزراعة فى جنان تحتكم كخائل الفردوس أو كجنانه ؟
أئذا أصاب القطن كاسد سوقه قمنا على ساق إلى أثمانه ؟
يا من لشعب رزؤه فى ماله أنساه ذكر مصابه بكيانه
الملك كان ولم يكن قطن فلم يغلب أبوتنا على عمرانه^(٢)

(١) الشوقيات ٢٧٨/١

(٢) الشوقيات ٣٢٧/١ العنان (بفتح العين) : السحاب

إضعاف الجيش

البر مغلوب القنا والبحر مغلوب السفين

شوقى

أحزن شوقى أن نزل الاحتلال بالجيش المصرى إلى دركٍ من الضعف لم تعده مصر من قبل ، وإن يتسلط الإنجليز على الجيش ، يستأثرون برتبة العالية ، ويؤملون فى أرقى منها ، على حين أن أبناء مصر محرومون هذا التأميل ، ومحترقون بالآسى من مهانة مصر ومهانتهم ، يقول للورد كرومر :

أم هل يعدُّ لك الإضاعة مئة جيش كجيش الهند بات ذليلاً ؟
أنظر إلى فتياه ما شأنهم أوليس شأننا فى الجيوش ضئيلاً ؟
حرمهم أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلاً
فإذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلاً لم يملكوا التأميلاً

وليس ينسى أن يذكر كرومر بأن الجيش المصرى الباسل هو الذى احتمل الأعباء الجسام فى استعادة السودان ، وأن الجيش الإنجليزى كان على هامش الفتح ، وكان جزاء مصر وجيشها أن ادعت بريطانيا اشتراكها فى فتح السودان ، وأن أهملت شئون الجيش المصرى عامدة :

من بعد ما زفوا لإدورد العلا فتجأ عربضاً فى البلاد طويلاً^(١)
ويناجى توت عنخ آمون فى إحدى قصائده سائلاً : أجزعت على مصر القوية حين بدالك حماها مستباحاً ، لا سلاح يحميه ولا حصون تقيه ؟ أجزعت لما رأيت أرضها بغير جيش ، وبحرها بغير سفين ؟ إننى أعلم أنك حزنت ، وأنت أعرضت عن النظر إلى ديارك المستضعفة :

قل لى : أحين بدا الشرى لك هل جرعت على العرين ؟
آنست ملكاً ليس بالشا كى السلاح ولا الحصين

البرُّ مغلوبُ القَنَا والبخرُ مسلوبُ السفين

لما نظرتُ إلى الدنيا رصَدْتُ بالقلبِ الحزين ^(١)

وفي قصيدة ثانية في توت عنخ آمون يصوره قد بعث واجتاز أربعين قرناً حتى بلغ مصر، فوجد إنجلترا تحتلها، وجنودها تتحكم فيها، والورد يسيطر على مرافقها، ووجد إنجلترا قد اغتصبت السودان تبني به سدوداً، واحتلت قناة السويس ورفعت بها عليها، فحزن توت عنخ أيما حزن، وسخط على سفرته هذه، وود أنها لم تكن، وأن جدار القبر لم ينشق عنه، وأن عينه لم تفتتح :

سافر أربعين قرناً عندها حتى أتى الدار فألقى عندها

إنجلترا وجيشها ولوردها مسلولة الهندي تحمي هندها

قامت على السودان تبني سددها وركزت دون القناة بنددها

فقال والحسرة ما أشدها ليت جدار القبر ماتدهدها

وليت عيني لم تفارق رقددها قم بني يا بنشور مادهي ^(٢)

دنشواي

نيرون لو أدركت عهده كرومر

لعرفت كيف تنفذ الأوامر

شوق

(١) اعتاد بعض الضباط والموظفين البريطانيين أن يجولوا في بعض القرى ليصيدوا الطيور، وقد غادرت القاهرة كتيبة تعدادها نحو مائة وخمسين جندياً وضابطاً متجهة إلى الإسكندرية بطريق البر، فوصلت يوم الأربعاء ١٣ يونية سنة ١٩٠٦ إلى منوف، وعرض خمسة من الضباط على مأمور مركز منوف أنهم يريدون صيد الحمام في دنشواي، فأرسل معهم شرطياً وترجماناً، ولما وصلوا إلى القرية شرع بعضهم يصطاد الحمام من فوق الأشجار على الطريق الزراعي، وهؤلاء لم يمسهم سوء. أما الآخرون

(١). الشوقيات ٢/١٢٠

(٢) الشوقيات ٢/١٩٧ بندها : علمها . تدهده : انقض وتدرج . بناء ور : شاعر مصري قديم.

فقد جاسوا خلال أجران القمح يصيدون ما بها من حمام ، وأسرع الأهليون إلى تنبيههم على أن نيران البنادق تحرق الأجران ، فلم يأهوا ، وأصاب قذيفة أحدهم امرأة ، وأشعلت النار في الجرن ، فهجم أحد الأهلين على الضابط الإنجليزي لينتزع منه بندقيته ، وتبعه جمع من الرجال والنساء والأطفال ، وصاحوا بأنه قتل المرأة ، وأحرق الجرن . وجاء بقية الضباط لإنقاذ زميلهم ، ووافى الخفراء في الوقت نفسه ليفرقوا الجمع وينقذوا الضباط ، فتوهم الإنجليز أنهم جاءوا يريدون بهم شراً ، فأطلقوا عليهم بندقياتهم ، فأصابوا شيخ الخفراء ، واثنين آخرين . فحمل الأهليون على الضباط الإنجليز جميعاً بالعصى والطوب ، فأصيب واحد بكسر في ذراعه ، وجرح اثنان جروحاً خفيفة ، وأحاط الخفراء بهؤلاء الثلاثة وزميل رابع ، وأخذوا منهم أسلحتهم ، وحجزوهم حتى جاء ملاحظ النقطة وأوصلهم إلى المعسكر ، حيث كانت الفرقة قد عسكرت في كمشوش

أما الكبتين بول والطبيب البيطرى الإنجليزي ، فقد تركا دنشواى ، وكان الأول قد أصيب بضربة في رأسه ، وأخذوا يعدوان في وهج الظهيرة ، حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات ، فلم يكدا الكبتين بول يصل إلى سوق سرسنا حتى سقط من الإعياء ، ثم مات بعد ذلك من ضربة الشمس ، أما زميله الطبيب فاستمر يعدو حتى وصل إلى معسكر الكتبية .

وحينئذ علم الجنود المعسكرون بكمشوش بما حدث ، فأسرعوا إلى دنشواى ، وبعد بضعة كيلو مترات وصلوا إلى سرسنا ، فظنوها دنشواى ، وهناك وجدوا ضابطهم يرقد على الثرى ، ورأوا فلاحاً مصرياً يقدم إليه كوباً من الماء ، فظنوه من الضاربين ، فضربوه ببندقياتهم حتى هشموا رأسه وقتلوه .

ثار مستشار الداخلية المستر متشل ، وهاج الإنجليز ، وأرادوا أن ينكلوا بأهل دنشواى ، ليكونوا عبرة لغيرهم ، فحققوا معهم في سرعة خاطفة ، وقبضوا على الأهلين جزافاً ، وشكلت محكمة مخصوصة لمحاكمتهم ^(١) ، وبلغ عدد المقدمين للمحكمة ٥٩ تعيب منهم ٧

(١) المحكمة برئاسة بطرس غالى باشا وعضوية ثلاثة من الإنجليز ورابع مصرى هو أحمد فتحى زغلول بك رئيس محكمة مصر الابتدائية .

وكانت المحكمة متحاملة على المتهمين ، وكان الدفاع عنهم ضعيفاً مستضعفاً . ولم تقض المحكمة في هذه القضية الكبيرة المتشعبة غير ثلاثة أيام ، مما يدل على التعجل والاستهانة .

ثم قضت بإعدام أربعة أدهم شيخ طاعن سنه خمس وستون سنة ، وقضت على اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وعلى واحد بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة ، وعلى ستة بالأشغال الشاقة سبع سنين . ، وعلى ثلاثة بالحبس مع الشغل سنة وبالحلد خمسين جلدة ، وعلى خمسة بالجلد خمسين جلدة .

وكانت المحاكمة وحشية جائرة ، فقد أرسلت المشايخ من القاهرة إلى دنشواي قبل انعقاد المحكمة . ثم جاء تنفيذ الحكم غداة إعلان الحكم ، وهنا انسلخ الإنجليز من الإنسانية ، بل انسلخت منهم الإنسانية ، فقد أعلوا المحكوم عليهم بالإعدام أنهم سيعدمون ، وسيقوا آخر الليل من شين الكوم إلى قرية دنشواي ، وقضوا هنالك زمناً ينتظرون قضاءهم المحتوم ، ولم يسمح لواحد منهم بأن يلقى أحداً من أهله . يا للهول ! يا للبشاعة ! يا للعدالة المغلوبة ! لقد نصبت المشايخ في دنشواي ، وافتن الإنجليز في التشكيل والانتقام الدنيء ، فشقق المتهم الأول على مرأى من أهله ، وما زال معلقاً في الحبل حتى جلد اثنان ، ثم شقق الثاني ، وبقي في حبله حتى جلد آخران ، وهكذا .

إن الوحوش الضواري لا تلتذ فرائسها كما التذ الإنجليز بنظر هؤلاء الضحايا الأبرياء .

نعم هم أبرياء ، لأنهم لم يتربصوا بالإنجليز ، ولم يبدأوهم بالعدوان ، ولم يكونوا السبب في هلاك الضابط ، فقد قرر الطبيب الإنجليزي نولن أن الموت من ضربة الشمس لا من ضربة العصا . ولماذا يعدم أربعة ويجلد ويحبس آخرون لقاء إنجليزي واحد حتى على فرض أن المصريين هم الذين قتلوه ؟

لكن هذه الوحشية أفادت الشعور المصري أيمافائدة ، ذلك بأنها أرثت في نفوس المصريين كراهة الإنجليز ، وكشفت عن أخلاقهم ونظرهم إلى مصر والمصريين ، فثارت صحافة مصر تصب على السياسة البريطانية حمماً ، وأبلى مصطفى كامل أعظم البلاه

فى التنديد ببريطانيا وجرائمها فى مصر ، وفى إشهداد العالم على وحشيتها ، ودوى صوته
بفرنسا وإنجلترا وتردد صدها فى مجلس العموم البريطانى .

وكان من أثر هذا كله عزل اللورد كرومر سنة ١٩٠٧^(١) .

(٢) ماذا كان أثر فظائع دنشواى فى شعر شوقى ؟

من عجب أنه صمت عاما كاملا ، ثم نطق مرتين ، الأولى سنة ١٩٠٧ ليطالب العفو
عن بجناء دنشواى ، والثانية إذ ذكر كرومر بويلات حكمه وسيطرته على القضاء ،
ومحاباته أحد قضاة دنشواى بترقيته وكيل الوزارة الحقانية^(٢) .

ولست أجد لشوقى معذرة فى هذا الصمت ، إزاء عدوان وحشى مثير ارتجت له
مصر وأسست .

فلماذا صمت شوقى ؟

هل كان صمته رهبة من الإنجليز ؟

لا أظن ذلك ، فإنه طالما ندد بهم ، وحمل عليهم فى غير مخافة أو رهبة ، وقد هاجمت
الصحافة والسياسة عدوان الإنجليز غير هيايين ، ولم يعرض لهم أحد بسوء ، فكيف
رهب شوقى ما لم يرهبه هو ولا غيره ؟

هل كان صمته مجاملة للقصر ؟

لا إخال ذلك ، لأن القصر كان فى صراع مع كرومر ، فمن صالحه أن يشنع به
وبحكمه شعراء مصر وكتابهسا ، وأن يقرعوا الاحتلال البريطانى ، كما فعل شوقى
فى تشييع كرومر .

هل صمت لأن الحادثة لم تستثره ليقول فيها شعرا ؟

لا . فكيف لا يستثار شاعر وطنى يرى إخوته يعذبون ظلما ، ويقتلون طغيانا ،
بل يرى وطنه كله مستذلا مهينا وهو يمثل فى هؤلاء الضحايا ؟

هل يرجع صمت شوقى إلى أن الصدمة كانت شادة ، وأن اشتراك بعض المصريين

(١) راجع حادثة دنشواى فى كتاب مصطفى كامل للرافى ٢٠٠ - ٢٤٤

(٢) كان أحمد فنى زغلول باشا أحد القضاة فى المحكمة المختصة التى شكلت لمحاكمة أهل دنشواى ،
وكان رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية ، ثم عينه كرومر وكيل الوزارة الحقانية .

في الحكم على الضحايا وفي الدفاع لصالح الإنجليز أصاب الشاعر بخيبة أمل وذهول
ويأس ، فلما خفت الصدمة نطق ؟

ليس أدل على شدة هذه الصدمة من وصف قاسم أمين للحالة النفسية يوم تنفيذ
الحكم بقوله : رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ، وزورا مخنوقا ، ودهشة
عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات .

كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكت مستسلم للقوة ، مختلط بشيء
من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة ، وهيئة
بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين
تطوف في كل مكان من المدينة . ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوماً في النفوس
لم يجد سبيلا يخرج منه ، فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان ، (١) .

أم يرجع صمته إلى أن الخديو كان قد بدأ يتطامن للإنجليز ويهادن لورد كرومر ؟
الحق أتى في حيرة من صمت شوقي عاما كاملا .

ثم خطر لي أنه كان غائبا عن مصر حينما وقعت حادثة دنشواي ، فإذا صح هذا
كان له فيه بعض العذر ، لأنه في بعده لم يعرف الكارثة على حقيقتها وعلى بشاعتها ،
فلم تجش عاطفته المتناعاة الساخطة .

ولكن من أين لنا أن نعرف غياب شوقي عن مصر ؟

رجعت إلى ما كتبه ابنه فوجدته يقول : « كان الخديو يقضي معظم شهور الصيف
في الآستانة ولما كان على أي أن يرافقه في أكثر سفره إليها فقد اقتنى لنا منزلا
على ضفاف البوسفور واستمرت رحلاتنا الصيفية إلى اسطنبول لغاية إعلان
الحرب العالمية الأولى ، (٢) . فطبعي أن يشخص شوقي مع الخديو في كل سنة ، لأنه
شاعره وصفيه .

ورجعت إلى مذكرات أحمد شفيق باشا ، فعرفت منها أن الخديو كان بالآستانة
من ١٠ يونية إلى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٦ (٣) .

(١) مصطفى كامل للرافعي ٢٠٧

(٢) أبي شوقي ٢٨، ١٨ (٣) مذكراتي في نصف قرن القسم الثاني من الجزء الثاني ٩٥-٩٨

فترجع لدى حينئذ إلى درجة تقرب من اليقين أن شوقي كان غائبا عن مصر ،
حينما وقعت حادثة دنشواى ، لأنها كانت فى ١٣ يولية سنة ١٩٠٦ .
وبعد عام نطق شوقي ، فماذا قال ؟
أنكر على لورد كرومر ترقية أحمد فتحى زغلول إلى وكيل وزارة الحقانية
(العدل) فى قوله :

أم من صياتك القضاء بمصر أن تأتى بقاضى دنشواى وكيلا ^(١)
وفى ذكرى دنشواى بعد عام رثى للضحايا من قتلى وسجناء وأرامل وأيتام ،
وجزع من الكتابة والأحزان التى أظلمت بيوتهم ، وغصت حياتهم ، وشهر بعهد
كرومر وظلمه :

يا دنشواى على رباك سلام	ذهبت بأفس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا	هيات للشمل الشئيت نظام
مرت عليهم فى اللحد أهلة	ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجاها	وبأى حال أصبح الأيتام ؟
عشرون بيتا أفقرت وانتابها	بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى فى البروج حمام	أم فى البروج منية وحمام ؟
نبرون لو أدركت عهد كرومر	لعرفت كيف تنفذ الأحكام

وصور فجيعة الأهلين ، بأنهم لا ينامون أسى وحسرة ، وإذا مانام كل حى تمثلت
لهم وحشية العقوبة وضراوة الانتقام فى أشباح مروعة تحرم جفونهم الغمض ،
أشباح الهول ، والمشائق ، والسياط ، وزبانية جهنم ، والمستشار ^(٢) الإنجليزى الذى
يتملى النظر إلى الضحايا فى غبطة ، فى حين أن الشقاء والبلاء يقطع أكباد
الساكنين والشكالى :

نوحى حمام دنشواى وروعى ✓ شعباً بوادى النيل ليس ينام

(١) الشوقيات ٢١٢/١

(٢) عو المستر متشل مستشار الداخلية .

إن نامت الأحياء جالت بينه سحرا وبين فراشه الأحلام
متوجع يتمثل اليوم الذي ضجت لشدة هوله الأقيام
السوط يعمل والمشاق أربع متوحديات والجنود قيام
والمستشار إلى الفضاء ناظر تدنى جلود حوله وعظام
في كل ناحية وكل محلة جزعا من الملاء الأسيف زحام
وعلى وجوه الثاكين كآبة وعلى وجوه الثاكلات رغام^(١)
على أن عاطفة الغضب في هذه القصيدة أميل إلى الفتور بالقياس إلى عاطفة
الإشفاق والرثاء ، وسنجد هذا الفتور عند حافظ وصبرى .

ولقد يسترعى الانتباه أن شوقى لم يرث فتحى زغلول ، على ما بين شوقى وبين
سعد من صلة ، وعلى ما كان لفتحى من جهود في ميدان العلم والثقافة ، لهذا لانستبعد
ماروى عن شوقى في تكريم فتحى زغلول ، ذلك بأن نفرا من أصحابه أقاموا له حفل
تكريم بفندق شبرد خين رقى وكيلا للحقانية ، ورجوا شوقى أن يشاركهم بقصيدة
وألحوا ، فوعدهم ، وكلما اقترب الموعد استنجزوه وعده ، وإذا بهم قبيل الحفلة بلحظات
يتلقون منه هذه الأبيات :

إذا ما جمعتم أمركم وهممت بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تقرأوا شعري عليه فحسبه من الشعر حكم خطه يمين
ولا تنسروه في (شبرد) بل انشروا على ملاء في دنشواى حزين
(٣) وإذا كان شوقى قد صمت عاماً كاملاً ، وحيرنا بصمته ، فإن حافظ إبراهيم
قد نطق ، لكنه حيرنا أيضاً بنطقه .

ذلك بأن حافظا نطق في غير ثوران عنيف كان متوقعا منه ، فهو في قصيدته
التي نشرها في ٢ يولييه سنة ١٩٠٦ بعد الحكم بخمسة أيام ، يعاتب ويتهم في مقام لا يليق
فيه إلا الرجم بالنار :

أيها التأمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والوداد؟
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد
وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربا فصيدوا العباد
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجياد
لا تظنوا بناء العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشاد

.....

جاء جهلنا بأمر وجئتم ضعف ضعفه قسوة واشتداد
أحسنوا القتل إن ضمنتكم بعفو أقصاصاً أردتم أم كياداً؟
أحسنوا القتل إن ضمنتكم بعفو أنفساً أصبتم أم جماداً؟
ليت شعري أهلك محكمة التفـ تيش عادت أم عهد نيرون عاد؟
كيف يحلو من القوى التشنج من ضعيف ألقى إليه القياد؟
إنها مثله تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أنداد
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجواد الجواد
إن عشرين حجة بعد خمس علمنا السكون مهما تمدى
أمة النيل أكبرت أن تعادى من رماها وأشفقت أن تعادى
ليس فيها إلا كلام وإلا حسرة بعد حسرة تهادى
ثم حمل على المدعى العمومى فى القضية إبراهيم الهلباوى حملة حارة مشكورة^(١)
وله قصيدة ثانية فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ م فى استقبال لورد كرومر حين عودته
من أوربا إلى مصر بعد الحادث - وكان متغيباً عن مصر حين وقوعه - وصف فيها
ما حل بدنشواى من تشكيل ، واستنجد بكرومر ليخفف من فظائع الاستعمار^(٢)
وله قصيدة ثالثة استقبل بها خلف كرومر السير إلدون غورست فى إبريل
سنة ١٩٠٧ ، أشار فيها إلى يقظة الشعور الوطنى بعد حادث دنشواى :

(١) ديوان حافظ ٢٠/٢

(٢) ديوان حافظ ٢٢/٢

قتيلُ الشمس أورشنا حياةً وأيقظ هاجعُ القويم الرُقودِ
فليت كرومرا قد دام فينا يطوق بالسلاسل كلَّ جيد
ويتحف مصر آنا بعد أن بمجلود ومقتول شهيد
لنزع هذه الأكفان عنا ونُبعث في العوالم من جديد^(١)

صمت شوقي وحيرنا، ونطق حافظ فحيرنا

فنحن في حيرة من حافظ أيضاً، لأن قصيدتيه الأولين في دنشواي، وهما اللتان
قالهما في زمن الحادث وبعده بقليل ليست فيهما العاطفة الهابجة الغضوب، وليس بهما
قنابل مصوبة إلى الاحتلال البريطاني لتدكه، أما الأبيات الأخيرة فقد قلت بعد
رحيل لورد كرومر، استقبالا لخلفه، وشكوى له من عهد كرومر.

ألمست تشعر معي بالحيرة من أمر شوقي، ومن أمر حافظ؟

ألمست معي في أن حادثة دنشواي كانت جدية بأن توحى إلى شعرائنا بلحمة
رائعة، تغذي العواطف الوطنية وترويه، وتمدها بالقوة والنماء والبقاء؟
هذا ما كان من شوقي وحافظ.

(٤) أما صبرى فقد لاذ بالصمت كما لاذ شوقي، ثم نطق فيما بعد لكن كما نطق
شوقي وحافظ. نطق فيما بعد، لأنه في سنة ١٩٠٨ شكر للخديو عباس أنه عفا
عن المسجونين في حادث دنشواي، واستطرد إلى كلمة عن الحادث:

وأقلتَ عثرة قرية حكم الهوى في أهلها وقضى قضاء آخرق
إن أن فيها بائس مما به وأرنت جابوه هناك مطوق
وارحمتا لجناتهم ماذا جنوا وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا؟
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية للناس طيَّ صحيفة تتألق^(٢)

.....

(١) ديوان حافظ ٣١/٢

(٢) ديوان اسماعيل صبرى ٥٧

رحيل كرومر

لما رحلت عن البلاد نثقت فكأنك الداء العيا رميم

شوقي

(١) كان شوقي ترجمان مصر في تشييع اللورد كرومر ، وصب وابل من اللعنات عليه وعلى عهده .

لقد طالما أساء هذا الرجل إلى مصر ، فهو الذى سعى لعقد الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، فصارت إنجلترا مطلقة اليد في مصر لا تطالبها فرنسا بالجلالة ، ولا تعارضها في أى عمل تعمله بمصر .

وقضى بمصر ربع قرن يوطد دعائم الاحتلال .

وكان هدفه الوحيد - كما جاء في حديث له - أن يحق مصالح بلاده ، ومصالح مصر . ولكنه صدق في الأولى وكذب في الثانية ، لأن مصر كانت مهمة مضيعة ، لايهمه من أمرها إلا ما يضمن للدائنين الأوروبيين سداد ديونهم ، وأما مصالح إنجلترا فقد كانت هي الغاية .

وهو الذى أساء إلى مصر في خطبته قبل رحيله عنها سنة ١٩٠٧ ، وأساء إليها في كتبه وتقاريره .

وخطبته هي التي تهمنا هنا ، لأنها أثار شوقي فرد عليه ردا مفجها مؤلما .

جاء في هذه الخطبة : سأظل أنخر باشتراكي مع السير رجيلد ونجت وأعوانه الأكفاء فيما قننا به من إصلاح . إننا في ربع قرن قد أدينا عملا طيبا على ما فيه من قصور وتقصير . ولكن كثيرين يقولون لى إن المصريين لا يعترفون كثيرا بالجميل والخدمات التي لا أشك في أنها قدمت لهم . وإني أعرف ما يشعر به المصريون ، إذ قال فيلسوف فرنسى : من قاسى آلام الظلم والضميم طويلا لم يبق له طاقة لشكر من يخلصه من ضيمه . ولا ريب أن المصريين قاسوا الكثير في زمانهم . ومهما كان شعورهم وحماسهم ، ومهما أقاموا من الحجج والبراهين فلا يمكن أن أصدق أنه يمكن للمصريين أن يتنكروا للتمدن الغربى الذى جلبته لهم إنجلترا في خلال الخمسة والعشرين عاما ، ذلك التمدن الذى نشلهم من وهدة اليأس بعد ما هرموا فيها . وهب أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون

بهذه الحقيقة فإنى لا أزال آمل أن يعترف بها أبناؤهم ، إذ المعتاد أن يكون أولاد العميان مبصرين .

إن الاحتلال البريطانى سيدوم وبقى ، وقد قالت لنا حكومة جلالة الملك ذلك رسميا . وما دام الاحتلال باقيا فنحن مسئولون عن الخطة التى تسلكها الإدارة المصرية لا تفصيلا بل إجمالا . ولا يكن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثابتة ، ولتعلوا أن نظام الحكومة الحالى دائم على ما به من عيوب كثيرة ، وليس أقدر على سدد هذا النظام من السير إلدون غورست خلفى القدير البارع .

إننى لا أستحسن تغيير أى نظام الحكم ، ولا أشير بالخروج على المناهج الحالية . وإذا اقتضى الأمر فسأطلب ملجأ مقاومة هذه الحركة المفتعلة الكاذبة التى تريد إنشاء مجلس نيابى ، وهى حركة إن سألتونى عنها قلت إنها لا تستحق أدنى التفات ، إذ هى لا تعبر عن رأى المتنورين من سكان القطر المصرى أوروبيين أو مصريين ، ومتى زال هذا الهذيان صار الاختلاف بينى وبين خصومى فى الطريقة لا فى الفكرة ، إذ هم يريدون أن يعدوا عدوا سريعا جدا ، وأنا أرى ضد ما يريدون ، لاقتناعى بأنهم إذا أسرعوا عثر الجواد وانكسر .

ولو قدر لى نقد النظام الذى دام نحو ربع قرن الآن ، لقلت إن التقدم كان فيه سريعا جدا بطريقة غير مطمئنة .

كانت هذه الخطبة المتحاملة فى الحفل الذى أقامه له مصطفى فهمى باشا رئيس النظار بدار الأوبرا ، وخطب يودعه ويثنى عليه ، وحضره كثير من كبراء مصر وأمرائها وأعيانها وكبار موظفيها . ولقد كان من واجب المجاملة والأدب أن تكون الخطبة غير مارأينا ، لكن حنق اللورد المعزول أو المنقول بعد فضيحة دنشواى استبد بأعصابه فهاج وماج .

فهو فى هذه الخطبة يرمى المصريين بالعقوق وإنكار الجليل والعمى وفقدان التمييز والعبودية ، وينذرهم بسرمدية الاحتلال البريطانى ، ويسخف مطالبتهم بالدستور والحكم النيابى ، ويصف حركتهم الوطنية بأنها حركة مفتعلة كاذبة خائرة لا قيمة لها ، ويريد أن يجعل للأجانب فى مصر من جميع الأمم رأيا فى سياستها .

ثم يرمى مصر بعد رحيله في تقريره الأخير بأن الذين أقاموا في الشرق واختلطوا بأهله يعلمون حق العلم أن من المحال على الأوروبي أن يوافق التفكير الشرقى ، لأنه ذو عقلية غريبة ، حتى ليخيل إلينا أن الرجل الشرقى يعيش في زحل . ويدعى أن أفكار المصريين عقيمة عقيمة يجعل من العسير على الإنسان أن يفهم مقاصدهم وآمالهم ^(١) .

ولم ينس المصريون أن اللورد كرومر شجع حركة التبشير ، ورمى الدين الإسلامى في تقريره سنة ١٩٠٦ بأنه دين لا يصلح لهذا العصر .

(٢) رد عليه شوقي بقصيدة حارة ^(٣) ، عجب فيها من غطرسته بمصر ، وصارحه بأن المصريين فرحوا برحيله كما يفرح المريض بشفائه من داء عضال ، ثم أنبه على سوء أدبه في خطبته :

أيامكم أم عهد إسماعيل	أم أنت فرعون يسوس النيل ؟
أم حاكم في أرض مصر بأمره	لا سائلا أبدا ولا مسئولا ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت	فكأنك الداء العياء رحيل
أوسعتنا يوم الوداع إهانة	أدب لعمر ك لا يصيب مثيلا
هلا بدا لك أن تجامل بعد ما	صاغ الرئيس لك الثنا إكليلا
انظر إلى أدب الرئيس ولطفه	تجد الرئيس مهذبا ونبيلا

ثم انتقل إلى تأنيب المصريين الذين شهدوا الحفل ، وسمعوا التهجم على مصر ، وخص بالذكر الأمير حسين كامل والشيخ عبد الكريم سلمان :

في ملعب للمضحكات مشيد	مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله	وتصدر (الأعمى) به تطفيل ^(٣)
جبن أقل وخط من قدرهما	والمرء إن يجبن يعيش مردولا

وفند دعوى كرومر أن الاحتلال باق ، وأنذره بأن قدرة الله فوق قوة الإنجليز ، وضرب له المثل بفرعون ، كان أعظم قوة وغرورا ، لكن ملكه لم يدم :

لما ذكرت به البلاد وأهلها مثلت دور مماتها تمثيلا

(١) من مقال بحريدة المصرى . إحسان عسكر (٢) الشوقيات ٢٠٩/١ — ٢١٣ .

(٣) الأعمى : الشيخ سامان لأن بصره كان قد ضعف وكاد يكف .

أنذرتنا رقا يدوم وذلة تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة لا يملك التغيير والتبديلا ؟
الله يحكم في الملوك ولم تكن دول تنازعه القوى لتدولا^(١)
فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبيلا
ثم ندد بإخلاف إنجلترا وعودها المكررة أنها ستجلبو عن مصر ، لأنها ادعت
أن الغرض من الاحتلال تثبيت الخديو وتحسين حال مصر ، وصور بقاءها بدهاء السل ،
وقال إنها فوضت نهضتها ، وضيعت استقلالها :

اليوم أخلفت الوعود حكومة كنا نظن عهودها الإنجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصرا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معاملها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا
وبدأ يرد على الادعاء بأن إنجلترا أفادت مصر ورقّت مرافقها ، فذكر المدعين
بأعمال محمد علي وإسماعيل ، وبما بنيا من مدارس ومعامل ، وما كان لهما من جيوش
وأساطيل ، وبما شقّا من ترع ، وخطّا من مدن ، ومهدّا من طرق ، وغرسا من زروع ،
وأشاد بما أفاء إسماعيل من حضارة ، وشيد من قصور صار بعضها مأوى
للجيش البريطاني

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى ججدوا الإله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد ونهوضها من عهد إسماعيل

.....

ثم دل على سوء الحكم بضعف التعليم ، وخور القضاء ، وتخلف الجيش ، وسيطرة
الإنجليز عليه :

هل من نذاك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا ؟
أم من صيانتك القضاء بمصر أن تأتي بقاضي دنشواي وكيل^(٢) ؟

(١) تدول : المراد تدوم .

(٢) قاضي دنشواي : أحمد فتحي زغلول باشا كان قاضيا في المحكمة التي حاکمت أهل دنشواي بالشنق
والجلد والسجن . ثم جعله كرومر وكيل الحقانية بعد أن كان رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية .

أم هل يعدُّ لك الإضاعة منه جيش كجيش الهند بات ذليلاً ؟
انظر إلى فتياه ما شأنهم أو ليس شأننا في الجيوش ضئيلاً ؟
حرمهم أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلاً
فإذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلاً لم يملكوا التأميلاً
ثم ذكر ما قدم اللور كرومر للإنجليز من خدمات بمصر لقاء أضرار بالمصريين ،
في أسلوب مهكم ساخر ، أشار فيه إلى تعصبه للمسيحية ، وحرصه على أموال الدائنين ،
ومحabbاته للأجانب المقيمين بمصر :

لو كنت من حُر الثياب عبدتكم من دون عيسى محسناً ومنيلاً
.....

أو كنت قسيساً يهيم مبشراً رتلت آية مدحك ترتيلاً
أو كنت صرافاً بلندن دائماً أعطيتكم عن طيبة تحويلاً
أو كنت (تيمسك) ملأت صحائف مدحاً يردد في الوري موصولاً
أو كنت في مصر نزيلاً جاهداً سبحت باسمك بكرة وأصيلاً
.....

ويحتم القصيدة بشائته في اللورد المعزول ، لأن المصريين دعوا الله أن يطهر
ديارهم منه ، ولأنه تهجم على الإسلام :

✓ إنا تمنينا على الله المنى والله كان بئيلهن كفيلاً
✓ من سب دين محمد فمحمد متمكن عند الإله رسولا

(٣) هذه الصرخة الجريئة يقابلها من حافظ إبراهيم صوت خافت ، إذ يودع
اللورد توديعاً فيه إطراء واعتراف بالجميل ، وفيه عتاب رقيق على وحشية الإنجليز
بدنشواي ، وعلى رمي اللورد الشعب المصري بالتعصب ، ووصفه الشرقيين بالبله ،
وهل أدل على رقة العتاب من قول حافظ إن المصريين لولا ذلك لذابوا يوم ووداعك
أسى ، لأنك المصلح المتودد المحبوب ؟ ثم عرض حافظ للرأيين المختلفين في حكم
كرومر : الرأي الراضى المقر بأنه قدم لمصر خيراً كثيراً إذ أطلق العنان للصحافة ،

وأصلح الأرض الزراعية، والرأى الساخط الذى يرى حكمه معوقاً لنهضة التعليم واللغة، ومضيقاً حق مصر فى السودان، لأن بريطانيا أشارت على مصر بإخلائه لما ثار المهدي سنة ١٨٨٤، ثم أعادت فتحه بالجيش المصرى يعاونه فى الظاهر الجيش الإنجليزى سنة ١٨٩٧ لتتخذ ذلك ذريعة لمشاركتها فيه، وهؤلاء الساخطون لا ينسون أن هذا كان بتدبير كزومر، وأنه منع الصحف المصرية الحرة من دخول السودان، كما يؤيد. ولا ينسون سيئاته الأخر التى قد سبقت.

وبعد أن يعرض حافظ الرأىين يحجم أن يبدي رأيه الخاص. أفنكان مرد ذلك إلى جبن، أم إلى مجاملة أم إلى شىء آخر؟ لست أدرى. ولقد نفترض أن مرد ذلك إلى الإنصاف، وإن هذا الافتراض ليسىء إلى حافظ، لأن المقام ليس مقام نصفه ووزن للحسنات والسيئات، وإنما هو مقام رد على أجنبي طاغية قضى بمصر ربع قرن يسيطر على شئونها، ويحتلب خيراتها، ويسىء إلى أهلها، وإن أحسن فى بعض أعماله إحساناً لا يتوخى به خير مصر، وإنما يتوخى به الحصول على المال للدائنين الأجانب، ثم هو فى تقاريره وفى خطبته لم يراع أدب المجاملة، ولا حرمة العقيدة الدينية، ولم ينصف فى أحكامه الجائرة على المصريين والشرقيين، وطعن الوطنية المصرية، والآمال المنوطة بها، وأنذر باسترقاق دائم.

فواجب الذى يرد عليه أن يفند دعاواه، وأن يبرز له مساوئ حكمه، ويقرعه على تهجمه، لا أن يذكر حسناته وسيئاته، كأنه مؤرخ يعتمد الإنصاف فى حال لا مجال فيها لإنصاف.

قال حافظ:

سلامٌ ولو أنا نُسِئ إلى الأولى	أساءوا إلينا ما مددنا لهم يدا
سنطرى أياديك التى قد أفضتها	علينا فلسنا أمةً تجحد اليدا
أمنّا فلم يسلك بنا الخوف مسلّكا	ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدًا
وكنت رحيم القلب تحمى ضعيفنا	وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا

ولولا أسي في دنشواي ولوعة
ورميك شعباً بالتعصب غافلاً
لذبتنا أسي يوم الوداع لأننا
نرى فيك ذاك المصلح المتودداً

.....

فهذا حديث الناس والناس ألسن
ولو كنت من أهل السياسة بينهم
ولكنني في معرض القول شاعر
ثم يحتم القصيدة بما يعم عن ميل إلى كرومر:

فيأبها الشيخ الجليل — ل تحية
لئن غاب هذا الليث عنك لعله^(١)
ويأبها القصر المنيف تجلداً
لقد لبثت آثاره فيك شهداً^(٢)

لكن الإنصاف يقتضي أن نذكر لحافظ أنه قال قصيدة أخرى في يناير سنة ١٩٠٧ رد بها على تهم كرومر، وحمل على سياسته، وبرم بمنه على مصر أنه أصلحها ورق شئونها:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذب
وأن أصبح المصري حراً منعماً
فإني رأيت المن أنكي وآلما
فأغليتم طيناً وأرخصتم دماً^(٣)

.....

(١) ادعى اللورد أنه مريض في حاجة إلى اعتزال العمل بمصر (٢) ديوان حافظ إبراهيم ٢٦/٢

(٣) ديوان حافظ ٢٦/٢

حملة على احتلال البلاد العربية

نصت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الزم شر
وجمعنا إذا اختلفت بلاد بينا غير مختلف ونطق

شوقي

كان شوقي يبغض احتلال مصر ، ويبغض احتلال غيرها من الدول العربية والإسلامية ؛ لأنه لم يحبس عواطفه في نطاق من الوطنية الضيقة ، فيأسى لضعف مصر وحدها ولا يكثرث بما يصيب شقيقاتها من ويل ، وإنما كان يأسى لمصر ، ويأسى لكل دولة عربية أو إسلامية ، وكان يناهض الإنجليز في مصر ويناهض الفرنسيين واليطاليين في سوريا وطرابلس ، ويدعو إلى مجاهدة هؤلاء ومناضلة هؤلاء .

(١) فقد ثارت سوريا على الاستعمار الفرنسي ، فدمر الفرنسيون دمشق ، ودكوا معالم التاريخ وأحرقوها ، واضطروا عقائلها إلى أن يبرزن إلى الطرق هالعات ، وأسالوا دماء الأحرار أنهارا في الطرقات ، وتناسوا أنهم دخلوا غاصبون ينكرون بأبناء الوطن الأجداد .

فأقام المصريون في يناير سنة ١٩١٦ م مؤتمر استنكار لعدوان فرنسا ووحشيتها ، وألقيت فيه قصيدة لشوقي ، وهي من روائعه الخالدة .

وقد غاظت هذه القصيدة فرنسا ، حتى لقد حرمتها أن يزور بلاد المغرب - الخاضعة لها - على رغبته في هذه الزيارة .

في قصيدته (نكبة دمشق)^(١) تحية لدمشق ، وجزع مما أصابها وتمجيد لماضيها وحاضرها ، وتصوير لعزازتها ، وحزن لما أحدثته الفرنسيون بآثارها الإسلامية المجيدة ، واستنكار شديد لوحشيتهم ، وحملة صادقة عليهم ، وتنبيد بهم لأنهم تنكروا لمبادئ ثورتهم التي زعموا أنها كانت أول هتاف بالحرية والإخاء والمساواة .

وإن حرارة العاطفة استجلى في كل بيت من أبيات القصيدة الخمسة والخمسين .

وحسبنا أن نقطف منها بعض أبيات تتخذ منها مثالا على ما نقول .

فهو حزين لما أصاب دمشق حزناً لا يرقأ منه جفنه ، ويعقل بيانه عن وصف
مشاعره ، وهذا الحزن جرح قلبه جراحاً غائرة لا تلتئم ولا تنسى :

سلامٌ من صبا (بردى) أرقُ ودمعٌ لا يكفكفُ يادمشقُ ^(١)
ومَعْدَرَةُ البراعةِ والقوافي جلالُ الرُزْوِ عن وصف يدقُ
وذكري عن خواطرها لقلبي إليك تَلَفْتُ أبداً وخَفَقُ ^(٢)
وبى مـارمـتك به الليالى جراحاتُ لها فى القلب عمقُ

وهو حاملٌ على فرنسا الغاشمة ، فبعد أن وصف ما ارتكبت من فظائع ، ندد
بوحشيتها ، وبوحشية كل مستعمر ، وندد بطيش القائد الفرنسى الجنرال سراى ، لأنه
قائد غاشم ، كان حرباً على فرنسا نفسها بما جنى ، وبما جرَّ عليها من سبة وسوء سمعة .
ثم تهكم بفرنسا لأنها نكلت بالأحرار فى سوريا ، عقاباً لهم على نشدان الحرية ، ونسبت
أن الفرنسيين قد ثاروا فى آخر القرن الثامن عشر ينشدون الحرية ، وأن الدماء
التي أريقت على أرض فرنسا كانت مباركة نافعة غدت الثورة ، وأقامت دولة جديدة ،
ونسبت أنها ساعدت بعض الشعوب المستعبدة على نيل حريتها ، فمدتها بالمال والسلاح
والرجال ، فيا للعجب كيف تتنكر لماضيها ، وتستعبد الأحرار ، وتنكل بالمجاهدين ؟
فلتعلم فرنسا أن السوريين الأحرار لا بد أن ينالوا حريتهم ، وأن وحشيتها غداة
لحماسهم ، وأن شهداء الجهاد خالدون ، وذكراهم تؤرث النضال :

سَلِي من راعٍ غيدك بعد وهنٍ أبين فؤاده والصخر فرقُ ^(٣) ؟
وللمستعمرين وإن الأنوا قلوبٌ كاللحجارة لا ترقُ
رماك بطيشه ورمى فرنسا أخو حربٍ به صلفٌ وحمقُ ^(٤)
إذا ما جاء طـسـلابُ حقٍ يقول : عصاةٌ خرجوا وشقوا ^(٥)

(١) بردى : نهر دمشق . يكفكف : يحف . (٢) خفق : خفوق

(٣) الوهن : نصف الليل . وقد استمر ضرب دمشق ٥٦ ساعة متوالية (٤) صلف : كبر .

والمراد بأخى الحرب الأحمق الجنرال سراى (٥) شقوا : عصوا . كان السوريون يذهبون إلى
القائد سراى يرجونه أن يكف عن ضرب دمشق بالمدافع فيقول إنه يضرب العصاة الذين خرجوا على طاعته

دُمُ الثَّوَارِ تعرفه فرنسا وتعلم أنه نورٌ وحقُّ
جَرى في أرضها ، فيه حياةٌ كُنْهَلُ السماء ، وفيه رزق
بلاد مات فِتْنَتُهَا لتجيا وزالوا دُونَ قومهم لِيَبْقُوا
وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تُسْتَرَقُّ (١) ؟

(٢) وكذلك ندد بوحشية الطليان إذ ضربوا بأسطولهم مدينة بيروت (٢)

(٣) وحمل عليهم لأنهم أعدموا الزعيم عمر المختار سنة ١٩٣١ شهيد المسلمين والعرب
بطرابلس ، ولم يرحموا شيخوخته وسنه التي نيمت على التسعين . حمل على إيطاليا الغاشمة
حملة صارمة وأنذرها بشار أشد وأنكى ، لأن رفات الشهيد التي واراها الطليان بالثرى
ذخر من الحماسة المتقدة يستنهض العرب في كل وقت أن يشاروا له ، وأن يقتدوا
بجهاده ، ولن ينسى العرب هذه العداوة المتوحشة ، وسيورثون الأجيال المقبلة
بغضهم للطليان ، والدأب على طردهم من إفريقيا (٣)

ركزوا رُفَاتَكَ في الرمال لواء يستنهض الوادى صباح مساء
يا ويحهم نَصَبُوا منارا من دم يوحى إلى جيل الغد البغضاء
ما ضَرَّ لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب مودة وإخاء ؟
جرح يصيح على المدى ، وضحية تنلس الحرية الحمراء

(٤) لم يكن شوقي شاعر مصر وحدها ، بل كان أيضاً شاعر العروبة والإسلام ،
يفرح لفرح العرب والمسلمين ، ويأسى لأساهم ، ويأسف لحاضرهم المتخلف كما يفرح
لمصر ويأسى ويأسف .

ففي قصيدته في ذكرى محمد على يتمنى أن يقوم من مرقدته ليشترك معه في الحزن
على حال الشرق ، وعلى ممالكه التي انفرط عقدها ، وجردت من قواها :

(١) قناها . رماحها والمزاد سلاحها

(٢) الشوقيات ١٩٦/١ (٣) الشوقيات ١٧/٣

يا مديم الرقاد في خير مرقد قم فما حلّ قبلك الأرض فرقد
وانظر الشرق كيف أصبح يهوى وانظر الغرب كيف أصبح يصعد
وتأمل ممالك وبلادا لمس الدهر عقدها فتبدد
كنت تحميه والسيوف عوار من له اليوم بالحسام المجرد^(١) ؟

وحين ودع الخديو عباس وهو شاخص إلى الحج ختم وداعه بأن طلب من الخديو أن يثبت النبي عليه الصلاة والسلام حسراته من ضعف الشعوب الإسلامية ، وغفلتهم عن العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وغفلتهم عن استيحاء ماضيهم المشرق ليعملوا كما عمل أوائلهم ، في زمن تتسابق فيه الأمم إلى الإبداع ، وتنافس في إعداد القوى . ثم طلب منه أن يدعو الله وهو في عرفات أن يوفق مصر والمسلمين إلى عظام الأعمال :

إذا زرت يامولاي قبر محمد وقبّلت مثنوى الأعظم العطرات
.....

فقل لرسول الله : يا خير مرسل أبشك ما تدرى من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة فما بالهم في حالك الظلمات ؟
وذلك ماضى مجدهم ونفارهم فما ضرهم لو يعملون لآت ؟
وهذا زمان أرضه وسماؤه مجال لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم في السماء وأنشؤا بوارج في الأبراج تمتعات
فقل : رب وفق للعظام أمتي وزين لها الأفعال والعزّات^(٢)
ويعود إلى هذا المعنى في (نهج البردة)^(٣)

(١) الشوقيات ١١١/١ الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى يهتدى به .

(٢) الشوقيات ١٠٠/١ (٣) الشوقيات ٢٥٨/١

زَلَّة

أنسميها مهادنة أم زلة ؟

(١) لقد هادن شوقي أوزل إذ وصف الإنجليز بأنهم حلفاء مصر الأحرار ،
وأنهم أرقى الشعوب ، وأعز الممالك سلطانا ، وقال إنهم بعد خلع الخديو عباس ولوا
عمه السلطان حسين كامل ، فراعوا نظام الوراثة للعرش ، وهذا عدل منهم وسماح :
حلفـاًؤنا الأحرار إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفها وميولا
أعلى من الرومان ذكرا في الوري وأعز سلطانا وأمنع غيـلاً
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحا في البلاد عدولا
وأثـروا بكبرها وشيخ ملوكها ملكا عليهم صالحا مأمولا^(٢)

على أنه عرض بالإنجليز في القصيدة نفسها ، وعرض بتسلط اللورد كرومر ،
وبخضوع الخديو عباس له مضطرا . وجاء نفي شوقي بعد هذه القصيدة .

وما من شك في أنها وليدة ضعف طارىء ، وحال القاهرة ، لأن شوقي قال
هذه القصيدة حين تولية السلطان حسين كامل إثر عزل عباس ، في وقت كان لإنجلترا
فيه السلطان والسيطرة ، وكان السلطان حسين ينتظر فيه المناصرة والمؤازرة ، وفي وقت
كان شوقي فيه غير مرضى عنه ولا مرغوب في بقائه بمصر .

لكننا كنا نود ألا يشيد شوقي بالمحتلين وإن كانت إشاداته خاطفة .

ومن حقه علينا أن نذكر أنه لم يهادن الإنجليز إلا هذه المرة .

لكن له قصائد أخرى أشاد فيها بالإنجليز ، ففي قصيدته (شكسبير) سنة ١٩١٦

أعجب بقوتهم ، وأخلاقهم ، وسعة ملكهم ، وزعم أنهم كانوا يُصفون الود للمسلمين
وخليفتهم .

وإذا كان من حق شوقي الشاعر أن يشيد بعظمة شكسبير الشاعر ، لأن الشعر
والفن والعلم لا تعرف الحدود والفواصل والعداوات الدائرة بين الناس ، فإنه قد زل
بأن قدّم لقصيدته بمقدمة ما كان أغناه عنها .

(١) الشوقيات ٢١٥/١ الغيل : مسكن الأسد .

فقد قال هذه القصيدة والاحتلال جاثم على الصدور ، وكان من واجبه ألا يصور
 خصوم بلاده بهذه التصوير الذى ضخمه الخيال والمبالغة . وحتى على فرض أن الإنجليز
 يستحقون أن يوصفوا بهذه العظمة فإن من واجب شوقى شاعر مصر أن يصمت ،
 فلا يذكر عظمتهم ، ولا يشيد بهم ، لأن فى إشادته بهم إغراء بالخضوع لهم ، وتهوينا
 من حدة العزائم فى نضالهم .

وليس يشفع له أنه كان يداينهم ليعيده إلى مصر من منفاه :

أعلى الممالك ما كرسية الماء	وما دعامته بالحق شماء
يا جيرة المنش حلاًكم أبوتكم	ما لم يطوق به الأبناء آباء
ملك يطاول ملك الشمس ، عزته	فى الغرب باذخة فى الشرق قعساء
يستصرخون ويرجى فضل تجديهم	كانهم عرب فى الدهر عرباء

.....

وكان ودهم الصافى ونصرتهم للمسلمين وراعيهم كما شاءوا^(١)
 وله قصيدة عنوانها (الله والعلم) بمناسبة تأجيل تنويع الملك إدوارد السابع لإصابته
 بدمل سنة ١٩٠٢ يدين فيها بقدرة الله وعجيب صنعه ، ويستنبط من هذا الحادث عبرا
 وعظات ، ويصف الاستعداد لحفل التنويع . وقد جره هذا الوصف إلى الإشادة
 بقوة بريطانيا :

أعد لها إدورد أعياد تاجه	وما فى حساب الله ما هو حاسبه
--------------------------	------------------------------

.....

إلى موكب لم تخرج الأرض مثله	ولن يتهدى فوقها ما يقاربه
إذا سار فيه سارت الناس خلفه	وشدت مغاوير الملوك ركائبه
تحيط به كالنمل فى البر خيله	وتملأ آفاق البحار مراكبه

.....

عجيب يرجى مشرطاً أو يهابه	من الغرب راجيه من الشرق هائبه ^(٢)
---------------------------	--

ولم يكن ثمة داع لهذه القصيدة جملة وتفصيلاً ، فليؤجل حفل تتويج الملك إدورد
أو لا يؤجل ، وبلغ أو يعمل ، وليصب بدمل أو بغير دمل ، فإن هذا كله لا يعنى مصر ،
ولا يصح أن يعنى شعراءها . وكيف يعنى مصر وشعراءها أمر أعدامها وتتويج
ملكهم ؟ وماذا تجنى مصر من تتويج ملك بريطانيا أو تأجيله أو إلغائه ؟

أما رثاؤه لكنتشن فإنه حافل بعبر الحياة والموت ، وفيه لفظة بارعة إلى شباب
مصر ، إذ يريدون أن ينالوا من أسباب المجد ما نال كنتشن لنفسه وقومه ، فهو هنا
إنسان طموح يأخذ بأيدي الشباب إلى الاقتداء بعظيم انقضى ، لأن مقام التاريخ فوق
الهُوى . ويذكرهم بما قدمت مصر من جهود وضحايا وأموال في استرجاع السودان ،
وبأن مصر نصيباً عظيماً في شهرة كنتشن وعظمته ، ويحذرهم التفريط في السودان ،
لأنه حياة لمصر :

نشأ النيل إليكم سيرة	لكم فيها عظات وعبر
اقرأها يكشف العصر لكم	كل عصر برجال وسير
لا تقولوا شاعر الوادى غوى	من يغالط نفسه لا يعتبر
موقف التاريخ من فوق الهوى	ومقام الموت من فوق الهذر
ليس من مات بخاف عنكم	أو قليل الفعل فيكم والأثر
شدتم دنياه في أحسنها	غزوة السودان والفتح الأغر
وبنى مملكة النوب بكم	فاذكروا القتلى ولا تنسوا البدر
واحدروا من قسمة النيل فيا	ضيعة الوادى إذا النيل شطر ^(١)

(٢) ليكن حافظ إبراهيم زل أكثر من شوقي وأشنع . فقد دعا السلطان
حسين كامل إلى موالاتهم ، لأنهم كرام ميامين النقية ، ذوو ملك مجيد ، وخلق حميد ،
وليس مثلهم في صدق الود ، ومعونة مصر :

فحش للنيل سلطاناً أيساً	له في ملكه عقد وحل
ووال القوم إنهم كرام	ميامين النقية أين حلوا

لهم ملك على التاميز أضحت ذراه على المعاني تستهمل
وليس كقومهم في الغرب قوم من الأخلاق قد نهلوا وعلوا
فإن صادقهم صدقوك ودأ وليس لهم إذا فقتشت مثل
وإن شاورتهم والأمر جد ظفرت لهم برأى لا يزل
وإن ناديتهم لبأك منهم أساطيل وأسياف تسل^(١)
لم يقنع حافظ بهذه الزلة ، بل جامل الإنجليز ، فرثى الملكة فكتوريا^(٢) ،
وعزى قومها ، وهو يعلم أن عهدا كان بلاء على وطنه ، وأن قومها ساموا بلاده
الحسنة . ونشر قصيدته الرائية سنة ١٩٠١ . وفي العام التالي هنا الملك إدوارد السابع
بالمملك ، وأظهر مصر تابعة ذليلة للإنجليز ، ودعا لهم بالنصر ورغد الحياة :
يا دولة فوق أعلام لها أمد تخشى بواذره الدينا إذا زأرا

.....

إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم وإن كشرت لنا عن نابه كشرا

.....

(إدوار) دمت ودام الملك في رغد ودام جندك في الآفاق منتصرا^(٣)
وفي سنة ١٩١٥ استقبل معتمد بريطانيا السير مكهاون بقصيدة ، أطرى فيها
الإنجليز فمدحهم بالنبل والإصلاح والأناة والرشاد والعدل ، وزاد على هذا كله أن
استنصر بهم لمصر أضعف أمة مستضعفة :

أنتم أطباء الشـ عو ب وأنبل الأقوام غايه
أنى حللتكم في البلا د لكم من الإصلاح آيه
رسخت بنايه مجدكم فوق الروية والهـ دايه
وعدتكم فلكتم الد نيا وفي العدل الكفايه
إن تنصروا المستضعفين فنحن أضعفهم نكايه

(١) ديوان حافظ ٦٥/١ تستهمل : تظهر . النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثاني . يزل :

يخطئ . (٢) ديوان حافظ ١٣٦/٢ (٣) ديوان حافظ ١٤/١

أو تعملوا لصلاحنا فتداركوه إلى النهاية^(١)
ويظهر أن حافظاً كان مضطرب النفس ، يقوى تارة فيحذر المصريين دهاء
الإنجليز كقوله في سنة ١٩٠٩ :

فلا تثقوا بوعد القوم يوماً فإن سحاب ساستهم جهام
وخافوهم إذا لانوا فإنى أرى السؤاس ليس لهم ذمام
فكم ضحك العميد على الحانا وغر سراتنا منه ابتسام^(٢)
ويضعف تارة فيستسلم ويأس ، ويرى جلاءهم من مصر محالا ، كقوله بعد استرداد
السودان :

رويدك حتى يخفق العلمان وتنظر ما يجري به الفتیان
فما مصر كالسودان لقمة جائع ولكنها مرهونة بأوان
أرى مصر والسودان والهند واحدا بها اللورد والفيكنت يستبقان
وأكبر ظنى أن يوم جلاهم ويوم نشور الخلق مقتربان
إذا غاضت الأمواه من كل مزبد وخرت بروج الرجم للحدثان
وعاد زمان السمهرى وربّه وحكم في الهيحاء كل يمانى
هناك اذكرا يوم الجلاء ونبها نياماً عليهم يندب الهرمان^(٣)

إنه يأس مؤس مشط للعزائم . أليس يومهم شعبه بأن إنجلترا ستبتلع مصر أيضاً
كما ابتلعت السودان ؟

أليس يومهم المصريين أن الجلاء لن يكون إلا اذا ظهرت أمارات الساعة من غيض
المياه . وسقوط الشهب الخ ، أو لن يكون الجلاء إلا اذا حدث المستحيل فعاد الزمن
سيرته الأولى ، أيام أن كان القتال بالسيوف والرماح .

لكن شوقى لم يأس ، ولم يثبط العزمات ، ولم يصور الاستقلال التام واستعادة

(١) ديوان حافظ ٨٢/٢

(٢) ديوان حافظ ٥٦/٢ جهام : لا ماء فيه . زمام : عهد . العميد : السير غورست .

(٣) ديوان حافظ ٥/٢ الفتیان : الليل والنهار . المزبد : البحر يقذف بالزبد . الحدثان : حوادث

الدهر ونوائبه .

المجد المؤثر بعيد المنال . وإنما كان في عنفوان الاحتلال كما كان في شيخوخته حرباً عليه ، وأملاً بساماً لقومه .

ثم عاد حافظ فقويت عزيمته في قوله لسعد سنة ١٩٢٤ :

فاوض ولا تخفض جناحك ذلة إن العــــــدو سلاحه مفلول
فاوض تخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفي البلاد دخيل
عزل ولنكرن في الجهاد ضراغم لا الجيش يفرعها ولا الأسطول

أسطولنا الحق الصراح وجيشنا ال حجج الفصاح وحربنا التدليل^(١)

(٣) أما أحمد نسيم فقد كان يوقا الإنجليز ، وأسيراً لعطاء كرومر^(٢) . ثم تاب وأناب^(٣) . ولست أدري كيف يقول عنه الأستاذ عبد الرحمن الرافعي - وقد قرأت كتابه شعراء الوطنية بعد الفراغ من دراستي هذه - « شاعر مبدع من أعلام الشعر الوطني ... ولد سنة ١٨٨٠ م واعتنق منذ صباه مبادئ الوطنية ، فامتزجت الوطنية بروحه الشاعرية ... سمي شاعر الحزب الوطني ، واعتز هو بهذا اللقب ... »^(٤)

ذلك أن شعره الأول حرب على الوطنية ، أما بعد رحيل لورد كرومر فقد جنح إلى تأييد مصطفى كامل ، وجهر بتوبته عن إثم مضى .

لا بد أن يكون الشاعر الوطني ثائر النفس ، فائر العاطفة ، يعبر عن ثورته بشعر متدفق ، ينزل في قلوب مواطنيه ناراً تصهر القوى ، وتستثير العزائم ، ويرفع لهم مناراً من مثلهم الأعلى في الحرية ، ويدفعهم دفعاً إلى جهاد عدوهم ، والصبر على ما يلقون في جهادهم من تضحية وردى

وإنها جريمة من الشاعر أن يقصر في واجبه هذا ، فيتخلف عن قومه المجاهدين . وأجرم الجرم أن يشيد الشاعر بخصوم وطنه ويمدحهم مراراً ، لأن هذه الإشادة تقتل الهمم ، وتدعو إلى اليأس والاستسلام والرضا بما يسامه الشعب من خسف ومهانة .

(١) ديوان حافظ ١١٠/١

(٢) ديوان نسيم ١٨٤، ٨٧، ٨٨، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٤١، ١٢٨

(٣) ديوان نسيم ١٩/٢ (٤) شعراء الوطنية ٢١٣

هؤلاء الشعراء ملومون إذاً ، وأقلمهم ملامة شوقي ، فقد كان في أضعف حالاته
أقوى عزيمة ، وأعز نفساً من حافظ ونسيم .

فلم يشد بالإنجليز كما أشاد حافظ ، ولم يصور مصر ضعيفة ذليلة تستظل بجناح
إنجلترا كما صورها حافظ .

ولم يسف إسفاف نسيم ، ولم يخنع خنوعه ، فإن الإنسان لا يكاد يصدق أن مصر يا
شاعرا يتردى في حماة أعداء وطنه هذا التردى ، لينال من عرض الدنيا الزائل ، وهو
يرى ما يسومون قومه من صنوف التنكيل والعدوان .

الفصل الرابع

الجهاد والأبطال

طلبوا الجهاد على الجهاد متوبة لم يطلبوا أجزر الجهاد زهدا
إشادة بالمجاهدين

أشاد شوقي بالمصريين الذين يجاهدون لتقويض الاحتلال البريطاني، قبل أن ينفى، وبعد أن عاد من المنفى.

(١) فقد مدح الخديو عباسا بأنه شديد البغض للإنجليز، لأنهم يريدون منه ومن مصر خضوعا وطاعة، وهو المصريون أباة أعزة، لا يخضون ولا يطيعون. وعقب على هذا بأن الاحتلال إذا ما بلغ غايته من السيطرة على وادى النيل فقد حجب عن المصريين الحياة والحرارة والخير والنور، وبدل نعماءهم بأساء، وآمالهم آلاما. ثم هدد المحتلين بأن مصر أندرهم تارة بزئيرها، وتارة بسكونها الحائق ونظراتها الشزر، وليس سكونها عجزا أو استسلاما أو رضا، وإنما هو تأهب للوثبة والثورة:

فما ذقت في هذا المقام مودة	لقوم يذوق الناس ودهم قسرا
يريدون نسر النيل مُرسِل رأسه	ويأبى إباء النسر أن يخذل النسرا
إذا حمت النيل المؤمل راحة	فقد حمت الشمس الكريمة والبدر
وحلت نظاما من نعيم وكدرت	مشارع الآمال تجمعها طرا
بعثنا وعيدا من زئير وطالما	بعثنا السكون الجم والنظر الشزا
وجنبنا حمل الضغينة أننا	من الوثبة الصغرى إلى الوثبة الكبرى ^(١)

(٢) ونوه بمصطفى كامل وجهاده في تحرير مصر ، كقوله في رثائه :

أتذكر قبل هذا الجيل جيلا سهرنا عن معلمهم وناما ؟
 مهار الحق بغضنا إليهم شكيم القيسرية واللجأما
 لواؤك كان يسقيهم بحام وكان الشعر بين يديّ جاما
 من الوطنية استبقوا رحيقا فضضنا عن معتقها الختام

.....

جمعهم على نبرات صوت كنفخ الصور حرّكت الرّجاما
 لك الخطب التي غصّ الأعادي بسورتها وساعت للذّ — دامي
 بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثا من خرافة أو مناما
 بنيت قضية الأوطان منها وصيرت الجلاء لها دعاما^(١)

(٣) ونوه بسعد زغلول وكفاحه ، كقوله في رثائه :

تسكب الدمع على سعد دما أمة من صخرة الحق بناها
 لقن الحق عليه كهلها واستقى الإيمان بالحق فتاها
 بذلت مالا وأمنا ودما وعلى قائدها ألفت رجاه
 حملة — ذمة أوفى بها وابتلته بحقوق فقضاها^(٢)

وقد سبق في صلته به أنه كان معجبا ببلائه ، مشيدا به .

(٤) وكذلك رثى محمد فريد وعبد الخالق ثروت وعبد العزيز جاويش وعاطف بركات وعبد الحميد أبي هيف وغيرهم من الذين كان لهم ضلع في مجاهدة الاحتلال .

(١) الشوقيات ٢٧٧/١ المهار : المراد الشباب . شكيم القيسرية ولجأما : المراد شوكة الاحتلال وسلطانه . جام : كوب . استبقوا رحيقا : تسابقوا إليه . المدام : الحجر . الرجاء : القبور . سورتها : شدتها وحديثها . خرافة : رجل زعموا أن الجن خطفته ثم أعادته إلى قومه وأخبرهم بما حدث له فكذبوه ، وصار حديثه هذا مضرب المثل في البطلان (٢) الشوقيات ١٨٥/٣

إشادة بثورة مصر سنة ١٩١٩

ولقد أشاد بثورة مصر سنة ١٩١٩ ، على أنه لم يشهد لها ، لأنه كان بالمنفى .
ولو أنه رأى الثورة ، وشهد بطولة قومه ، واستهانتهم بالمال والروح في الذود
عن مصر لسجل الثورة بملاحم طوال خوالده ، وهو نفسه يقول :

يومُ البطولة لو شهدتُ نهاره انظمت للأجيال ما لم ينظم
غَمِنَتْ حقيقته وفات جمالها باع الخيال العبقري الملمهم
لولا عوادى النفي أو عقباته والنفي حالٌ من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورةً مثلتُ فيها صورة المستسلم
وحكى فيها النيلَ كاظمَ غيظه وحكيته متغيظاً لم يكظم^(١)

لكنه كان يعلم أبناء الثورة وهو بعيد ، فلما عاد ازداد عليها بجلالها وقوتها ، فزهي
بها ، وسجلها مرات ، لأنها كانت ثورة عاتية زلزلت أركان المستعمر ، وفوتت عليه
ما كان يبنت لمصر من شرور .

يذكر شوقي أن مصر غضبت فهاجت كما تهيج اللبابة قد اعتدى على أشبالها ،
فجمعت أبناءها الأبطال من كل مكان ليثوروا ثورة عاتية في وجه الاستعمار ، ورمت
بهم في معامع الحرب ولهب الثورة ، فحاضوها مستهينين بأهوالها .
ويصور قوتها بأنها خيلت لمن رآها أن الرياح قد جنت جنونا ، وأن الأرض
قد زلزلت زلزالا ، وبأنها كانت ثورة عجيبة ، لا نظير لها إلا أن تثور أسود الغابة جميعا
لتسترد أسدها الزعيم . لهذا أعجب العالم بها ، وكانت حديث الصحف والبرق في كل شعب .
وأراد شوقي أن يزيد الشعب ثقة بقوته النفسية ، وروحه المعنوية فقال إن سلاح
الحق أمضى من كل سلاح :

أتذكر إذ غضبت كاللبابة ولمت من الغييل أشبالها ؟
وألقت بهم في غمار الخطوب فحاضوا الخطوب وأهوالها
وثاروا فجئ جنون الرياح وزلزلت الأرض زلزالها

وبات تلبسهم شيوخهم حديث الشعوب وأشغالها
ومن ذا رأى غابة كالخت فردت من الأسر ربهاها؟
وأهيب ما كان بأس الشعوب إذا سلح الحق أعزهاها^(١)

وقد صور خبرته بالثورة في مناجاته لصديقه الطيب عثمان باشا غالب ، فإنه توفي بباريس سنة ١٩٢٠ ، فرثاه شوقي ، وتمنى أن يقوم من مرقدده ليشهد يقظة قومه وجدّهم في تحطيم أغلال الاحتلال ، ونوه بالمجاهدين والمجاهدات ، من شيب وشبان ، وبأن المصريين صاروا يقدرّون الرجال بما بذلوا في النضال ، وسمى هذه الفورة معجزة من معجزات الفكر والوعى ، وتنبأ بأنها ردت الحياة إلى الشعب أو ردت الشعب إلى الحياة :

عثمان قم تر آية الله أحياء (الموميات)^(٢)
خرجت بنين من الثرى وتحركت منه بنات
واسمع بمصر الهاتف بين بمجدها والهاتفات
والطالبين لحقها بين السكينة والشبات
والجاسعليها قبلة عند الترمم والصلاة^(٣)
لاقوا أبوتهم على غر المناقب والصفات
حتى الش — باب تراهم غلبوا الشيوخ على الأناة
وزنوا الرجال فكان ما أعطوا على قدر الزنات
قل للمغالط في الحقا نق حاضر منها وآت
الفكر جاء رسوله وأتى بإحدى المعجزات
عيسى الشعور إذا مشى رد الشعوب إلى الحياة^(٤)

(١) الشوقيات ٢/٢٣٣ القيل : الغابة . غار الخطوب : معامع الأهوال . شيوخهم : سفدزغلول .
الربال : الأسد . أعزل : جمع أعزل وهو الذى لا سلاح معه
(٢) الموميات : الأجساد المحنطة (٣) الترمم : ضرب من العيادة عند المسيحيين كالصلاة
عند المسلمين (٤) الشوقيات ٤/٣٥ هـ

ونوه بالثورة في رثاء سعد زغلول ، ومجده بأنه كان مشعلها وقائدها وأباها ،
وليس له نسل غيرها . ووصف تهافت المصريين على نارها ، وصورهم أشبالاً تحتشد
وتموج ، وافتخر بأنها ثورة قامت على حق مصر الطبيعي في أن تحيا حياة حرة كريمة .
وذكر من مفاخر سعد أنه غدى الثورة بقلبه ولسانه ، وأنه كان أول من اكتوى
بنارها بنفيه من مصر ، ثم اهتز نشوة وإعجاباً بهذه الثورة ، فجعل مصر وسعداً غلابين
للإنجليز على ضعف مصر المادى وبطش إنجلترا ، وشبه هذه الحال بموسى قد لقت
عصاه إفك فرعون وسحرته . ثم قال إن مصر هبت تصرخ في وجه المحتلين مستنكرة
الرق ، وكان النصر لها على عدو مستكبر خرج من الحرب مزهوا بانتصاره ،
وأسلحته نشوى :

ولد الثورة سعد حرة	بحياتي ماجد حرة نماها
ماتني غيرها نسلا ومن	يلد الزهراء يزهد في سواها
بارك الله لها في فرعها	وقضى الخير لمصر في جناها
قد كتبناها فكانت صوره	صدرها حق وحق منهاها
رقد الشائر إلا ثورة	في سبيل الحق لم تخمد جذها
جال فيها قلباً مستنهضاً	ولساناً كلما أعت حداءها
ورمى بالنفس في بركانها	فتلقى أول الناس لظاها
أعلمتم بعد موسى من يد	قذفت في وجه فرعون عصاها ؟
وطئت نادية صارخة	شاه وجه الرق ياقوم وشاها
ظفرت بالكبر من مستكبر	ظافر الأيام منصور لواها
القنا الصم نشاوى حوله	وسيوف الهند لم تصح ظباها ^(١)
وقد أشاد بالثورة في قصائد أخرى .	

(١) الشوقيات ١٨٩/٣ حياتي : حياة والمراد بالثنية هنا الأفراد . اللبا : جمع لباء وهي اللبوة .
صدرها : أولها . جذها : جمع جذوة وهي قطعة النار . حداءها : دفعها إلى الأمام . لظاها : نارها .
شاه : قبح . القنا الصم : الرماح اللدنة الصلبة . ظباها : جمع ظبة وهي حد السيف .

وكذلك مجد ذكراها ، ففي الاحتفال بيوم الجهاد الوطني في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٨
حيث شهداء الثورة ، وعرض ضروباً من عظمتها :

دعت البلاد إلى الغمار فغارت وطنيةً بمثقف ومعلم
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت بسواه جل جلاله لا تحتمى

.....

ثارت من الغاب الشبول على بها لبنُ اللبابة ، وهاج عرق الضيغم
يومَ النضال كستك لونَ جمالها حرية صبغت أديمك بالدم
أصبحت من غرر الزمان وأصبحت ضحكت أسرة وجهك المتجمم^(١)

ونوه بها في قصيدتين ذكرهما حسين شوقي في كتابه ، ولم أجدهما في الشوقيات^(٢) .
وكثيراً ما مجد الشباب الذين أبلوا في الثورة ، وسجن بعضهم ثم أطلق ، وكثيراً
ما رطب قبور الشهداء بشاء حلو مستطاب .

من ذلك قوله :

ولقد صدقتم هذه الأرض الهوى والحر يصدق في هوى أوطانه
أمل بذلتكم كل غالٍ دونه وفقدتم ما عز في وجدانه
الليث يدفعكم بشدة بأسه عنه ويطمعكم بفرط لسانه
ويريد هذا الطير حراً مطلقاً لكن بأعينه وفي بستانه^(٣)

وقوله :

لما بنى الله القضية منهم قامت على الحق المبين عموداً
جادوا بأيام الشباب وأوشكوا يتجاوزون إلى الحياة الجودا
طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبة لم يطلبوا أجر الجهاد زهيداً^(٤)

(١) الشوقيات ٢٣٦/٢ * (٢) أبي شوقي ٩٣-٩٦

(٣) الشوقيات ٣٢٦/١ (٤) الشوقيات ١٢٧/١

شعره في الثورة العراقية

ليس في ديوان شوقي عن الثورة العراقية إلا بيتان اثنان جاء كل منهما عَرَضاً .
فلما رجعت إلى جريدة اللواء وجدت فيها قصائد ثلاثا قالها شوقي في عرابي .
وهنا لابد لنا من وقفة متمهلة ، ونظرة فاحصة منصفة . فإن من حق عرابي
أن نحاسب شوقي على ما قال ، لنبتين : أليستحق عرابي حملات شوقي عليه ؟ أم أن
شوقي ظلمه في حياته وبعد مماته ؟

ومن حق شوقي أن نصور الجوّ الذي كان يعيش فيه ويتأثر به ، وأن نفصل
القول بعض التفصيل فيما نسب إلى عرابي من أخطاء . لذلك لابد لنا من هذه الحقائق
عن الثورة العراقية :

(١) كانت الثورة العراقية ثورة وطنية شعبية ، تزعمها رجال الجيش في أول
الأمس ، ثم أزرها الشعب كله .

وحسبنا هنا شهادة المستر بلنت في قوله : إن الأمة بأسرها ، وبعبارة أدق : إن
طبقاتها المستنيرة الدستورية النزعة قد تبذنت فجأة أنها ليست من الضعف بحيث
ظنت نفسها ، وأن لها في الجيش قوة طبيعية متجمعة لا يستهان بها ، فإذا ما استطاعت
أن تضمه إلى جانبها في قضية الإصلاح الدستوري ، فإنه لا بد قاضٍ على ما حاق بالأمة
من شدة وهو أن طال عهدهما .

وسرعان ما أصبح عرابي وأصحابه مجرماتهم وحركتهم الناجحة معقد آمال الأمة ،
وموضع إعجابها ، واستحال في نظر الوطنيين ما كان يُقصد به أن يكون مجرد احتجاج
عسكري إلى عمل وطني عام ، وأصبح عرابي رجل مصر المشار إليه بالبنان ، ولقب
بالرجل الوحيد . وما هو إلا قليل من الزمن حتى توثقت العلاقات بينه وبين أكثر
الزعماء والسياسيين في ذلك الزمن ،^(١)

وقال مرة ثانية : « كان في وسع كل إنسان إذ ذاك أن يعلم أن الجيش عتدا

(١) المسألة المصرية . روثين / ١٢٢

تسنىح له الفرصة للعمل في ميدان العمل الحر مرة أخرى فلن يعمل لصالح أفراداه ، بل يعمل لمصالح الأمة السياسية العامة ،^(١)

(٢) كانت الثورة نتيجة لفساد داخلي ضج منه المستنيريون من رجال الجيش وغيرهم . وقد بينت في (ضحا الوطنية) أن أحرار المصريين في آخر عهد إسماعيل وأول عهد توفيق جاهدوا بطلب الدستور والحكم الثياني ، وإصلاح أداة الحكم . وكانت الثورة نتيجة لإصرار إنجلترا على التدخل في شؤون مصر ، تمهيداً لاحتلالها المرموق .

وقد تكتشفت نواياها بعد المذكرة التي أرسلتها هي وفرنسا إلى الخديو توفيق ، تعرضان فيها عليه حمايتهما له ، فقبل المذكرة ، وشكر للحكومتين ودهما وعطفهما^(٢) . ثم أعقبنا ذلك بطلبهما من الخديو أن يبعد عرابي وزملاءه من كبار الضباط ، وأرسلنا أسطوليهما إلى الإسكندرية^(٣) .

وكان توفيق يشعل نار الثورة من حيث يريد إخمادها ، وذلك بدسائسه ، ونفاقه ، ومحاولته أن يفرق شمل الداعين إلى الإصلاح ، وخضوعه لدسائس الإنجليز ، وتلميذته لرغباتهم^(٤) .

وقد أيقن زعماء الإصلاح أن الخديو توفيق ضالع مع الإنجليز ، وأنه يرحب بالاستعمار الإنجليزي ، على حين أن الشعب يرفضه ويأباه .

ومظاهر احتماؤه بالإنجليز وترحيبه بحمايتهم له كثيرة ، فهو في لقائه لعرابي وللجيش بعابدين في سبتمبر سنة ١٨٨١ م . اصطحب معه قنصل إنجلترا والمراقب المالي الإنجليزي ، واستشارهما ، وأشار عليه أحدهما بأن يقتل عرابي بيده ، وتطوع أحدهما فناقش عرابي في حركته والغرض منها .

ولما انحاز قنصل فرنسا العام في مصر البارون ديرنج إلى عرابي ، ليساعده على صد عدوان إنجلترا على مصر ، كان انحيازه السبب في أن طلب الخديو من الحكومة الفرنسية استدعاه^(٥) .

(١) المرجع السابق ١٢٢ (٢) المسألة المصرية . روستين

(٣) أحمد عرابي ٢٠٤ محمود الخفيف (٤) أحمد عرابي ٦٩ — ٧٧ ، ٩٤ — ٩٩ محمود الخفيف

(٥) تاريخ المسألة المصرية ١٢٣ روستين

ثم من العجب المحزن أن يتجهج الخديو بضرب الأسطول الإنجليزي مدينة الإسكندرية في يولييه سنة ١٨٨٢ .

وهو يطلب من السير أولكند كلفن في ١٩ يولييه سنة ١٨٨٢ أن يستحث الحكومة الإنجليزية على أن تخطو خطوة جديدة بغير إبطاء ، لأن هذه الخطوة ضرورية جداً لمقاومة قوة عرابي التي عظمت^(١) . وفي ٢٢ يولييه سنة ٨٢ يعزل عرابي من نظارة الجهادية والبحرية استجابة لمشورة الإنجليز .

ولما انتصر الجيش المصري على الجيش الإنجليزي بالقرب من أبي قير في ٦٥ ٦ أغسطس سنة ٨٢ انسحب الإنجليز إلى الإسكندرية ، وظن توفيق أنهم قد انتصروا ، فهنأهم ، وأصدر بلاغا في ٧ أغسطس يحذر فيه المصريين من متابعة عرابي ، ويرميه بالعصيان ، ويتوعد من يشايعه . وقد دسّت إنجلترا لعرابي عند السلطان العثماني فأصدر قراراً بأن عرابي عاصٍ خارج^(٢) .

فلم يكن بد من وقف دسائس الخديو ، وتعويقه عن تمهيد السبل لاحتلال مصر ، بل كان لا بد من خلعه ، لأنه خائن للوطن خيانة عظيمة .

لكن الثوار لم يخلعوه ، وإنما قرر المؤتمر الوطني الكبير الذي اجتمع في ٢٢ يولييه سنة ٨٢ أنه خرج على الدين ، وأن أوامره لا تطاع ، وقرر عرض قراره هذا على السلطان^(٣) . وكان في هذا المؤتمر ٥٠٠ من صفوة الأمة ، بينهم ثلاثة من الأمراء (٣) كان مبعث الثورة نبيلاً ، وكان الغرض منها نبيلاً .

فهي تطلب إصلاح شئون مصر داخلياً ، وقد أسلفت ذلك في (ضحا الوطنية) وهي تطمح إلى استقلال داخلي ، فقد صرح عرابي لصديقه مستر بلنت قبل الثورة بأنه يبتغي لوطنه استقلالاً داخلياً ، ولا يفكر في الانفصال عن الخلافة العثمانية^(٤) . وهو صادق في هذا ، لأن المصريين جميعاً ، كما يقول بلنت ، لم يكونوا ليفكروا في الخروج على الجادة الإسلامية^(٥) . وسيتبين لنا مصداق ذلك من دراسة

(١) أحمد عرابي ٣٤٨ محمود الحفيف

(٢) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ٨٢ وأحمد عرابي ٣٨١ — ٣٨٤

(٣) الثورة العراقية ٤٠٣، ٣٩٥ الرافعي ومذكرات عرابي ١٩٤/١ — ١٩٦

(٤) أحمد عرابي ١٠٤ الحفيف (٥) أحمد عرابي ١٣١ الحفيف

الحالة السياسية بعد الثورة برقع قرن^(١).

فالثورة العرابية قامت لتدراً عن الوطن عدوان المتلففين على استعمارهم منذ زمن بعيد .

فهي إذاً عمل مفروض تحتمه الشهامة والغيرة على الوطن ، ولا ينكص عنها في مثل تلك الأحوال إلا خائن أو جبان خوار .

ولقد كان عرابي غير خائن وغير جبان .

ولم يكن هو الذي سهّل على الإنجليز تدبير المؤامرات ، ورسم الخطط لاحتلال الوادي ، ولم يكن عمل من أعماله سبباً في ضربهم الإسكندرية بأسطولهم في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ .

فهم العادون ، وهم الظامعون في احتلال مصر . فهل كان خليقاً به — وهو الزعيم الشعبي — أن يتخلى عن زعامة مصر ، وأن يستسلم للإنجليز دون أن يقاوم ؟ يقول السير بلنت في سنة ١٩٠٧ :

رأى عرابي من واجبه أن يدفع عن وطنه كل عدو مغير ، وبهذا أدى لوطنه في أسابيع الثورة خدمة لا تقدّر ، خدمة أرى من الحق أن يذكرها بها ، فلو أنه كان ألين عريكة مما كان إذ رفض التهديد أو الرشوة^(٢) عند ما طلب إليه مغادرة مصر ، ولم تنشب الحرب ، لو أنه فعل ذلك لبقى الفلاحون كما كانوا في سنة ١٨٨٠ عبيدا لسادتهم الأتراك وعبيدا للأوروبيين .

وماذا يرى أي وطني ما كان عسياً أن ينتج من إذعان عرابي ؟ أهو حرية من أي نوع ؟ أهو استمرار لحكم الشعب نفسه ؟ أهو حكم أجنبي أخف وطأة مما هو عليه الآن^(٣) ؟ لا شيء من ذلك يقينا .

إن النتائج المتوقعة تتضح في النظام الذي أخذت به القاهرة عقب الثورة . إنه

(١) راجع باب (الإسلامية والوطنية) من هذا الكتاب

(٢) قبل إن بيت روتشلد تعهد أن يدفع له معاً مرتباً سنوياً قدره ٤٠٠٠ ج والحكومة الفرنسية عرضت عليه مرتباً سنوياً قدره ٦٠٠٠ ج إذا هو غادر مصر حسب المذكرة المشتركة من إنجلترا وفرنسا تطلبان فيها أشياء منها إخراج عرابي من مصر (تاريخ المسألة المصرية ٢٠٥)

(٣) صدر الكتاب سنة ١٩٠٧

ما كان ليخرج عن نوع من استبداد الشرطة والغدر والعقوبات الخفية ، ولا يخفف من ذلك أى اهتمام بالقومية المصرية ، وكان من الممكن من الوجهة الشكلية أن يسمح لمجلس من الأعيان بالانعقاد بضع جلسات من قبيل ما يسمى هيئة استشارية ، لكنه لن يكون ذا قوة ، ولن يكون له قط روح وطنية ، وكان يعاد الحكم الشركى أشد مما كان . وكانت تحرص الرقابة المالية - وقد قويت شوكتها بسلطة سياسية جديدة ، واهتمت بأمور مالية ومصالح أوربية بحتة - على ألا تحرر الفلاحين من سادتهم الأتراك ، وقد غدا هؤلاء الأتراك عبيدا لأوروبا . وكانت تذهب أسطورة الحركة القومية للفلاحين هباء في صورة مشينة ، لأن الشعب الذى لم يجرؤ قط على الدفاع عن وجوده جدير بالاحتقار . وكانت المطبوعات القومية تهوى إلى مثل ما هوت إليه في تونس ، وكان لا يجد المرء أثرا للحرية المدنية ولا للحرية الشخصية ، ولا أى تقدير للحقوق القومية . وكانت مصر في الواقع ترى كما كانت في سنة ١٨٨٣ أرضا لا يستطيع المرء فيها أن يزيد على الهمس ، ولا يأمن جاره أن يشى به .
لقد خلص عرابى بنى وطنه على أقل تقدير من هذا كله .

وإذا كانوا لم يروا فيه جنديا كما رأوا فيه وطنيا فإنه أنقذهم من وصمة شنيعة ، هى أنهم لم يحاربوا في المرة الوحيدة التى أتاحت لهم حين واتتهم الفرصة ليدافعوا عن جريتهم ^(١) .

(٤) وقد أبلى المصريون في مناضلة الإنجليز بلاء مجيدا .
ومن بواعث الأسى أن يشوه هذا البلاء المجيد مؤرخون من الإنجليز ، ويحاكمتهم بعض المصريين .

لكن المناضلين انكسروا شرفاء . وكان السبب في انكسارهم خارجا عن تدبيرهم وإخلاصهم .

فالخديو ضالع مع أعدائهم وأعداء مصر . وله وللإنجليز صنائع من الخوة يفتون في القوي ، ويدلسون الأسخيار على المحاربين ، ويمهدون للجيش الإنجليزى أن يباغت

(١) تاريخ المسألة المصرية ٢٠٥ روستين وأحمد عرابى ٣٣٦ . محمود الحفيف . عن
S. H. Blunt. p. 283

الجيش المصرى فى جنح الليل بالصحرء الشرقىة^(١).
وقد اعتمدت برطانيا على المال والرشا ، وبخاصة للبدو فى المناطق الشرقىة
من مصر ، ولبعض الكبراء من الوطنيين والضباط^(٢).
فلم تغن الحماسة ، ولا إحكام الخطط للدفاع فى الميدان الشرقى بعد أن أفرخت
الخيانة .

ثم كانت الخيانة القاضية فى موقعة التل الكبير ، إذ مهدت للجيش الإنجليزى
أن يباغت الجيش المصرى فى مأمنه . بل إن الضباط الذين كانت الحراسة منوطة بهم
هم الذين سهلوا على الإنجليز أن يحترقوا السبل إلى الجيش المصرى .
أما عرابى فقد فوجئ وهو يصلى الفجر بهذا الهجوم ، فأسرع فى قليل من رجاله
إلى البطل المناضل محمد عبيد ، فهاله أن القارين قد سدت جموعهم الطريق ، وقد ألقوا
أسلحتهم ، ولم يستجيبوا لتحميمسه ، فاتجه إلى بليس ليثبت بها خطأ للدفاع ، فلم يستطع ،
فأسرع إلى القاهرة ليدافع عنها ، وأعد العدة لذلك ، لكن الخيانة لاحقته ، فأعجزته ،
فسلم^(٣).

وقد عيب عرابى بأنه لم يحصن شرقى مصر ، ولم يردم قناة السويس .
والحق أنه كان قد فكر فى ردمها ، ثم أحجم لسبيين :
١ — كان لا يريد أن يحقق ما يصفه به الإنجليز والخديو والسلطان أنه عاص
مخرب ، لأن إثبات هذه التهمة يفقده عطف العالم .
٢ — كان دى لسبس جاداً فى المحافظة على القناة ، وكان يخشى من ردمها ، فحمل
حكومته على التدخل لحمايتها ، وتعهد لعرابى بأن إنجلترا إذا اعتدت على حيدة القناة
وأنزلت جندها بالإسماعيلية قاومتها قوة حربية فرنسية تنضم إلى الجيش المصرى .
والدليل على صدق دى لسبس أن الميسو دى فرنسيه تقدم إلى المجلس التشريعى الفرنسى
بفتح اعتماد لإعداد حملة حربية للدفاع عن القناة ، فلم يجبه المجلس ، فاستقال فى أول
أغسطس سنة ١٨٨٢^(٤).

(١) مذكرات عرابى وتاريخ الأستاذ الإمام ٢٥٧

(٢) أحمد عرابى ٤٠٨ — ٤٢٤ ، ٤٤١ — ٤٤٦ الخفيف

(٣) أحمد عرابى ٤٤٧ — ٤٥٣ الخفيف (٤) أحمد عرابى ٤٠٢ الخفيف

وعيب بأنه سلم نفسه للإنجليز ليحاكموه ، وكان من الخير له أن يقضى نجه في ميدان الجهاد على يأسه من النصر .

وهذا حق ، لأن موته في الدفاع عن مصر كان كفيلاً بأن تظل شعلة الجهاد متقدة مهما حاول الإنجليز إطفاءها .

لكننا لا ننسى أنه ترك ميدان الجهاد ليدافع عن القاهرة ، فلعل هذا الأمل هو الذى حمّله على ألا يقدم نفسه طعمة للوثة مع البطل محمد عبيد .
(٥) وقد ظل عرابي في محاكمته وفي منفاه وطنياً عالى الوطنية

فقد كتب إلى جريدة التيمس وهو يتأهب للسفر إلى المنفى يقول إنه يغادر مصر مستريح الضمير ، مؤملاً في المستقبل ، لأنه يعتقد أن إنجلترا لن تستطيع تعويق الإصلاح الذى حارب في سبيله ، ويؤمل أن يكون للأمة مجلس نواب ذو رأى مسموع ، وأن الرقابة الإنجليزية الفرنسية ستلغى ، وأن مصر ستتخلص من قبضة الأجانب الذين يحتكرون المناصب الكبار^(١) .

وكتب بمثل هذا لصحيفة الحق (Truth) فتمنى لمصر التقدم والرخاء والسعادة ، وذكر وسائل الإصلاح التى يراها ، وهى أن يكون للشعب مجلس نواب ينتخب انتخاباً حراً ، وأن يتمتع المصريون بالمساواة في المعاملة وفي الضرائب ، وأن تلغى السخرة والربا وختم كتابه بقوله إنه لا يبالي بالنفي أو ما يخبئه له القدر إذا حققت إنجلترا للشعب هذا الإصلاح^(٢) .

(٦) لكن عرابي له أنصار وله خصوم .

١ — فقد كتب عنه وأنصفه كثير من الكتاب والمؤرخين . منهم في مصر الأستاذ محمود الخفيف^(٣) والأستاذ عبد الرحمن الرافعي^(٤) . ومنهم في غير مصر السير ماكينزى ولاس الذى كان يرافق لورد دوثرين في مصر أيام الثورة العراقية . ولورد شارلز برسفورد الذى اشترك في ضرب الإسكندرية . ومنهم برودلى ، وبلنت

(١) أحمد عرابي ٥٢٠ الخفيف

(٢) أحمد عرابي ٥٢٣ الخفيف

(٣) أحمد عرابي . الزعيم المفترى عليه سنة ١٩٤٧ (٤) الثورة العراقية

وروثستين . وقد أسلفت طرفاً من آرائهم في عرابي ، وكان يحبه ويعضده بعض الأمراء والأميرات من أسرة الخديو توفيق ، ويرون فيه منقذ مصر وحامياً^(١) .

ب — أما خصومه من إنجليز ومصريين فيدعون أن الثورة كانت نزوة لا مبرر لها ، ويزعمون أن عرابي كان أخرق أحمق جاهلاً مغروراً ، ويتغالون في ظلمهم للرجل فينسبون إلى ثورته أنها هي التي جرت على مصر نكبة الاحتلال .

واعتقد أن في الفقرة السابقة ما يغني عن تكرار الرد على هؤلاء .

ح — ويتوسط بعض المنصفين ، فيذكرون للرجل ماله وما عليه .

فمن رأى الأستاذ عبد الرحمن الراجعي أن الثوار اصطدموا بالخديو توفيق ، فانقلب عليهم ، وانحاز إلى خصوم الوطن . « وكانت الحكمة تقتضي بعد إجابة مطالبهم في لقاء عابدين ونزول الخديو عن إرادتهم أن يعالجوا الشؤون العامة بالأناة والترث ، ويعملوا على رأب الصدع وتوحيد الكلمة وإزالة أسباب الفرقة والخلاف بينهم وبين الخديو ، ولكنهم لم يأبهوا ، وداخلهم الشيء الكثير من الغرور ، وعدم النظر في العواقب ، فأخذ الخلاف يتسع ويتفاقم ... إذ أن الإنجليز تذرعوا إلى الاحتلال بدعوى تأييد سلطة الخديو وحماية العرش ... وكانت حوادث العصر تكشف عن نيات إنجلترا في تطلعها إلى احتلال وادي النيل ... لكنهم لم يتبصروا في العواقب ، فهددوا بقصر نظهر السبيل إلى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال ... وقد حرمت الثورة الكفاءة الحربية ... وتجلى عدم الكفاءة الحربية في إحجام عرابي وصحبه عن سد قناة السويس ... وعرابي ذاته لم يشترك في واقعة واحدة من وقائع الحرب ، وقد لاذ بالفرار في موقعة التل الكبير دون جهاد أو نضال ، ثم سلم نفسه للإنجليز بالقاهرة .

وموقف الخديو المعيب ، وضعفه وتردده ، وانحيازه إلى التدخل الإنجليزي الفرنسي كان من العوامل في إخفاق الثورة . ثم إن بعض الضباط تزعزت ميولهم نحو الثورة ، وجاءت على إثر ذلك خيانة طائفة منهم ، وطائفة أخرى من الأعيان .

والبدو ، مساهماً للإنجليز التغلب على الجيش المصرى فى معركة القصاصين وموقعة التل الكبير .

أضف إلى ذلك جمود أوروبا حيال الاعتداء البريطانى ، وسوء نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة ، وسعيها الأخرق فى استرداد الاستقلال الذى نالته مصر^(١)

الجو الذى هجا فيه شوقى عربى

عاد عربى من منفاه إلى مصر سنة ١٩٠١ م ، فكثرت القول فيه وفى ثورته من راضين وساخطين ، ومادحين وقادحين .

(١) ولقد كان أشد الناس قدحاً له مصطفى كامل والحزب الوطنى وجريدة اللواء . فقد كتب مصطفى كامل مقالا بتوقيعه^(٢) ، عنوانه (عربى) جاء فيه : « إذا كانت

الأمم تفتخر برجل ، وتعير برجل ، فلا عجب إذا كان التاريخ يعير الأمة المصرية بهذا القادم المشؤم الذى جر على وطنه وبلاده المصائب الجسام ، وباع استقلالها بجملة وجبته وغباوته ، وقضى عليها أن تعيش ذليلة حقيرة ، وأن تسير إلى الوراء فى وقت تخطو فيه الأمم والدول خطوات التقدم والحياة إلى الأمام .

ولا غرابة إذا كان الناس أجمعون ينظرون إلينا الآن نظرة الساخرين ، ويحكمون على أخلاقنا وأمالياتنا بأخلاق ذلك الذى لا يستحي من أن يلقب نفسه بخادم الوطن الأمين ، وهو علة مصائبه ، ومصدر نوائمه ، وسبب بلائه ، وأصل شقائه .

ما عار الاحتلال ، وعار الجهالة والتأخر ، وعار الفقر ، بشئ يذكر إذا قورن بالعار الذى يحمله عربى ، ويقرؤه على وجهه أينما سار وحيثما حل .

وأى عار أكبر وأشهر من عار رجل تهور جباناً ، واندفع جاهلاً ، وساق أمته إلى مهوأة الموت الأدبى ، والاستعباد الثقيل ، ثم فر هارباً من يادين القتال ، وتوسل إلى عدوه المحارب أن يعفو عنه ، وينعم ، وأبت عليه نفسه التى لا أكيف شعورها أن يموت فى منفاه ، وإلا أن يرجع إلى وطن هو مرجع شقائه .

ماذا يكتب التاريخ ، وماذا يقول الشاعر أمام عودة عربى ؟

(١) الثورة العربية ٥٥١ — ٥٦٠ الرافعى ومذكراتى فى نصف قرن ٢٢٢/٣ أحمد شفيق .

(٢) اللواء العدد ٥٩٩ (٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠١)

بل أى مثل فى التاريخ يحاكى هذا المثل ؟

يقتل القاتل فيوارى وجهه خجلاً ، ويعدم عرابى الألوف من النفوس الغالية ، ويبيع استقلال وطن عزيز شريف ، ويدخل الإنجليز مصر ، ولا ينجل من العودة إلى هذه البلاد ، ولا يرى من الدناءة والوقاحة أن يقابل المصريين ؟

لم يكفه ما جناه على وطنه حتى سمعناه يفتخر بالاحتلال وآثاره ، ويراه النعمة الكبرى على هذه الديار الأسيفة ، ويفخر قومه بنتيجة ثورته ، وثمره حركته . فهل روى التاريخ من قبل أن رجلاً هدم أركان استقلال أمته جهلاً منه ، أو خيانة ، ثم فآخرها بالاستعباد والهوان وضياع السلطة والحقوق ؟

ماذا يكون جوابك أيها القادم إذا سألتك أرض مصر : بأى حق تطؤنى وأنت الذى جعلتنى للإنكليز متاعاً به يلعبون ويتجرون ، وعليه يحكمون ويسيطرون ؟ ماذا تجيب النيل إذا سألك : كيف تشرب مائى ، وتتمتع بنعمى وخيراتى ، وقد كنت حراً مستقلاً سعيداً آمناً فأبيت إلا أن أكون ميداناً للسفن الإنكليزية والجنود البريطانية وأن يفترسنى كل مفترس ، ويطمع فى كل طامع ؟

ماذا تقول لهذه الأمة إذا سألك صغارها قبل كبارها ، بأى وجه تلاقينا وأنت الذى قضيت علينا ونحن أجنسة فى بطون أمهاتنا أن نشقى ونستعبد ؟ ألا يضطرب قلبك ، ويذى فؤادك إذا ناجتك تلك العظام البالية : عظام من ذهبوا ضحية وطنيتك السكاذبة وشهامتك الباطلة ، وقالت : أهكذا حميتك وهمتك ، تعيش منعماً ، وتعود إلى الوطن مكرماً ، وترضى بالحياة وطيبها بعد أن متنا تصديقاً لدعوتك ، واعتقاداً بصدق نهضتك ؟

لا إخال عرابى إلا شقياً حزيناً إذا سمع هذه الأصوات ، وكان إنساناً يحس ويشعر ، ولكن أنى له بشعور الإنسان الذى رأى أن المصريين لم يؤدوا واجب العبودية لملك إنكلترا فوعده بزيارته ليشكره على نعمته ، ويترجم له عن صادق ولائه ، ومزية تعلقه بسدته .

فتباً لوطنية هذا حاملها ، وتباً لنهضة هذا زعيمها ، بل يا شقاء أمة هذا فرد من أفرادها !

جهل عرابي أو تجاهل أن الإنكليز يحتقرون الخائنين وإن استخدموهم، ويزدرون الجبناء وإن انتفعوا بجنهم، فماذا يؤمل منهم وما عساه يقول لهم؟
أقول: هذه بلادى جعلتكم أسيادها، وجعلت قومي العبيد؟ وهذا وطني صار رقاً لكم بفضل ما بذلت من غشم وجهالة وجبن وموت شعور؟

نسى عرابي أو تناسى أن الإنكليز أبوا أن يتسلم سيفه قائد منهم أو ضابط صغير، إظهاراً لاحتقارهم لزعم حركة لم يفق جيشه وجنوده إلا بالجن الفاضح والهروب السريع.

فاحمل عارك أيها القادم المشؤوم فهو نيشانك، وسربه في شوارع المدائن، ومسالك القرى، ليقرأ فيه الناشئون عبرة العبر، ويروا مثال الجهالة والغباوة والخيانة، لعل عواطفهم تثور فيندفعوا في طريق الجد والعمل، ويقيموا بنيانا دمرته بيده، ويصلحوا ما أفسدته وأفسدته الأيام.

ثم كتب في اللواء مقالا آخر^(١) لا يقل قسوة وإقذاعا عن سابقه.
ونشرت جريدة اللواء^(٢) مقالا لمراسلها بالسويس محشوا بالسخرية من عرابي والهجم عليه، ومنتخما بكلمات السب.

وفي اليوم التالي نشرت مقالا آخر^(٣) كسابقه في الإسفاف والتجريح المقذع.
وبعد يوم واحد نشرت مقالا آخر^(٤).
وبعد يومين اثنين نشرت كلمة اتهمت فيها عرابي بالجنون وفقد الرشيد، وبالخيانة المتعمدة^(٥).

(٢) ومن عجب أن ينسى الناس هذا كله، ولكنهم لا ينسون أن شوقي هاجم عرابي.

كأنما الناس غير موكلين بالساسة وتتبع هفواتهم أو زلاتهم، على حين هم موكلون بالشعراء وإحصاء زلاتهم. وليس من شك في أن مصطفى كامل قد تجنى على عرابي،

(١) العدد ٦٠٤ بتاريخ ٣ أكتوبر سنة ١٩٠١

(٢) العدد ٦٠١ بتاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠١ (٣) العدد ٦٠٢ بتاريخ أول أكتوبر

سنة ١٩٠١ (٤) العدد ٦٠٤ بتاريخ ٣ أكتوبر سنة ١٩٠١

(٥) العدد ٦٠٦ بتاريخ ٦ أكتوبر سنة ١٩٠١

بل إنه ظلمه ظلماً صريحاً قبيحاً ، فإن الرجل لم يكن خائناً ولا شبه خائن ، ولم يكن هو السبب في دخول الإنجليز مصر واحتلالهم لها .

وقد أوضحت أن الإنجليز كانوا يعدون العدة لاحتلال مصر قبيل الثورة العراقية ، وبينت أن الثورة نشبت لتحقيق الإصلاح الداخلي ، ولتصد هجوم الإنجليز على مصر . ولو أن عرابي لم يهب هو وأعوانه للنضال لحقت عليهم لعنة الوطن ، ولا استحقوا سوء القالة من الأجيال المتعاقبة .

(٣) لكن الذي أراه أن الحزب الوطني كان منحازاً في ذلك الوقت إلى الخديو عباس ، فهو يحمل على عرابي ، لأنه أول ثائر على البيت العلوي ، ولم ننس بعد أن عرابي كان يفكر في خلع الخديو توفيق ، وأن المؤتمر الوطني أبطل العمل بأي قرار يصدر عن الخديو ، وأنه قد قرر أنه خارج على وطنه وعلى دينه .

وإذاً فمن الطبيعي أن يبغض الخديو عباس بن توفيق عرابي والعراقيين ، ومن الطبيعي أن يجاريه في بغضته لهم الحزب الوطني ، لأنه كان في ذلك الحين موالياً للخديو كل الموالاة .

قصائد شوقي في عرابي

أما شوقي فقد جرى في المضمار نفسه ، فحمل على عرابي حملات قاسية . وليس في هذا كبير عجب ، لأن شوقي ربيب نعمة القصر ، وقد كانت الثورة العراقية خروجاً على سلطان القصر ، وشوقي شاعر الخديو وصفه ، وقد كان عرابي يريد أن يخلع الخديو السابق ، وينحى الأسرة العلوية عن العرش . ثم إن شوقي كان وثيق الصلة بمصطفى كامل كما عرفنا ، فهو يدين بما يدين به صديقه ، وبما يدين به الحزب الموالي للخديو عباس .

لكن هذا كله لا يعفيه من اللوم ، ولا يبيح له موقفه المعيب من عرابي ، فقد كان يستطيع أن يلوذ بالصمت كما لاذ صبري وحافظ ، فإذا ما استبدت به شهوة القول ن عليه أن يمجّد عرابي في مناح من حياته تستحق التمجيد ، وكان يستطيع أن يتلمس له العذر فيما أخطأ فيه ، وأن ينحى بالملام على الخوثة من مساعدته .

والحق إن الذين حملوا على عرابي، وفي مقدمتهم مصطفى كامل وشوقي لم يكونوا موقفين في حملاتهم الظالمة، لأنها كانت عراكاً في غير معترك، ولم تكن ذات موضوع، فقد مضت الثورة منذ ربع قرن، واستتب الحكم في البيت العلوي، فلا حاجة إذاً إلى إرضاء الخديو والبيت العلوي بحملات على ثورة فات عهدها، وانكسر زعماءؤها، وعاد قائدها من منفاه سيفاً مفلولاً لا قوة فيه.

قال شوقي في عرابي ثلاث قصائد:

(١) القصيدة الأولى نشرها (بالمجلة المصرية) لصاحبها ومنشئها خليل مطران^(١). بعنوان (عادها عرابي)، لكنه وقعها بإمضاء (نديم). وتبينت أنها لشوقي، إذ وجدت بجريدة اللواء^(٢) تحت عنوان (عادها عرابي): «نشرت المجلة المصرية تحت هذا العنوان قصيدة غراء لشاعر من أكبر الشعراء، بل أكبرهم بلا نزاع. فأحببنا نقلها، إظهاراً لشعور أمير القريض والبيان في عودة عرابي إلى مصر». وفي هذه المقدمة ما يقطع بأن القصيدة لشوقي. في هذه القصيدة تشهير بعرابي، واستهزاء بطموحه إلى المعالي، وحنق على تطلعه إلى ملك مصر.

قال شوقي:

أهذا كل شأنك يا عرابي؟	صغارُ في الذهاب وفي الإياب
فمن يعفو عن الوطن المصاب؟	عفا عنك الأباعد والأداني
ولا التفتوا إلى القوم الغضاب	وما سألوا بنيك ولا بنينا
رفيع الذكر مقتبل الشباب	فعش في مصر موفوراً المعالي
وفي كلتيهما حمر الثياب؟	أفرق بين سيلان ومصر
أناس منك أولى بالمتاب	يتوب عليك من منفاك فيها
ولا ملوكوا القويم من العقاب	ولا والله ماملوكوا عتاباً
وإن ساووك في الشمم الكذاب	ولا ساووك في صدق الطوايا
كعهبك إذ تُحييك الطوايا	حكومة ذلّة وسرأة جهل

(١) العدد الثاني من السنة الثانية ١٥ يونيو سنة ١٩٠١

(٢) اللواء العدد ٥٣٢ بتاريخ ١١ يولية سنة ١٩٠١

وإذ ضربوا وسيفك لم يجرّد
وإذ ملئت لك الدنيا نفاقاً
وإذ تقى المعالى بالتمنى
وإذ تُعطى الأريكة فى النوادى
وإذ دخلوا ونعلك فى الركاب
وضاقت بالغباوة والتغابى
وإذ يغزى الأعادى بالسباب
وتعطى التاج فى هزل الخطاب
رجال الوقت من تلك الصحاب
وقد لاذوا إلى أقوى جناب
وبالإنجيل قد حلقوا لقوم
يريدون النساء بلا حجاب
فإذا يعلم الأحياء عنا
إذا ما قيل عاد لها عرابى ؟

(٢) القصيدة الثانية عنوانها (عرابى وما جرى) نشرها باللواء^(١) بدون توقيع ، لكنى عرفت من العدد نفسه أنها لشوقى ، لأن اللواء نشرت كلمة من أحد مراسلها بالسويس يصف وصول عرابى ، واستهانة الناس به ، وعلقت اللواء على المقال بقولها « هذا ما كتب به إلينا ذلك الكاتب الناثر ... ولئن أثارت عودة عرابى خواطر الكتاب لقد أثارت عواطف الشعراء ... ومن ذلك قصيدة فريدة فى بابها جادت بها قريحة أبلغ الشعراء ، وأشدّهم إصابة للمقاتل بسن يراعه ، رمى بها اليوم عن قوس (اللواء) فى ذلك السكبد الغليظ . وما من كلمة فيها إلا وهى سهم مسموم ، لو أصاب حجراً صلدأ لصدّعه . وفيها من جدّ القول ، وهزل المقول فيه ، ما كشف الحجاب عن سخافة هذا ، وفساد أوهامه وترهاته وجهله وجبنه ، وما فيه من خلال أخرجته عن طور الرجال ، وجعلته أضحوكة الأطفال . »

والقصيدة هجاء لعرابى ، وتهكم به ، واستهزاء بمن تابعوه ، وسخرية من نسبه إلى الحسين بن على ، ولوم له على أنه لم يمت فى ميدان القتال ، ورضى بأن يحاكم ، وقبل تخفيف الحكم عليه من الإعدام إلى النفى .
وفى حملة عليه ، لأنه ود أن يقابل ملك الإنجليز .

أهلاً وسهلاً بحاميتها وفاديتها
وبالكرامة يا من راحَ يفضحها
وعُدّها حين لا تُغني مدافعها
وارجع إليها فيا لله فاتحها
وانزل على الطائر الميمون ساحتها
وبض لها بيضة للنصر كافلة
واظلم صحيح البخاري كل آونة
وأخرج القوم من مصر بخارقة
من العجائب صاروا من أحبها
كأن ما كان من حرب ومن حرب
وضع عمامتك الخضراء من شرف
وقصر رؤياك مكذوباً بمضحكها
فليست تعدم غمياً من أكابرها
ولست تعدم وغداً من أسافلها
ولست تعدم في الأجواء ذا سقه
قل للبلد إدورده، أصبت غنى
هذا عرابي تمنى أن تقابله
ومرحباً وسلاماً يا عرابيتها
ومقدّم الخير يا من جاء يخزيها
عن الزعيم ولا تُجدي طوايها
يوم الإياب وبالله غايتها
 واجلس على تلّها وانعق بواديتها
إن الدجاج عقيم في نواحيها
ونم عن الحرب واقراً في لياليها
تفوق «فاشودة» فيها وتنسها
فيما زعمت وصاروا من أعادها
عتب المودة لا يؤدى بصافيتها
يعرفك كل جهول من أهاليها
على البنين ومكذوباً بمبكيها
ولست تعدم بكماً من أعاليها
يزف للأمة البشرية ويهديها
يخصي الديون التي تشكو ويقضيها
عن الهنود وإرلندا وما فيها
وأن ينال يداً جلت أيادها^(١)

(١) إشارة إلى ما ذكره مراسل اللواء بالسويس في العدد ٦٠١ أن عرابي حدثه بأن ولي عهد
انكلترا كتب له من كندا كتاباً يطلب فيه منه ألا يبرح سيلان حتى يقابله . فأجابه عرابي بأنه لا يقدر
أن يقابل أهل الشرف بغير شرف

فمر بانكلترا تزجي فيالقا
ومر بلندرة تبدو بزيتها
فأين « روبرس » منه إذ ييممها
هذا الذي يعرف الإفرنج صولته
وسله بالله إن صاغت راحته
وأن أيمانه اللاتي أشاد بها
وأن يموت عزيزاً دون أربعها
وقل له بلسان النيل توجعه
تلك العظام بلا قبر ولا كفن
فاقر السلام عليها حين تنديها
وناجها مرة في العمر واحدة
أوردتها الموت لم تبلغ به شرفاً
ومارات لك سيفاً تستضيء به
باتت يرى الموت فيها كيف يدركها
فأصبحت غنماً مر الذئاب بها
يابن الحسين حسين مات من ظمأ
تلك الأبوّة ما هدى شمائلها
وأنت أصغر أن تعطى مفارحها
لم ينصر الله بالأحلام صاحبها
وبالمواقف يغشاها مؤلّبة
أنوة المصطفى ما زال يلبسها

وبالأساطيل تدوى في موانها
وتنجلي للبرايا في مجالها
وأين « سيمور » منه إذ يوافيها
والبر يعلمها والبحر يديرها !
مانفسه ؟ ما منّاها ؟ ما مسماعها ؟
ألا يحكم فيها غير أهلها ؟
ولا يعيش ذليلاً في مغانيها
والنفس إن صغرت لاشيء يؤذيها
لولاك لم يبل في العشرين بالها
وأمل العفو منها حين تبكيها
لو كان سهلاً عليها أن تناجيها
ولا توخيت بالأوطان تنويها
يوم القتال ولا وجهاً يحياها
وبت تنظر مصرأ كيف يأتيها
ونام عنها غداة الرّوع راعيها
وأنت محتفل بالنفس تروها
للعارفين ولا هدى معانيها
وأنت أسمع أن تكسى معاليها
لكن بكل عوان كان يذكها
والخوض يمنعه والخيل يحميها
حر قشيب ثياب الفخر ضافها

حتى تنارعها في مصر صليتها
وأصبحت لجبان القوم منقبة
هلا سبقت غداة التل ناعيا
هلا تسكفت في الهيجا برايتها
ما زال جمعهم في الحرب ينشرها
هلا أبيت على العافين عفوه
زعمت أنك أولى من أعزتها
وكنت تطرب إذ تتلى مدائحها
دعوى وحتى تردتها غوانيا
وزينة لجهول القوم يديها
إلى المنية مسرورا تلاقيها ؟
مثل الدراويش خانتها عواياها ؟
حتى أناها فناء الجمع يطويها
لكي يقال أبا النفس عاليا
بها ، وأخى عليها من موالها
فأين دمعك إذ تتلى مرثياها ؟

(٣) أما القصيدة الثالثة فقد نشرتها اللواء^(١) يغير توقيع أيضاً ، بعنوان (صوت العظام أو عرائي أمام قتلى التل الكبير)

لكن في التقديم للقصيدة ما يدل على أن شوقي قائلها . فقد ذكرت اللواء في تقديمها للقصيدة : « . . . فإن خير ما جادت به قرائح شعراء مصر والعرب والإسلام ، قصيدة أنشأها أبلغ البلغاء ، نشرها اليوم عبرة للمعتبرين وغير المعتبرين ، وعظة عالية للوطنيين والمارقين . وبها نكتفي عن نشر ما كتبه إلينا صفوة أبناء القطر عن مسعى الذين يريدون رد رتب عرابي ونياشينه إليه ، ويحملون الأمة عارا فوق عارها ، وبلية فوق بلاياها الكبار . »

وقد كرر شوقي في هذه القصيدة ما قاله في قصيدتيه السابقتين ، وزاد .

ودافع عن البيت العلوي ، وعن سياسة الخديو توفيق .

عرابي كيف أوفيك الملاما جمعت على ملامتك الأناما
فقف بالتل واستمع العظاما فإن لها كما لهمو كلاما
سمعت من الورى جدأ وهزلا فأنصت إذ تقول القول فصلا

كأنك قاتلٌ والحكم يُسلى
ولا تأملُ من الأموات عفواً
أرقت دماءهم لعباً ولهوا
دماءٌ قد فدتك ولم تصنها
فكيف تنام عين الله عنها
لقد سفكت بجهلك شرَّ سفك
وأنت على قديم العز تبكى
تقول لك العظام مقال صدق
قتلت المسلمين بغير حق
تقول : لقد بقيت وما بقينا
فما حكم الليالي في بنينا ؟
تقول وصوتها رعدٌ قوى
لقد مات الكرام وأنت حى
تقول وصوتها ملأ الدهورا
عرابى - هل تركت لنا قبورا
تقول وصوتها بلغ السماء
إله العالمين أجب دماء
تقول : جئت حين الظلم ينمو
وغرك من أبى العباس حلم
وقفت له وما ظلم الأمير
فجل الخطب واضطربت أمور
تقول مقالة فيها اعتبار
عليك وأنت تنتظر الحماما
وإن كان الحسين أباك دعوى
ولم تعرف لغاليلها مقاما
نفضت يديك يوم « التل » منها
إذا غفل الملائعها وناما ؟
لغير شهادة أو رفع ملك
وتندب رتبة لك أو وساما
ورب مقالة من غير نطق
وضيعت الأمانة والذما
ثبتنا للعدى حتى فسينا
وما صنع الأرامل واليتامى ؟
وتحل في الضمير لها دوى :
حياة تنقضى عارا وذاما
وأنت أصم من حجر شعورا :
يقول الطائفون بها سلاما ؟
وأسمع خير من سمع النداء :
تصيح الانتقام الانتقاما
وثرث ولم يكن فى مصر ظلم
ولما يكتمل فى الحكم عاما
ولم يكن اطمأن به السرير
عسيت بأن تكون لها نظاما
عشية حال بينكما الفرار :

أَمُوتْ يَا عَرَابِي ثُمَّ عَارُ
رَمَانَا بِالْجَبَانَةِ كُلُّ شَعْبٍ
لَأَجْلِكَ حِينَ لَمْ تَخْرُجْ لِحَرْبٍ
وَقِيلَ: زَعِيمُهُمْ وَلَّى الْفِرَارَا
وَخَلَفَ جَيْشُهُ فَوْضَى حِيَارَى
نَسَائِلُ عَنْ عَرَابِي لَا نَرَاهُ !
رَكِبْنَا الْمَوْتَ لَمْ نَرْكَبْ سِوَاهُ
رُؤَيْدَا يَا شُعُوبَ الْأَرْضِ مَهْلَا
أَرَاكُمْ وَاحِدٌ جَبْنًا وَجَهْلًا
سَلُّوا تَارِيخَنَا وَسَلُّوا « عَلِيَا »
لَقَدْ عَاشَ الْأَمِيرُ بِنَا قُويَا
يَعَزُّزُنَا وَيَقْهَرُ مِنْ يَشَاءُ
لَنَا فِي ظِلِّهَا وَلَهُ عَـلَامُ
أَلَمْ نَكْفِ الْحِجَازَ عَوَانَ حَرْبٍ
فَكُنَّا لِلْهَيْمَنِ خَيْرَ حَزْبٍ
سَلُّوهُ وَأَهْلُهُ أَيَّامُ ثَارُوا
وَكَانَ الدِّينُ لَيْسَ لَهُ قَرَارُ
أَلَمْ نَكْ خَلْفَ « إِبْرَاهِيمَ » لَمَّا
وَكَبَّرَ يَوْمَ « مُورَةَ » ثُمَّ سَمَّى
تَرَانَا فِي مَوَاقِفِهِ نَلِيهِ . .
وَلَيْسَ الْجَيْشُ إِلَّا قَائِدِيهِ

يَلَا زَمَنَّا بِقَائِدِنَا لَزَامَا ١٩
وَسَبَّحْنَا الْخَلَائِقَ أَيْ سَبَّ
وَلَا جَرَدَتْ فِي الْهَيْجَا حُسَامَا ١٩
وَفِي « بَلْبِيس » قَدْ سَاقَ الْقَطَارَا
وَقَدْ بَلَغَ الْعِدَى فِيهِمْ مَرَامَا
وَنَشَّدُ حَامِيًا خَلِيَّ حِمَاهُ
وَأَنْتَ رَكِبْتَ لِلْعَارِ الظَّلَامَا
فَمَا كُنَّا لِهَذَا اللَّوْمِ أَهْلَا
فَأَنسَاكُمْ مَوَاقِفُنَا الْعِظَامَا
أَلَمْ يَمْلَأْ بِنَا الدُّنْيَا دُويَا
وَعَشْنَا تَحْتَ رَايَتِهِ كَرَامَا
كَأَنَّا تَحْتَ رَايَتِهِ الْقَضَاءُ
وَمَجَّدُ يَمْلَأُ الدُّنْيَا ابْتِسَامَا
وَأَنْقَذَنَا مِنْ حَرْبٍ وَكَرْبٍ
أَجْرْنَا الدِّينَ وَالْبَيْتَ الْحَرَامَا
أَلَمْ نَقْبُضْ عَلَيْهِ وَهُوَ نَارُ ؟
فَثَبَّتْنَاهُ يَوْمَهُذِ دَعَامَا
رَمَى بِجُودِهِ الْأَبْرَاجَ شِمَا ؟
فَكُنَّا الصَّفِّ إِذْ كَانَ الْإِمَامَا
كَجَمْعِ الْأَبِّ الْوَاقِي بَنِيهِ
إِذَا مَا قَوْمُوا الْجَيْشَ اسْتَقَامَا

نلبي إن أشار براحتيه
 كأن سميه في بردته
 وفي «اليونان» أحسن البلاء
 وقدّمنا بوارجنا فداء
 وفي «البغار» صلنا ثم صلنا
 وأنزلنا العدو وما نزلنا
 وسل عن بأسنا سودان مصر
 بأنا الأسد إقداماً وأجراً
 وفي المسكوف شدنا ذكراً مصر
 بلغنا نحن والأتراك عذراً
 وكان لنا بلاء في «كريد»
 أذنبها وكانت من حديد
 رفعنا الملك بالمهج الغوالي
 وبالأذكار لم نحى الليالى
 تقول لك العظام : دع الأمانى
 وليس بذى الفقار ولا اليماني
 أراح الله منك حديدته
 وأنت تنبه الدنيا إليه
 تحنّ له كأنك لم تضعه
 ودعه في ظلام الغمد دعه
 أما والله ما لعب الصغار
 ولا الأوتار في أيدي الجوارى

إلى حصن فيسبقنا إليه
 يخوض النار في الهيجا سلاما
 وهزّ المسلمون بنا اللواء
 على الأمواج تضطرم اضطراما
 وطاولنا الجبال بها فطلنا
 وكنا للرواسى الشم هاما
 فعبد الله والمهدى أدرى ..
 إذا اصطدم الفريقان اصطداما
 على قتلى بها منا وأسرى
 وأرضينا المهيمن «والإمام»
 يوم نأثر الهيجا شديد
 وأطفأنا لثورتها ضراما
 تسيل على القواضب والعوالى
 ولا بتنا على ضيم نياما
 ولا تحفل بسيف غير قان
 ولا المقهور دفعاً واستلاما
 وأنسى الناس ما عملوا عليه
 وتفتأ تذكر العار الجساما
 فسعه بجنبك المأثور سعه
 لعل مع الظلام له احتراما
 ولا خشب يقلد في «الحوارى»
 بأحسن منه في الهيجا قياما

وهذا الصدر أضيق أن يحلّى
فلم يك للقنا يوماً محلاً
لقد ضاع الفخار على الخفير
أمن تحت السلاح إلى وزير
عمى في الشرق كان ولا يزال
ويبلغ شأوها الأقصى رجال
تخذ رتب المعالي أو فدعها
فإنك إن تنلها لا تضعها
تقول لك العظام وأنت لاه
وتكذب بالصلاة على إله
سنأخذ منك يوماً بالخناق
تلاقى يوم ذلك ما تلاقى
نجيئك يوم يحضرك الحمام
وتسبق سهمه منا سهام
نجيئك يوم تحضرك المنون
نقول : لنا على الجاني ديون
ونسأل : ما جنى ! ماذا أساء ؟
فترفعهم — إلى الباري دماء
نقول : جنى ومن بما جناه
وضيع أنفساً ذهبت فداه
هناك ترى جهنم وهى تحمى ..
فتشرق بالدم المسفوك ظلمنا
وأن يسترجع الشأن الأجلاً
ولا لقي الرصاص ولا السهاما
وضاعت عنده نعم الأمير
يسمى السيد البطل الهما ١ ؟
فما برحت معاليه — تنال
لهم في الجهل قدر لا يسامى
وإن شئت أشرها أو شئت بعها
وحاشا ترفع الرتب الطغاما
تمنى النفس من مال وجاه
يراك أضل من صلى وصاما
ولما تبلغ الروح التراقى
دماء الخلق والموت الزواما
يسل حسامه ولنا حسام
له — بالحق رام لا يراى
ويأتى العقل إذ يمضى الجنون
فيا رب الدم احتكم احتكاما
ليلقى عن جنايته الجزاء
ونعرضها له جثثاً وهاما
وحاول أن ترد له علاه
وأنت الله فانتقم انتقاما
وتذكر ما مضى جرماً فجرما
وبالوطن العثور ولا قياما

(٤) ولم يقنع شوقي بهذه القصائد الثلاث ، بل أبى إلا أن يتهجم على عرابي في ثنايا بعض قصائده .

ففي سنة ١٩٠٤ حمل على رياض باشا ؛ لأنه أطرى الاحتلال الإنجليزي . وهذا موقف حميد لشوقي ، لكنه عرض بعرابي في قوله :

أفي السبعين والدنيا تولت ولا يرجي سوى حسن الختام
تكون وأنت أنت رياض مصر عرابي اليوم في نظر الأنام^(١)

وقال في رثائه إنه كان يصون الأمن في مصر حينما ثار العصاة ، وهو يقصد بهم العرابيين :

قضيت لها الحقوق فتي وكهلا ويوم كبرت وانحنت القناة
ويوم النهى للأمراء فيها ويوم الآمرون هم العصاة^(٢)

ولم يرث أحدا من زعماء الثورة العرابية ، ولم يستثن منهم البارودي أستاذه ورائده ، ولا الشيخ محمد عبده مع تجافيه عن الثورة أول الأمر ، وإن كان قد قال فيه ثلاثة أبيات^(٣) ثم عاد في سنة ١٩٢٤ فلام عرابي في مجال تنديده بالجهلة في مصر ، وأنهم لا يميزون الخبيث من الطيب ، حتى لقد توهموا أن عرابي قيصر من القياصرة ، فهو يخاطب المعلمين والمتقنين بقوله :

الغافل الأمي ينطق عنكم كالبيغاء مرددا ومكررا

.....

آباؤكم قرءوا عليه ورتلوا بالأمس تاريخ الرجال مزورا

حتى تلفت عن محاجر رومة فرأى عرابي في المواقب قيصرا^(٤)

ولو أن شوقي شجع كما شجع في مستهل حياته لجاهر مرات بلوم الخديو توفيق ،

(٢) الشوقيات ٤٨/٣

(١) الشوقيات ٢٦٢/١

(٣) الشوقيات ٤٥/٣

(٤) الشوقيات ١٧٨/١

لأنه شريك في إخفاق الثورة ، وفي دخول الإنجليز مصر ، فقد أشار في سنة ١٨٩٤
إشارة غامضة إلى مشاركة توفيق في نسكة الاحتلال ، وقفي إشارته بالتنويه بنصره
على الثوار :

إن أتاها فليس فيها ببادٍ أو جناها فذا الورى شركاء
أخطأ الأقربون موقعها الدا نى وفازت بنيله البعداء
ضلة زانها الشقاء لمصر ومن الذنب ما يجيء الشقاء
ثم جبن فعقب على الآيات بقوله :
وقضى الله للعزیز بنصره فأنى نصره وكان القضاء^(١)

(٥) ويظهر أنه غير رأيه فيما بعد ، أو أراد أن يسترضى الشعور العام ، فنوه بالثورة
العراقية ، وقرنها بثورة ١٩١٩ في مجال الإشادة بالدستور والبرلمان ، إذ جعل الدستور
صرحاً ببناء الآباء الذين ثاروا في الثورة العراقية ، والأبناء الذين هبوا في ثورة ١٩١٩ ،
فجدرانه مسموكة بضحايا التل الكبير ، وضحايا المشانق والسجون في ثورة ١٩ :

بنيسان آباء مشوا بسلاحهم وبنين لم يجدوا السلاح فناروا
فيه من التل المدرج حائط ومن المشانق والسجون جدار^(٢)

(٦) وليس يخفف من لوم شوقي أن البارودي — أحد زعماء الثورة وقادتها —
حاول أن يتنصل منها فيما بعد ، في قوله :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى عمدتم لتصديقي وقد قضى الأمر
فلم يبق في أيديكم غير حسرة ولم يبق مني غير ما عافه الصدر
فجاء الذين كنتم تخافون شره وزال الذي لم يبق من بعده شعر^(٣)
وفي قوله يحمل على بعض رجالها :
دعوني إلى الجلى فقمتم مبادراً وإلى إلى أمثال تلك لسابق

فلما استمر الجُدُّ ساقوا حُمولهم إلى حيث لم يبلغه حادٍ وسائق

.....

على أنى حذرّتهم غبّ أمرهم وأنذرتهم لو كان يفقه مائق^(١)
وقلت لهم: كفوا عن الشرّ تغنموا فللشرّ يوما لا محالة ماحق
فظنوا بقولى غير ما فى حقيقتى على أنى فى كل ما قلت صادق
فياليتنى راجعت حلمى ولم أكن زعيما وعاقبتى لذاك عوائق
ويا ليتنى أصبحت فى رأس شاهق ولم أر ما آلت إليه الوثائق^(٢)
وقد كرر اعتذاره فى قصيدة أخرى^(٣).

لا يخفى هذا من ملامة شوقى، لأن البارودى لم يكن متشبعا بالثورة فى أول أمرها تشجع عرابى بها، ولأنه أصيب بصدمة الهزيمة والنقى والتنكر، فضعفت عزيمته. كذلك لا يشفع لشوقى أن ولى الدين يكن ندد بالثورة العراقية، فلم يكن الباعث على تنديده تعلقه بالقصر، وإنما كان الباعث تعلقه بالإنجليز، فقد كان ضالعا مع الاحتلال يطريه ويدافع عنه، بدليل قوله: «إن السياسة الإنجليزية كانت إلى عام ١٨٩٢ — أى حين تولى الخديو عباس — سياسة ود وصفاء. قام العراقيون على أمير البلاد عصيانا وطغيانا، ووقفت الحكومة العثمانية وقفة الغريب، لا تدرى أى طريق يجب عليها أن تسلكه» ثم يتهج بخيبة الثورة فيقول: «لما يؤس الإنجليز من انتباه الحكومة العثمانية، وارعوا المتمردين كلوا الثغر الإسكندرى بألسنة المدافع، وهبطوا مصر إن شاء الله آمين، ثم يحذر الإنجليز من الخديو عباس بقوله: «فلما كانت الإمارة الجديدة التى ظهرت سنة ١٨٩٣ وسبق منها من التغير الدال على تغير القلوب وجب على الإنجليز الانتباه».

فهو يسخط الثورة العراقية كما سخطها شوقى، لكن الباعث مختلف.

(١) مائق أحق

(٢) ديوان البارودى ٢/٣٣٤ — ٣٤٠ الوثائق: العهد

(٣) ديوان البارودى ٢/٣٥٤ — ٣٦٣

(٧) يقين من هذه الدراسة المفصلة لما قال شوقي في عرابي أن شوقي كان ضالعا مع الخديو هو ومصطفى كامل ، وأن الذين تنقصوا من قدر عرابي كانوا ظالمين له . وقد رد عرابي وبعض أنصاره عليهم ، بالنثر تارة وبالشعر تارة . حتى لقد جمع بعضهم طائفة من القصائد الذائدة عن عرابي ، وجعل عنوانها (عرابي والشعراء) . وهذا كله مفصل في كتاب (كشف الستار عن سر الأسرار ، في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية . بقلم أحمد عرابي)^(١) . وقد ذكر عرابي عدة قصائد في نقض قصائد شوقي ، ثم علق عليها بقوله : « هذا ما استقبلنا به صاحب جريدة اللواء ومن على شاكلته من أصحاب الجرائد المأجورين ، أو الشعراء المنافقين ، وهذا ما رد عليهم به بعض نبهاء المصريين وأشرف اليمنيين »^(٢) .

المجاهدون العرب

كان شوقي يشيد بالأبطال المجاهدين في سوريا وفي طرابلس ، ويتوق إلى أن يظفروا بحقوقهم المسلوبة .

(١٠) ففي قصيدته (نكبة دمشق)^(٣) . شجع السوريين على الجهاد ، ونصحهم بأن يأخذوا من خدع فرنسا حذرهم ، لأنها تحاول أن تصرفهم عن الاستقلال بأمانى خداعة ، فتمنهم بالدولة السورية ، ولبنان الكبير ، ودولة جبل الدروز ، وبحكومة العلويين ، وبألقاب توهم بالملك والسيادة ، لكنها في حقيقتها ذل واستعباد ، فهذه الإمارات التي تمنهم بها فرنسا إمارات محتلة لا مستقلة ، الغرض منها تشتيت قواهم وتفريق جمعهم .

وذكرهم بأن جهادهم حق وطنهم عليهم ، وشجعهم بأن المنايا كأس دوار على الأبطال ، وأنهم بضحاياهم يننون ملكا مستقلا أيا ، وينالون حقهم الطبيعي في الحياة الكريمة ، وصور لهم الحرية التي لا تنال إلا بالدماء المرافقة في الجهاد حصناً أو قصرًا مغلقاً احتله الأعداء ، فلا سبيل إلى فتح بابه إلا إذا قرعته أيدي المجاهدين المصبوغة بدم الجهاد :

(١) الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٤٢

(٢) كشف الستار ٦٩٥ (٣) الشوقيات ٨٨/٢

بنى سورِيَّةَ أطرحوا الأمانى
فمن خدع السياسة أن تغرؤا
والقوا عنكم الأوهام القوا
بألقاب الإمارة وهى رِقْ

.....

وللأوطان فى دم كل حرٍّ
ومن يَسْقَى وَيَشْرَبُ بالمتايا
يد سَلَفَتْ ودين مَسْتَحَقُّ
إذا الأحرارُ لم يَسْقُوا وَيَسْقُوا؟
ولا يبنى الممالك كالضحايا
ولا يدنى الحقوق ولا يُحَقِّقْ
وفى الأسرى فدى لهم وعقُّ (١)
وللحرية الحمى — راء (٢) باب
بكل يدٍ مُضَرَّجَةٍ يَدُقُّ

وكرر نصحه للسوريين فى قصيدة أخرى (٣).

ومجد استقلالهم ، وذكر شهداءهم (٤) ، ونصحهم بالجهاد فى قصيدة ثالثة (٥).

ورثى فوزى الغزى أحد زعماء الثورة العربية بقصيدة ملتهبة سنة ١٩٣٠ م ،
تفجع فيها لوفاته ، ونوه بجهاده (٦).

(٢) وكذلك نبه الشعب الطرابلسى إلى أن يختار زعماءه ، ويعفى من أثقال
الحرب شيوخته ، ويكلها إلى شبابه (٧).

يا أيها الشعب القريب : أسمع
ذهب الزعيم وأنت باقٍ خالد
فأصوغ فى عمر الشهيد رثاء ؟
فأنقذ رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوذك من تكاليف الوغى
واحمل على فتيانك الأعباء

(١) عتق : حرية . مضرجة : مصبوعة بالدم

(٢) الحرية الحمراء : الحرية التى لا تنال إلا بالدماء .

(٣) الشوقيات ١٢٥/٢ (٤) الشوقيات ٢٢٧/٢ (٥) الشوقيات ١٩٦/١

(٦) الشوقيات ١١٩/٣

(٧) الشوقيات ١٧/٣

الفصل الخامس

الاستقلال التام

والله مادونه الجهد، ويومه يوم نسيه الكفانة عمدا
شوق

أبغض شوقي الاحتلال، وشهر بمظالمه، وأشاد بالمجاهدين لطرد العدو الغاصب،
وأسمهم هو في هذا الجهاد بشعره.

وكان ذلك قبل أن ينفي وبعد أن نفي.

وكلف بالاستقلال التام قبل النفي وبعد النفي.

فقد ندد في قصيدة له قبل الحرب الكبرى بوعود الإنجليز المكررة بالجلاء
عن مصر، لكنها وعود كواذب، كالسحاب الجسام لا مطر فيه ولا خير، حتى لقد
ملت مصر وعودهم، وصار بقاؤهم بها داء سئمه الجسوم والأرواح. ولا منجاة
من هذا الداء إلا بالاستقلال التام. وإن مصر لتأمل من تركيا أن تعاونها على نيل
استقلالها معاونة الند للند :

نستميح الإمام نصراً لمصر	مثلاً ينصر الحسام الحسام
وإلى السيد الخليفة نشكو	جور دهر أحراره ظلام
وعدوها لنا وعود اكبارا	هل رأيت القرى علاها الجهم؟
ففللنا ولم يك الداء يحمي	أن تمل الأرواح والأجسام
يمنع القيد أن نقوم فهل تا	ج فبالتاج للبلاد قيام ^(١) ؟

رأيه في مشروع ملنر

(١) على إثر ثورة مصر سنة ١٩١٩ بعثت إنجلترا إلى مصر وفدا برئاسة اللورد ملنر، لدراسة الحالة ، واستطلاع آراء الساسة في قواعد للاتفاق بين مصر وإنجلترا .

وصات لجنة ملنر في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ ، فقابلها المصريون أشنع مقابلة ، لأنهم أيقنوا أن الغرض من بعثها إضعاف قوة سعد وزملائه المطالبين في أوروبا بحقوق مصر ، فأضرب الطلاب والمحامون والموظفون ، وقامت المظاهرات العامة . فلما اقتحم الجنود الإنجليز الأزهر مجتمع المتظاهرين في ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩ هاج العلماء وثار الشعب . وكان من العسير على اللجنة أن تجني ثمرة ما : لأن الوفد والحزب الوطني والأمراء والعلماء أعلنوا قطيعتهم لها ، ولأن أعضاء الجمعية التشريعية اجتمعوا بمنزل سعدن غلول في ٩ مارس سنة ١٩٢٠ وقرروا بطلان الحماية ، واستقلال مصر بسودانها ، ورفض ما تبرمه الحكومة المصرية القائمة من اتفاق ينتقص من الاستقلال التام لمصر والسودان أو من مصالحهما^(١) .

عاد اللورد ملنر إلى إنجلترا ووضع مشروعا للاتفاق في ١٧ يولية سنة ١٩٢٠ ، قدمه للوفد المصرى بأوروبا ، فرفضه الوفد .

رفضه لأنه وجده حماية مقنعة . وقدم الوفد مشروعا فرفضه ملنر ، وحينئذ توقفت المفاوضات .

ثم استؤنفت المفاوضات بين عدلى يكن وملنر ، وقدم ملنر مشروعا فيه تعديل يسير للمشروع الأول ، وتسلمه عدلى في ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠ ليوصله الى الوفد . وموجز هذا المشروع :

- ١ — تعترف بريطانيا باستقلال مصر دولة ملكية دستورية .
- ٢ — تبرم محالفة بين بريطانيا ومصر تتعهد فيها بريطانيا أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها ، وتتعهد مصر بأنها في حالة الحرب — وإن لم تمس سلامة أرضها — تقدم في بلادها كل المساعدات التي في وسعها إلى بريطانيا ، ومنها استعمال الموانئ والمطارات ووسائل المواصلات للأغراض الحربية .

٣ — تتناول المعاهدة اتفاقاً لتحقيق الأغراض الآتية :

- (١) تتعهد مصر ألا تعقد مع دولة أجنبية أى اتفاق يضر بالمصالح البريطانية .
- (ب) توافق مصر على بقاء قوة عسكرية فى الأرض المصرية ، ولا يعتبر وجودها احتلالاً عسكرياً ، ولا يمس حقوق الحكومة المصرية .
- (ج) تعين مصر — بالاتفاق مع الحكومة البريطانية — مستشاراً مالياً يعهد إليه بالأعمال التى يتولاها أعضاء صندوق الدين الآن .
- (د) تعين مصر — بالاتفاق مع الحكومة البريطانية — موظفاً فى وزارة الحفانية ، يتصل بالوزير ، وله رأى فى جميع المسائل القضائية المتصلة بالأجانب .
- (هـ) تعترف مصر بحق بريطانيا فى تدخلها لمنع أى قانون مصرى من تطبيقه على الأجانب .

(و) يتبوأ الممثل البريطانى مركزاً استثنائياً فى مصر ، ويتقدم جميع الممثلين . ولم يشر المشروع من قريب ولا من بعيد إلى السودان ، بل إن اللورد ملنر نحاه من المناقشة مع الوفد ، وأبان له أن مشروعه لا يمس السودان ، وأن اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ باق على حاله . فلما عرض هذا المشروع على الوفد رأى فريق منه قبوله بشرط التعديل فيه ، ورأى فريق آخر رفضه ، واتفق الفريقان على عرض المشروع على الأمة لإستشارتها فيه قبل أن يبت الوفد بقرار .

وأرسل الوفد أربعة من أعضائه إلى مصر لعرض المشروع على الأمة ، وكانت الاستشارة مجالا فسيحاً لشرح المشروع جملة وتفصيلاً ، ففاضت الصحف بآراء الهيئات والكتاب والساسة فى نقد المشروع . ثم أصدر الحزب الوطنى قراراً برفضه لأنه تنظيم للحماية ، وأصدر بعض الأمراء رأيهم برفضه ، ونشر آخرون آراءهم راضية به ، وسلكت أكثرية الأمة طريقاً وسطاً ، بإبداء قيود لا يقبل المشروع إلا بها ، وبعض هذه القيود لا يتسق مع قواعد المشروع وأهدافه ، مما يجعلها رفضاً للمشروع . ثم بعد الاستشارة أعاد الوفد المشروع إلى ملنر مقيداً معدلاً ، فلم يرضه ملنر ، فقطعت المفاوضات فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٢٠ بين سعد وملنر^(١) .

(١) ثورة ١٩١٩ للرافعى

(ب) ماذا كان موقف شوقي من مشروع مله ؟

أخصه بقصيدة^(١). حيا فيها الأعضاء الأربعة الذين نذبهم الوفد لعرض المشروع . ثم جهر برأيه في المشروع .

والذى نفهمه من بعض أبيات القصيدة أنه رافض له ، لأنه يعجب من المصريين المختلفين في قيمة المشروع ، كأنهم أسرى مقيدون يتلاحون في صلابة القيد أولينه ، ثم يهيب بهم أن يحطموا القيد وينبذوه لأننا في عصر الحرية ، وينفروهم من التقيد بأن هذا العصر يأبى أى قيد وإن جاء من السماء ، وهذه الثورة في كل مكان جنازة العبودية . ويعلل لقبول المصريين المشروع بأنهم حديثو عهد بالإفاقة من غاشية الاستعباد ، فهم يحسبون الحرية المنقوصة أو العبودية اللينة حرية كاملة :

ما بال قومي اختلفوا بينهم	في مدحة المشروع أو ثلبيه
كأنهم أسرى ، أحاديثهم	في لين القيد وفي صلبه
يا قوم هذا زمن قد رمى	بالقيد واستكبر عن سجنه
لو أن قيـداً جاءه من عل	خشيت أن يأبى على ربه
وهذه الضجة من ناسه	جنازة الرق إلى ترابه
من يخلع النير يعش برهة	في أثر النير وفي ندبه ^(٢)

ثم انتقل إلى الشناء على الشباب وجهادهم واتحاد مسلمهم وقبطهم ، وعاد إلى المشروع ثانية ، فبين أن بريطانيا المنتصرة في الحرب العالمية تريد أن نقيم ملكنا على نابها ومخلبها ، فنكون في حوزتها أتباعا ، نصل من تصل ، ونقطع من نقطع ، وندها تتحكم في ماء النيل كما تهوى . وهو بهذا يبغض المشروع إلى الشعب ، ويكشف عن بعض مساوئه :

الليث والعالم من شرقه في هيبة الليث إلى غربه

(١) الشوقيات ١/ ٦٤-٦٧

(٢) ثلبي : عيبه . النير : الحشبة المعترضة على عتق الثورين . النذب : جمع ندبة وهى أثر الجرح الباقى على الجلد

قَضَى بِأَنْ نَبْنِي عَلَى نَابِهِ مَلِكٌ بَنَيْنَا وَعَلَى خَلْبِهِ
وَنَبْلُغَ الْمَجْدَ ——— د عَلَى عَيْنِهِ وَنَدْخُلَ الْعَصْرَ إِلَى جَنْبِهِ
وَنُصَلِّ النَّازِلَ فِي سَلَمِهِ وَنَقْطَعَ الدَّخْلَ فِي حَرْبِهِ
وَنُصْرَفَ النَّيْلَ إِلَى رَأْيِهِ يَقْسِمُهُ بِالْعَدْلِ فِي شَرْبِهِ
يُبِيحُ أَوْ يَحْصِي عَلَى قَدْرَةِ حَقَّ الْقُرَى وَالنَّاسِ فِي عَذْبِهِ^(١)

وكانما خشي أن يكون في مشورته مفتاناً على آراء الساسة ، فلا ين المشروع بعض
الملاينة ، ولكنها ملاينة مزيجة بالتنفير ، فقد دعا الشباب إلى ألا يستقلوا هذا المشروع ،
لأن الإنجليز أشقاء بحقوق مصر ، ولأن دعاوى الحرية وحقوق الأمم في تقرير
مصيرها دعاوى جوف لا قيمة لها ، فإن رضوا المشروع فليرضوه متربصين ، كالأسد
تضطر إلى الشرب من القذى في إحجام وإباء ، والاستقلال التام طفرة وهم عاجزون
عن تحقيق ما هو أهون منها وهو قلب نظام الحكم . وعاد فقرر أن المشروع قيد كرهه
في زمن التحرر ، ومناهم بالفوز ، ونفرهم من اليأس :

لَا تَسْتَقْلُوهُ فَمَا دَهْرَكُمْ بِحَاتِمِ الْجُودِ وَلَا كَعْبِهِ
نَسْمَعُ بِالْحَقِّ وَلَمْ نَطْلُعْ عَلَى قَنَا الْحَقِّ وَلَا قَضَا بِهِ
يُنَالُ بِاللَّيْنِ الْفَقِي بَعْضُ مَا يَعِجْزُ بِالشَّدَةِ عَنْ غَضَبِهِ
فَإِنْ أُنْسِمَ فَلْيَكُنْ أُنْسُكُمْ فِي الصَّبْرِ لِلدَّهْرِ وَفِي عَتَبِهِ
وَفِي احْتِشَامِ الْأَسَدِ دُونَ الْقَذَى إِذَا هِيَ اضْطَرَّتْ إِلَى شَرْبِهِ
قَدْ أَسْقَطَ الطُّفْرَةَ فِي مَلِكِهِ مِنْ لَيْسَ بِالْعَاجِزِ عَنْ قَلْبِهِ
يَارَبِّ قِي ——— د لَا تَجْبُونَهُ زَمَانَكُمْ لَمْ يَتَّقِيهِ ——— د بِهِ
وَمُطْلَبٌ فِي الظَّنِّ مُسْتَبْعَدٌ كَالصَّبْحِ لِلذَّ ——— اظَرَّ فِي قَرْبِهِ

(١) اللبث : بريطانيا . خلبه : مخبله وظيفه . الشرب : النصيب من الماء

والياس لا يحمل من مؤمن ما دام هذا الغيب في حُجُبِهِ^(١)
ولم ينس شوقي لعبد الحميد بك أبى هيف معارضته لمشروع ملنر ببحوث قانونية
قيمة ، فلما توفي سنة ١٩٢٦ رثاه منوها بمعارضته التي كانت من الحوافز إلى رفضه .

بالأمس كانت لابن هيف غُضْبَةٌ للحق نذكرها يدا بيضاء
مشت البلاد إلى رسالة ملنر وتحفرت أرضاً لها وسماء

.....

لما رأى (التقرير) ينفت سَمَهُ سبق الحواة فأخرج الرقطاء
هتك الحماية والرجال وراءها يتلمسون لها الستور رياء
ما قبَّحوا بالصبح من أشباحها راحوا إليك فحسَّوه مساء^(٢)

رأيه في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣

(١) وجدت إنجلترا أن اتفاقها مع الوفد المصرى وسعد زغلول عسير ، ووجد
بعض المصريين أن الرضا بالاستقلال المنقوص خير من الاحتلال الدائم ، فلم يرفضوا
الأسس التي قام عليها تصريح ٢٨ فبراير على أنه خطوة إلى الاستقلال ، ولم يشاءوا
أن يقيدوا أنفسهم أو مصر بهذه الأسس ، فأصدرت إنجلترا من جانبها هذا التصريح
تعلن فيه :

- ١ - إلغاء الحماية البريطانية على مصر .
- ٢ - اعتراف إنجلترا بمصر مملكة مستقلة ذات سيادة .
- ٣ - مصر مملكة ، الملك فيها وراثى فى أسرة محمد على .
- ٤ - تحكم مصر حكومة دستورية .
- ٥ - تحتفظ إنجلترا بشروط أربعة :

(أ) تأمين المواصلات الإمبراطورية فى مصر .

(ب) حماية مصالح الأجانب والأقليات .

(١) حاتم الطائى وكعب بن مامة من أجواد العرب . قنا : رماح . قضب . سيوف . احتشام :
لحجام . الطفرة : الوثبة إلى أعلى . قلب الملك : تبديله وتغيير نظامه . حجب . جمع حجاب

(٢) الشوقيات ٨/٣

(ح) الدفاع عن مصر إذا اعتدى عليها بالذات أو بالواسطة .

(د) مسألة السودان .

ولم يرتض سعد تصريح ٢٨ فبراير ، لأنه لا يحقق ما تريد مصر ، ولأن هذه الشروط كبول تلف الحماية في ثوب من الاستقلال الموهوم « فإذا أضيفت إلى القوة العسكرية هذه الشروط فالذى يبقى من الاستقلال لا يساوى عناءه ، والذى يبقى من الحماية أو الضم الصريح هو الجوهر الصميم الذى ليس يعنى القوم شىء سواه .

تحدث سعد بعد عودته من منفاه عن تصريح ٢٨ فبراير فقال على أسلوبه فى سرد الأمثال : هو ناقة البدوى التى تباع بمائة درهم ، وتباع التيمة التى فى رقبتها بألف ، ولكن لا تباع الناقة بغير تيمة ، فما أملحها من صفقة لولا الملعونة التى فى رقبتها^(١) .

(ب) ماذا رأى شوقي فى مشروع ٢٨ فبراير ؟

لقد قصر عليه قصيدة طويلة^(٢) ، بدأها بما يشعر برفضه هذا المشروع .

ذلك بأنه بين أن الراحة الكبرى لا ينالها إلا من كد وجد ، وأن الحق لا بد أن يناله طالبه الساعى إليه ، وعجب من أن يطنطن بعض المصريين ويغتبطوا فى حين أن مصر لم تنل ما تريد ، ونصح بالتريث والتغلب على دواعى الفرح أو دواعى الترح حتى يستبين المصريون الأمر فى هدوء وتعقل ، ونصح بالصبر وإعداد العدة الحربية والاتحاد والتعاون :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعباً	وفاز بالحق من لم يأله طلباً
وما قضت مصر من كل لبانتها	حتى نجر ذبول الغبطة القشياً
فى الأمر ما فيه من جدٍ فلا تقفوا	من واقعٍ جزعاً أو طائرٍ طرباً
لا تُثبت العين شيئاً أو تحققه	إذا تحير فيها الدمع واضطرباً
إذا طلبت عظيماً فاصبرنَّ له	أو فاحشدنَّ رماح الخط والقضباً

.....

(١) سعد زغلول ١٥٠ العقاد

(٢) الشوقيات ٦٨/١

إن الرجال إذا ما أَلْجُؤُوا لَجُؤُوا إلى التعاون فيما جَلَّ أو حَزَبًا

ثم بين مزايا المشروع، فقال إنه خطوة إلى الأمل المنشود، وإنه اعتراف من بريطانيا بحق مصر المغتصب، وهو سبيل إلى الحكم الدستوري، وتحدث عن مزايا الدستور والبرلمان، ودعا إلى الاتحاد ونبد التفاخر بالجهود.

وهو في تبيان هذه المزايا لم يخرج على ما للسلاسة من رأى في المشروع، ولا نستطيع أن نتخذ منها دليلا على تأييده ومناصرته:

لا ريب أن خطأ الآمال واسعة	وأن ليل سُرَّاهَا صَبَحَهَا اقْتَرَبَا
وأن في راحتي مصر وصاحبها	عهداً وعقداً بحق كان مَغْتَصَبَا
قد فَتَحَ اللهُ أبواباً لعل لنا	وراءها فَسَحَ الآمال والرحبَا

.....

لم يُبَرِّمِ الأمرُ حتى يستبين لكم	أساء عاقبة أم سرُّ مُنْقَلَبَا
نلتُم جليلاً ولا تعطون خردلةً	إلا الذي دفع الدستور أو جَلَبَا

.....

ثم صرح بأن المشروع قطع رأس الحماية، ودعا الله أن يمن على مصر بحزم وعزم وجهاد تستأصل الحماية استئصالاً:

قالوا الحماية زالت قلت لا عجبُ	بل كان باطلها فيكم هو العجيبُ
رأس الحماية مقطوع فلا عُدِمَت	كُنَانَةُ اللهِ حَزَمًا يَقْطَعُ الذَّنْبَا

الحق أن شوقي كان في قصيدته ينجح إلى رفض المشروع، ويميل إلى الاستهانة به لأنه لا يحقق الاستقلال المنشود.

وجدير بالذكر أن حزب الأحرار الدستوريين ألف المناصرة تصريح ٢٨ فبراير وانضم إليه كثير من مفكرى الأمة وكبرائها، ولكنه قوبل بالسخط الشديد، واتهمه الوفد بالتخاذل وبشق وحدة الأمة^(١)، وإن كان بعض الوفديين قبلوا التصريح

وانشقوا على حزبهم ، ثم ظل الوفد يرفضه قولاً ويقبله عملاً ، لآتته دخول معركة الانتخاب ، وتولى الوزارة ، وتربع في كراسى البرلمان .

الجلالة أساس الاستقلال

عرفنا أن شوقي كان وطنياً محباً لمصر ، مخلصاً لها ، خوراً بماضيها المتألق ، طموحاً إلى مستقبلها المشرق ، وعرفنا أنه كان صديقاً لمصطفى كامل وشريكاً له في الجهاد ، وأنه كان صديق سعد زغلول وكثير من الساسة .

ورأينا شوقي في فصول سابقة عدواً للاحتلال ، يجاهر بمناضلته ، ونصيراً للجهاد والمجاهدين ، ثم رأيناه في هذا الفصل لا يرتضى مشروع ملنر ، ولا يطمئن إلى تصريح ٢٨ فبراير .

وإذا فالنتيجة المرتقبة أن يتمسك شوقي بالاستقلال التام لمصر والسودان . ولقد حقق شوقي ذلك ، فهو يوصى سعد زغلول بالحرص على قناة السويس في قصيدته التي هنأه فيها بالنجاة من الاغتيال :

ويا سعد أنت أمين البلا د قد امتلأت منها أيمانها
ولن نرتضى أن تُقَدَّ القنا ة ويُتَرَّ من مصر سودانها
وحُجَّتْنا فيهما كالحـ — با ح وليس بمعيك تبيانها^(١)
ويشيد بصلابته وضنه بحقوق مصر في رثائه^(٢) ، كقوله .
يا عدو القية — دلم يلمح له شبحاً في خطة إلا أباهها

.....

ذائد الحق وحامى حوضه أنفذت فيه المقادير منهاها
وقد سق تصويره لتوت عنخ آمون جزعا حينما رأى جنود الإنجليز يحتلون منابع النيل وواديه وقناة السويس .
ولقد جهر بدعوته إلى الحلاء في سنة ١٩٢٤ في حفل تكريم الشبان المجاهدين

الذين كانت قد أدانتهم المحاكم العسكرية الإنجليزية ، فأقسم أن الجلاء هو عيد مصر ، وأنه لا أعياد ما دام الإنجليز يحتلون أرضها ، وتشوق إلى اليوم الذي تحطم فيه أغلالها ، وتهكم بتصريح ٢٨ فبراير لأنه قيد مصر بقيود من ذهب بعد أن كانت من حديد ، يريد أن الاحتلال باق لكن في ثوب آخر خادع ، واستشهد على سلطان الاحتلال بأن جيوشه تحتل السودان والوادي :

والله ما دون الجلاء ويومه	يوم تسميه الكنانة عيداً
وجد السجين يداً تحطّم قيده	من ذا يحطم للبلاد قيوداً ؟
ربحت من (التصريح) أن قيودها	قد صرن من ذهب وكن حديداً
أو ما ترون على (المنابع) عدة	لا تنجلي وعلى الضفاف عديداً ^(١)

فإذا ما قايشنا بين شوقي وحافظ ألفينا حافظاً متردداً حائراً لم يبد رأياً
في تصريح ٢٨ فبراير :

إن تسألوا العقل يقل عاهدوا	واستوثقوا في عهدكم تربعوا
وأسسوا داراً لنوابكم	للرأى فيها والحيجا أفسحوا

.....

أو تسألوا القلب يقل حاذروا	وضامروا أعداءكم تفلحوا
إني أرى قيوداً فلا تسلبوا	أيديكم فالقيود لا يسبح
إن هيئوا من حرير لكم	فهو على لين به أفدح ^(٢)

.....

ولا نجد في شعر حافظ دعوات شوقي إلى الجلاء والاستقلال التام .

(١) الشوقيات ١/١٢٧

(٢) ديوان حافظ ٢/٩٦

الفصل السادس

وحدة الوادى

فحص الرياصه وسودانها عبود الرياصه وعلماها
شوق

الروابط قديما

شطران من قطر واحد اتحد منذ أكثر من خمسة وخمسين قرنا ، يتبادلان المنافع ، ويتقايمان السلع . لهذا راجت سوق التجارة بين شمالى الوادى وجنوبيه منذ عهد الدولة القديمة (٢٨٠٠ ق . م) ، وليس أدل على ذلك من أن كلمة (أسوان) معناها باللغة المصرية القديمة (السوق) .

وكان شباب النوبة الأشداء ولا سيما شبان قبائل البجة (المازوى قديما) يجهضون إلى مصر منذ عهد الأسرة السادسة لينخرطوا فى الجيش طائعين مختارين ، وكان فرعون يختار منهم رجال الشرطة وحرسه الخاص ، ومازال هذا النظام متبعا إلى ما بعد العهد الفرعونى .

وقد كشف البحث الحديث عن علاقة وثيقة تربط البلدين ، هى علاقة الجنس ، إذ أثبت أن المصرى والسودانى من الجنس الحامى ، وأن اللون الأسود لا يدل على فرق فى الجنس ، فالسودانيون لا يمتنون إلى الزوج ، ولم يخالطوهم حتى أوائل الأسرة الثامنة عشرة .

ويتحدث التاريخ بأن فرعون مصر (نفرحتب) أكرم وفدا من (المازوى) إكراما دالا على ما بين شطرى الوادى من وحدة ووثام . ويحدثنا بأن الجنود النوبيين أعانوا إخوانهم المصريين فى إجلاء الهكسوس عن مصر . فلما تحررت مصر ازداد

السودان ومصر اتحادا ، حتى صارا في عهد الأسرة الثامنة عشرة كقطر واحد في نظام واحد .

وفي تاريخ تحتمس الأول أنه عين حكومة للسودان مقرها (نباتا) بعد الشلال الرابع ، وضم إلى حاكم السودان ثلاث مقاطعات من الوجه القبلي ، دلالة على أنه لا فرق في الحكم والإدارة بين مصر والسودان ، ولقب حاكم هذا الإقليم بابن الملك ، إشعارا لأهل الجنوب بالإعزاز والرعاية . ولقب أيضا بابن الملك وحاكم الجنوب ، أى حاكم الشطر الجنوبي من مصر . ولم يكن الحاكم ابن الملك حقيقة ، وإنما لقب بذلك تسكريما وتعظيما .

ولم يعثر على أثر يدل على تدمير السودانين من الإدارة المصرية ، بل عثر في مقبرة (حوى) ابن الملك في عهد توت عنخ آمون على رسم يمثل وفدا سودانيا يحمل هدايا إلى فرعون ، وأعضاء هذا الوفد يرتدون الملابس المصرية التي يلبسها العلية في ذلك العهد .

وعندما غزا الفرس مصر فقدت سلطانها بالسودان ، لكن حضارتها وثقافتها بقيتا هنالك ، وبقيت علاقتها التجارية بالجنوب .

ولم تنقطع صلة الجنوب بالشمال ، ولا صلة الشمال بالجنوب في عصر البطالمة ، وأكبر دليل على ذلك أن (سيزاريون) بن كليوباترة لم يفكر في حمى يلجأ إليه بعد مقتل أمه إلا السودان^(١) .

الروابط الحديثة

أما في العصور الحديثة فقد كثرت الروابط وزادت وثاقة ، فبين المصريين والسودانيين وشائج من الجنس واللغة والدين والتاريخ والمصالح والعادات والآمال والآلام ، وهي وشائج شاملة لمقومات الأمة الواحدة قلما نرى اجتماعها في أمة متماسكة من أمم العصر الحديث .

وإذا كان محمد علي قد فتح السودان ، ثم ارتحل إليه (من أكتوبر سنة ١٨٣٨

(١) من مقال للأستاذ سليم حسن . جريدة المصرى ١٢/٩/١٩٤٨

إلى مارس ١٨٣٩) فإنما أراد بفتحه ضم الشطر الجنوبي من مصر إليها ، وإنهاض هذا الشطر الذى أُهْمِلَ حتى أغْفَى .

والذى يقرأ أخبار الرحلة يعجب بما كان يتوخى محمد على من ترقية السودان ، ويحده يذيع فى السودانين بمشوراتِه أن الجيش المصرى لا يحمل لهم سوى السكينة والسلام ، وأن فى وسعهم أن يقابلوا الوالى فى غير خوف ، لأنه سيرحب بهم ، وهو لا يبغي من رحلته إليهم سوى العمل خيرهم وإنماء ثرواتهم . وقد أرشد المشايخ والزعماء الذين قابلوه بالخرطوم ، وملوك سنار وفازوغلى ورؤساء العشائر الذين قابلوه بالصريرص إلى تنظيم الإدارة ، والعدل ، وتحسين وسائل الزراعة والصناعة .

وخطب فى (فاشققارو) خطبة شاققت العلماء ورؤساء العشائر إلى زيارة مصر ، وطلب محمد على من السودانين أن يرسلوا أبناءهم معه إلى مصر ، لينشئهم فى مدارسها ، فإذا ما أتموا تعليمهم عادوا إلى بلادهم ، فسروا بذلك ، ووعدوه أن يستجيبوا لمشورته^(١) .

وقد حاول سعيد وإسماعيل أن يبطلا النخاسة ، وجداً فى ذلك ، ففى نوفمبر سنة ١٨٥٧ سافر سعيد إلى السودان ، ولقى فى بربر وجهاء البلاد ، وأعلن لهم رغبته فى إبطال تجارة الرقيق ، ثم أتجه إلى الخرطوم ، وأمر بإنشاء محطة عسكرية على نهر السوبات لمراقبة تجار الرقيق ، وقطع دابر النخاسين^(٢) .

ولما تولى إسماعيل وطد العزم على إبطال الرق ، وكانت النخاسة على أشدها ، على الرغم من جهود محمد على وسعيد ، فأمر حاكم السودان بتعقب النخاسين ، فتعقبهم وسجن بعضهم . ثم عين السير صمويل بيكر سنة ١٨٦٩ حاكماً على البلاد الاستوائية ، وسيره بجيش ليبطل النخاسة فى الإقليم الاستوائى ، وسير بعده السكولونيل غوردون ليواصل ما بدأه بيكر . وفى سنة ١٨٧٧ عقد مع بريطانيا معاهدة لمنع تجارة الرقيق ، وإبطال الرق^(٣) .

(١) جورنال الرحلة ٢١ إبريل سنة ١٨٣٩ باللغة التركية . عن مجلة المصور ١٤/٢/١٩٤٧

(٢) تاريخ مصر فى عهد إسماعيل ٣٠٧/١ الأيوبي

(٣) المرجع السابق ٣٠٨-٣٢٣

وظلت علائق مصر بالسودان قوية منذ عهد محمد علي وإسماعيل إلى أن حاولت إنجلترا قطعها باتفاقيتي سنة ١٨٩٩ .

والإنجليز أنفسهم يعرفون أن السودان ومصر قطر واحد ، وحسبنا أن تشرشل يقول في كتابه (حرب النهر) الذي نشره بعد اتفاق ١٨٩٩ : « لا يملك الناظر إلى خريطة النيل نفسه من الدهشة لذلك التشابه القوي بين نهر النيل وشجرة النخيل . ففي شمال النيل تجد الخضرة وحقول الدلتا الخصبة ، تنتشر كأغصان الشجرة ذات الأوراق النضرة . وقد تلاحظ أن جذع النخلة يتعرج ، وهكذا النيل ينساب مثنيا وسط الصحراء . وفي جنوبي الخرطوم تجد شجها تاما بين مجرى النهر والنخلة ، لأن جذع النخلة يبدو متغلغلا إلى أعماق الجنوب . ولا أستطيع أن أتخيل صورة أقوى من هذه لإبراز العلاقة الوثيقة بين مصر والسودان ، فالماء — حياة مصر — يجري من السودان ، وينساب في مجرى النهر كما يدب عصير الحياة في جذع النخلة صاعدا إلى ذروتها لتثمر ثمرها .

وفائدة مصر من صلتها بالسودان بديهية لا تحتاج نقاشا ، لكن الفائدة لا تعود على مصر وحدها ، بل تعم مصر والسودان جميعا ، وهما يتبادلانها .

وإذا كان السودان جزءاً لا ينفصل من مصر طبيعيا وجغرافيا فإن صلته بمصر لا مندوحة عنها ، لتقدمه ورفاهية أهله .

وماذا تكون فائدة الجذور والأرض الخصبة إذا انتزع الجذع عنوة ، وهو الذي يوصل عصير الحياة إلى الفروع والأوراق ؟

لهذا السبب الواضح ، ولهذا الغرض الشريف قامت (حرب النهر) لتحقيق وحدة أرض لم يكن من الممكن أن تظل منفصلة ، ولتجتمع شتات شعبيين ليس من الممكن التفريق بين مستقبلهما السعيد .

وقد اعترفت إنجلترا بضرورة هذه الوحدة منذ احتلت مصر ، فباسم خديو مصر أخرجت القائد الفرنسي مرشان من فاشودة ، وبرجال مصر وأموال مصر أعادت الأمن والنظام إلى السودان ، وطالما أعلنت في وثائق رسمية أن السودان جزء من مصر . ولطالما أنفقت مصر على السودان أموالا عظيمة .

لكن إنجلترا أجبرت مصر في أحوال اضطرارية أن توقع على اتفاق سنة ١٨٩٩ لتشارك مصر في حكمه ، وترفع العلم البريطاني بجوار العلم المصرى في أنحائه ، وليحكمه بريطاني لا يعزل إلا برضا بريطانيا ^(١) ، وهذا الاتفاق باطل قانونا ^(٢) .
وعجيب أن تفكر إنجلترا بعد سنة ١٨٩٩ في سلخ السودان من مصر ، غير قناعة بادعائها الشركة فيه .

وأعجب العجب أنها كانت تنادى بضرورة السودان لمصر وهى تحتلها ، لأنها طامعة فيهما معا ، فلما استقلت مصر وأفلست من مطامع إنجلترا جعلت تسعى لفصل السودان ، وصار ما كان ضروريا بالأمس غير ضرورى اليوم .
شوقى والسودان

عاصر شوقى هذه الحال ، فكان حريصا على السودان ، داعيا إلى الضن به ، منوها بوثاقه العلائق بينه وبين مصر .

وليس حرصه هذا بجديد ، فإنه فى ١١ مارس سنة ١٨٩٥ م قال قصيدة بمناسبة وصول جثمان الخديوى إسماعيل إلى القاهرة ، أشاد فيها بتوسيع إسماعيل فتوح جده فى السودان ، وذكر أنه بذل فى ذلك أموال مصر ودماء بنينا ، وأن السودان جدير بهذه التضحيات ، وأشاد بتنظيم إسماعيل للسودان ، ونوه بسعادة مصر بسودانها ، واستفادتها منه ، واطمئناتها إلى أن شطرها الجنوبي سياج للمملكة وحصن .

ولست أدري كيف جانب شوقى كياسته ولباقته فعبر بكلمة (عبد) فى البيت الأول:
وملكت السودان فى الطول والعرض وفى شأنه المعظم عبدا
نلت بالمال والدماء منه أرضا بجبال الياقوت والدر تفدى
ثم نظمته ————— لك كانت نار تنظيمها سلاما وبردا
فهنئنا به السع ————— ادة عمرا وأصبنا به المع ————— ين المميدا

(١) مذكراتى فى نصف قرن ٢/٢٩٥-٢٩٩

(٢) راجع (الأسانيد الدولية والقانونية على بطلان اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩) للرافعى .

جريدة المصرى ١٩/١/١٩٤٧

وطريق البلاد نحو المـ الى وسياجا للملك مصر وحداً^(١)

وإذا ما قال قصيدته في (مصرع كتشنر) ذكر الشباب بأنه بنى مجده على دعائم من جهود مصر وشبابها، فهم الذين فتحوا السودان، وحذرهم أن يفرطوا فيه، لأن فقدان السودان مضيعة للوادي كله :

شدتمُ دنياه في أحسنها غزوة السودان والفتح الأغر
وبنى مملكة الثوب بكم فاذكروا القتلى ولا تنسوا البدر
واحذروا من قسمة النيل فيا ضيعة الوادي إذا النيل سُطر^(٢)

وقد جرى على عادته في مناجاة توت عنخ آمون وبشه ما يحبره أو يحزنه من حال مصر، فهو يفتتح إحدى قصائده في توت عنخ آمون بتمنيه أن تنفخ فيه الروح قبل البعث، ليملا الأرض عدداً حربية، ويفتح منابع النيل ويسترد لها مصر، لأن السودان حياة مصر، فيه منابع مائها، وأهلوه إخوة المصريين وأحباؤهم. ثم ودعا شوقي ألا يعترى صلة مصر بالسودان ما يرتفعها ويبتعث الشكوى من الجفاء أو القطيعة، وصور حب المصريين للسودانيين تصويراً لائقاً بفنّه وافتنانه، تصويراً جمع الإيجاز والجمال والسكرياسة واللباقة، فقال إن القرابة بيننا وبين إخواننا سكان الجنوب، والوشائج المتصلة بهذه القرابة، أحالت سواد ألوانهم في عيوننا بياضاً :

قم سابق الساعة واسبق وعدّها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمّها
واملاً رماحاً غورها ونجدّها وافتح أصول النيل واستردّها
شـ لآلها وعذبها وعـ دّها واصرف إلينا جزرها ومدّها
تلك الوجوه لا شكونا فقدها بيضت القربى لنا مسودّها^(٣)

(١) الشوقيات ١٢٠/١

(٢) الشوقيات ٢٠٢/٢

(٣) الشوقيات ١٩٧/٢ العدد : الماء الجارى الدائم الجريان

ولم يفته وهو يهنيء سعداً بنجاته من الاغتيال أن يذكره بضرورة السودان
وقيمة لمصر، وأن ينوه بحرص مصر على السودان وقناة السويس معاً.

وإنه لبارع في تصويره مصر جنات، والسودان عيونها، وهل تنبت جنات وتحيأ
أشجار وتثمر ثمرات بغير ماء؟ ثم صور النيل التابع من السودان لا يجري بالماء،
بل يجري بالحياة، فهو في أرجاء مصر أوردة وشرابين تحمل الغذاء والنماء، ولولاها
ما عاش الأحياء.

وزاد على هذين التصويرين ثالثاً أن ينابيع النيل تكمل مصر وتحملها، وتسكفل لها
الإبصار، فهي كإنسان العين للعين، وإذا فقدت مصر سودانها عميت وضلت وحارت
وانطمس جمالها.

وذكر بالآصار التي يجب أن يرعاها المصريون والسودانيون، وندد بتعلة إنجلترا
في ادعائها الشركة، ورد عليها بأن مصر هي التي احتملت مغارم الفتح وأثقال
الاسترجاع، فليس لإنجلترا حق في دعواها، لأنها لم تحتل أي نصب في فتح السودان
ولا في استعادته، ولأنها لا تمت إلى أهليه بسبب من الجنس أو اللغة أو العادات
أو الإقليم. وليس لها من أرب إلا الاستعمار وتمير أموالها وفسح مجال لأبنائها
ومتاجرها، ولكنها تسند باطلها بالقوة طبقاً لشرعية الغابة:

ويا سعد أنت أمين البسلا	د قد امتلأت منك أيمانها
ولن نرتضى أن تُقَدَّ القنا	ة ويُبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصبأ	ح وليس بمُعِيكَ تبيانها
فصر الرياض، وسودانها	عيون الرياض وخليجانها
وما هو ماء ولكنه	وريد الحياة وشربانها
تتم مصر ينابيعه	كما تتم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه	عشيرة مصر وجيرانها

وأما الشريك فعِلاته هي الشُّركات وأقطانها
 وحرب مضت نحن أوزارها وخيل خَلَّتْ نحن فُرسانها
 وكَم مَنْ أَتاك بمجموعة من الباطل ، الحقُّ عنوانها
 فأين من المنش بحر الغزا ل وَفَيْضُ نِيانزا وَتَهْتانها؟
 وأين التماسيح من لجة يموت من البرد حيتانها؟
 ولكن رءوس لأموالهم يحرك قرنيه شيطانها
 ودعوى القوى كدعوى السبا ع من الناب والظفر برهانها^(١)

(١) الشوقيات ٣٣٢/٢ بتر : يقطع . معيبك : معجزك . لإنسان العين : الدائرة التي في سوادها .
 أوزار : أسلحة . المنش : بحر في الشمال الغربي لأوروبا بين إنجلترا وفرنسا . بحر الغزال : أحد فروع
 النيل الأبيض في السودان . نيانزا : إحدى البحيرات التي ينبع منها النيل .

الفصل السابع الدستور

وجواهر النجاة ما لم تتخذ

من معونه الدستور غير صحيح
(شوقي)

بَيِّنَةُ الدِّسْتُورِيَّةِ

(١) إذا ما رجعنا إلى تاريخ مصر الحديث وجدنا بذورا تلقى غن غير قصد، ثم تتوالى عليها أحداث تكفل بقاءها ونماءها، فتنبئت منها دوحة الدستور. ولقد يكون من الإنصاف أن نذكر حقيقتين:

الأولى: أن نابليون أنشأ ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم والديوان العام سنة ١٨٩٨ م ليهتدى بأراء الزعماء في حكم مصر، في وقت لم يسعد الشرق فيه بحكم نيابى، بل لم يكن يعرف هذا الحكم من دول الغرب إلا اثنتان: إنجلترا وفرنسا. ولم يكن نابليون يريد من هذه الدواوين أن يدرب المصريين على حكم دستوري نيابى، أو أن يكل إليهم تصريف شئونهم بأنفسهم، لأن هذا يتنافى والسلطان الذى يبتغيه من فتحه، وإنما كان يريد من هذه الدواوين، ومن منشوراته التى وزعها على الأهلىن، ومن ضروب التودد التى أظهرها للشعب وزعمائه، أن يوطد سلطانه ويدعم بنيانه، ويؤسس دولة فى الشرق.

الثانية: أن محمد على أنشأ فى سنة ١٨٢٩ م مجلس المشورة من كبار موظفى الحكومة والعلماء والأعيان برأسة إبراهيم باشا^(١)، لكن هذا المجلس كان استشارياً، لا سلطة

(١) أعضاء المجلس ١٥٦ منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩ من كبار الأعيان

له في نقد الحكومة أو إلزامها بقراراً ما ، فهو إذا كالدويون الذى أنشأه نابليون ، لكن من حقه أن يشير على الحكومة فى شؤون الإدارة والتعليم والأشغال والقضاء ، ومن حقه أن يدرس الشكاوى التى تقدم إليه . وهو ينعقد فى كل سنة مرة ، ويجوز أن يستمر انعقاده جلسات عدة . ثم أُلّف محمد على المجلس المخصوص والمجلس العمومى ولم يكن لهما حول ولا طَوّل ، لأنهما فى قبضة يده ، أو فى قيد الكتبخدا^(١) .

فمن البديه أن محمد على لم يَحْفَظ بإنشاء نظام دستورى أو شبه دستورى بالمعنى الذى نفهمه الآن .

وقد يكون مردُّ ذلك إلى ميله إلى الانفراد بالحكم المطلق ، فى عهد لم يكن الشعب قد بلغ فيه من الوعي ما يدفعه إلى المطالبة بالحكم الدستورى ، لأننا سنرى الشعب فى أواخر عهد إسماعيل وبداة عهد توفيق يجاهر بطلب حقوقه ، ويلج فى أن يحكم نفسه بنفسه ، بل يتذرع بالقوة أحياناً فيصطدم بالحاكمين .

(٢) ألغى مجلس المشورة فى عهد عباس وسعيد .

فلما آل الحكم إلى إسماعيل أنشأ مجلس شورى على نسق جديد ، سماه (مجلس شورى النواب) سنة ١٨٦٦ م ، وهو مجلس استشارى ، ينتخب نوابه عهد البلاد ومشايخها فى المديرىات ، والأعيان فى القاهرة والإسكندرية ودمياط ، لمدة ثلاث سنوات ، وينعقد فى كل سنة شهرين ، ويتمتع أعضاؤه بالحصانة البرلمانية . ويرجع السبب فى ضعف سلطانه فى أول الأمر إلى أنه منحة من الخديو ، لا استجابة لرغبة الشعب ، لكنه كان على ضعفه المؤقت جراً للحرية ، وللحكم النيابى ، لا بد أن تعقبه الشمس ، لأن دراسة مضابطه تكشف عن استنارة بعض أعضائه ، ومشاركتهم فى ترقية الشعب باقتراحات عدة^(٣) .

(١) تاريخ الحركة القومية ٥٧٢/٣ — ٥٧٩ الرافعى .

(٢) عصر إسماعيل ٩٢/٢ — ٢٣٦ الرافعى .

اقترح بعضهم فى الدورة الأولى للمجلس الأول تخفيف الخيرة ، ونقسيط الأموال الأميرية ، وتحديد مواعيد لدفعها ، وتعميم المدارس الابتدائية ، وقررت اللجنة التى أحيل إليها هذا الاقتراح إنشاء مدرسة فى كل مديرية وكل محافظة ، وأن يكون التعليم بالحقان ، ووافقت الحكومة على هذا الاقتراح . وأعلن =

وإذا عدنا بالخيال إلى ذلك العصر استبشرنا بأعمال المجلس في دورته الأولى ، وأيقنا أن في الشعب استعداداً كامناً للحكم الشورى ، لا بد من أن ينمو ويقوى مع الزمن ، لأن هذا المجلس شبّ ونهض حتى صار قوة ذات خطر .

ثم نهضت المعارضة والحياة النيابية فيما بين سنة ١٧٨٦ و ١٨٧٩ ، وبدأت النهضة في مناقشات الأعضاء وأعمالهم ، وسرى في المجلس نسيم منعش طرد سحب الخمول والجمود التي كانت تُغشى سماءه أحياناً في الدورات السابقة .

لذلك لما دُعِيَ المجلس للاجتماع سنة ١٨٧٩ رحبت به الصحف الوطنية ، وأملت آمالاً كباراً في أعماله « لتعرف مصر قيمته ، وتذكر كنهه حساً ومعنى ، وتجنّى باكورة ثماره »^(١) ، وأملت أن ينهض النواب بواجبهم « ولم لا ؟ وإن من أعضائه رجالاً

== شريف باشا للمجلس أن الحديو وقف على المدارس جميع الأعيان التي يتكون منها تفتيش الوادى . فقال المجلس هذا بالشكر ، واقترح أيضاً منع مجازاة العمد بالضرب ، فطالب نائب بمنع الضرب عن العمد وغيرهم ، وأن يحذف من القانون النص الذى يبيح للحكام الضرب ، فوعدت الحكومة بذلك . وفى الدورة الثانية اقترحوا لإنهاء الزراعة ، وإنشاء حقول للتجارب ، والعناية بالرى والترع ، وردم البرك والمستنقعات ، وتعميم لقاح الجدري ، وإنشاء المستشفيات . وفى الدورة الثالثة اقترحوا تنصيب مشايخ البلاد برغبة الأهلى وانتخابهم ، وتوسيع الشوارع الضيقة وتنظيم المباني بالمدن والقرى . وفى الدورتين معا ناقشوا المسألة المالية .

أما المجلس الثانى فن أهم اقتراحاته ترتيب المحاكم ، وإلغاء ضريبة الماشية ، وتعديل النظام القضائى ، وبحث فى الميزانية ، وإن كانت البيانات التي قدمت إليهم غامضة بجملة ، وضل بهم إسماعيل صديق المفاش . وعارض المجلس بزعامة عبد السلام المولىجى فيما آلت إليه حال مصر من جراء السياسة المالية المختلفة والقروض الكثيرة المتتالية ، وشراء إنجلترا أسهم مصر فى قناة السويس بثمان مئى ، حتى لقد قدمت بعثة كيف الإنجليزية لدراسة مالية مصر ، وأنشئ صندوق الدين سنة ١٨٧٦ . وقد صرح الحديو إسماعيل فى دور الانعقاد الأول للهيئة الثالثة ١٨٧٦ — ١٨٧٩ فى خطبة العرش أن للمجلس حقاً ثابتاً فى الاشتراك فى شئون الحكم وتصريفها . وأجاب الأعضاء على خطاب العرش سنة ١٨٧٩ بكتاب يختلف عن كتبهم السابقة ، فيه سمو واعتزاز وتقدير للنيابة والنواب ، وخمومه بالهتاف للحديو وللحرية وهم بهذا الكتاب وضعوا أساس المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب . وغضبوا لما تأخر وزير المالية فى إرسال مشروعات وزارته ، ثم غضبوا لأن مرسوم ٦ يناير سنة ٧٩ جعل القوانين المالية تصدر من الوزارة والحديو ، واعتراضوا على ذلك اعتراضاً شديداً ، علقت عليه جريدة التجارة بقولها : « إن من تصفح ذلك التقرير علم أن فى السويداء رجالاً سوفتهم نفوسهم ، فلا تسام خسفاً ، ولا تضام عسفاً » (عصر إسماعيل ١٩٠/٢ الرافعى وجريدة التجارة العدد ١٨٠) .

(١) جريدة التجارة عدد ١٥٣ أديب إسحاق

لأننا أخذهم في الحق لومة لأنهم ، مع العلم بواجباتهم وحقوق الأمة ، وما ألم بها من الآلام ، وبودهم لو افتدوا الإصلاح بدمائهم . وتناقل الثقة خبرا آخر وهو أنه سيسمح لمراسلي الجرائد بحضور جلسات هذا المجلس ، لاستماع المفاوضة فيه ونقلها إلى الصحف ، فأبشروا أهل مصر بعصر جديد يغنى به طارف المجد عن تليد^(١) ، ولما استقالت وزارة نوبار باشا لم يقف المجلس جلساته ، بل أخذ يجتمع ويتداول الرأي والعمل ، وتلك سنة حميدة أراد بها المجلس أن يبرهن على استقلاله عن الوزارة . وألفت وزارة رياض باشا ، ورأى الوزيران الأوروبيان أن المجلس سيضع العقبات في طريق الوزارة ، وسيشَلَّ سلطتهما ، فاعتزما التخلص منه ، ووافقهما رياض لميوله الاستبدادية ، فاستصدرت الوزارة مرسوما بقصّ المجلس ، بدعوى أن مدة النيابة وهي ثلاث سنوات قد انتهت ، لكن الأعضاء ناقشوا رئيس الوزارة وأخفموه ، ثم قدموا في ٢٩ مارس سنة ٨٧٩ كتابا للخديو يعترضون فيه على مسلك الوزارة^(٢) . ثم خطوا خطوة أخرى موفقة ، إذ اجتمع الأحرار من النواب والأعيان في جمعية وطنية تضم صفوة الكبراء ، واتفقوا على وضع بيان يتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع ريفرز ويلسن ، ويطالبون فيه بتأليف وزارة وطنية مستقلة ، وإقصاء الوزيرين الأوربيين ، وتقرير نظام دستوري للبلاد قوامه أن تكون الوزارة مسؤولة أمام مجلس النواب .

وقدموا اللائحة بذلك إلى الخديو فقبلها ، واستجاب لمطالبهم ، واستدعى وكلاء الدول ، وأخبرهم أن اللائحة تطلب وزارة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخب على نظام جديد^(٣) .

وأعجبت الصحف بقوله في كتابه للقناصل : « إن الأمة قد أجمعت على تنفيذ هذه اللائحة ، ومعلوم لجنا بكم أن الأمة إذا اتفقت كلمتها وإن على خلع ملك أو سلطان فلا بد من تنفيذ إرادتها وإجابة رغبتها^(٤) » .

(١) جريدة التجارة العدد ١٥٣ (٢) عصر إسماعيل ٢/٢١٤

(٣) تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل ٢/٤٨١

(٤) جريدة التجارة ٩ إبريل سنة ١٨٧٩

وكلف الخديو شريف باشا أن يؤلف وزارة وطنية جديدة ، وبذلك نحي
الوزيران الأجنيبان .

وقال الخديو في كتابه لشريف باشا الذي يكلفه فيه تشكيل الوزارة : «إني بصفتي
رئيس الحكومة ومصريا أرى من الواجب على أن أتبع رأى الأمة وجعل
الوزراء مسئولين مسئولية حقيقية أمام مجلس الأمة ، الذي ستنظم طريقة انتخابه ،
وتقرر حقوقه »

لكن هذا المجلس الجديد لم يجتمع ، لأن إسماعيل خلع ، وكان من أسباب خلعه
أن الدول رآته في آخر عهده يناصر الحركة القومية ، ويعضد الأحرار ، ويستجيب
لمطالبهم ، والدول وبخاصة إنجلترا تسخط على الحركة وعلى من يشجعها .
وبذلك يكون المجلس قد أنشئ في عهد إسماعيل سنة ٦٦ ضعيف الحال محدود
السلطان ، ثم استوفى حوله وسلطانه سنة ٧٩ . والذي يقرأ دستور سنة ١٨٧٩ يجد ظفرة
وشبها عظيما في سعة السلطة بالمجلس النيابي الذي قام بمصر منذ سنة ١٩٢٣ .
لذلك قال بعض كتاب الإفرنج إن النظام الذي وضع له كان في غاية من الحكمة
والسماحة ، وإنه يصلح لأن يكون نموذجا وقدوة لعموم الأقطار بغير استثناء ، وإنه
لخليق بأن يحسد العالم المتمدين مصر عليه ^(١) .

وجدير بالتنويه أن النواب في الفترة الأخيرة من عهد الخديو إسماعيل كانت لهم
مواقف مشرفة في رعايتهم لمصالح الأمة ، حتى لقد اضطروا بعض الوزارات إلى الاستقالة ،
وكان في الصدارة من هؤلاء المعارضين عبد السلام المويلحي الذي أطلق عليه ميرابو
مصر ، لأنه ألقى في وجه وزير الداخلية حينما أراد أن يفض المجلس بالكلمة المأثورة
عن ميرابو رجل الثورة الفرنسية (نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على أسنة
الرماح) . وقد كان ذلك في جلسة ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩

(٣) ومنذ اعتزت مصر بالحكم النيابي لم تغفل عن الاستمسك به ، فقبيل الثورة

(١) تاريخ مصر في عصر الخديو إسماعيل ٨/١ — ٧٣ الأيوبي وحقائق الأخبار عن دول البحار

العرايية طلب الضباط إنشاء مجلس نيابي يخول تقرير الميزانية ، والرابة على الوزارة^(١) . ثم نجح عرابى فى إرغام الخديو توفيق على تنحية رياض باشا عن الوزارة ، فتولاها شريف باشا ثالث مرة ، وقدم إليه الأعيان طلباً بإنشاء مجلس النواب . وقد حقق مطلبهم ، لأنه كان مقتنعاً قبل الثورة بحاجة مصر إلى حكم نيابى .

وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ افتتح المجلس ، ووضعت وزارة شريف دستورا جديدا^(٢) ، وعرضته على المجلس فى يناير سنة ١٨٨٢ م وكان مقتبسا من الدستور الذى وضعه شريف سنة ١٨٧٩ فى آخر عهد إسماعيل ، وحال التدخل الأوروبى دون تنفيذه . وقد جهر شريف فى خطبته بالمجلس بأنه يعلم منذ ثلاث سنوات أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من مآزقها هى توسيع نطاق الشورى ، واشترك النواب مع الحكومة فى دراسة الأمور المهمة النافعة^(٣)

لكن تدخل إنجلترا وفرنسا عوق هذا الدستور أيضا بعد أن ناقشه المجلس ، وانتهى منه فى ١٨ يناير سنة ١٨٨٢ ، فاضطر شريف إلى الاستقالة ، وسجل فى استقالته أنه لا يستطيع فى مثل هذه الأحوال أن يحكم حكما دستوريا^(٤) .

وخلفه محمود سامى البارودى فى رئاسة الوزارة ، وكان عرابى فيها وزيرا للجهادية والبحرية . فكان طبيعيا أن تستمسك الوزارة بالدستور ، لأن عرابى فى طليعة الملحنين فى طلبه ، ولأن البارودى من أنصار الحرية والدستور . يقول عرابى عن البارودى فى مذكراته وهو يتحدث عن مكيدة دبرت له ولزميلين من زملائه سنة ١٨٧٩ فى آخر عهد إسماعيل : « وكذلك طلبنا مأمور الضبطية محمود سامى باشا البارودى وأخبرنا بما أخبرنا به عبد القادر باشا حلمى ... وقد آنست فيه تأفقا من الظلم والاستبداد ، وميلا إلى العدل والدستور »^(٥) . ويقول عنه أيضا : « وفى أوئل شهر يناير سنة ١٨٨٢ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية فأطنب فى الشاء على القيامى بنشر راية الحرية

(١) الثورة العرابية ١١٢ الرافعى (٢) تقرر فيه مسئولية الوزارة أمام المجلس ، وحق المجلس فى تقرير الميزانية ، ومراقبة أعمال الحكومة ، وموافقة على الضرائب والقوانين قبل إصدارها

(٣) مذكرات عرابى ١٠٨/١

(٤) عصر إسماعيل ٢٣٧/٢ — ٢٦٣ الرافعى (٥) مذكرات عرابى ٤١/١

في مصر وملحقاتها من بعد مضي خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون في قيود الاستبداد، ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحي بحياته ويجود بآخر نقطة من دمه في تنفيذ رغبتى^(١).

في هذه الوزارة نقح الدستور الذى وضعه شريف، في فبراير سنة ١٨٢، ووقع الخديو المرسوم، وعرضه على مجلس النواب القائم فأقره بالإجماع. وأقيمت في البلاد حفلات الابتهاج، وعارضت إنجلترا وفرنسا كما عارضتا من قبل، فلما لم تجد المعارضة بدأت مؤامرات إنجلترا تبرز سافرة، وبدأت أحداث الثورة العرابية^(٢).

(٤) ولما نكبت مصر بالاحتلال ألغى دستور مصر ومجلس نوابها، وعهد إلى لورد دوفرين أن يضع مشروعاً جديداً لنظام نيابى يكون ستارا يوارى مساوىء الحكم المطلق، ومساوى الاحتلال، وتمخض تفكير اللورد عن مجلسين: أحدهما مجلس شورى القوانين^(٣)، والآخر الجمعية العمومية^(٤) ورأيهما استشارى وجلساتهما سرية (من سنة ١٨٨٣ إلى ٣ مارس سنة ١٩٠٩ ثم صارت علنية)^(٥).

وهما في الحق — كما قال المستر لا بوشير — صورة كاذبة للحكم الدستورى، أجيد رسمها^(٦).

وفي سنة ١٩١٣ حلت الجمعية التشريعية محلها^(٧)، على أن اختصاصها لم يزد إلا قليلا على ما كان لمجلس الشورى، وقد نشبت الحرب الكبرى بعد الدورة الأولى للجمعية التشريعية، فأجلت إلى أجل غير مسمى، وأعلنت الأحكام العرفية في مصر، وصار الحكم لا يستند إلى هيئة نيابية.

(٥) لم ينخدع المصريون بهذه النظم التى أراد الاحتلال أن يلبسهم بها، فكانوا

(١) مذكرات عرابى ١٠٠/١ (٢) مذكرات عرابى ١٢١/١ — ١٣٦

(٣) يتألف من ٣٠ عضواً تعين الحكومة منهم ١٤ وتنتخب مجالس المديرىات ١٦. وليس له الحق في إجازة أى قانون، لأن عمله مقصور على إبداء رأيه فيما تعرضه عليه الحكومة من المشروعات القانونية

(٤) تتألف من ٨٢ عضواً ينتخب منهم ٤٦ بطريقة ضيقة والباقيون هم النظار وأعضاء مجلس الشورى. وتختص بالنظر في الضرائب الجديدة قبل فرضها، وتجتمع في كل عام مرة

(٥) محمد فريد ١٠٧ للرافعى (٦) تاريخ المسألة المصرية ٢٢٠

(٧) تاريخ العصر الحديث في مصر ٢٢٣ — ٢٢٥

يضجون من إشار مصالح الاحتلال على مصالحهم ، ومن هيمنة الإنجليز على شؤونهم ، وكانت المقاومة ممثلة في سنة ١٨٩٣ في الخديو والوزارة والموظفين والهيئات النيابية . وكان مجلس الشورى ينتهز فرصة النظر في الميزانية كل عام فينتقد أعمال الحكومة ، ويطالب بالغناية بالتعليم والإصلاح العام ، ويحتج على نفقات جيش الاحتلال .

وفي ٤ مارس سنة ١٩٠٤ طالبت الجمعية العمومية بالدستور والحياة النيابية ، فحق لورد كرومر حنقا شديداً ، وفي ديسمبر سنة ١٩٠٨ ضم مجلس الشورى صوته إلى الجمعية العمومية فقرر بإجماع الآراء طلب الحكم النيابي . ومن مفاخر الجمعية العمومية أنها رفضت في سنة ١٩١٠ مد امتياز قناة السويس .

ولقد نشطت الدعوة إلى الدستور أيام الخديو عباس ، وكان الخديو يشجع الدعوة كما يشجعها من قبله إسماعيل .

والباعث واحد ، فإسماعيل يضيق بالرقابة الأوروبية على خزانة مصر ، ويريد أن يتحلل من هذه الرقابة ، ويسترد سلطانه على حكومته عن طريق مجلس النواب والوزارة الدستورية .

وعباس يضيق بعجرفة لورد كرومر وإشرافه الطاغى على شؤون مصر الداخلية ، فهو يريد من الدستور والحكم النيابي أن يحد من هذا الطغيان الذي سلبه مظهر الحكم . (٦) ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر أن دعوة المصريين إلى الدستور لم تكن مجارة لإسماعيل أو لعباس ، بل كانت دعوة وطنية خالصة ، لأن الذين دعوا إلى الدستور وجاهدوا في سبيله دعوا إليه والخديو يريده ، ودعوا إليه وهو لا يريده ، وهل كان الخديو توفيق راغبا في الدستور والحكم النيابي ؟ لقد كانت الدعوة إليه في عهده مججلة وهو مبغض لها وللقائمين بها .

كذلك لما جنح الخديو عباس إلى سياسة الوفاق مع إنجلترا بعد عزل لورد كرومر ومقدم السير إلدون غورست سنة ١٩٠٧ لم يفتّر دعاة الدستور عن المطالبة به ، بل ازدادوا حماسة بعد سنة ١٩٠٤ التي حدث فيها الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا على التراضي في المسألة المصرية والمراكشية . وكان هذا الاتفاق الذي قصدوا به إطفاء جذوة الحمية الوطنية ، وتخيب رجاء المصريين في مساعدة الدول الأوروبية باعثاً قوياً

من بواعث النشاط واليقظة في عقيدة المصريين ، وبدايةً لاجتماع الآراء العامة على رأى واحد وتسديد الخطا إلى غاية واحدة «^(١) . وقد رأينا شعراء مصر يهشون للدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، ويجاهرون بأنهم يريدون لمصر دستوراً مثله «^(٢) .

(٧) ولا شك أن المطالبة بالدستور ، وأن معارضة الاحتلال ، ومكافحة الاستبداد قد قويت منذ توليها «مصطفى كامل» ، فقد أسس الحزب الوطني ، وأقامه على المطالبة بالجللاء بالدستور . وله في هذا جولات وصيحات مدويات . فقد كتبت في (اللواء) في ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالا بعنوان (الحكومة والأمة في مصر) ذكر فيه وعد لورد دوفرين باسم حكومته أن يؤسس في مصر مجلس نيابي ، وندد بإخلاف الحكومة البريطانية وعدّها كما أخلفت وعود جلائها ، ودعا إلى الدستور في خطبته في العيد المئوي لمحمد علي يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ ومما قاله : « أين ذلك الدستور الذي يلجم الحكومة بلجام من حديد ، ويهب الأمة حرية الرأي والفكر ، وحق المراقبة لأعمال الحكام ، وسن القوانين والشرائع ، ومناقشة الوزارة في الصغائر والكبائر ... لعمري إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور هو الفوضى في لباس النظام ، والاختلال في قالب الاحتلال ، وإلا فأين الطمأنينة التي تطمئن لها القلوب والخواطر ؟ أين مجلس النواب المصري الذي يقف في وجه كل طامع ، ويرد كل ظالم ؟ أين ذلك المجلس الذي وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دوفرين ؟ » .

وكرر هذه الصيحات في مقالات باللواء «^(٣) .

ولما حمل بعده محمد فريد راية الجهاد دأب على المطالبة بالدستور والحكم النيابي ، من ذلك قوله في خطبة بالمؤتمر الوطني (الجمعية العمومية السنوية للحزب الوطني) في ٧ يناير سنة ١٩١٠ : « الجناب العالي الخديوي موجود الآن بالمدينة المنورة ، بجوار قبر أشرف السكائنات ، وغداً تذكّر توليته على الأريكة الخديوية ، لذلك أقترح عليكم إرسال تلغراف إلى سموه لتنهئته بعيده الميمون ، ولتوسل إليه بالمصطفى

(١) سعد زغلول ١٤٠ العقاد (٢) راجع (ضحا الوطنية)

(٣) ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ و ٩ مارس سنة ١٩٠٤

أن يرد إلينا الدستور ، ليكون ذلك أحسن أثر لقيامه بفريضة الحج المبرور ، تحفظه له الأمة ويذكره له التاريخ مدى الدهور^(١) .

(٨) ثم أعلنت الحماية سنة ١٩١٤ فثارت الأمة ثورتها الكبرى سنة ١٩١٩ بزعامه سعد زغلول ، لأسباب أهمها إعلان الحماية ، والسخط على مشروع الدستور الذي وضعه السير وليم برونيات سنة ١٩١٨ لأنه يرمى إلى إنشاء برلمان مصرى أكثره من الأجانب ، كأن مصر مستعمرة بريطانية يتولى سلطة التشريع فيها شرذمة من الدخلاء .

وكان الشعب قد أفاق كله ، وتطلع إلى حياة أرقى ، واستقاد لزعيمه سعد زغلول . فلما حاولت القوة أن تصده وترده زار وثار ، وجاهد وناضل ، وبذل الدماء والأرواح يشرى بها حريته واستقلاله ، ودستوره وكرامته . ولم تجد إنجلترا بدأ من أن تستجيب لرئيس الوزارة عبد الخالق ثروت فأعلنت من جانبها تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، تعترف فيه باستقلال مصر مقيدا بشروط . ومنذ ذلك الوقت صارت مصر ملكية دستورية ، ونص في دستورها الصادر في ١٩ إبريل سنة ١٩٢٣ على أن الأمة مصدر السلطات .

لماذا تعلق شوقى بالدستور؟

نشأ شوقى فى هذا العصر الحافل بالأحداث ، الزاخر بالعاطفة الوطنية ، المجلجل بالمطالبة بالدستور والحياة النيابية . وأسى كما أسى الأحرار والمثقفون ، لأن الاحتلال سلب مصر ما كانت قد كسبت ، وهدم صرحها النيابى الذى سمكته ، ثم عاد بها القهقرى إلى ظلمات الحكم المطلق . وهو قد درس فى مصر طرفا من القانون بمدرسة الحقوق قبل أن يتحول إلى قسم الترجمة ، ثم بعثه الخديو توفيق إلى فرنسا لىتم دراسة القانون ، فأتىها ، وزار إنجلترا ، وقضى بها عطلة دراسية^(٢) .

وما من شك فى أنه وقف على آراء علماء القانون والاجتماع والسياسة فى خير نظم الحكم ، وتأثر بآرائهم فى إيثار الحكم الدستورى .

(١) محمد فريد ١٢٧ للرافعى

(٢) مقدمة الشوقيات بقلم شوقى . الطبعة القديمة ١٦ - ١٩

على أنه شاهد في السنوات الخمس التي قضاها هنالك صولة الدستور، وفضل الشورى
وسلطان الشعب، فطمح إلى ما طمح إليه غيره من المصريين الذين درسوا في أوروبا
كرفاعة الطهطاوى : أن يكون لمصر دستور، وأن يصرف الشعب أموره بنفسه ،
وأن ينبجس عن سماء الوطن قتام الحكم المطلق .
وشوق كان مولعا بتاريخ الإسلام ، وتمجيد مفاخره ، ويعلم أن الشورى دعامة
الحكم الإسلامى ، فطبعى أن يسترجع ذلك الماضى ، إلى ما يتجدد أمامه فى حاضر
الشعوب الراقية ، فلا يجد مندوحة من الميل إلى الشورى ، والدعوة إليها ،
والاستمسك بها .

ثم كانت صلاته بزعماء الشعب مؤثرة لهذا الميل ، فقد كان على صلة وثيقة ،
وصداقة وطيدة بمصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم .
كان ذلك وشوقى فى ريعان شبابه ، وهو شاعر الخديو تمهده الوظيفة ، وتحد
من جريانه فى الثورة على الحكم المطلق .
فلما نشبت الحرب الكبرى نفي ، ثم ألقى الله على العالم أمنه ، وعاد شوقى إلى مصر
يغرد بالمجد ، ويرجع بالدعوة إلى الدستور فى مناسبات شتى فى عهد الملك فؤاد :

آراؤه الدستورية

شوقى فى دعواته إلى الدستور حر يصور عواطف الشعب آنأ ، ويرشده آنأ ،
لا تلجمه وظيفة ، ولا تمنيه رهبة ، فقد أفاق الشعب واستقاد لزعيمه سعد ، وثار ثورته
الفتية يسترد بها حريته وعزته ، وشوقى مغتبط بهذه الهبة ، يحدو للسائرين أو الطائرين
إلى مثلهم العالية .

ولم يجاره شاعر فى حماسة دعوته ، ولا فى تكرار صيحته ، ولا فى بلاغة جرأته .
ولم يدانه شاعر فى جلال الصور التى صور الدستور بها ، أو فى مهارة الربط بين الفكرة
التي يدعو إليها والمناسبة التي يهتبلها .

ولعل فى هذا بلاغا لنقاد الذين زعموا أنه لا يمثل عصره ، ولم يتحدث بلسان
الشعب ، ولم يصور عواطف معاصريه وميولهم ، وإن هم إلا واهمون أو ظالمون ،

لأن شعره في الدستور والشورى وفضلهما وما يتصل بها كثير منوع الصور، جاشت به نفسه فنفس عنها، وأزجته عاطفته فاستجاب لها. وإنها لعاطفة صادقة لا مجارة فيها ولا مین، ولو أنه جرى لأقل فأشار في معرض أو معرضين، لكنه طرق الدستور وحكم الشورى في مواضع شتى من ديوانه. وهو في بعضها يخلق المناسبة خلقاً، ليجد الدستور وأثره، وليس هذا شأن المجارى. وعاطفته مع صدقها حارة عالية الدرجة نبيلة تثير عواطفنا وإعجابنا.

وإن من يقدر الظروف التي تغنى فيها شوقى بالدستور ليجد حرجها، ويحس أشواكها فكيف سلم من معاطبها شوقى؟ وكيف لم يقف فأرضى نفسه وعبر عن آمال الشعب ولم يجمع به قلبه أو كلمه؟

الحق أنه كان يروض الألباظ حتى لا تثير سخطاً، ويروى المعاني ويصطفها حتى لا يحس منها معارض بحفوة أو نبوة. وليس من السهولة أن تجيب إلى معارض ما يكره وأنت لم تشعره بغضاضة الرجعة، أو لم توقظ في نفسه نوازع العناد. وهذه درجة عليّة من اللباقة والكياسة والحداقة مershوقي في التوصل بها إلى التعبير عما بنفسه منذ عهد عباس إلى عهد فؤاد.

(١) سخطه على حكم الفرد

ظالمنا ندد بالحكم المطلق، وأنحى على استبداد الفرد برأيه، فهو يمجّد أحرار التفكير الذين تعالوا على مظالم المستبد وآثروا الهلاك على أن يكونوا إمعات:

ذهب الذين حموا حقيقة علمهم	واستعذبوا فيها العذاب ويلا
في عالم صحب الحياة مقيدا	بالفرد مخزوما به مغلولوا
صرعته دنيا المستبد كما هوت	من ضربة الشمس الرؤوس ذهولوا
سقراط أعطى الكأس وهي منية	شفق محب يشتهي التقييلا
عرضوا الحياة عليه وهي غباوة	فأبى وأثر أن يموت نبيلوا

إن الشجاعة في القلوب كثيرة ووجدتُ شجعان العقول قليلاً^(١)
وهو معجب بالانقلاب التركي أيام مصطفى كمال لأنه خلاص الأتراك من جبروت
الفرد:

قد أباحوا دمَ آسَدِ الشَّرَى فازدراهم وجَرَى يحمى العرين^(٢)
سال دون الملكِ حتى انتاشه من إمام السوء والرهط المهين^(٣)
حقَّ الف — رد وألغى حكمه إن حكمَ الفرد مرذولٌ لعين
ويخاطب أم المحسنين والدة الخديو عباس — وقد عادت من تركيا — مثنياً على
الكاملين الأحرار الذين قوضوا عهد الظلم وبنوا عهد التحرر:

قد تركتِ الترك في آجامهم طلقاءً بعد رِقِّ ظافرين
أخذوا دولتهم من دمهم بذلوا الغالى فأبوا بالثمين
لم يؤهنهم ولم يقعد بهم أن يكونوا عشراتٍ أو مئين
بَسَطُوا الأيدي إلى مِشاقهم وإلى الموت عليه مقسمين
وتحدوا هازئاً ينعتهم — بالخساليين أو بالهزازيين^(٤)

ولا يرضيه من الحكم النيابي مظهره وحده ، لأنه يريد من النواب حرية الرأي
وحرية القول ، وصَدَّ الفرد المستبد أيا كان . لذلك ندَّد بالجلس النيابي في تركيا إذ وجده
كرة يقذفها مصطفى كمال أتُت شاه ، وعلق على ذلك بأن الفرد إذا سيطر على مجلس النواب
صاغ من الأحرار عبيداً ، وجعل من رئيسه مخدراً للأعضاء يحركهم وهم رقود :
وإذا سبى الفرد المسلَّط مجلساً أُلقيت أحرار الرجال عبيداً

(١) الشوقيات ٢٢٥/١

(٢) الفري : مأسدة جانب الفرات يضرب المثل بأسادها ، والمراد الكامليون .

(٣) انتاشه : تناوله وأخرجه . إمام السوء : السلطان وحيد الدين

(٤) الشوقيات ٣٢٢/١

ورأيت في صدر الندى منوماً في عصبة يتحركون رقوداً^(١)
ويتفجع على الخلافة العثمانية ، ويعزوسقوطها إلى ثورات الشعوب وإلى استبداد
الفرد ، ثم ينصح ألا يترك الفرد يستأثر بالحكم سواء أكان ملكاً أم غير ملك ،
لأن الشورى دعامة الحكم الصالح :

خلت القرون وأنت حرب بمالك لم يُغفرِ ضدك أو ينم شانيك^(٢)
يرميك بالأمم الزمان وتارة بالفرد واستبداده يرميك
فُضِّيَ نيوب الفرد ثم خذى به في أي ثوبٍ به به جاءوك
لا فرق بين مسلط متتوج ومسلط في غير ثوب ملك
إني أرى الشورى التي اعتصموا بها هي جبل ربك أو زمام نبيك^(٣)

وعلى الرغم من حبه للسلطان عبد الحميد ، وأسفه لخلعه ، فإنه يلومه على أنه
لم يخلص للدستور الذي أصدره ، ويقول إن الدستور زينة الملك العاقل وعصمة
للملك الطائش ، وهو الوسيلة إلى أن يتعلق به شعبه :

صبروا لدولتك السنين وما صبرت سوى شهور
أوذيت من دستورهم وحننت للحكم العسير
صنوا بضائع حقهم وصننت بالدنيا الغرور
هلا احتفظت به احتفا ظ مرحب فرح قرير
هو حلية الملك الرشيد وعصمة الملك الغرير
وبه يشارك في المما لك والملوك على الدهور^(٤)

وفي رأيه أن أفسد أنواع الحكم أن يسوس الشعب فرد :

شر الحكومة أن يساس بواحد في الملك أقوام عداد رماله^(٥)

(٢) لم يغفر : لم ينم. شانيك : عدوك

(٤) الشوقيات ١٣٩/١ (٥) الشوقيات ٢٠٥/١

(١) الشوقيات ١٢٨/١

(٣) الشوقيات ٢٠٢/١

والفرد المستبد لعين ، والذين يخضعون له يجحدون نعمة الحرية والإنسانية والكرامة ، وهم متنافرون متخلفون وإن عاشوا في الزمن الحديث :

إن الزمان وأهله فرغا من الفرد اللعين
فاذا رأيت مشايخا أو فنية لك ساجدين

لاقي الزمان تجدهم عن ركبه متخلفين

هم في الآواخر مولدا وعقولهم في الأولين^(١)

لذلك طرب شوقي لأن مصر بلغت رشدها ، وأثبتت بضحاياها لنيل الدستور رشدها ، وبعثت للبرلمان دهاتها وجندها ، وحشدت للاحتفال به حشدها ، ودعا الله أن يملأ بالبيان النبوغ نهدها ، وأن يمكن لها من الحرية حتى لا يعود إليها حكم الفرد :
مصر الفتاة بلغت أشدها وأثبت الدم الزكي رشدها

يا رب قوّ يدها وشدها وافتح لها السبيل ولا تسدها
واملاً بالبيان النبوغ نهدها ولا تدعها تحي مستبدها
وتنشج براحيتها فردها^(٢)

(٢) دعواته إلى الدستور

لقد تجلّى ميله إلى الدستور والحكم النيابي منذ كان شاباً يدرس بأوروبا ، فإنه يقول للخديو توفيق في إحدى مدائحہ :

فليبق بيتك الوليدم ديوانه وليجئ جندك ولتعش شوراكا^(٣)

ولم يفته وهو يشلّد بالدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وبالسُلطان عبد الحميد الذي أصدره أن يطالب لمصر بدستور :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حماك من يبعث الموتى ويحييها
ما بين آمالك اللاتي ظفرت بها
وبين مصر معان أنت تدريها^(٤)

(١) الشوقيات ٢٢٧/٣ : مدح : (٢) الشوقيات ١٢٩٩/٢ : مدح : (٣)

(٢) الشوقيات ١٧٥/٤ : مدح : (٤) الشوقيات ٣٦٢/١ : مدح : (٥)

ويمدح الخديو عباساً بميله إلى الشورى .

تطىء به شورى المرائى التى زكت وتشرق أركان الفضلاء الذى برأ
وتمرح فى أيامه ، النفس حرة تناولها قُشْباً وتلبسها خضر^(١)
وفى تهنته للخديو عباس — لما عاد من تركيا فى عهد الخليفة محمد رشاد يمدحه
بأنه ميال إلى الحكم الشورى ، وبأنه يتدرج بمصر فى نظام هذا الحكم :

عروس الشرق مصر ولا أبلى لقد شبت وما بلغ الرضا
أخذت بشورى الحكم فيها وما تألوا منهاججه اتباعا
تدرجها على ذل سماح من الأحكام سنا واشترعا^(٢)

وانتهز الفرصة لما أعلن رأيه فى مشروع ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فخطب الملك فؤادا
ناصحاً له أن يوطد ملكه على دعائم من العلم والأدب والعدل والنظام الدستورى .
إن شرك الملك تمنيته على أسس فاستنض البانين العلم والأدب
وارفع له من الجبال الحق قاعدة ومد من سبب الشورى له طنباً^(٣)

(٣) إشارته بالدستور وبأمنه

همل شوقى بالدستور العثمانى واحتفى به ، وقصر عليه قصيدة كاملة إثر صدوره
عام ١٩٠٨ زف فى بعضها البشرى إلى الترك وإلى الخاضعين لهم ، ولعله استشف
أن الدستور سيمتظم مصر وغيرها ، بل هو قد ذكر للسلطان أن مصر أيضاً تتوق
إلى الدستور . وفى رأيه أن الخلافة كانت تعاني الضعف ، وتقاسم الانحلال ، فجاء
الدستور سياجاً لها وقوة وعلاجاً ، وكانت فتداعية الأركان فخيّطت بالشورى
والبرلمان .

وهذا الدستور الذى أصدره السلطان عبد الحميد نعمة على الشعب جليلة كجلال
السلطان ، صافية الخواشى ، إذ لم تُرق لها دماء أو تلبسها ثورة ، ومن عجب أن يرعب
الناس عن الشورى ، وقد شرعها الله ، وأوصى بها نبيه ،

(١) الشوقيات القديمة ٨٤ (٢) الشوقيات ١٨٤/١ تدرجها : تمشى بها تدرجياً ، ذلل له سهلة

(٣) الشوقيات ٧٣/١ لا يمدح الخديو عباساً بميله إلى الشورى ، ذلل له سهلة (٦)

وحيثما نظرت رأيت سمات الفرح ، فإن الشعب الصديان إلى الدستور
والحكم النيابي ينقع اليوم بالشورى صداه ، وكل فرد في الأمة يشعر بالعزة والعظمة
والجاء ، لأن له في سياسة الوطن رأياً وصوتاً :

بشرى البرية قاصيها ودانيها	حاط الخلافة بالدستور حاميا
لمسار آها بلا ركن تداركها	بعد الخليفة بالشورى وناديا
أسدى إلينا أمير المؤمنين يدا	جلت كما جل في الأملاك مُسديها
ييضاء ما شابه للأبرياء دم	ولا تكدر بالآثام صافيا
وإنما هي شورى الله جاء بها	كتابه الحق يُعليها ويُغليها
أما ترى الملك في عرس وفي فرح	بدولة الرأي والشورى وأهلها ؟
لما استعد لها الأقوام جثت بها	كلما عند غليل النفس صاديا
فضل لذاتك في أعناقنا ويد	عند الرعية من أسنى أياديها
خلافة الله جر الذيل حاضرها	بما منحت وهز العطف باديها
طارت قناها سرورا عن مراكزها	وألقت الغمد إعجابا مواضيها ^(١)

ولما تنكر السلطان عبد الحميد للدستور ، ودالت دولته تفجع عليه شوقي ولامه ،
وختم قصيدته بتهنئة السلطان محمد رشاد الخامس الذى بعث الدستور المؤود :

بشرى الإمام محمد	بخلافة الله القدير
بشرى الخلافة بالإمام	م العادل النزه الجدير
الباعث الدستور فى ال	إسلام من حفر القبور
أودى مع — أويته به	وبعثته قـبل النشور
فعلى الخلافة منك	نور تلالاً فوق نور ^(٢)

ومدح الخليفة محمد رشاد الخامس بأنه حر سمح أسعد شعبه بحكمه الدستورى ،
لذلك تعلق شعبه به على اختلاف الأديان ، فأحبه المسلمون والنصارى واليهود

(١) الشوقيات ٣٥٨/١

(٢) الشوقيات ١٤١/١ يريد بمعاوية السلطان عبد الحميد لأن معاوية حكم حكماً فردياً .

والدروز ، ووجدوا في عهده مثيلا لعهد الراشدين ، لأنه عهد مزدان بالشورى :

حر وأنت الحر في تاريخه سمح وأنت السمع في أقياله

.....

يجدون دولتك التي سعدوا بها من رحمة المولى ومن أفضاله
جددت عهد الراشدين بسيرة نسج (الرشاد) لها على منواله
بُسِيت على الشورى كصالح حكمهم وعلى حياة الرأى واستقلاله

.....

مكنتَ للدستور فيه وحرته تاجا لوجهك فوق تاج جلاله^(١)
ثم ازدفَ التهنئة لتركيا بحكم الخليفة ، الذي جمل الدستور عهده :
تبهى بعهد في الممالك واسلمى في السلم للآلاف من أمثاله
واستقبل عهد الرشاد بمجلا بمحاسن الدستور في استهلاله^(٢)

افتتح البرلمان المصرى الأول في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ ، وكانت لشوقى قصيدة قبيل افتتاحه في حفل بنادى المعلمين ، فهلل بالبرلمان والدستور ، فصور يوم الافتتاح غرة في تاريخ مصر ، وعيدا من أعيادها ، لأن المصريين سيتفسيئون بظلال الدستور ويسعدون ، وبارك جهود المجاهدين التي أثمرت هذه الثمرة الحلوة ، وحثهم على العمل لخير مصر جنودا مجهولين لا يفأخرون بما يعملون ولا يكأثرون بما قدموا من خير ، ودعاهم إلى تقدير الشهداء :

مصر إذا ماراجعت أيامها لم تلقَ للسبت العظيم مثيلا
البرلمان غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السعيد ظلילה
قل للشباب : اليوم بورك غرسكم دنت القطوف وذللت تذليله
حيوا من الشباب كل مغيب وضعوا على أحجاره إكليلا
ليكون حظ الحى من شكرانكم جمّا وحظّ الميت منه جزيل

لا يلبس الدستور فيكم روحه حتى يرى جنديته المجهولا^(١)
وهو يشيد بيوم آخر من أيام افتتاح البرلمان ، ويصفه بأن ليلة عرس وضحا
ولائمه ، ويصور الشعب مبكراً يزدهم في الطرقات ليشهد الاحتفال ، وبأن الدور
كانت غاصة بالمتفرجين المهتللين المستبشرين . وإن موكب يوم الخميس الجليل يرويه
الزمان ، ولم لا وقد أقبل بالدستور زاهراً أبلج ؟

ثم ينتقل إلى الإشادة بسعد زغلول حارس الدستور في مهده يعاونه الشيوخ
والفتية ، ويشبه الدستور الوليد بعيسى ، ويشبه سعدا حاميه يوسف النجار .

ثم يثنى على الملك فؤاد لبطمنه إلى إبقائه على الدستور ، فيصور تاجه جميلاً جليلاً
لأن الدستور وضحة يوم الخميس حلاه ، وهذا التاج أجل من الغار الذي يتوج
رموس الفاتحين :

يوم الخميس وراء فجرك للهدى	صبح وللحق الملهـ بين نهار
ما أنت إلا فارسي . ليله	عرس وصدر نهاره إغذار ^(٢)
بكرت تزاجم مهر جانك أمة	وتلققت خلف الزحام ديار
وروى مواكبك الزمان لأهله	وتنقلت بحلالها الأخبار
أقبلت بالدستور أبلج زاهراً	يفتن في قسّماته النظّار
وذؤابة الدنيا ترّف حدائنه	عن جانبيه وللزمان عذار
يحمي لفائفه ويجرس مهده	شيخ يزود وفتية أنصار
وكانه عيسى الهدى في مهده	وكان سعدا يوسف النجار
التاج فصل في سمائك بالضحا	منك الحلى ومن الضحا الأنوار
يكسو من الدستور هامة ربه	ماليس يكسو الفاتحين الغار
بالحق يفتح كل هاد مصباح	ماليس يفتح بالقنا المغوار ^(٣)

(٢) الإغذار : طعام الزفاف أو الاحتفال .

(١) الشوقيات ٢٢٧/١

(٣) الشوقيات ٢٠٧/٢

وأية علاقة بين توت عنخ آمون والدستور ؟
قد تكون الجمع بين نقيضين : قديم مغرق في القدم يبعث الدهش والعجب ،
وحديث طريف تمت إليه النهضة بسبب . وقد تكون مفاجأة توت عنخ بأروع ما جد
في مصر بعد تلك الحقب ، وقد تكون غير ذلك .
لكنها على أى حال ليست بالعلاقة القوية التى اتداعى لها المعانى وتوافى
الخواطر .

فلم يبق إلا أنها نزعة أصيلة فى نفس شوقى إلى الدستور ، يتلبس للتصريح بها
معارض القول ، فيشيد بفضل الدستور فى هداية الأمم وحياتها .

يحدث شوقى توت عنخ آمون فى شماعة بدثور حكم الفرد ، وغبور عهد الظلم .
ويفخر عليه بأنه فى عصر الشورى والحرية وسلطان الرأى العام على الرعاة والحكام ،
وكأنما هجس فى نفسه أن الملك القديم يجد فى خضوع الملوك لشعوبهم غضاضة
أو انتقاصا من سلطتهم وأهتهم ، فيدبره بأن الملك فؤادا أجمل منه فى قلوب شعبه
المتمتع بالدستور . والراجح أنه كان يخشى أن يتنكر الملك للدستور ، فلواه عن التنكر
بلباقة إذ جعله بالدستور أعز شأنا وأعلى مكانا .

وكأنما وازن شوقى مجد مصر فى عهد توت عنخ آمون واتساع ملكها ، ومناعتها
وبأسها ، تحالها فى عهد فؤاد ، فرجع الدستور وحده ذلك المجد ، وإنه لشرف عظيم له
أن يرجع عند الموازنة ، وشرف للملك فؤاد أن يفوق فى المفاضلة والمقارنة .

وأرجح أنه كان ينبغى من هذه الموازنة أن يمكن للدستور فى قلب الملك ، لأنه
كان أجنبى إلى الحكم المطلق ، وأرغب عن الحكم الدستورى .

ثم انتقل إلى أثر الدستور فى إعزاز الرعاة والرعية ، فبين فى فخامة وضخامة
وجلال أن قوة الملوك وسلطانهم وحجهم إنما يكفلها الحكم الثبات وحده لهم ، وأنه
لا استقلال لمصر ما لم يصنع الدستور وحكم الشورى ، لأنه يجمع أرواد الأمة وزعماءها
فى ناد واحد ، يحتاجون ويقرحون ويراقبون ، وإذا لم يضمهم مجلس النواب
فقلوبهم شتى ، تجد الحوادث وهم لاهون ، وأمور مصر فوضى وإن وليها الخلفاء
الراشدون .

فلا عاصم لمصر إلا دستورها ، تصلح به ما فسد من أمورها .
وإن شوقى لصنع بارع الحيلة في مطالبة الملك فؤاد بالتعجيل به ، وفي بيان آثاره
وفضائله ، فهو النور يهدى الضالين ، والمصباح يستضيء به المصلحون ، فيبعثون من
الكهوف الجهال الغافلين الذين يعدون بالملايين ، يرسفون في قيودهم ، وينقادون
لأفراد يحكمونهم طاغين . وليس مثله في علاج هؤلاء الزماني إلا معجزة عيسى ،
فنوره سيشع على العمى الجهلة فيبصرون ويعلمون ، ويده الرفيقة القوية ستحطم
قيود المتخلفين فينهضون ويعدّون ، وإنه للحق والعدل والدواء الوحيد لأدواء مصر .
ها هنا جلال الفكرة ، وجلال الأداء ، وتأثير الشعر ، وطرافة التصوير ، وها هنا
قلب الشعب يخفق ، ولسانه ينطق ، ويده تصفق ، ومن أولى من شوقى بذلك كله ؟

زمان الفرد يافرعون ولى	ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض	على حكم البرية نازلينا
(فؤاد) أجل بالدستور دنيا	وأشرف منك بالإسلام دنيا
بنى (الدار) التي لا عز إلا	على جنباها للمالكينا
ولا استقلال إلا في ذراها	لمتبوع ولا للتابعينا
ترى الأحزاب ما لم يدخلوها	على جدّ الحوادث لاعبينا
وإن فقدت فأمر القوم فوضى	وإن وليته أيدى (الراشدينا)
إذا سارت به أيدٍ شمالا	أتت أيدٍ فسرّ به يميننا
فعجل يا بن إسماعيل عجل	وهات النور واهد الخائرينا
هو المصباح فأت به وأخرج	من الكهف السواد الغافلينا
ملايين تجر الجهل قيدا	وتسحب بالقليل المطلقينا
فداو به البصائر فهو عيسى	وفك براحتيه المقعدينا
ومن ير دونه حقاً فإني	أراه وحده الحق المبيننا ^(١)

(١) الشوقيات ٣٤٢/١ في ذراها : ملجئها وسندها . الراشدين : المراد الخلفاء الأربعة الأولون .

وشوقى حريص فى إشادته بتوت عنخ آمون على المحايلة بالدستور ، لأنه فى قصيدة أخرى (توت عنخ آمون) يعتز بالحكم النبأى ، وكفأله بأن تسود مصر ، ويحكمها بنوها ، وكأنه يلح دعاوى خصومها بأنهم لم تبلغ بعد رشدها ، فليست جديرة بالحكم النبأى ، فيرد عليهم فى حماسة وثقة بالشعب وسلامة عنصره وجدارته بالدستور والبرلمان .

وتنطق آلياته بهجته بافتتاح البرلمان يوم المهرجان ، وقد احتفى به الشعب من شيب وشبان وعقائل وفتيات ، وتهادى موكب الملك فؤاد على الرياح ، لأنه يقيم فى دار الندوة بمجد مصر ، وبوطد دعائم الشورى ، ويسوس بالدستور هذا الجيل السعيد ، ويتنازل عن سلطته للشعب :

مصر الفتاة بلغت أشدها	وأثبت الدم الزكى رشدها
ولعبت على الجبال وحدها	وجربت إرخاءها وشدها
وبعثت للبرلمان جندها	وحشدت للمهرجان حشدها
حدت إليها شديها ومردها	وأبرزت كعابها وخودها ^(١)
ونثرت فوق الطريق وردها	واستقبلت فؤادها ووفدها
مؤنلها وكهفها وردها	وابن الذين قوموا مقدها ^(٢)

.....

حتى أتى الدار التى أعدها	لمصر تبى فى ذراها بمجدها
فثبت الشورى وشد عقدها	وقلّد الجيل السعيد عهدا
سلطته إلى بنينا ردّها ^(٣)	

وعلى زهو شوقى بآثار مصر الفرعونية ، وإشادته بما خلف الفراعين من خاليدات ، وحفاوته بتوت عنخ آمون وحضارة عصره ، فإنه اتهم إحدى قصائده فى توت عنخ ليزهى على عصره بمحاضر مصر المجيد بالدستور . وإنه ليزجى زهوه

(١) الرد : الشبان . الكعاب : المراد الفتاة . الخود : الشابة الجميلة الناعمة

(٢) ردّها : عمادها . مقدها : طريقها ومكانها

(٣) الشوقيات ١٩٩/٢

واثقاً من صدق مقاله ، فيخاطب توت عنخ آمون مقسماً بالله الذي يبعث الموتى أن إياه هذا لو كان من سفره أو فتحه ، أو بعثه من قبره حياً ، وأهل من وادي الملوك مكللاً رأسه بغار النصر ، في موكب من مواكبه الحافلة الحاشدة ، لرأى شعباً غير شعبه ، شعباً يصرف أموره نوابه ، وتهيمن على شئونه حكومة دستورية :

قسماً بمن يحيي العظام ولا أزيدك من يمينين
لو كان من سفر إيا بك أمس أو فتح ممين
أو كان بعثك من ديد ب الروح أو نبض الوتين
وطلعت من وادي الملوك عليك غار الفاتحين
الخيل حولت في الجلال العسجدية ينشئين^(١)
وعلى نجادك هالة ن من القنا والدارعين
والجند يدفع في ركا بك بالملوك مصفدين
لرأيت جيلاً غير جيـ لك بالجبابر لا يدين
ورأيت محكومين قد نصبوا وردوا الحاكمين
روح الزمان ونظمه وسيله في الآخرين^(٢)

وفي مناجاة أني الهول يفاخر بأن مصر أرسلت وفدها إلى مؤتمر الصلح الذي عقد على إثر انتهاء الحرب الأولى سنة ١٩٢٠ ، تطالب بالاستقلال ، وتفاخر بدستورها الذي كان لها قبل الاحتلال ، وتريد بعثه :

وأنا ركبنا غمار الأمور وأنا نزلنا إلى المؤتمر

.....

ولم تفتخر بأساطيلها ولكن بدستورها تفتخر^(٣)
وقد التفت في قصيدة (الأزهر) النفاتة بارعة ، فقرن إصلاح الأزهر بإصدار

(١) الجلال : جمع جل وهو ما يوضع فوق الفرس تحت السرج

(٢) الشوقيات ١٢٠ / ١

(٣) الشوقيات ١٢٠ / ٢

الدستور . أليس بإصلاح الأزهر يستقيم الدين والدنيا ، وبالدستور تنهض الأمة وتسلك طرقها إلى الرقي صُعدا ؟ أليس الأزهر فخار مصر المسلمة والدستور شعار مصر الناهضة ؟

الله أكبر يا ابن إسماعيل لم تترك لصنّاع المآثر مَفْخَرا
بالأمس تنهض مصر في دستورها واليوم تنهض للسّاك الأزهر^(١)

وفي قصيدته (شهيد الحق) في ذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٤ دعا الملك فؤداً إلى ضروب من الإصلاح ، ثم مدحه بأن الدستور عظم شأنه ورفع مقامه ، ورجاه أن يعلم الدستور للشباب لتشرّبه قلوبهم ، أما الرعاع فإن الزمن كفيل بتعليمهم إياه :
وأنت أعز بالدستور شأننا وأرفع خلف هالتة مقامنا
فرّ بالنّشء أن يتعلّوه وخلّ الدهر يقرّئه الطّعاما^(٢)

وكثيراً ما خايل شوقي بالدستور وبالبرلمان ، لأن البرلمان صرح الحق ومشرق النور وسياج العدل ، يشبهه في جلاله وتقدير الشعب له البيت العتيق ، وكان شرفاته أروقة من الضحا ، وكان جدرانها عمدة من الصباح

وهو حصن الحق ، تحتمى به حقوق الشعب وتقوى ، ويراقب النواب الحكام ويرشدونهم إلى خير الوطن . وهو حصن الحرية وهيكلها ، طالما بذل الشعب الدماء والضحايا لئلا ، ثم شيده في معمعة الجهاد ، كما يحفر المحاربون الخنادق والحرب دائرة ، تحت النبال المنهالة

وكأنما لم يقنع شوقي بتشبيه البرلمان بالبيت العتيق ، وبهيكل الحرية فذهب يزيده جلالاً بتصوير آخر ، أن الاستبداد ينهار في البرلمان مثلما انهار الشرك وانكدت الأصنام في مكة ، وأنه يكب الملك الطاغية ، والفتنة الباغية ، ويقوض معالم الاستبداد .
وكاد لا يفتأ يذكر بأن مصر نالت دستورها وبرلمانها بجهادها وشهادتها ، فهي قد بنت برلمانها بجهاد بنيتها العزل الذين ناهضوا الاحتلال والاستبداد بأكفهم ،

(١) الشوقيات ١/١٧٧ (٢) الشوقيات ١/٢٧٩

واستشهد بعضهم في جهاده فبنوا البرلمان بأرواحهم . ولم تنل مصر دستورها وبرلمانها على هيئة ، ولم يُقدّم لها هبة ، وإنما نالته بتضحيات جعلت بعض أيامها سوداً ، وبعض لياليها وأيامها حمراً من دماء قتلاها . وقد اشترك شبابها وشيدها في هذا الجهاد ، ومشوا إلى الدارين عزلاً .

يا للعظمة ! إن البطولة في الدفاع عن الحق هي الوسيلة للفوز ، وإن الشعب الذي يشيد ملكه وطيداً لا مندوحة له من أن يقيم الجدران بشهادته وضحاياه ، ولا بد له من أتراح تعقبها أفراح .

صرح على الوادى المبارك ضاحي	متظاهراً بالأعلام والأوضاع ^(١)
ضافي الجلالة كالعتيق مفصل	ساحات فضل في رحاب سماح ^(٢)
وكأن رفرفه رواق من ضحاً	وكان حائطه عمود صبـاح
الحق خلف جناح استدرى به	ومرشد السلطان خلف جناح ^(٣)
هو هيكल الحرية القـ.....اني له	ما للهياكل من فدى وأضاح ^(٤)
يننى كما تبني الخنادق في الوغى	تحت النبال وصوبها السحاح ^(٥)
ينهار الاستبداد حول عراضه	مثل انهيار الشرك حول (صلاح) ^(٦)
ويكب طاغوت الأمور لوجهه	متحطم الأصنام والأشباح
هو ما بنى الأعزال بالراحات أو	هو ما بنى الشهداء بالأرواح
أخذته مصر بكل يوم قاتم	ورد الكواكب أحمر الإصباح
هبت سماحا بالحيـ.....اة شبابها	والشيب بالارماق غير شحاح
ومشت إلى الخيل الدوارع وانبرت	للظافر الشاكي بغير سلاح
وقفات حق لم تقفها أمـ.....ة	إلا انثنت آمالها بنجـ.....اح

(١) الأوضاح : جمع وضع : وهو بياض الصبح وهو أيضاً حلى من الفضة
(٢) العتيق : البيت الحرام
(٣) استدرى به : اعتصم (٤) أضاح جمع أضحية
(٥) صوبها السحاح : نزولها المنهر (٦) صلاح : مكة

وإذا الشعوب بنوا حقيقة ملكهم جعلوا المآثم حائط الأفراح^(١)
وبعد . فقد كرر شوقي أن الدستور منجاة من الاستبداد ، وأنه يحقق الديمقراطية
الصحيحة بين الشعب ، فيجنى كل مجد ثمار جهده . وإذا كان قد أشار في بعض شعره
إلى أن الملك قد منح شعبه الدستور فإنه يذكر هنا في صراحة أن مصر لم تنل
دستورها عفواً ، أو يوهب لها هبة ، وإنما نالته بجهادها ودمائها ، فقد جالدها
بسلاحهم في الثورة العربية الحديو توفيق وأنصاره الإنجليز ، ثم جاهد أبناؤها
في ثورة سنة ١٩١٩ وباعوا دماءهم وأرواحهم ليشتروا حريتهم .
فالدستور يقوم على دعائمين : إحداهما ضحايا النضال في التل الكبير ، والآخرى
شهداء الصيال في ثورة سنة ١٩١٩ :

الحق أبلىج والكنانة حرة	والعز للدستور والإكبار
الأمر شورى لا يعيئ مسلط	فيه ولا يطغى به جبار
عهد من الشورى الظليلة نضرت	أصالة واخضلت الأسرار
تجنى البلاد به ثمار جهودها	ولكل جهد في الحياة ثمار
بنيان آباء مشوا بسلاحهم	وبنين لم يحدوا السلاح فتاروا
فيه من التل المدرج حائط	ومن المشائق والسيجون جدار ^(٢)

استبان مما سبق أن شوقي كان عظيم الحفاوة بالدستور ، وأنه كان ينتهن الفرص
للإشادة به ، والدعوة إلى صيانتة . ولم ينس الدستور وهو يرثي الذين لهم صلة
بالدستور ، ففي رثاء أبي هيف يقول لسعد :

أخرج لأبناء الحضارة مجلساً يبق على اسمك في العصور ثناء^(٣)
وفي رثاء سعد يشيد بقيادته الثورة التي ظفرت بالدستور :
ولد الثورة سعد حرة بحياتي ما جد حرة ماها

.....

(١) الشوقيات ٢/١٩٠

(٢) الشوقيات ٢/٢٦

(٣) الشوقيات ٣/١١

بارك الله لها في فرعها وقضى الخير لمصر في جناها
أو لم يكتب لها دستورها بالدم الحر ويرفع منتداه^(١)
وفي رثاء إسماعيل أباطه يقول :
إذا سلم الدستور هان الذي مضى وهان من الأحداث ما كان آتيا
ألا كل ذنب للبالى لأجله سدّنا عليه صفحنا والتناسيا^(٢)

حرصه على الدستور

كان شوقى حريصا على الدستور والحكم النيابي .
وإن حرصه على الدستور ليتجلى في كثير من قصائده التي لا صلة لها بالدستور
ولا بالسياسة ، فمثلا يقول في قصيدته (بنك مصر) في مايو سنة ١٩٢٥ إن الشعب
مطمئن إلى بقاء الدستور ، لأن الملك فؤادا يراعاه ، وهو ملك مرجو للخير وترقية
الشعب ورعاية مصالحه فلا خوف منه على الدستور .

يؤمننا على الدستور أنا نرى من خلف حوزته فؤادا
أبو الفاروق نرجوه لفضل ولا نخشى لما وهب ارتدادا^(٣)
ويمدحه بأنه في المملكة بدر تحف به هالتان من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ،
ويدعو الله أن يزيده عزّا بالبرلمان .

وليس من شك في أنه يريد بذلك تحبيب الدستور والحكم النيابي إلى الملك ،
وبيين له في جلاء وصراحة أن البرلمان عزّ له وسند :

هو في الملك بدره المتجلى حُف بالهالتين من (برلمانه)
زاده الله بالنيابة عزّا فوق عزّ الجلال من سلطانه^(٤)
حرص شوقى على أن يحجب الدستور إلى الملك فؤاد بوسائل شتى ، فهو يشيد به

(١) الشوقيات ٧/٤

(٢) الشوقيات ١٩٦/٣

(٣) الشوقيات ١٨٩/٣

(٤) الشوقيات ٢٤١/٢

تارة ، ويفضله على سابقه تارة ، ويعلو بملكه وعصره على حضارة توت عنخ آمون ،
ويؤكد له أن الدستور أعظم تاج يزدان به رأسه . وكان يبتغى من ذلك أن يمكن
للدستور في قلب الملك حتى لا يسترده ويبطله . ولم يكن ذلك أمراً بعيداً ، لأن شوقي
رأى السلطان عبد الحميد قد استرد الدستور بعد ما أعلنه بعام ، ولأنه كان يعلم ما يعرفه
الساسة من ضيق الملك بالحد من سلطانه ، وكان يعلم ما حدث بين الملك والحكومة
والبرلمان من خلاف ونزاع ، وكان يعرف أن الإنجليز يتربصون للدستور وللبرلمان
يريدون أن يقوضوا صرح الحرية ورمز الاستقلال ، ولهم في مصر أنصار كلت
عيونهم من التطلع إلى الحكم ، فهم يريدونه على أشلاء الدستور وأنقاض البرلمان .
وقد تحقق ما كان يخشاه شوقي ، فحارب الدستور وأوقف ، وعرض له ما يعرض
لكل وليد أو لكل جديد ، فماذا كان موقف شوقي نصير الدستور ؟
أخشي صولة الملك أو جامله فسكت ؟

أرهب الحكومة المطلقة وابتعد عن الصراع القائم بينها وبين الدعاة
إلى الدستور ؟

لا لقد ساهم في الصراع ، وشارك في الدفاع ، وجلجل بشعره في الهتاف
بالدستور ، والسخط على الحكم المطلق . ذلك بأن الأحزاب ائتلفت في ١٩ فبراير
سنة ١٩٢٦ في مؤتمر لإنقاذ الدستور برياسة سعد زغلول ، فسجل شوقي اجتماع
القادة في قصيدته (المؤتمر) ، فامتدح الحرية ، ومدح الزعماء ، ثم خلص إلى أن الله
أنعم على مصر بائتلاف أقطابها ، وهم ذوو كفايات متنوعة ، ففيهم الحول الداهية ،
وفيهم الصراحة العلية ، وهم جميعاً أسنادها وأعلامها وأبطالها ، يشيدون سياج الملك
بالدستور لا بالقنا والسيوف .

وأراد شوقي أن ينبه الملك إلى ضعة الملك القائم على الاستبداد ، فصرح
في جلال وفي روعة أنه لا جمال ولا جلال لنج لا تتلأأ فيه جواهر الدستور ،
وإن شريق بنوادر الماس ، وروائع الدر .

ومن ذا الذي يقرأ له هذا المعنى فلا يشعر بالجلال ؟

ومن ذا الذى يقرأ هذا المعنى ثم يحجد أن الشاعر كَلَفَ بالدستور أيما كَلَفٍ ؟
ثم يأسف شوقى لأنَّ عَطَلَ الدستور ، وأقفر ناديه ، وطيرت عنه بلائله ،
ويصف فى حسرة هذا التعطيل ، وبشاعة إغلاق البرلمان حصن الحق كما يسميه ، فشكَّنه
فى شوق إلى أبطالها وكُتلتها ، ومقاعده مهجورة ، ومنبره معطل ، وإنه لموحش قد نسج
العنكبوت به بيوته ، ويُسبِّه حاله إذا بغار ثور حين اختبأ فيه الرسول عليه الصلاة
والسلام ومعه صديقه أبو بكر ، فنسج العنكبوت على بابه .

ولعله يريد أن الغار حمى الرسول والإسلام ، وأن البرلمان يحمى الحق والعدل
والشورى ، أو أن نسج العنكبوت موقوف لا بد أن ينبجلى عن نصر مؤزر للدستور
والبرلمان كما انبجلى عنكبوت الغار عن سلامة الرسول وظفر الإسلام :

الله ألف للبلاد صدورها	من كل داهية وكل صُراح
وزراء مملكة دعائم دولة	أعلام مؤتمر أسود صباح ^(١)
ينبئون بالدستور حائط ملكهم	لا بالصِّفاح ولا على الأرماح
وجواهر التيجان ما لم تتخذ	من معدن الدستور غير صحاح
احتل حصن الحق غير جنوده	وتكالبت أيدٍ على المفتاح
ضجت على أبطالها نُكُناتُه	واستوحشت لكتبتها النزاح
هجرت أرائكُه وعطل عوده	وخلا من الغادين والرواح
وعلاه نسج العنكبوت فزاده	كالغار من شرف وسمت صلاح

وأثنى على سعد رئيس الوفد وعلى عدلى رئيس الأحرار الدستوريين ، وبشر
الأمة بهذا الائتلاف^(٢)

نصائح للنواب والناخبين

لقد كان شوقي جديرا بالثناء لو أنه دعا إلى الدستور واستمسك بالحكم النيابي ثم اكتفى ، لأنه أثار وأثار ووجه . لكنه لم يكتف بذلك ، وإنما زاد عليه أن رسم النواب أعلاما تهدي ، وأرشد الشعب إلى واجبه في اختيارهم .

(١) فماذا كان يبتغى من الشيوخ والنواب ؟

أراد أن يكونوا رجالا عاملين نافعين لمصر ، فقد هاله أنه رأى في عشر السنوات التي عاصر فيها الحياة النيابية أن النواب اتخذوا النيابة وسيلة لقضاء آراهم الشخصية ، وتحقيق مطامعهم الحزبية ، وآرهم يناصرون الوزارة ما دامت قائمة ، فإذا سقطت — وهم لم يسقطوا وزارة قط — وخلفتها أخرى ناصروها أيضاً ، حفاظاً على مقاعد البرلمان التي أنفقوا في سبيلها ما أنفقوا من أموال ، حتى لقد استحقوا قوله فيهم :

ولينا الأمر حزبا بعد حزب فلم نعد الخصام ولا الكلام

جعلنا الحكم تولية وعزلاً ولم نعد الجزاء والانتقاماً^(١)

لكن شوقي في نصحه لهم لم يزج إليهم نصائحه مُعَرَّاةً أو مُحَلَّاةً ، وإنما وصفهم بما يجب أن يكونوا عليه من خلق ومن وطنية ، وهو إذ يصفهم بهذا الوصف يريد أن يثبت في نفوسهم أنهم أهل له ، وأن الأمة تظمن إلى اتصافهم به ، فكأنه يقرر الواقع ولا يدعوهم إلى جديد .

وهو لبق في مسلكه هذا ، لأن النصح المجرد قد يشعر بتعالى الناصح ، أو بنقص النصوح ، فلا يثمر ما يثمره هذا النصح اللبق الكيس .

ذكر شوقي أن الدستور عصمة من الهوى ، وأن نواب الأمة حراس على مالها لا يغتبنونه ولا يفرطون فيه ، فهم يحاسبون الحكومة ، ويشرفون على أعمالها . وذكر أنهم وكلاء الأمة يؤدون للوكالة حقوقها كاملة .

وهم إخوة يتساندون في الضراء ، ويتعارفون في السراء ، ويعالجون الأمور برفق وأناة ، إذا عصفت الجو ، وتمر العدو ، أو اصطدم الإصلاح بقديم من التقاليد

لا خير فيه ، فترسو السفينة على شاطئ السلامة ، وقد سلم ربانها وبجارتها وركبها :

أبت التقيّد بالهوى وتقيدت بالحق أو بالواجب الأحرار
في مجلس لا مال مصر غنيمة فيه ولا سلطان مصر صغار
ما للرجال سوى المراشد منهج فيه ولا غير الصلاح شعار
يتعاونون كأهل دار زلزلت حتى تقرّ وتطمئن الدار
يجرون بالرفق الأمور وفلسكها والريح دون الفلك والإعصار
ومع المجدد بالأناة سلامة ومع المجدد بالجماح عثار^(١)

ولم ينس في تحيته لأول طيار مصر -- محمد صدقي -- وقد قدم طائراً من برلين إلى القاهرة سنة ١٩٣٠ أن ينوه بأن أعضاء البرلمان ذادة عن الحق ، يتنافسون تحت قبة البرلمان في صيانة الاستقلال ، وحل المشكلات ، ويوكلون بالحكام عيوناً غير غافلة :

قف تأمل من علو قبة رفعت للفصل والرأى الصراح
زل النواب فيها فتية في جاح وشيوخا في جناح
حملوا الحق وقاموا دونه كرعيل الخيل أوصف الرماح^(٢)

(٢) كذلك أوصى الناخبين ، فحضرهم على أن يتخيروا نوابهم ، لأنهم السفراء عن الشعب ، المعبرون عن رغباته ، الناظرون بعينيه ، الناطقون بلسانه ، الذائدون عن حرите وسلطانه ، فليحسن اصطفاءهم ، وليحذر عوامل الخديعة ومضلة الاختيار . يريد شوقي من الشعب ألا يؤثر الثراء أو الجاه ، وألا يبيع اختياره بالمال ، وألا يتخدر بخلاصة الخطابة ، أو يتأثر بسحر الوعود الكذابة ، لأنه قد رأى كثيراً من ذلك ، ورأى الانتخاب يزيف ، والأصوات تشتري

ولا ضمان لحسن الاختيار إلا أن يذشر الناخبون أمام عيونهم صفحات المرشحين للنيابة عنهم ، فيشرّفوا بالنيابة ذوى الجهاد والوطنية والخلق والعلم والنزاهة والاعتزاز بكرامتهم وكرامة مصر ، فلا حسان للغنى ولل فقر ، ولا للعصبية والافراد .

وقد أسف شوقي لأن يبعث النخبون إلى البرلمان تماثيل من حجر أو من خشب ، لها حساب في العدة ، ولكن لا أثر لها في رخاء أو شدة ، من أولئك الذين كانوا يسمون حقاً (بالتمر) .

وإذا كان الدستور قد استنقذ من بين أنياب الاحتلال فإن الإنجليز يرصدون على الشعب هفواته ، ويحصون على كل نائب زلاته ، فليدقق الشعب في الاختيار ، وليفقه النواب تبعه هذا الفخار :

أيها الشعب لقد صر	ت من المجلس قبا
فكن الحر اختيارا	وكن الحر انتخابا
إن للقوم لعيناً	ليس تألوك ارتقبا
ليس بالأمر جديراً	كل من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قد	م جاهها وانتسابا
أو رأى أمة فاخ	تلب الجهل اختلابا
فتخير كل من شب	ب على الصدق وشابا
واذكر الأنصار بالأم	س ولا تنس الصحابا ^(١)

ويكرر هذا النص في قوله :

قل للكفانة قول الصدق من ملك	مؤيد بالهدى لا ينطق الكذبا
دار النيابة قد صفت أرائكها	لا تجلسوا فوقها الأحجار والخشب
اليوم يا قوم إذ تبنون مجلسكم	تبنون للعقب الأيام والحقب
فما هو الفرد إن شئتم سما صعدا	إلى الثريا وإن شئتم هوى صببا
وإن رضيتم عمرتم ركنه ثقة	وإن غضبتم تركتم ركنه خربا
وإنما هو سلط	إذا تكفل بالأعباء وانتدبا

يقول عنكم ويقضى غير متهم
ويقول في قصيدته (المعلم):
العهد ما قال والميثاق ما كتب^(١)

ناشدتكم تلك الدماء زكية
فليسألن عن الأرائك سائل
لا تبعثوا للبر — ان جهولا
أحملن فضلا أم حملن فضولا؟
إن أنت أطلعت الممثل ناقصا
لم تلق عند كماله التمثيلا
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا
لأولى البصائر منهم التفضيلا^(٢)
ويختم قصيدته (الأزهر) بهذه الصيحة:

دار النسيابة هيئت درجاتها —
الصارخون إذا أسىء إلى الحمى
فليرق في الدرج الذوائب والذرا
لا الجاهلون العاجزون ولا الآلى
والزائرون إذا أغير على الشرى
يمشون في ذهب القيود تبخترا^(٣)

موازنات

نقلب دواوين شعرائنا الذين سبقوا شوقي ، والذين عاصروه ، والذين خلفوه ،
فلا نجد لأحدهم لسان صدق في الدستور كلسان شوقي . بل نشفع ما قالوه جميعاً بعضه
إلى بعض فلا يبلغ عشر ما قال شوقي وحده ، فإذا ما أغفلنا السكم واحتكنا إلى الكيف
ألفينا شعر شوقي في الدستور يتفرد بحرارة العاطفة وقوتها ، وغزارة الفكر وجدتها ،
وجلال الصور وطرافتها .

فالبارودي لم يقل في الدستور غير ثمانية أبيات ، في معرض التهئة للخديو توفيق
بعيد جلوسه سنة ١٨٧٩ ذكره فيها بالمجلس النيابي الذي وعده به ، وبين له آثاره في صلاح
الحكم في قوله :

سن المشورة وهى أكرم خطة
هى عصمة الدين التى أوحى بها
يجرى عليها كل راع مرشد
رب العباد إلى النبي محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه
ومن استهان بها لم يرشده

(١) الشوقيات ١/٧٣

(٢) الشوقيات ١/٢٢٨

(٣) الشوقيات ١/١٧٩

أمران ما اجتماعا لقائد أمة
 جمع يكون الأمر فيما بينهم
 هيئات يحيا الملك دون مشورة
 فاعكف على الشورى تجد في طيها
 لاغزو إن أبصرت في صفحاتها
 وإسماعيل صبرى طالب الخديو عباساً سنة ١٩٠٨ بالدستور ، لأن الممالك كلها
 تنعم به ، ومصر محرومة ، وحببه إليه بأنه يجعل منه راعيا لشعب أبى حر مستأسد ،
 أما الحكم المطلق فيجعله راعيا لشعب ضعيف متخاذل لا يؤمن عليه من العدوان :
 كل الممالك نولت ما ترتجى
 من أنعم الشورى وملسكك مطلق
 مر بالذى صرحت قبل به وقل
 واصلق فنلك من يقول ويصدق
 سدد سهام الراى بالشورى يحط
 بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
 واسبق به واضرب به وافتح به
 ما شئت من باب أمامك يغلق
 عوذت مجدك بالكفانة أن يرى
 آمال قومك فيك لا تتحقق
 كن راعيا يرفعى الأسود فمن رعى
 غنما يبت يخشى الذئاب ويفرق^(٢)
 أما حافظ إبراهيم فقد ورد الدستور فى شعره بضع مرات . وفى تهنته للسلطان
 عبد الحميد سنة ١٩٠٨ بعيد الجلوس يدحه بأن حكمه شورى^(٣) . وفى قصيدة وجهها
 للأمير حسين كامل رئيس مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ذكر الدستور
 فى بيت واحد^(٤) . وفى ابتهاجه بخلع السلطان عبد الحميد خص الدستور ببيتين
 اثنين^(٥)

وفى قصيدته تحية العام الهجرى ١٣٣٧ هـ (١٩٠٩ م) استعرض شئون مصر
 والعالم الإسلامى ، وخص الدستور بهذه الأبيات من قصيدته الطويلة :

(١) ديوان البارودى ١٣٤/١

(٢) ديوان إسماعيل صبرى ٥٦ ، ١٧١

(٣) ديوان حافظ ٣٨/١ (٤) ديوان حافظ ٥٧/٢ (٥) ديوان حافظ ٤٨/٢

ويا طالبي الدستور لا تسكتوا ولا تبيتوا على يأْس ولا تتضجروا
أعدوا له صدر المكان فإني أراه على أبوابكم يتخَطَّر
لقد ظفِر الأثرak عدلاً بسؤْلهم ونحن على الآثار لا شك نَظْفَرُ^(١)
همْ لهم العام القديم مُقَدَّرُ ونحن لنا العام الجديد مُقَدَّرُ^(٢)
ثم صدقت الأحلام ، وافتتح أول برلمان على مرأى ومسمع من شوقي وحافظ .
أما شوقي فقد عرفنا خبرته بذلك البرلمان ، وحفاوته به .
وأما حافظ فقد تخلف وأكْدَى ، إذ لم يُوح إليه افتتاح أول برلمان إلا بقصيدة
فاترة العاطفة ، ضحلة المعاني ، ناصلة الصور .

فإذا ما قايَسنا بين احتفاء شوقي بالدستور في قصيدته (قفى أخت يوشع) واحتفاء
حافظ في قصيدته التي قالها في المناسبة نفسها (ديسمبر سنة ١٩٢٢) وجدنا بونا واسع
المدى ، في التعبير والتصوير والعاطفة والفكرة .

ذلك بأن حافظا دعا مصر إلى شكر الله ، ودعاها إلى أن تطرب قاعدة قائمة ،
فقد تم بناء دار البرلمان ، وسيزف إليها قريبا بشرى افتتاحه رئيس الوزراء محمد نسيم .
ثم قال إن البرلمان دار مشيدة لطالب المجد العميم ، بها يتجمل المملك ، وتسعد
مصر ، وناشد الملك أن يسعد مصر بدستور كامل .

وليس في أبياته نفحة من نفحات الروعة ، ولسنا نستطيع أن نجد أثراً لقوة
العاطفة وعظم البهجة ، ولا لجلال الدستور والبرلمان ، ولا لتوجيه الماخبين والنواب
كذلك الذي وجدنا عند شوقي .

وقد صدق الدكتور طه حسين في قوله : إن الموازنة بين ما قال شوقي في الدستور
وبين ما قاله حافظ في الدستور أيضاً مرة مؤلمة النتيجة . تقرأ أبيات شوقي فلا تشك
في أنه يصف ما يشعر به ، وما تشعر به أنت أيضاً . وتقرأ أبيات شوقي فتجد فيها
المعاني العالية القيمة قد أدبت في اللفظ العذب الرشيق ... فإذا قرأت أبيات حافظ

لم تجد شيئاً ، وإنما آذتك ألفاظ متكلفة ، وقواف أنزلت في غير منازلها ، وأكرهت
على أن تستقر حيث لا تحب^(١)

قال حافظ :

البرلمان	تهيات أسبابه	لم يبق من سبب سوى المفتاح
هو في يديك	وديعـة لرعية	تثنى بالسنة عليك فصاح
رد الوديعة	يا فؤاد فإنما	رد الوديعة شيمة المسماح
.....		

هذا منار البرلمان	أمامكم	لهدى السبيل كإبرة الملاح
فتمموا	مخلصين فما لكم	من دونه من غبطة وفلاح
الفضل للشورى	وتلك هي التي	تزع الهوى وترد كل جماح
هي لا تفضل	سبيلها فكأنما	خلق السبيل لها بغير نواحي
هي لا براح	ترد كيد عدوكم	وتغل غرب الغاصب المحتاح ^(٢)

شوقي إذا شاعر الدستور غير منازع ، كما كان أمير الشعراء غير مدافع

بل أجهز في غير تعصب لشوقي أو تحامل على غيره بأنه كان شاعر الوطنية
في العصر الحديث ، وما آراؤه في الدستور إلا غصن من وطنيته الفينانة ، المنوعة
الجنى والثر .

الفصل الثامن

استنهاض العزائم

واطلبوا المجد على الأرض فإنه
هي ضاقت فاطلبوه في السماء
شوق

أشادة بحاضر مصر

قضى شوقي لبائته من المباهاة بماضى مصر ، ونفخ في العزائم غيرة على هذا الماضي ،
وحماسة له ، وشوقاً إلى استعادته .

لكنه لم يحبس خياله في ذلك الماضي ، وإنما كان يرقب الحاضر ، فيعييه تارة ،
ويشيد به إذا ما استحق الإشادة ، يريد أن يستزيد المصريون من وسائل الرقي
والعزة ، ويريد أن يشجع العاملين فلا يخلوا ، ويحفز الخاملين إلى أن يعملوا ، ويعلن
للعالم أن الشعب المصرى شعب حى سليم العنصر تواق إلى المجد .

فقد خايل مراراً بثورة مصر سنة ١٩١٩ . وأشاد بعظمة مصر أيام محمد على ^(١) .
وأيام إسماعيل ^(٢) . ونوه بكل عمل عظيم نافع لمصر .

بنك مصر :

في مايو سنة ١٩٢٥ احتفل بوضع الحجر الأول في بناء (بنك مصر) فرحب به
شوقي ، ونوه بآثاره ، وحمد لطلعت حرب جهوده في تحقيق أمل مصر أن يكون لها
بنك ، وأثنى على مساعديه ومشجعيه :

دعا فتنافست فيه نفوس
تقدم عونها ثقة ومالا
بمصر لكل صالحة تنادى
وأحيانا تقدمه اجتهادا
وأقبل من شباب القوم جمع
كما بنت الكهول بني وشادا
كأن جوانب الدار الخاليا
وهم كالنحل في الدار احتشادا^(١)

.....

ولما افتتحت دار البنك في يونية سنة ١٩٢٧ نوه بهمة الشعب ومقدرة الذين
أسسوا البنك وهم محكومون لا حكام ، يريد بذلك أن الشعب أحرص على ترقية نفسه ،
وأنه جدير بالمسعاة لمجده ، فقد مضى الزمن الذي كان العمل العظيم فيه منوطا بالملوك
وبالحاكمين ، وهو يمد لهذا المعنى بوداده لو أن الوفود العربية التي كانت مجتمعة
لتكريمه لم تشخص إلى أوطانها ، لتشهد هذا اليوم الأغر ، وترى حقيقة ما كان وهما
أو أملا :

ما ضر لو حبسوا الركائب ساعة
ليضيف شاهدهم إلى أيامه
وثنوا إلى الفسطاط فضل زمام
يوما أغر مليح الأء — لام
ويرى ويسمع كيف عاد حقيقة
ما كان ممتعا على الأوهام
من هممة المحكوم وهو مكبل
بالقيد لا من هممة الحكام
ثم أثنى على طلت حرب ، وسمى البنك الهرم الرابع :

ما زلت تبني ركن كل عظمة
وكدلك يشيد بالبنك في قصيدة ثالثة^(٢)
حتى أتيت برابع الأهرام^(٣)

مشروع القرم:

نهض الشباب بمشروع القرم ، يجمعون من كل متبرع قرشا ليؤسسوا مصانع
مصرية تغنيهم عن الحاجة إلى الأجانب ، وتشغل المتعطلين من الأمة .

(١) الشوقيات ٨/٤

(٢) الشوقيات ١٢/٤

(٣) الشوقيات ١٤/٤

وأقبل الشعب على تشجيع المشروع فنجح .

وفي سنة ١٩٣٢ حياهم شوقي بقصيدة ، هي آخر ما جادت به شاعريته .

بدأ القصيدة بأن الأسود لا تقيم على ضيم ، فكذلك أبناء مصر ثاروا على قيد
الاحتلال وسلطانة الاقتصادى واحتكاره لمنتجات الثروة ، وأولئك هم شبان الوادى
بل أشبال الوادى شبوا فصاروا أسدا ، يدفعون عن وطنهم عدوان الغاصب ،
وينزعون منه ثروة الوطن :

لا يقيم على الضيم الأسد نزع الشبل من الغاب الوتد
كبر الشبل وشبت نابه وتغطي منكبها باللبد
اتركوه يمش فى آجابه ودعوه عن حى الغاب يذد
واعرضوا الدنيا على أظفاره وابعثوه فى صحارها يصيد

ثم حيا الشباب وأثنى عليهم ، فهم أطهار من الآراب الخاصة لا يرتجون لأنفسهم
نفعاً ، ولا يحملون لأحد حقداً ولا حسداً ، وهم بلا بل مصر الغردة حركوا
بشدوهم أعطاف الوادى نشوة وفرحة ، وقد كان اليوم ينبع فيه ترحا ومهانة ، وهو
يعنى باليوم الأجانب الذين احتكروا ميادين الثراء . وهؤلاء الشبان زنبق المدائن
وريحان القرى ، يسمعون لجمع القروش من كل مكان ، يركون إلى سعيهم جماعات
جماعات كالنحل تنفر خفافا إلى الأزهار ترتشف رحيقها ، ثم يجتمعون آخر النهار
ليقدموا ما جمعوا ، كالنحل تعود إلى خلاياها لتفرغ الشهد :

فتية الوادى عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق لم يبع ولم يحمل الحقد ولم يخف الحسد
وخلا من شهوة ما خالطت صالحا من عمل إلا فسد
حرك البلبل عطى ربوة كان فيها اليوم بالأيك انفراد
زنبق المدن وريحان القرى قام فى كل طريق وقعد
باكراً كالنحل فى أمراها كل سرب قد تلاقى واحتشد

قد جنى ما قلَّ من زهر الربا ثم أعطى بدل الزهر الشهد

.....

ثم حض الشعب على الاستجابة لهم :

أيها الناس اسمعوا أصغوا له أخرجوا المسال إلى البرِّ يحد
لا تردوا يدهم فارغة طالب العون لمضر لا يرد

وخلص من ذلك إلى آثار مشروع القرش في إنهاض الصناعة ، وإكثار
من المنشآت النافعة ، وضرب المثل بينك مصر دعامة الاستقلال الاقتصادي ، وحث
على العناية بالصناعة وألا تعتمد مصر على القطن وحده ينبوعا لثروتها :

سيرى الناس عجيبا في غد يغرس القرش وينبئ ويلد
ينفض الله الصناعات به من عثار لبث فيه الأبد
أوزيد البر داراً قعدت لكفاح السل أو حرب الرمد
وهو في الأيدي وفي قدرتها لم يضيق عنه ولم يعجز أحد
تلك مصر الغد تبني ملكها نادى الباني وجاءت بالعدد
وعلى المسال بنت سلطانها ثابت الأساس مرفوع العمدة^(١)

.....

أعمال متى

واحتفى في قصائد أخرى بإنشاء الجامعة المصرية^(٢) ونادى الموسيقى الشرقى^(٣) ،
وبمقدم محمد صدقي أول طيار مصرى^(٤) ، وبأحمد حسنين الرحالة^(٥) ، وابتهج بتمثال
نهضة مصر الذى نحتة محمود مختار^(٦) .

وسنعرض لهذا في مناسباته .

(١) الشوقيات ١٦/٤

(٢) الشوقيات ١٨٠/١ (٣) الشوقيات ٣٦/٤ (٤) الشوقيات ١٩٤/٢

(٥) الشوقيات ١٨٦/١ و ٢١٢/٢ (٦) الشوقيات ٢٣١/٢

أما اعتزازه بالدستور وبالبرلمان فقد سبق . وهذه كلها مفاتيح لمصر الحديثة ،
نوه بها شوقي ، ليوفيهما حقهما ، وليشيد بالقائمين بها ، وليشجع الآخرين على أن يعملوا .

حفز العزائم

لم يقتصر على بكاء الماضي ، والسخط على الحاضر ، ولم يكن ليحقق له ذلك
الاقتصار ، لأن التشديق بالماضي قد يلهي عن العمل ، ويمد في أسباب الغرور ، ولأن
السخط وحده قد يؤثر ، ويُقعد عن السعي والسير قُدماً إلى البناء .

وإنما بكى شوقي ماضى مصر والشرق ، وسخط على حاضر مصر والشرق ، ثم
صاح صيحات مدويات داعياً إلى استعادة الماضى المشرق ، وإلى تنقية الحاضر الآسن ،
وإقامة مستقبل مجيد متأتق .

(١) وكان كثيراً ما يوجه الخطاب إلى الشباب ، لأنهم الجيل الحديد الذى لم
تتلوث نفسه بأدران الاحتلال ، وأقذار الخنوع ، ولأنهم مصر المستقبلية . أما الشيوخ
فهم مصر المستضعفة المستذلة ، وهم أضعف من الشباب منه ، وأجنح إلى اليأس ،
وربما كان بعضهم راضى النفس بما هو فيه ، إما لقنوطه ، وإما لأنه لا يحس بوخزات
الاحتلال ، وبمفاسد الأحوال .

يتجلى أمله فى الشباب فى كثير من شعره منذ شبابه ، ففي سنة ١٩٠٦ هتف فيهم
أن مصر لهم وإليهم مستقبلها ، فعليهم أن يذودوا عنها ويحملوا لواء الجهاد ،
لأنهم الأشبال المعدون للجهاد وحماية العرين ، ومصر لا تعتمد إلا عليهم ، ومن
واجههم أن يمشوا بمصر إلى الأمام ليحققوا عظمتها المشودة :

يا شباب الديار مصر إليكم	ولواء العرين للأشبال
كلما رُوِّعت بشبهة يأس	جعلتكم معاقل الآمال
هيئوها لنا يليق بمنف	وكريم الآثار والأطلال ^(١)

وفى قوله لشباب مصر سنة ١٩١٤ إنه يقدمهم بولديه ، وأنه يتمنى أن يمد الله

في حياته حتى يراهم سعداء في وطن حر عظيم السلطان ، ويعتذر لهم من شرور ربما جناها الجيل السابق ، ثم يحفز عزائمهم إلى العمل ، وإلى المجد :

يا شباب الغد — وأبناء الفدى
هل يمد الله لى العيش عسى
وأرى تاجكم فوق الشها
من رآكم قال : مصر استرجعت
إنما مصر إليكم وبكم
عصركم حر ومستقبلكم
لا تقولوا حطنا الدهر فما
هل علمتم أمة في جهلها
نخذوا العلم على أعلامه
واقروا تاريخكم واحتفظوا
واحكموا الدنيا بسلطان فما
واطلبوا المجد على الأرض فإن

لكم — أكرم وأعز بالفداء
أن أراكم في الفريق السعداء ؟
وأرى عرشكم فوق ذكاء
عزها في عهد خوفو ومناء
وحقوق البر أولى بالقضاء
في يمين الله خير الأمناء
هو إلا من خيال الشعراء
ظهرت في المجد حسناء الرداء ؟
واطلبوا الحكمة عند الحكماء
بفصيح جاءكم من فصحاء
خلقت نصرتها للضعفاء
هى ضاقت فاطلبوه في السماء^(١)

ويصرح لهم بأن الكبار في السن ضيوف عليهم :

أتم غداً أهل الأمور وإنما كنا عليكم في الأمور وفوداً^(٢)

ويذكرهم بأن وطنهم يعتمد عليهم ، ويحمل بهم ، لأنهم زينته ومظهر حيويته . فهم فيه كالريحان في الروضة ، وكالواسطة في العقد . وطنهم يأمل فيهم أن يعيدوا إليه قوته ووريثه ، ولم ينس لهم تضحياتهم في الذود عنه :

وطن يرف هوى إلى شبانه
هم نظم حليته وجوهر عقده
كالروض رفته على ريحانه
والعقد قيمته يتسم جمانه

(١) الشوقيات ٣/٢ ذكاء : الشمس . الشها : نجم . بنات نعش الصغرى . خوفو ومينا من ملوك مصر الفرعونية . ما هو إلا من خيال الشعراء : القول بأن الدهر حطهم ، أى أنه قول لاصحة له .

(٢) الشوقيات ١/١٢٧

يرجو الربيع بهم ويأمل دولة
من غاب منهم لم يغب عن سمعه
وإذا أتاه مبشراً بقدمهم
هيهات ينسى بذلهم أرواحهم
وقفوا له دون الزمان وربيته
في شدة نُقِصَتْ أناة كهوله

(٢) وهو ينفذ إلى مصر البشرية بأن أشبالها كبروا وصاروا أسوداً . ويشيد
بجهادهم الخالص لا من فيه ولا مباهاة به ، ويثني على يقظتهم وحذرهم مما كان يراد
بمصر من خديعة وصرف عن الاستقلال ، ثم ينصح لهم نصائح شتى ، وذلك
في قصيدته التي قالها سنة ١٩٢٤ لما أطلقت وزارة سعد زغلول المسجونين السياسيين :
يامصر أشبال العرين ترعرعت ومشت إليك من السجون أسودا

....

قالوا : أنتظم للشباب تحية
قلت : الشباب أثم عقد ما أثر
قبلت جهودهم البلاد وقبّلت
خرجوا فما مدوا حناجرهم ولا
ما كان أفطنهم لكل خديعة
لما بنى الله القضية منهم
طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبة

تبقى على جيد الزمان قصيدا؟
من أن أزيدهم الثناء عقودا
تاجا على هاماتهم معقودا
منوا على أوطانهم مجهودا
ولكل شر بالبلاد أريدا
قامت على الحق المبين عمودا
لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا^(٢)

.....

(١) الشوقيات ١/ ٣٢٥ الحان : اللؤلؤ أو حبات من فضة . القميص : يشير إلى قميص يوسف .
شذى أرداه : عطر أكامه . الحداثة : صغر السن . الحدثان : نوابغ الدهر . الأناة : الوقار والحلم
(٢) الشوقيات ١/ ١٢٦

(٣) وينصح الشباب في جرأة وصراحة ، داعياً إلى طرح الأوهام ، ونبد التنازع والتفاخر ، مثنياً على جهادهم في الحركة الوطنية ، محذراً من ذهء الإنجليز :

ناد الشباب فلم يزل لك ناديا	والمـرء ذو أثرٍ على أخذانه
ألق النصيحة غير هائب وقـعـها	ليس الشجاع الرأي مثل جبانـه
قل للشباب : زمانكم متحرك	هل تأخذون القـسـط من دورانه ؟
قتم على الأحلام تلتزمونها	كالعـالم الخالي على أوثانه
وتنازعون الحمى فضل ثيابه	والميت ما قدرث من أكفانه
ولقد صدقتم هذه الأرض الهوى	والحر يصدق في هوى أوطانه
أملٌ بذلتكم كل غالٍ دونه	وفقدتم ما عز في وجدانه
الليث يدفعكم بشدة بأسه	عنه ويطمعكم بفرط ليانه
ويريد هذا الطير حرامطلقا	لكـر بأعينه وفي بستانه (١)

(٤) ويشفع إلى أسفه لضعف مصر أن الأمم تملأ جو مصر بطياراتها في حين أن مصر لا تنتفع بجوها ، ويحفز الشباب إلى أن يتعلموا الطيران ، فيكون منهم كثير ، مثل محمد صدقي أول طيار مصري ، فقد احتفلت مصر بمقدمه ، ورأى الشبان كيف يكرم الأبطال :

مصر للطير جميعا مسرّح	مالنا فيها ذنابى أو جناح
رب سرب قاطع مر به	هبط الأرض ملياً واستراح
لم لا يفـتن فتـيان الحمى	ذلك الإقدام أو ذاك الطـمـاح ؟
من فتى حل من الجوبهـم	فتلقوه على هام وراح
إنه أول عصفـور لهم	هز في الجو جناحيه وصاح (٢)

(١) الشوقيات ١/٣٢٦ الأخدان : الأصدقاء . الأوثان : الأصنام . وجدانه : إدراكه والظفر به . ليانه : لينه

(٢) الشوقيات ٢/١٩٤ ذنابى : ذيل . سرب : جمع من الطيارات . ملياً : طويلاً . الطماح : الطموح والرغبة في المجد . هام : رهوس . راح : أيد

(٥) ولقد يبلغ به الاحتفاء بالشباب ونصحه أن يقدمه على الغرض الأول من القصيدة، فهو في قصيدته (رحالة الشرق) التي قالها في تكريم أحمد حسنين بعد رحلته في صحراء ليبيا، يصدر التحية بحديث عن شبان مصر، فينصحههم بالإقدام، ويأعداد القوة برا وبحراً، وينصحههم أن يتسابقوا إلى المجد، ويبين لهم أن المجد ليس في المال والجاه، وإنما هو في الجهاد والنبوغ والإقدام والعلم والأدب:

كل غاية إقـــدام له ولع	قل للشباب بمصر: عصركم بطل
لا الترهات لها أس ولا الخدع	أس الممالك فيه همة وحجاً
إذا خياركم بالدولة اضطلعوا؟	ماذا تعدون بعد البرلمان له
والبحر ليس لكم في عرضه شرع	البر ليس لكم في طوله لجم
فليس يلحق أهل السير مضطجع؟	هل تنهضون عساكم تلحقون به

.....

إلا عواري حظ ثم ترتجع	ما الجاه والمال في الدنيا وإن حسنا
حياله وعلى تمثاله اجتمعوا	عليكم بخيال المجد فأتلقوا
فالصبر ينفع ما لا ينفع الجزع	وأجملوا الصبر في جد وفي عمل
وفي صناعات عصر ناسه صنع ^(١)	وإن نبغتم ففي علم وفي أدب

(٦) لم يلق شوقي تبعه الجهاد والبناء للمستقبل على شباب مصر وحدهم، وإنما نصح شباب البلاد العربية بما نصح به شباب مصر، وألقى عليهم ما ألقى على شباب مصر، كقوله يخاطب الشعب الطرابلسي في رثائه للشهيد عمر المختار:

ذهب الزعيم وأنت باق خالد	فانقذ رجالك واختر الزعماء
وأرح شيو خك من تكاليف الوغى	واحمِل على فتيانك الأعباء ^(٢)

(١) الشوقيات ١٨٦/١
(٢) الشوقيات ٢٠/٣

الفصل التاسع

العلم والتعليم

إنه سرّك الملك تهيئ على أسس
فاسفرهم البانيين : العلم والأدب

شوقي

سفرهم بالعلم

أبرز سمات العصر الحديث أنه عصر العلم والثقافة واستغلال العلوم ، فكل ما نشهده من جديد في العالم ، وما نعجب به من طريف في هذه الحياة ، وما نستمتع به من خير أو نصطلي به من شر إنما مرده إلى العلم ، ومرجعه إلى الثقافة . والأهم تسمو بعلمائها ، فتمجد في عهود السلم ، وترهب في أعاصير الحرب .

ولسنا نبعد عن الصواب إذا ما ذهبنا إلى أن الاستعمار في الزمن الحديث إنما هو سيطرة العلماء على الجاهل . ومأساة الشرق بالغرب تؤيد هذا ، فإن أوروبا لم تستعمر الشرق إلا في عهود جهالة ، الجهالة التي جنت عليه الضعف والفقر والمعجزة والتواكل والمرض ، وجرت وراءها الفرقة والانقسام واختلاف الوسيلة والغرض ، وأعمت الشرقيين عن كنوز الخيرات التي يطثونها بأقدامهم ، فتزاحم الغربيون على استغلالها وامتلاكها واحتكارها ، ومنوا على بعض المواطنين بأن يكونوا عمالا فيها . وظل الشرق في غفلته أو سكرته إلى أن بعثه العلم من رقدته ، إذ تعلم أفراد منه ، فتصدروا صفوفه ، ونفخوا من روحهم القوى في روحه ، ونصبوا أمامه المثل العالية لحياة العزة والكرامة ، واتخذوا من نشر العلم وسيلة لبث آرائهم . فسرعان ما استفاق

الغافل ، ونشط الخامل ، وهبت أمم الشرق كلها تجاهد وتناضل . فالعلم هو الباعث على وثبات الشعوب ، ونهضات الأمم ، وأيما نهضة اصططنعتها القوة التي لا تعتمد على العلم كانت كالحصن المشيد على دعائم من الرمال ، لا بقاء له ولا صولة ، ولا طاقة له بأول جولة .

لهذا كله كان أمير الشعراء حريصاً على أن تتسلح مصر بالعلم ، في الحرب والسلام ، وكان كلفاً بالدعوة إليه يرددها في كثير من قصائده ، حتى ليصح أنها عقيدة من عقائده . وليس ذلك بعجيب منه بعدما ذاق حلاوة الثقافة شرقية وغربية ، قديمة وعصرية ، وعلم من تجارب الأيام وعبر التاريخ أن العلم ذريعة القوة ، وعاش في عصر إسماعيل وما بعده ، عصر الإفاقة واليقظة ، وإشراق العلم بمصر . ثم إنه رأى أوروبا تتسابق في ميادين المعرفة ، وتتنافس في حلبة الاختراع ، وتعزى بعلمائها وأدبائها كما تعزى بملكها وفتوحها ، فودّ لو تقتدى مصر بها ، ولا يبقى جاهل تحت سمائها .

إشادته بالعلم والتعليم

آثار العلم

(١) ذهب إلى أن العلم وسيلة الفوز والغلب ، وحياة السعادة والسيادة ، وأنه سياج المملكة وحارسها وحامها ، لأن العلماء بآرائهم وتديبيرهم واختراعاتهم يذودون عن الحمي ، ويقون الوطن غير العدوان كما تحمي الأسود عرينها .

قال في مدحة للخديو عباس :

بالعلم تملك الدنيا ونضرتها
والعلم يعتصم الملك الكبير به
ولا نصيب من الدنيا لجهال
كالغاب ما بين آساد وأشبال^(١)

وقال في حفل افتتاح الجامعة المصرية القديمة :

يا باني المجد وابن المولعين به
وألق في أرض منف أس جامعة
انشر ضياء الهدى من طيّ أرماس
من نورها تهتدى الدنيا بنبراس

(١) الشوقيات ٢٣٩/١

ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا آس^(١)
وقال للملك فؤاد:

إن سرّك الملك تبنيه على أسس فاستنض البانين العلم والآداب^(٢)
وقال له أيضا:

فلم تبرح القصر إلا شفيه — تـ جدوب العقول وإحاطها
لقد ركب الله في راحتك — كـ يمين الجدود وشمالها
تخط وتبني صروح العلو م وتفتح للشرق أوقافها^(٣)
وقال في قصيدة (الأزهر):

والله ما تدرى لعل كيفهم يوماً يكون أبا العلاء المبصر
لو تشتره بنصف ملكك لم تجد غنياً وجلّ المشتري والمشتري^(٤)
وقال في قصيدة (دمشق):

الملك حول لسان تحته أدب وتحت عقل على جنبه عرفان^(٥)

ولم ينس في الاحتفال بينك مصر أن يقرن المال بالعلم في الجلال والقدر، لأنه
دعامة من الدعائم التي يقوم عليها صرح الوطن. وما قيمة المال بغير علم؟ أليس العلم
هو الذي يثمر المال في ميادين نافعة، ويتسكروا الوسائل للحصول على المال؟ هذه مصر
قد احتكر الأجانب صناعاتها وتجارتها، وزاحموا المصريين حتى في زراعتها منذ كانت
مصر تجهل كنوزها، فلما تعلمت شرعت تدبر شأنها، وتسترد بعض مالها، لأنها
أحق بخيراتها:

يا طالباً لمعالي الملك مجتهداً خذها من العلم أو خذها من المال

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل وإقلال^(٦)

وكلما صاغ شوقي قصيدة في موضوع ذي صلة بالعلم أو الفن سكب في قلوب
الشباب من روحه الوثاب.

(١) الشوقيات ١٨١/١ (٢) الشوقيات ٧٣/١ (٣) الشوقيات ٢٣٤/٢

(٤) الشوقيات ١٧٧/١ (٥) الشوقيات ١٢٥/٢ (٦) الشوقيات ٢٢٩/١

ها هو ذا في قصيدته عن الطيران عند قدوم (فدرين) و (بونيه) طائرين من
من باريس إلى القاهرة سنة ١٩١٤ ، يلتفت إلى الشباب المصرى يوقظه من غفلته ،
ويبعث فيه الثقة والغيرة والطيران بمصر إلى جو المعالى على أجنحة من العلم :
إنما مصر إليكم وبكم وحقوق البر أولى بالقضاء
عصركم حر ومستقبلكم في يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا : حطنا الدهر فما هو إلا من خيال الشعراء
هل علمت أمة في جهلها ظهرت في المجد حسناء الرداء
نفذوا العلم على أعلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واطلبوا المجد على الأرض فإن هى ضاقت فاطلبوها في السماء^(١)

وفى تحيته لطيارين فرنسيين آخرين مجد العلم المخترع ، العلم الذى لو تقدم به الزمن
واقترن بالتحدى من فرد لعصره لعد معجزة ، ثم أثنى على الشجعان من العلماء الذين
أهلكتهم جرأتهم ، مثل (إيكار) و (عباس بن فرناس) ، وحسبهم من حسن
الأحدوثة أنهم خلفاء الرسل فى المعرفة والاستشهاد .

ونهب الفرصة فصرخ فى آذان الشرق الغافل ليستفيق ، فالحياة زحام وصراع
يهلك فيها من استنام ، والحياة جد وكفاح لا يغنى عنهما شيئاً ماض مجيد كان للأباء
والأجداد :

قم سليمان بساط الريح قما	ملك القوم من الجو الزماما
حين ضاق البر والبحر بهم	أسرجوا الريح وساموها اللجاما
صار ما كان لكم معجزة	آية للعلم آتاهما الأناما
قدرة كنت بها منفرداً	أصبحت حصّة من جدّ اعتزاما
طلّبة قد رامها آباؤنا	وابتغاهم من رأى الدهر غلاما
أسقطت (إيكار) فى تجربة	وابن (فرناس) فما استطاع قياما
فى سبيل المجد أودى نفر	شهداء العلم أعلاهم مقاماً

خلفاء الرسل في الأرض هم
أيها الشرق انتبه من غفلة
لا تقولن : عظامي أنا
شاقت العلياء فيه خلفاً
كل حين منهم نابغة
وفي قصيدته التي كرم بها أحمد حسنين باشا الرحالة يقول للشباب :

قل للشباب بمصر : عصركم بطل
ما الجاه والمال في الدنيا وإن حسنا
عليكم بخيال المجد فأتلفوا
وإن نبغتم ففي علم وفي أدب
وكل بنيان قوم لا يقوم على
شريف مكة حر في ممالكه
بكل غاية إقدام له ولع
إلا عوارى حظ ثم تترجع
حياله وعلى تمثاله اجتمعوا
وفي صناعات عصر ناسه صنع
دعائم العصر من ركنيه منصدع
فهل ترى القوم بالحرية انتفعوا^(٢)

كان شوقي يؤازر دعواته إلى العلم بأن الإسلام طالما دعا إلى العلم وكرر الدعوة ،
إذ قام على السمو بالروح ، وتطهير القلب ، وتربية العقل بالتفكير في خلق السماء
والأرض ، وأقام الإسلام أسسه على العقل والتفكير ، فرفع من قواعد العلم وحببه
إلى النفوس

لذلك عد شوقي من مآثر الرسول عليه الصلاة والسلام أنه بعث بدين يربي العقول
ويرفع من أقدار العلماء . وأشاد برعاية المسلمين للعلم ورجاله^(٣)

(٢) فعلى شيوخ الأمة ونوابها أن يتداركوا التعليم في مصر ، فينشروا المدارس
في كل مكان تظله سماؤها :

البرلمان غداً يمد رواقه ظلاً على الوادي السعيد ظليلاً

(١) الشوقيات ١٠٧/٢ (٢) الشوقيات ١٨٦/١

(٣) الشوقيات ٢٩/١ و ٢٤٨/١

هذا الزمان تناديكم حوادثه يا دولة السيف كوني دولة القلم
فالسيف يهدم فجرا ما بنى سحراً وكل بنيان علم غير منهدم
قدمات في السلم من لا رأى يعصمه وسوت الحرب بين البهم والبهم
وأصبح العلم ركن الآخذين به من لا يقم ركنه العرفان لم يقم^(١)

مبادئ الجهرل

(١) إذا كان عزرائيل ينتزع الأرواح من الأجساد فتحول جثثها هوامد ، فإن الجهل ينتزع من الأرواح سماتها الإنسانية ، فيثول بالجهل إلى فصائل البهم ، إذ ليس لهم من الإنسانية إلا اسمها :

الجهل لا تحيا عليه أمة كيف الحياة على يدى عزريلا^(٢) ؟
ويقول :

إنى نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل داء للشعوب مُبِيداً
الجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا^(٣)
ويقول :

أيقنت أن الجهل علّة كل مجتمع سقيم^(٤)

(٢) يمد شوقي بصيرته إلى بواعث الجرائم فيجسدها ناجمة من ضيق العقل واضطراب الرأى والجهل بمصاير الأمور ومصادرها .

ففي تهنته لسعد زغول بالنجاة من إطلاق الرصاص عليه وهو يتأهب للسفر إلى إنجلترا للمفاوضة ، عاب على الشباب أنه منصرف عن واجبه الأول ليلهو بالسلاح ، وأنه طائش لا يميز ، وأن اغتيال الزعماء ليس بوسيلة التحرر ، وما وسيلة التحرر إلا الجيش اللهم ، والعلم الهادى ، والخلق الممسك بالزمام :

(١) الشوقيات ٢٨٠/١ البهم : جمع بهمة بفتح الباء وهى ولد الضأن والمعز والبقر . البهم : جمع بهمة بضم الباء الرجل الشجاع

(٢) الشوقيات ٢٢٦/١ (٣) الشوقيات ١٢٨/١ (٤) الشوقيات ٢٧٢/١

أرى مصر يلهو بجد السلاح ويلعب بالنار ولدانها
وراح به — ير بحال العقول يحيل السياسة غلبه — انها
وما القتل تحيا عليه البلا دولا هممة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضى دولة وتقيل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلا دوبالعه — لم تشتد أركانها
فأين النبوغ وأين العلو م وأين الفنون وإتقانها ؟
وأين من الخلق حظ البلا د إذا قتل الشيب شبانها (١) ؟

(٣) والجهل يعمى النابخين عن اختيار الكفاء الصالح للنباية ، لأنهم يخذعون بالوعود المعسولة ، والدعايات الجوف ، والزلفى الخادعة :

تلك الكفور وحشوها أمية من عهد خوفو لم تر القنديلا
يتلو الرجال عليهم شهواتهم فالناجحون ألذهم ترتيلا (٢)

الثقافة المستزيرة :

لم يرِدْ شوقي بالعلم الاقتصار على برامج المدارس ، لأنها ليست إلامفاتيح للاستبحار والتعمق . وكَم من متعلم اقتصر على ما تعلمه في المدارس ، وودع الكتاب يوم غادر المدرسة فصار بعد حين في عداد القارئين ، لا في عداد المثقفين الذين يسايرون الحركة الفكرية ، ويغذون عقولهم كما يغذون أجسامهم .

وإنما يريد بالعلم هذا النشاط الذهني المتوقد ، وهذا النهم إلى الاستزادة من المعرفة ، وليس أضر على العلم والمتعلم من أن يطلبه المتعلم للوظيفة وحدها :

واطلبوا العلم لذات العلم لا لشهادات وآراب أخـر
كم غلام حامل في درسه صار بحر العلم أستاذ العصر
ومجد فيه — أمسى حاملا ليس في من غاب أو في من حضر (٣)

(٢) الشوقيات ٢٢٦/١

(١) الشوقيات ٣٣١/١

(٣) الشوقيات ١٤٨/١

ويقول :

وكم منجب في تلقى الدروب س تلقى الحياة فلم ينبج^(١)
ويقول في (أسواق الذهب) تحت عنوان (شهادة الدراسة وشهادة الحياة) :
« ما بال الناشئ وصل اجتهاده ، حتى حصل على الشهادة ، فلما كحل بأحرفها عينيه ،
وظفرت بزخرفها كلما يديه ، هجر العلم وربوعه ، وبعث إلى معاهده بأقطوعة . طوى
الدفاتر ، وترك المحابر ، وذهب يخيل ويفاخر ، ويدعى علم الأوائل والأواخر ،
فمن ينبيه أن الشهادة طرف السبب ، وفتاحه الطلب ، والجواز إلى أقطار العلم والآداب ؟
ومن يقول له — أرشده الله — : إن شهادة المدرسة غير شهادة الحياة ؟ »^(٢).

تعليم الفتاة

حرص شوقي على تعليم الفتاة ، لأنها بعد حين الأم التي تلد الأطفال أو الأشبال ،
وتربهم على أحسن مثال ، الأم الى تستحق كلمة نابليون : إنها تهز المهدي يمينها ،
وتحرك العالم بيسارها .

(١) ففي رأيه أن اليتيم ليس هو الطفل الذى مات والداه ، وإنما هو الطفل الذى
لا يستطيع أبواه أن يربياه ويُسهما في تعليمه :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلّاه ذلي — لا
فأصاب بالدنيا الحكيمه منهما وبحسن تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له أما تخلت أو أبا مشغولا^(٣)

(٢) ويبين أثر الأم في قوله إنه — لولا التقى — لقال إنها هي التي خلقت طفلها ،
وإنها هي التي تطبعه فيكون فسلا أو عظيما ، غويا أو راشدا ، لأنه صورة من تربيتها ،
يردد ما سمع منها ، ويتشكّل بما شكلته به :

لولا التقى لقلت لم يخلق سواك الولدا
إن شئت كان العير أو إن شئت كان الأسد

(٢) أسواق الذهب ٥٨

(١) الشوقيات ١٨٦/٢

(٣) الشوقيات ٢٢٧/١

وإن تُرَدَّ غَيًّا غَوَى أو تبغ رُشدا رَشَدَا
واليتِ أنتِ الصوت فيهِ وهو للصوت صَدَى
كالْبَغَا في قفص قيل له فقــــــــــــــلدا
وكالقضيب اللدن قد طاع في الشكل اليدا
يأخــــــــــــــذ ما عودته والمرء ما تعودا^(١)

(٣) لذلك يدافع عن حق النساء في التعلم ، فيضرب المثل بحالهن في صدر الإسلام ، وفي عصور الازدهار ، ويفاخر بما كان لهن من آثار :

هذارســــــــــــول الله لم يَنْقُصُ حقوق الأمهات
العلم كان شريعة لنســــــــــــائه المنهقات
رُضِنَ التجارة والسياسة والشئون الأخريات
ولقد علمت بناتها لجنج العلوم الزاخرات
كانت سَكِينَةً تملأ الد نــــــــــــيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت آى الكتاب البيئات
وحضارة الإسلام تذكــــــــــــر طق عن مكان المسلمات
بغــــــــــــداد دار العالمات ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمــــــــــــية أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس نــــــــــــمى ن الهاتفات الشاعرات^(٢)

(٤) ولهذا كان شوقى أسيفا من بقاء خطا الفتيات إلى المدارس ، لأن تعليمهن أجدد بالعناية من بناء الحصون والقلاع ، فهن اللاتى سيلدن النابغين ويربينهم ، وينجبن الأبطال ويرضعنهم ، وينشئن للأمة جيلا عظيم الأخلاق .

يقول في رثاء عاطف بركات باشا وكيل وزارة المعارف :

أرى التعليم لما زلت عنهـــــــــــــــــه ضعف الركن مخذولا مضاعا

.....

قم ابن الأمهات على أساس ولا تبين الحصون ولا القلاع
 فهن يلدن للقصب المذاكي وهن يلدن للغاب السباعا
 وجدت معاني الأخلاق شتى جمعن فكن في اللفظ الرضاعا^(١)
 (٥) وليس من سبيل للنهوض بالوطن إذا جهلت الأمهات ، وجهل الأمهات
 بمصر جعله يشفق على المعلمين ، لأنهم وحدهم ينهضون بأعباء التعليم ، ولا يجدون
 عوناً من الأمهات ، والأمهات الجاهلات يرضعن أبناءهن جهلاً وخمولا :
 إني لأعذرکم وأحسب عباکم من بين أعباء الرجال ثقيلًا
 وجد المساعد غيرکم وحرمتکم في مصر عون الأمهات جليلًا
 وإذا النساء نشأت في أمية رضع الرجال جهالة وخمولا^(٢)
 (٦) وبعد فقد كان شوقي قوى الإيمان بقيمة المرأة في إنهاض الأمم ، عظم الأمل
 في أن تنهض بمصر ، وفي ديوانه مظاهر شتى لإيمانه وأمله ، منها تمجيده للأشي في قصيدته
 (مملكة النحل) :

مملكة مدبرة بام — راة مؤمره
 تحمل في العمال والصناع عبء السيطره
 فاعجب لعمال يؤلوا ن عليهم قيصره

.....

تحكم فيه قيصره في قومها موقره
 من الرجال وقيو د حكمهم محرره
 الملك للإناث في الد ستور لا للذكره

.....

أنثى ولكن في جنا حيا لباة مخدره

.....

(١) الشوقيات ١٠٨/٣ القصب : الخطر الذي يتراهن عليه المتسابقون . المذاكي : الخيل المكتملة القوة

(٢) الشوقيات ٢٢٧/١

كأنها تركية قد رابطت بأنقره

كأنها جاندارك في كتيبة معسكره^(١)

ومن ذلك تمجيده للأم كما سبق .

وكذلك نجد المرأة التركية في مناسبات شتى^(٢) . وكان حفيها بابنته أمينة

أيما حفاوة^(٣) .

وقد آزر دعوة قاسم أمين إلى تعليم المرأة . أما دعوته إلى السفور فقد لقيها أو الأمر بحيرة وتردد بين السفور والحجاب ، فلم يقطع برأى في أحدهما ، فهو ينفر من الحجاب المتعسف ، ويتخوف من السفور المطلق^(٤) . ثم شايع السفور ودافع عنه^(٥) .

الغاية من العلم

لا بد أن يكون الغرض من العلم ربا للنفوس العطاش إلى الخير والحق والجمال ، لأن العلم من نور الله ، وهبة من عطايه ، ولو صح أن الله تعالى يرى لكان العلم هو المصباح الذي يراه به العلماء .

فكيف يسوغ لعالم أن يستخدم علمه في الشرور وفيما يغضب الله ؟

إن الأبطال الخلقاء بألقاب البطولة هم العلماء ، لأنهم لا يحاربون إخوانهم ليقوضوا الحضارة ، ويخربوا المدنية ، وإنما يحاربون أمراض الإنسانية ويطبّون لها لتصح وتسلم ، وتسير قُدماً إلى السكّال ، وهذا هو الجهاد ، وتلك هي البطولة :

لو يرى الله بمصباح لما كان إلا العلم جل الله شاناً
يا طرازا يبعث الله به في نواحي ملكه آنا فآنا
من رجال خلقوا ألية ونجوماً وغيوثاً ورعانا
قادة الناس وإن لم يقربوا طبقات الهند والسمر اللدانا

(١) الشوقيات ١٦٧/١

(٢) الشوقيات ٦٢/٢٣٤/١ (٣) الشوقيات ٧٤/٤ — ٨٠

(٤) الشوقيات ٦٢/٢ (٥) الشوقيات ٢٢٣ — ٢١٩/١ و ٢٠٨/٢ و ٨٠/٣

وهم الأبطال كانت حربهم منذ شنوها على الجبل عوانا^(١)
أما العلم الذى يفتنُّ فى ابتكار معاول التدمير والتخريب ، والإزهاق والإحراق ،
وتسليط الحق على الباطل ، والشر على الخير ، فالجبل خير منه . يقول فى قصيدته
التي وصف فيها الغواصة :

فلا كان بانيها ولا كان ركبها ولا كان بحر ضمها وحوها
وأف على العلم الذى تدعونه إذا كان فى علم النفوس رداها^(٢)
ويقول فى رثاء مصطفى فهمى باشا معرجا على الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ :
يتقاذفون بذات هول لم تهب حرم المسيح ولا حمى العذراء
من محدثات العلم إلا أنها إثم عواقبها على العلماء^(٣)

مكانة المعلمين

مجد شوقى العلم والمتعلمين تمجيداً ، فما قدر المعلم فى نظره ؟
إنه لقدرة عظيم ، وبحسبه أنه يكاد يكون رسولا ، وأن الله تعالى هو المعلم الأول ،
علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وأنه ابتعث الأنبياء معلمين . وليس فى الأمة أعظم
من المعلم أثراً ، ولا أجل خطراً ، لأنه يبنى نفوساً وعقولا .
والمعلمون هم الذين يحملون العبء ثقيلاً ، وهم هداة الأمم إلى الخير والحق ،
وقادتها إلى العزة والكرامة ، لذلك قال بسمرك بعد حرب السبعين : إنما غلبنا جارتنا
(يريد فرنسا) بمعلم المدرسة .

قال شوقى :

قم للعلم — لم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلت أشرف أو أجل من الذى يبنى وينشئ أنفساً وعقولا

(١) الشوقيات ٢/٢٣٩ الرعان : جمع رعن : الجبل الطويل . طبقات الهند : السيوف . السمر

الدان : الرماح القوية

(٢) الشوقيات ٢/١٣٤

(٣) الشوقيات ٣/٥

سبحانك اللهم خير معلمي علمت بالقلم القرون الأولى ✓
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الإنجيلا ✓
وفجرت ينبوع البياض ان محمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا ✓

الجامعة المصرية

نادى مصطفى كامل منذ سنة ١٩٠٤ بإنشاء جامعة أهلية ، تكفل لمصر انطلاق التعليم من قيود السيطرة الحكومية ، ورقابة الاحتلال ، وتضييقه المجال (٢) . وأيده في دعوته بعض الأمراء والأثرياء ، وجمعت أموال لإنشاء الجامعة ، ثم ركزت الحركة .

وبعد دعوته بعامين ائتلف بعض المصريين الدعوة ، وألفت لجنة لجمع المال ، أشرف عليها سعد زغلول وقاسم أمين — وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف — ثم وقفت الحركة مرة ثانية ، لأن الاحتلال أراد أن يلوى المصريين عن الجامعة ، فزين لهم العناية بالإكثار من الكتاتيب ، ودعتهم الحكومة إلى التبرع لها . لكن تعويق الاحتلال لم يفت في عزائم الدعاة ، لأنهم أيقنوا أن لورد كرومر يتشوق إلى إخفاق مشروعهم ، ليضمن أن تبقى مناهل العلم في قبضة الإنجليز ، فيتعلم الشباب ما يريد الاحتلال أن يعلمه ، ويتخرج مستهينا بقوميته وبتراثه وبماضيه ، لأنه يجهله ، أو لأنه يعلمه مشوهاً ممسوخاً .

وكان من أثر جهادهم أن بعث المشروع ثانية في سنة ١٩٠٨ ، وافتتحت الجامعة في ٢١ ديسمبر من السنة نفسها . وكان لشوقي نصيب في الإشادة بالجامعة .

فهو في رثائه لقاسم أمين سنة ١٩٠٩ يشيد بجهده في إنشاء الجامعة ، ويصفها بأنها مشرق النور في الشرق ، وبأنها كانت أملا برجوه المستنيرين :

لله جامعــــــــــــــــة نهضت بأمرها هي في المشارق مصدر الأنوار

(١) الشوقيات ١/٢٢٤

(٢) اللاواء ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ و ٨ يناير سنة ١٩٠٥

أمنية العقلاء قد ظفروا بها بعد اختلاف حوادث وطواري
والعقل غاية جريه لأعنة والجهل غاية جريه لعشار
لو يعلمون عظيم ما ترجى له خرج الشحيح لها من الدينار
تشرى الممالك بالدم استقلها قوموا اشتروه بفضة ونضار
بالعلم لم يبنى الملك حق بنائه وبه تنال جلائل الأخطار
ولقد يشاد عليه من شم العلاء ما لا يشاد على القنا الخطار^(١)

وفي سنة ١٩١٤ أهدت الأميرة فاطمة إسماعيل إلى الجامعة أعظم هبة نالتها ،
ذلك بأنها وقفت عليها ستمائة فدان من أجود أطيانها ، ومنحتها ستة أفدنة بالدقي ليقوم
عليها بناؤها ، وتبرعت لها بجواهر وحلى قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه لتنفق في البناء ،
فقبول سخاؤها هذا بالابتهاج والشكر ، ووضع الحجر الأساس للجامعة في ٣٠ مارس
سنة ١٩١٤ بحضور الخديو عباس . فحيا شوقي الأميرة والخديو بقصيدة أشاد فيها
بآثار الجامعة ، وحثه على العناية بالتعليم :

يا بارك الله في عباس من ملك وبارك الله في عمات عباس
وبارك الله في أساس جامعة لولا الأميرة لم تصبح بآساس

.....

وألق في أرض منف أس جامعة من نورها تهتدى الدنيا بنبراس^(٢)
ولما افتتحت منشآتها في مكانها الحالى بالجيزة سنة ١٩٣١ قال قصيدة نوه فيها
بآثار الجامعة :

ما هذه الغرف الزواهر كالضحا الشاخصات كأنها الأعلام ؟
من كل مرفوع العمود منور كالصبح منصدع به الإظلام
تتحطم الأمية الكبرى على عرصاته وتمزق الأوهام
هذا البناء الفاطمي منارة وقواعد لحضارة ودعام

(١) الشوقيات ٨٥/٣ القنا الخطار : الرماح اللدنة المهترة
(٢) الشوقيات ١٨٠/١

مهدّ تهباً للوليهد وأيكه سیرن فيها بلبل وحمّام
شرفاته نور السبيل وركنه للعبقرية منزل ومقام
.....

كم نستعير الآخرين ونجتدى هيات ما للعــــــــــــــــاريات دوام
.....

أرأيت ركن العلم كيف يقام أرأيت الاستقلال كيف يرام ؟
العلم في سبل الحضارة والعلا حادٍ لكل جماعة وزمام
باني الممالك حين تنشُد بانیا ومثابةُ الأوطان حين تضام^(١)
.....

وكان يأمل أن تنشئ مصر جامعة للفتيات . يقول في رثاء الأميرة فاطمة إسماعيل
سنة ١٩٢٠ :

يا جَزَع العــــــــــــــــلم على سُكينة الموقــــــــــــــــره
.....

من ذا يؤسسى هذه الـــــــــــــــــجامعة المستعبرــــــــــــــــة
لو عشتِ شدتِ مثلها للمرأة المحــــــــــــــــرّره^(٢)

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة في رأى شوقي نفحات من الله جمّل بها الحياة وعطّرها ، وهذب بها
النفوس ، ورّقق الطباع ، وأرجع إلى الناس نشاطهم إذا ما فتروا ، وأملهم إذا ما يئسوا ،
والفن الجميل زينة الممالك وحلاها .
يقول في رثاء سيد درويش :

لا تَرِقْ دمعاً على الفن فلن يعدم الفن الرعاة الأمناء

(١) الشوقيات ٢/٤ (٢) الشوقيات ٩٧/٣ المستعبرة : الباكية

هو ط — ير الله في ربوته
 روح الله على الدنيا به
 تكتسى منه ومن آذاره
 وإذا ما حُرمت رَقَّتْهُ
 نفحة الطيب وإشراق البهاء
 فشمت القسوة فيها والجفاء
 طاف كالشمس عليها والهواء
 وإذا ما سَمِمت أو سَمِمتْ
 ظهر الحسنُ عليه والرَّواء^(١)
 وإذا الفن على الملك مشى

والشعراء في رأيه هم الناس ، لأنهم الكلمة في الحيوية وفيض الشعور :
 جاذبتني ثوبي العَصِيَّ وقالت أنتم الناس أيهم الشعراء^(٢)

(١) الشوقيات ١٦/٣

(٢) الشوقيات ١٣٩/٢

الفصل العاشر الجيش

من بين ملوك أويزد فبالقنا المجرره

(شوق)

دعا شوق إلى السلام ، وحببه إلى الأناام ، على أن يكون الوسيلة إلى الحياة الحرة
الآية . لكنه مجد القوة تمجيداً ما لم يكن بد من الحرب .

وقد أوحى إليه يمينته السياسية ، ودراسته التاريخية ، وأحداث عصره التي شهدها
أن الأمة لا حياة لها في هذا العالم المستأسد إلا إذا أدرعت بالجيش .

فمحمد على شيد ملكه وطيدا على دعائم جيشه ، وإسماعيل بسط ملك مصر
بسواعد جنده ، ومصطفى كال أحياء تركيا وحصنها بعدده وعديده ، ومصر غلبت
على أمرها لما أمن الإنجليز رهبة جيشها .

فلا عجب أن يمجّد شوق — وهو عالم بهذا كله — القوة برية وبحرية وجوية .
ولا عجب أن يكثر من دعوة الأمة إلى أن تتسلح ، بل العجب لو أنه تغافل ، أو لبس
مسوح النسائك ، فزين السلم والدعة لمصر ، لتقابل الإساءة بالإحسان ، والعدوان
بالصفح والغفران .

كان شوق ينهز المناسبات فيشيد بالقوة ، ويصور حزنه من ضعف مصر ، ويصيح
في مصر أن هبي ، واجمعي جموعك ، وجيشي أشبالك وأبطالك .

آلام من ضعف مصر

تخيل في إحدى قصائده أن توت عنخ آمون جزع لما رأى العرين مستباحا
لا تحميه أسد ، ولا تقيه أسلحة ، فليس في البر جيش ولا في البحر أسطول :

قل لي : أحين بدا الشرى لك هل جزعت على العرين ؟

آنتس مُلكا ليس بالشـاكى السلاح ولا الحصين
 البر مغـلوب القنا والبحر مسلوب السفين
 لما نظرت إلى الدنيا رصَدَت بالقلب الحزين^(١)
 وبَّه همه في قصيدة أخرى، لأن مصر قد صُدَّت عن مؤتمر لوزان، استهانة
 بها، لأن صوتها لا يُرهب، وجيشها لا يرعب، ولو أنها كانت ذات عدة وعديد
 لخطبت الدول ودها، وتطامنت لها. وبحسبها من الخزي أن كروزن وزير إنجلترا
 ومندوبها في المؤتمر سيمثل مصر على أنها مستعمرة إنجليزية، أو أمة قاصرة وإنجلترا
 هي الوصية :

أتعلم أنهم صَنَلَفُوا وتاهوا وصدوا الباب عنا مُوصِدِينَا؟
 ولو كنا نَجُرُّ هناك سيفاً وجدنا عندهم عَطْفاً ولينا
 سيقضى كُرُزُنْ بالأمر عنا وحاجات الكنانة ما قُضِينَا^(٢)
 وأحزنه أن تسكبد مصر نفقات جيش الاحتلال، ويحرم جيشها أن يتقوى
 بما لها :

هَلَّا بكيتم لمال تشترون به من نصف قرن مضى رقاً وإذاعانا
 يعان أغنى جيوش العالمين به وجيشكم عاجز لم يلقِ مَعُونَا^(٣)
 ومن عجب يبعث الأسى أن جو مصر الضاحى أكثر الجواء ملاءمة للطيران،
 وأن تنز فيه طائرات الآمم، وليس لمصر فيه طائرة :

مصر للطير جميعاً مَسْرَحٌ ما لنا فيه ذُنَابِي أو جَنَاح
 رَبُّ سَرَبٍ قاطع مر به هبط الأرض ملياً واستراح^(٤)
 وإذا كانت إنجلترا تعوق نهضة جيشنا زاعمة أنه خطر على طريقها إلى الهند
 فهل يا ترى تعوقنا عن الطيران في جونا، مدعية أنه أيضاً طريقها للهند ؟

(١) الشوقيات ١٢٠/٢ (٢) الشوقيات ٣٤٠/١ (٣) الشوقيات ٣٤٩/١

(٤) الشوقيات ١٩٤/٢

تلك أبواب السماء انفتحت ما وراء الباب يا طير النجاح ؟
 أسماء النيل أيضاً حرم من طريق الهند أم جو مباح^(١)
 وبث الشباب شكواه من ضعف مصر الحربى فى عصر يدين بالقوة :
 البر ليس لكم فى طوله لجم والبحر ليس لكم فى عرضه شرع
 وهو أسيف على الجيش المصرى الذى خاطر به إسماعيل فى فتح الحبشة .
 ذلك بأن مصر امتلكت زيلع وبربرة ، واحتلت هرر فى عهد إسماعيل ، فازداد
 يوحنا نجاشى الحبشة ضيقا ، لأنه وجد مصر تهدد ملكه . وكان بعض المحيطين بالخدو
 إسماعيل يجاهرون بأن اكتساح مصر للحبشة أمر لازم لا مناص منه .
 وفى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ زحف الجيش المصرى إلى أسمره ، فاستنفر يوحنا
 رعاياه فتقاطروا أفواجا . ثم نشبت موقعة (قندت) فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ فقتك
 الحبش بالجيش المصرى فتكا مبيدا ، ولما عاودت مصر الكرة بجيش آخر لتشار
 هزمت فى موقعة (قرع) هزيمة فادحة ، ثم انتهت الحرب بعد أن تكبدت مصر نيفا
 ومليونين من الجنهات ، وبعد أن فقدت جيشها الأول وأكثر جيشها الثانى^(٢) .

لم ينس شوق هذه النكبة ، فلام إسماعيل فى قصيدته التى نشرها فى ١١ مارس
 سنة ١٨٩٥ إذ وصل جثمان الخديو من إيطاليا إلى القاهرة :

ليت لم تغش بعده فى حماها حبش المكر والخديعة أسدا
 سلبوا مصر أى جيش كريم كان للمجد والفخار أعدا
 أنت أنشأته فلم تر مصر جحفا بعده ولم تر جندا^(٣)

نخر بقوة مصر الحديثة

لم يحتبس شوق يراعه فى الأسى والحسرة ، وإنما خايل بقوة مصر فى ماضيها
 القريب ، ليندگر به ، وليستنفض العزائم ، وليمحو من الأذهان الدعوى بأن مصر
 ضعيفة لا تقوى .

(١) الشوقيات ١٩٥/٢ (٢) تاريخ مصر للأيوبي ٧٣/٢ - ١٢١
 (٣) الشوقيات ١٢١/١ لم تغش بعده : بعد فتح السودان . جعفر : جيش عظيم

من ذلك إعجابه بملك مصر الواسع في أوائل القرن التاسع عشر ، وتنويهه بجيشها
الباسل ، وغره بأسطولها الذي كان يهر ، وبفرسانها الصناديد الذين حالفهم الظفر .
وفي رأيه أن الجيش سلم العلا ، وسياج السؤدد :

حبذا دولةٌ وملكٌ كبيرٌ أنت باني ركنيهما يا محمد
ولواء في البر والبحر يعطى مظهر الشمس في الوجود وأزيد
تملاً الأرض صافناتٍ وتجرى لك في البحر كلّ برج مشيد
هكذا فلينل سماء المعالي من سعى في الوري لمجد وسؤدد^(١)
وكذلك إعجابه بالجيش المصري :

كل يوم صرح يشيد للعلم وظل يمد في مصر مدداً
ولواء وعدة وعديد ونظام ترى به الشهب جندا
وغزاة في البيض والسود تبغى مصر فيها مجدداً مستردداً^(٢)

وقد أسلفت في فصل خاص (الفخر بمصر) أنه طالما تغنى بقوة مصر الفرعونية ،
ومجد ملوكها الأقوياء ، وخايل بمواكبهم وقد عادوا منتصرين .

دعوات إلى القوة الحربية

(١) صور تمجيده للقوة في حوار تخيله بينه وبين ابنته ، إذ جاءته تطلب لعبة لها ،
فقال لها : أنت محبة للسلم مبغضة للحرب ، ولكن الدعوة إلى السلم قد أخفقت
منذ زمن بعيد ، لأن الناس كالوحوش تفترس من لاسلاح يحميهم . ثم قدم لها بندقية
تهلك الأعداء ، ورجا أن تستبدل بها أكبر منها إذا كبرت ، وبين لها أن البندقية تكفل
لها الحياة الحرة والسعادة والسلام . فنظرت إليه نظرة تدل على عجبها من نزعتة هذه ،
وهي تعلم أنه محب للسلام ، وأنه يدين بأن السلام أليق بالإناث .

فقال لها : لقد ضللت الحق لأنك صغيرة ، فلو تمثل الرسل جميعا في رسول واحد ،
وتمثلت الكتب السماوية كلها في كتاب واحد ، واجتمع الناس من قدماء ومتأخرين ،

(١) الشوقيات ١١٠/١ صافنات : خيل قوية (٢) الشوقيات ١١٦/١ غزاة : فتح

ووقف بينهم هذا الرسول خطيباً داعياً إلى السلام مرغبا فيه لئلا تصرفوا عنه جميعاً فلم يسمعوا ، لأنهم صم عن الدعوى إلى السلام ، عمى عن يدعوهم إليه ، جاحدون لآثاره :

ولى طفلة جازت السنتين	كبعض الملائك أو أظهر
أتنى تسألنى لعباً	لتكسرهما ضمن ما تكسر
فقلت لها : أيها الملاك	تحب السلام ولا أنكر
ولكن قبلك خاب المسيح	وباء بمنشوره القيصر
فلا ترجُ سلباً من العالمين	فإن السباع كما تفتّر
ومن يعدم الظفر بين الذئاب	فإن الذئاب به تظفر
فإن شئت تحيا حياة الكبار	يؤملك الكل أو يحذر
نخذ هاك بنسدة نارها	سلام عليك إذا تسعر

.....

ففيها الحياة لمن حازها	وفيها السعادة والمفخر
وفيها السلام الوطيد البناء	لمن أثر السلم أو يؤثر

.....

فلو جىء بالرسل فى واحد	وبالكتب فى صفحة تُنشر
وبالأولين وما قدّموا	وبالآخرين وما أخروا
لينهض ما بينهم خاطباً	على العرش نصّ له منبر
يقول : (السلام) يحب السلام	ويأجركم عنه ما يأجر
لصمّ العباد فلم يسمعوا	وكفّ العباد فلم يبصروا ^(١)

ويسوقه إيمانه بالقوة إلى تمجيدها وهو يتكلم عن النحل ، فمن يؤسس ملكاً

(١) الشوقيات ٧٩/٤ السلام (الأولى) : الله سبحانه

أو يصن عرشا فالسلاح عُدته ، ولا مُلْك إلا في ظلال البنود المشهورة ، والسيوف المشهورة . والملك عرين لا بد له من أسد يحميه بمخالبه القوية الحداد ، وأنيابه الزرق الفواتك :

من يَبْنِ مُلْكًا أو يَذِّدُ فبالقَّة _____ المجرَّره
ما المُلْكُ إلا في ذِرا الـ ألوية المنشَّـره
عَرِينُهُ مَذْكَانٌ لا يَحْمِيهِه إلا قَسُورَه
رُبُّ النِيبِ الزرق والـ مَخَالِبِ المَذْكُورِه (١)

(٢) لذلك رأى أن الممالك لا تقوى بالكلام ، ولا تبنى على الأقوال ، وأن الحقوق لا تنال بالخطب الطوال ، وإنما تقوى الممالك وتشاد ، وتنال الحقوق وتصل ، بجد الصارم البتار ، لأن الأمم لا تحقق حقاً لا توازره القوة ، ولأن الخطب في المؤتمرات العالمية لا جدوى لها ما لم ترجع رئاتها مدافع مدوية :

فقل لبانٍ بقول ركنٍ مملكة على الكتائب يُبْنِ المُلْكُ لا الكُتُبِ
لا تلتبس غَلْبًا للحق في أمم الحق عندهم 'معنى من الغَلْبِ
لا خير في منبر حتى يكون له عود من السمر أو عود من القُضْبِ
تَلَسَّ الترك أسباباً فما وجدوا كالسيف من سلم للعز أو سبب (٢)

ويكرر هذا المعنى حينما كان في الآستانة ، وشاهد بارجتين اشتريتهما تركيا من ألمانيا في عهد السلطان محمد رشاد .

ويضيف إلى الفكرة أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يعتمد على الحق أعزل من القوة ، بل آزر الحق بالجيش يدفع به العدوان ، ويمهد للدعوى سبيل الذبوع والاستقرار والاطمئنان :

زدهم أمير المؤمنين من القَوَى إن القَوَى عزُّ لهم وقوام

(٢) الشوقيات ٨/١ ؛ الكتائب : الجيوش . السمر : الرماح .

(١) الشوقيات ١٦٩/١

القضب : السيوف المقاطعة

الملك والدولت ما يدنى القنا والعلم ، لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس — وإن علا — بمؤيدٍ حتى يحوِّط جانبيه حُسام
خَطَّ النبي براحيته خندقا ومشى يحيط به قنأ وسهام^(١)
ويختتم مناجاته لنابليون بونابرت بأن السياسة ما زالت تجري كما كانت في عهده
على الختل والمكر وإعزاز الحق المستند إلى القوة ، والزراية بالحق الأعزل :
قم تر الدنيا كما غادرتها منزل الغدر وماء الخادعين
وتر الحق عزيزاً في القنا هيناً في العزل المستضعفين^(٢)
(٣) رأينا شوقي يشيد بالقوة الحربية ، وهو بتمجيده لها ، وبيان آثارها ، داعية
إلى أن تعد مصر عدتها . وهو في أسفه على ضعف مصر الحربى داعية إلى أن تبدل
ضعفها قوة .

على أنه كثيراً ما دعا مصر إلى أن تتسلح .
من ذلك أنه حض الشباب على أن يتجهوا إلى تقوية الجيش إذ ما آل الحكم إليهم :
قل للشباب بمصر عصركم بطل بكل غاية إقدام له ولع
ماذا تعيدون بعد البرلمان له إذا خياركم بالدولة اضطلعوا ؟
البر ليس لكم في طوله لجم والبحر ليس لكم في عرضه شرع^(٣)
ونوه مراراً بشأن الجيش في عزة الدولة ، كقوله :

وما الملك إلا الجيش شأناً ومظهرها ولا الجيش إلا ربه حين ينسب
وما السيف إلا آية الملك في الورى ولا الأمر إلا للذى يتغلب^(٤)
وكقوله :

ولا حقيقة من ملك ومن وطن حتى ترى السيف دون الملك عريانا^(٥)
وإذ كان الطيران السلاح الذى أعدته الدول للنصر ، فقد سماه شوقي سلاح
العصر ، وتنبأ بأن الأمة التى لا تتق نيران أعدائها بأجنحة من طائراتها مصيرها
الهزيمة والذلة . وقد تحقق ما تنبأ به .

(٢) الشوقيات ٣١٨/١

(١) الشوقيات ٢٨٤/١

(٥) الشوقيات ٣٤٨/١

(٤) الشوقيات ٣٣، ٣٠/١

(٣) الشوقيات ١٨٦/١

ثم ود أن تستكثر مصر منه لتعصم به سبلها ، وتستعصم به في كفاحها ، وعجب من شبان مصر الذين لا يستهويهم الطموح إلى أن يطيروا كما طار (صدقي) فتكرهم مصر كما كرمته ؟

ياسلاح العصر بـشـرنا به كل عصر بـكـمى وسلاح
إن عزاً لم يظلل في غد بجناحيك ذليل مستباح
فتكاثروا تألف فيلقاً تعصم السلم وتعلو للكفاح
لم لا يفتن فتية — إن الحمى ذلك الإقدام أو ذك الطمّاح ؟
من قى حل من الجو بهم فتلقوه على هام وراح^(١)
ولما طار أحمد حسنين اهتز شوقي فرحاً ، لأن الطيران سلاح العصر ، فلا الخيل ولا الرماح مجدية :

اثنان ثم ترى النصور كثيرة من كل ناحية لها أوكار
سر النجاح وركن كل حضارة همم من المتطوعين كبار
هذا زمان لا الأعنة منزل للباس فيه ولا الأسنة دار
ما البأس إلا من جناحي خاطف في البر والبحر اسمه الطيار^(٢)
ولما كانت الخلافة رابطة الدول الإسلامية أهاب شوقي بالمسلمين أن يكتبوا لتقوية أسطولهم ، أسطول الخلافة إذ ذاك ، لأنه مأمّنهم من سيل الحادثات الجارف ، وعدتهم في الكفاح ، ووسيلتهم إلى العزة والسيادة ، ودينهم لا يرضاهم إلا أعزة :
يا معشر الإسلام في أسطولكم عز لكم ووقاية وسلام
جودوا عليه بمالككم واقضوا له ما توجب الأعلاق والأرحام
سيل الممالك جارف من شدة وقوى وأتم في الطريق نيام
حب السيادة في شمائل دينكم والجيد روح منه والإقدام^(٣)

(١) الشوقيات ١٩٤/٢ (٢) الشوقيات ٢١٢/٢ الأنة : جمع عنان وهو سير اللجام والمراد الخيل . الأسنة : جمع سنان وهو نصل الرمح والمراد الرماح (٣) الشوقيات ٢٨٥/١

الفصل الحادى عشر

الحزبية

صوت الشعوب من الزئير مجمعا

فاذا تفرق كان بعضه نباح

شوقى

رأينا شوقى كلفا بمصر ، أسيفاً على استقلالها ، مولعاً بالدستور ، طروباً لكل عمل يرفع من شأن مصر ، حريّاً بالشباب وبالشعب يوجههم الوجهة النافعة للوطن . فكان من الطبيعى أن يحزنه تطاحن الأحزاب وتهاورها ، ويحزنه أن يلبج بعضها فى العناد الحزبى ، ويركب رأسه ، فيلغى الدستور أو يوقفه ، ليستأثر بالحكم وينتقم ، أو ليحقق للإنجليز أو للقصر رغبة . وفى هذا مافيه من تجريح للنظام النيابى ، وتشهير بسمعة القادة والحكام على اختلاف مذاهبهم ، وزعزعة للثقة التى يجب أن ترسخ فى القلوب للدستور والبرلمان .

وقد عابه الأستاذ العقاد بأنه « بمعزل عن الأمة فى شعوره ، لا يخامرها بعطفه ، ولا تخامرہ بعطفها ، ولا يناضل فى ميدانها نضال من يهيمه النصر والهزيمة . فما نصر مذها قط بين مذاهب السياسة الوطنية إلا فى إبان دولته القائمة ، أو فى الوقت الذى يأمن فيه سوء العاقبة . وقد كان هذا مفهوماً منه وهو فى وظيفته مقيد بمراسم الديوان وأحكامه ، وليس هذا بمفهوم منه بعد خروجه من الوظيفة إلا على الوجه الذى قدمناه عن شعوره بالوطنية » (١) .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى . العقاد ١٨٥

وفي هذا الرأي غمط لشوقي ، لأن محور شعره السياسي مناهضة الاحتلال ، والدعوة إلى الاستقلال ، ومشاركة الأمة في شعورها ، كما سبق .

وقد ناصر الحزب الوطني في إبان قوته ، ثم أشاد بذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٥ ، وسنة ١٩٢٦ في وقت صار فيه الحزب الوطني أخفت الأحزاب صوتاً^(١) .

ولم يشايح حزباً على حزب ، لأنه كان يعتقد أن الأحزاب كلها تسعى في سبيل الوطنية ، لذلك ناصر الحزب الوطني كما عرفنا ، فلما ضعف الحزب وخلفه الوفد وآزرتة الأمة ناصره شوقي . حتى إذا تعددت الأحزاب وانحرفت عن الجادة ، وتهاقت على المغام نأى عنها جميعاً ، وآثر أن يكون قومياً ينطق بلسان مصر ، ويمجد العاملين المخلصين من أى حزب .

فهو إذا لم يحصر نفسه في نطاق الحزبية الضيق ، الذي يغمط الفضل ، ويحدد المكركة ، ويقبر الكفاية .

ومن هنا اتصل بهؤلاء وأولئك ، وراقه عمل هنا فأطراه ، وعمل هناك فنوّه به . ولم يمنعه ذلك من لوم من قدرهم أمس إذا ما تنكبوا الطريق الذي يراه ودليلنا على قوميته أن أصفياه لم يكونوا على نحلة واحدة ، فقد عقد صلات الود برجال لا ياصرهم مذهب سياسي ، وظل كذلك طوال حياته . وتفجع لوفاة رجال لا آصار بينهم إلا الوطن يجمعهم وما آثرهم تنطقه برثائهم ، وبللت مراثيه ثرى رجال من أحزاب متباينة .

وقد أسلفت صلته بمصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، وتاريخه ينبىء عن صلات بغيرهم كسعيد زغلول وعبد العزيز جاویش وعبد الخالق ثروت وغيرهم ، ومراثيه تتناول كثيراً من رجال ليستوا من حزب واحد ، كسليمان أباطة ، ومصطفى فهمى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعاطف بركات وعلى أبى الفتوح وأمين الرافعى وبطرس غالى ورياض ثروت وسعد وجاویش .

ومن هؤلاء وأولئك من فرقهم الرأى واحتدم بينهم النضال ، وانشعبت بهم المسالك ، وليكن قبلتهم في نظر شوقي واحدة ، وكلهم يريدون الاستقلال لمصر .

ولست مع القائلين إن شوقى كان يمالئ الجماهير فيطرب لما تطرب ، ويجاريها فيما تحب وتكره ، لينال إعجابها وتقديرها وتقديرها له ، لأنه كلفَ بثناء الناس عليه ، وإن هذا هو السبب في تناقض آرائه السياسية الحزبية .

فهذا رأى ليس أقل قسوة من سابقه ، لأن شوقى لو كان تابعاً للجمهور يترضاه مانقده في عشرات الآيات نقداً مُراً ، ولو أنه يجارى الجمهور فيحب ما يحب ، ويكره ما يكره ، جلبنا للشهرة وحسن الأحداث ، لدان بمذهب الوفد حياته .

وليس أعجب من الدعوى بأن شوقى كان ترجمان الجمهور ولم يكن رائده وقائده .

ويكفى في دحضها صيحاته الإصلاحية ، ودعواته إلى أمور ما كان الشعب ليدعو إليها ، بل لم يكن ليفهمها حق الفهم .

سخط على الانقسام

في إحدى قصائده سنة ١٩٢٤ عرج على الشقاق وما جنى ، فذكر في مرارة وحسرة أن بعض المصريين صادتهم حبائل الاستعمار ، فشدوا عن الحق ، وتنكبوا طريق الجمع ، وكان الخير لمصر في أن تقف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص في وجه المستعمر كما وقفت في الثورة من قبل ، وعندئذ ليغلب الحق الأعزل الباطل المدجج .

وذكر المنشقين بأن إنجلترا اغتصمت بضعف مصر في فرقتهما فطردت جنودنا من سوداننا ، وعاملتنا معاملة لا تقرها كرامة . ثم سألهم : لماذا تحترم مصر وتهاب ؟ أهى يد واحدة وقلب واحد ورأى واحد ؟ كما كانت سنة ١٩٢٠ حين قدم إليها لورد ملتر وأعوانه ، فقاطعتهم مصر ، وأحالتهم على وفدها الموكل عنها للدفاع عن حقوقها ، حتى لقد كان الاتصال بلجنة ملتر جريمة ، يتحاشاها الذين قد تقسروهم ظروفهم على الاتصال بها :

وتقيئوا الدستور تحت ظلاله	كفأ أهش من الرياض وأنصرا
لا تجعلوه هوى وخلفاً بينكم	ومجرّ دنيا للنفوس ومتجرا
اليوم صرحت الأمور فأظهرت	ما كان من خدع السياسة مضمرًا

قد كان وجه الرأى أن نبقى يدأ
فإذا أتتنا بالصفوف كثيرة
غضبت فغض الطرف كل مكابر
لم تلق إصلاحا تهاب ولم تجد
حظ رجونا الخير من إقباله
عاث المفرق فيه حتى أدبرا^(١)

ويظهر أن الفرقة في سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٥ كانت ذات وخز أليم لشوقي، فقد عرض لها في قصيدة (شهيد الحق) في الذكرى السابعة عشرة لمصطفى كامل، فافتتح القصيدة بتأنيب المختلفين المتناحرين، لأنهم يتناحرون على آراب ذاتية، فيضعفون مصر، ويضيعون حقوقها، وبلغ به الخلق عليهم فسماهم رماة سوء، وشبههم بخلايا السرطان.

وكان الصراع في هذه الفترة عنيفا بين الوفد والأحرار الدستوريين، فلم يؤثر شوقي حزبا على آخر، لأنه كان كما قلت من قبل قوميا لا يشايح حزبا على حزب، بل لعله كان إلى ذلك الوقت أميل إلى الحزب الوطني، لأنه ساير نشأته، وآزر مصطفى كامل كما قلت في موضع آخر، ولأنه لم يجد من رجاله في سنة ١٩٢٥ من التهافت على الحكم، والتراشق بالتهمة ما وجد في حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين :

إلام الخلف بينكم إلاما
وفيم يكد بعضكم لبعض
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت
شبيتم بينكم في القطر نارا
إذا ما راضها بالعقل قوم
تراميم فقال الناس: قوم
وكانت مصر أول من أصبتم
إذا كان الرماة رماة سوء

وهذه الضجة الكبرى علاماً؟
وتبدون العداوة والخصاصا
على حال ولا السودان داما
على محتله كانت ——— لاما
أجد لها هوى قوم ضراما
إلى الخذلان أمرهم ترامى
فلم تحص الجراح ولا السكلاما
أحلوا غير مرماها السهاما

أبعد العروة الوثقى وجند كأياب الغضنفر لن يرأما
تباغيتكم كأنكم خلايا من السرطان لا تجد الضما^(١)
وكرر عليهم مرة ثانية في سنة ١٩٢٥ في قصيدة (بنك مصر) إذ افتتح القصيدة
بالسخط على المنقسمين المضطربين، واستغرق مسخه ثلاثة وعشرين بيتاً، منها:

مشينا أمس نلقاها جميعا ونحن اليوم نلقاها فرادى
تلاقينا فلا نجد الصياصى ونلقاها فلا نجد العتادا
ومن لقي السباع بغير ظفر ولا ناب تمزق أو تفادى
خفضنا من علو الحق حتى توهنا السيادة أن نسادا
ولما لم نزل للسيف رداً تنازعنا الحمايل والنجادا
وأقبلنا على أقوال زور تجيء الغي تقليه رشادا
ولو عدنا إليها بعد قرن رحمتنا الطرس منها والمدادا

.....

هنيئاً للعدو بكل أرض إذا هو حلّ في بلد تعادى
وبعداً للسيادة والمعالى إذا قطعاً القرابة والودادا^(٢)

.....

وفي قصيدته (مشروع ٢٨ فبراير) يلوم المتفخرين بجهودهم وجهادهم في القضية
الوطنية، لأن الفخر أثره واعتداد وكبرياء ومن ورياء، وشبه هؤلاء بجند في جيش
مقاتل لحوا بوارق النصر فألقوا سلاحهم، واستبقوا إلى الغنائم والمنازعة عليها،
فلا جرم أن يغلبوا ويقتلوا، كما حدث للمسلمين في غزوة أحد. وحضهم على أن يدعوا
تقدير جهادهم للتاريخ، فإنه أعدل منهم وأولى بالحكم:

ضموا الجهود وخلوها منكراً لا تملئوا الشدق من تعريفها عجباً

(١) الشوقيات ٢٧٤/١ (٢) الشوقيات ٦/٤ — ٧

أفى الوغى ورحا الهيجاء دائرة
تحصون من مات أو تحصون مأسلبا
خلوا الأكاليل للتاريخ إن له
يدأ تؤلفها درأ ومخسلبا
أمر الرجال إليه لا إلى نفر
من بينكم سبق الأنباء والكتبا
أمل عليه الهوى والحق قد فندفعت
يداه ترتجلان الماء واللها
إذا رأيت الهوى فى أمة حكما
فاحكم هنالك أن العقل قد ذهب^(١)

فرحه بالوئام

فإذا ما تصافت الأحزاب واتحدت كلمتها، وتوحدت غايتها ابتهج شوقى .
وإن فرحته لتتجلى فى قصيدته (المؤتمر) التى قالها فى المؤتمر السياسى الذى
اجتمعت فيه كلمة الأحزاب على إنقاذ الدستور فى ١٩ فبراير سنة ١٩٢٦ برياسة
سعد زغلول .

فى هذه القصيدة حيا الحرية وشهداءها فى أليات روائع ، ليدكر المؤتمرين
بغايتهم السامية التى يجب أن يقصدوا إليها متآزرين ، وليذكرهم بحقوق شهداء الوطن
على سياسة الوطن . ثم أردف بتحيته البشرى إلى مصر بائتلاف أحزابها . وإنها
لبشرى تهتز لها مصر كلها حتى نباتها ، ويتجدد لها نشاطها ، وتجمل حياتها كأنها الربيع .
وكيف لاتتهزم مصر ؟ وقد تصافى زعمائها ، وتصالحت أقلام كتابها ، ومحا الود والصفاء
ضغائن الصدور ، وتناقل المجتمعون من السياسة عبارات العتبى ، وتنقلوا بها حول
الموائد ، وترقرق فى نظراتهم البشرى ، فأينما جلست بعينيك لا ترى إلا عناقا
أو مصافحة .

ولقد طرب شوقى لهذا الاتحاد ، لأنه الكفيل بأن يعيد الدستور المعطل ، ويجمع
الملكات المنوعة فى خدمة مصر :

بشرى إلى الوادى تهز نباته
هز الربيع مناكب الأدواح
تسرى ملحة الحبول على الربا
وتسيل غرتها بكل بطاح

النَّامَتِ الأحزاب بعد تصدع
سُجِبَتْ على الأحقاد أذيال الهوى
وتصافت الأقلام بعد تلاح
ومشى على الضغن الوداد الماحى
وجرت أحاديث الوداد كأنها
سمرٌ على الأوتار والأقداح
ترمى بطرفك في الجماع لا ترى
غير التعانق واشتباك الراح
ثم يشيد مرة ثانية بسعد زغول وتضحيته واستجابته للصفاء .
ويصور آثار الائتلاف في قوله :

شتى فضائل في الرجال كأنها
شتى سلاح من قنأ وصفح
فإذا هي اجتمعت لملك جبهة
كانت حصون مناعة ونطاح
الله ألف للبلاد صدورها
من كل داهية وكل صراح

ثم ينصح الشباب ، ويبين لهم جدوى الاتحاد وجريرة الفرقة ، فمصر المتحدة
صخرة ترتطم بها الحادثات فتتكسر ، ومصر المتفرقة مصدوعة القوى واهية ، ويصور
صيحيتها وهي متحدة بزئير يعب ، وصوتها وهي منقسمة بتباح لا يرهب . وليس أولى
من تشبيه الصوت المتحد بالزئير ، وتشبيه الصوت المتفرق ببعض النباح :

أنتم بنو اليوم العصيب نشأتم
ورأيتم الوطن المؤلف صخرة
وشهدتم صدع الصفوف وما جرى
صوت الشعوب من الزئير مجمعا
في قصف أنواء وعصف رياح
في الحادثات وسيلها المحتاح
من أمر مفتات ونهى وقاح
فإذا تفرق كان بعض نباح^(١)

ويشيد بالائتلاف في قصيدة أخرى^(٢) .

ولما احتفل بذكرى مصطفى كامل في فبراير سنة ١٩٢٦ قال شوقي قصيدة ناجاه
فيها ، ثم زف إليه البشرى بأن الأمة موحدة الرأي بعد الفرقة ، ملهومة الشمل بعد

(١) الشوقيات ١٩٠/٢ مملحة الحجلول : جميلة مزدانة . الحجلول : الخلاخيل . قنا : رماح .

صفاح : سيوف . مفتات : مستبد

(٢) الشوقيات ٢٠٧/٢

الصدع ، قد وَّحَدَ بَيْنَهَا الْأَلَمَ فَاسْتَفَاقَتْ مِنَ الْخَدَرِ وَخَتَلَ الْعَدُوَّ الْمُغْتَصَبَ ، هَدَفَهَا
الاستقلال وحده . وجميل تشبيهه الاستقلال بخلية النحل يحرسها بإبره ، وتصويره
مصر بعد الاتحاد بَلَيْثَ يَحْمَى عَرِينَهُ ، وتذكيره البرلمان المؤتلف بهذا ، وبأن مصر
تراقب ما يعمل :

قم تر القوم ككتلة	مثـ ل ملهومة الصخر ✓
جسدوا ألفة الهوى	والإخاء الذى شطار ✓
ليس للخلف بينهم	أو لأسبابه أثر ✓
أَلْقَمَ رَوَائِحَ	غاديات من الغير ✓
وَصَحَّوْا مِنْ مُمُومٍ	وأفاقوا من الخدر ✓
أقبلوا نحو حقهم	ما لهم غيره وطر ✓
جعلوه خلية	شرعوا دونها الإبر ✓
وتواصوا بخطه	وتدأوا لمؤتمر ✓
وقصصا رى أولى النهى	يتلاقون فى الفكر ✓
آذنونا بموقف	من جلال ومن خطر ✓
نسمع الليث عنده	دون آجامه زار ✓
قل لهم فى نديهم	مصر بالباب تنتظر ^(١) ✓

وفى رثائه لعبد الحميد أبى هيف — أحد الفقهاء الذين عارضوا مشروع ملبر معارضة
قانونية قيمة — سنة ١٩٢٦ ناجاه بحبرته من الائتلاف كما ناجى مصطفى كامل فى قوله :

عبد الحميد ألا أسرك حادثا	يكسو عظامك فى البلى السراء
قم من صفوف الحق تلق كتيبة	ملهومة وتر الصفوف سواه
وتر الكشانة شديها وشبانها	دون (القضية) عرضة وفداء
جمع السلام الصحف من غاراتها	وتألف الأحزاب والزعماء
فى كل وجدان وكل سريرة	خلف الوداد الحق والبعضاء ^(٢)

(١) الشوقيات ١٠٠/٣ وطر : غرض . أولو النهى : العقلاء . آجامه . جمع أجمة وهى الغاية .
نديهم : برلمانهم (٢) الشوقيات ١٠/٣

الفصل الثاني عشر

وحدة المسلمين والأقباط

إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمِينَ وَقَبْطًا أُمَمٌ وَهَدَتْ عَلَى الْأُمَمِ

شَوْقٍ

(١) منذ وفد عمرو بن العاص على مصر عاش المسلمون والقبط إخوة يشتركون في السراء ، ويتآزرون في الضراء ، ويوطدون علائقهم على دعائم من الصفاء والإخاء . فإذا ما تَرَثَّق الود في بعض الفترات فسرعان ما يعود إلى صفائه غير مشوب بأكدار .

لكن الاستعمار حاول أن يقذف في قلوب المصريين ما يستطيع من عداوة وشحناء ، لتصدع الوحدة ، فيتبوأ في مصر مكانة الحامي أو الفصيل . وقد تنبه مصطفى كامل إلى الدسيسة الخبيثة التي يتذرع بها الإنجليز ليوطدوا أركانهم في مصر ، بدعوى أنهم يحمون القبط واليهود والأجانب . وأراد أن يبطل كيد الإنجليز ، فحرص على الوحدة بين المسلمين والأقباط ، وجهر بالدعوة إلى التآخي بينهما منذ سنة ١٨٩٦ .

قال في خطبة له بالإسكندرية : « إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين : إهاجة الأمة ، وإلقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين ، ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة ، عارفة بقيمة الاعتدال الديني ، وحسن معاملة الأوروبيين » (١) .

وفي سنة ١٨٩٧ . قال في خطبة له بالإسكندرية : « إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما إلى الأبد » .

وقرظت جريدة (الوطن) المسيحية هذه الخطبة ، وعلقت جريدة (المؤيد) على هذا التقرير بأنه إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة الوطنية ^(١) . وكرر دعوته في سنة ١٩٠٠ إذ خطب بالإسكندرية ، وجاء في خطبته قوله : « كيف يستطيع رجل وطى أن يدعو للشقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ؟ فالأقباط إخوة لنا في الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق ، وأكمل اتفاق » ^(٢) .

ودلّ العمل والتطبيق على إخلاص الدعوة ، فقد ضم الحزب الوطنى العنصرين ، وقضت وحدتهما على الخلاف الموهوم الذى تذرعت به الدول للتدخل فى شئون مصر قبل الاحتلال ، ثم تذرعت به إنجلترا لتثبيت الاحتلال .

وعرف القبط لمصطفى كامل فضله ، قال مرقس حنا باشا فى تأييده يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨ : « إنه كَوْن الوحدة الوطنية ، وأرانا طريق الإخاء والحرية ، فصار التآلف بيننا قاعدة ثابتة . وإن الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية ، وأن لا واجب عليها سوى خدمة مصر والمصريين » ^(٣) .

وقفى على أثر مصطفى كامل خليفته محمد فريد . قال فى خطبة له بالإسكندرية سنة ١٩٠٨ : « انبذوا الشقاق والاختلاف الدينى ، وكونوا جميعا إخواننا ، أبناء وطن واحد ، أى كونوا مصريين قبل كل شئ » ^(٤) .

ثم جاءت ثورة سنة ١٩١٩ فزادت المسلمين والقبط تماسكا واتحادا .

ونمى سعد زغلول الوحدة بأقواله وأعماله .

(٢) لكن الإنجليز استطاعوا أن يعكروا الصفاء — إلى حين — سنة ١٩١١ ، وظهر الجفساء فى المؤتمر القبطى بأسىوط (مارس ١٩١١) ثم المؤتمر المصرى بمصر الجديدة (إبريل ومايو سنة ١٩١١) ردا عليه .

ولقد أشبع فى وقت المؤتمرين أن للمعتمد البريطانى السير إلدون غورست ضلعا فى الدعوة إليهما ، وثمة مظاهرو تؤيد ذلك ^(٥) ، وقد كتب محمد فريد فى مذكراته

(١) مصطفى كامل ٩٨ الرافعى (٢) المرجع السابق ١٩٤٧ (٣) المرجع السابق ٤٣١

(٤) محمد فريد ٤٤٩ الرافعى (٥) محمد فريد ٢٤٤ الرافعى

« في أثناء حبسى شرع في المؤتمر المصرى الذى جمعه محمد سعيد باشا ، بناء على رغبة السير إدون جورست ، لمحاربة الأقباط ، وبالتالى للتفريق بين الأقباط والمسلمين ، »^(١) وكان من الخير أن عدل الأقباط عن عقد مؤتمرهم الثانى ، وجنح المسلمون إلى الإخاء والصفاء .

ولم يكن لهذا الشقاق مظهر من قبل ، حتى إن السير إدون جورست يعترف في تقريره سنة ١٩٠٩ بأن قتل الوردانى لرئيس النظار بطرس غالى كان مبعثه سياسياً صرفاً ، ولم يكن القاتل مدفوعاً بعامل التعصب الدينى ^(٢) .

دعوات شوقى إلى الوحدة

(١) بدأ شوقى دعوته إلى الوحدة منذ سنة ١٩٠٦ ، ففي حفل تكريم واصف غالى دعا القبط بأنهم بنو مصر لا أمة القبط ، لأن تسميتهم بالقبط تشبث بماض زال ، ودعوى جوفاء ، ولأن المسلمين والأقباط أمة واحدة منذ عشرات القرون ، وعزز هذه الوحدة بأننا جميعاً أبناء النيل ، ومن طينه ومائه ، وأننا جميعاً شركاء فى الآلام . أما اختلاف الدين فلا يصح أن يكون عاملاً للفرقة والانقسام ، فالمسلم يتجه إلى الله ، والقبطى أيضاً يتجه إلى الله :

يا بنى مصر ، لم أقل أمة القبط — ط فهذا تشبث بمح — ال

واحتمال على خيال من المج — د ودعوى من العراض الطوال

إنما نحن مسلمين وقبطا — أمة وُحِدَتْ على الأجيال

سبق النيلُ بالأبوة فينا — فهو أصلُ وآدم الجِدُّ تال

نحن من طينه الكريم على ال — ه ومن مائه القراح الزلال

مرَّ ما مرَّ من قرون علينا — رُسُفاً فى القيود والأغلال

.....

وإلى الله من مشى بصليب في يديه ومن مشى بهلال^(١)
وفي رثائه لبطرس غالى سنة ١٩١٢ حَضُّ على الوحدة ، ورفَدَ حصه بأن ذَكَر
بوشائج من القربى والود بين المسلمين والقبط ، ودعا الجميع إلى أن يتساقفوا كتموس
الحب ، وأن يتناصروا لحماية الوطن :

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تك مصر مهْدَنَا ثم لَحْدَنَا وبينهما كانت لكل مغانيا؟
ألم نك من قَبْلِ المسيح بن مريم وموسى وطه نعبد النيل جاريا؟
فَهَلَّا تساقينا على حبه الهوى وهلا فديناه ضففا وواديا
وما زال منكم أهل ود ورحمة وفي المسلمين الخير ما زال باقيا^(٢)

ولم ينس في رثاء آخر له أن ينوه بجهوده في تألف المسلمين والأقباط ، وأن
يذكر الأقباط بأن المسلمين يجلون المسيح إكراما لهم ، ويذكر المسلمين بأن الأقباط
يوقرون الإسلام ، ويذكرهم جميعاً بأن الدين لله ، ولو شاء ربك لجعلهم ملة واحدة ،
ثم ناشد القبط أن يخلصوا الود للمسلمين ، فدورهم متجاورة ، وقبورهم متقاربة ،
وعظام الموتى من المسلمين والأقباط قد اختلط بعضها ببعض في ثرى الوادى .

وليس لنا مأخذ على شوقي إلا فى قوله إن المسلمين يُعلون تعاليم المسيح إكراماً
للقبط ؛ لأن المسلمين يصدقون بعيسى عليه السلام ، ويجلون نسبه ، طاعة لدينهم
لا مرضاة للأقباط :

قد عشت تُجَدِّثُ للنصارى ألفة وتُجَدِّثُ بين المسلمين وئاما
واليوم فوق مشيد قبرك ميتاً وجدَّ الموفق للمقال مقاما
الحق أبلغ كالصباح لناظر لو أن قوما حكموا الأحلاما
أعهدتنا والقبط إلا أمة للأرض واحدة تروم مراما؟
نُعَلِّي تعاليم المسيح لأجلهم ويوقرون لاجلنا الإسلاما

الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما
يا قوم هذى ربوعكم وتلك ربوعنا متقابلين تعالج الأياما
هذى قبوركم وتلك قبورنا متجاورين جماجماً وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم عيشوا كما يقضى الجوار كراما^(١)

(٢) وقد ذكر المسلمين والأقباط بقوة الاتحاد وبأس الإخاء في ثورتهم الرائعة سنة ١٩١٩ إذ استطاعوا أن يستردوا سعدا وصحبه من المنفى، وهزموا بوحدتهم إنجلترا المسلحة، وكان نصرهم باكورة للنصر الذى نأمل أن يتلاحق، كما كان انتصار المسلمين في غزوة بدر فاتحة الغلب:

ما نسيت مصر لكم برها فى حازب الأمر وفى صعبه
مزقتم الوهم وألفتم أهلة الله على صلبه
حتى بنيتم هرماً رابعاً من فئسة الحق ومن حزبه
يوم لكم يبقى (كيدر) على أنصار سعد وعلى صحبه^(٢)

(٣) وطالما دعا إلى التسامح الدينى، وذكر الناس بأن الأديان كلها تحض على الخير، وتنفر من الشر، والتسامح الدينى ضرب من ضروب الخير.
قال فى سنة ١٩٠٨:

الدين لله من شاء الإله هدى لكل نفس هوى فى الدين داعيها
ما كان مختلف الأديان داعية إلى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكتب والرسل والأديان قاطبة خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصل فى مرأشدها وخشية الله أس فى مبانيها
وكل خـير يلقى فى أوامرها وكل شر يوقى فى نواهيها
تسامح النفس معنى من مروءتها بل المروءة فى أسمى معانيها

تَخْلُقُ الصَّفْحَ تَسْعَدُ فِي الْحَيَاةِ بِهِ فَالنَّفْسُ يَسْعِدُهَا خُلُقٌ وَيَشْقِيهَا^(١)
وَأَرَادَ أَنْ يَشَبَّ النَّشْءَ عَلَى التَّسَامُحِ الدِّينِي وَعَلَى الْوَحْدَةِ فَجَبَّهَا إِلَيْهِمْ فِي أَحَدَانَا شَيْدِهِ:
جَعَلْنَا مَصْرَ مَلَّةَ ذِي الْجَلَالِ وَأَلْقْنَا الصَّلِيبَ عَلَى الْهَلَالِ
وَأَقْبَلْنَا كَصَفٍّ مِنْ عَوَالٍ يَشُدُّ السَّمْهَرُ السَّمْهَرِيَا^(٢)
(٤) وَكَانَ شَوْقِي يَأْخُذُ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ بِالتَّسَامُحِ الدِّينِي الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ ، فَقَدَرْتُ بَعْضَ
الْقَبْطِ كَمَا رَأَيْتُ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ . رَأَيْتُ بِطَرَسَ غَالِي بَاشَا^(٣) وَعَزَى الْقَبْطَ فِيهِ أَجْمَلَ عَزَاءً ،
وَأَيَّ عَزَاءٍ أَجْمَلَ وَأَطْيَبَ مِنْ قَوْلِهِ :

بَنَى الْقَبْطُ إِخْوَانَ الدَّهْوَرِ رَوَيْدَكُمْ هَبُوهُ (يَسُوعَا) فِي الْبَرِيَّةِ ثَانِيَا
حَمَلْتُمْ لِحُكْمِ اللَّهِ صَلْبَ ابْنِ مَرْيَمَ وَهَذَا قَضَاءُ اللَّهِ قَدْ غَالِ غَالِيَا
وَرَأَيْتُ جَرَجِي زَيْدَانَ وَأَشَادَ بِمُؤَلَّفَاتِهِ الْقِيَمَةَ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِ اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ^(٤) .

وَرَأَيْتُ يَعْقُوبَ صُرُوفَ وَنُوهُ بِخِدْمَاتِهِ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ^(٥) .
وَهَلَلْتُ بِعِيدِ مِيلَادِ الْمَسِيحِ فِي احْتِفَائِهِ بِالْعِيدِ الْهَجْرِيِّ سَنَةِ ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)
عِيدِ الْمَسِيحِ وَعِيدِ أَحْمَدَ أَقْبَلَا يَتَبَارَيَانِ وَضَاءَةً وَجَمَالَا
مِيلَادِ إِحْسَانَ وَهَجْرَةَ سُودَدَ قَدْ غَيَّرَا وَجْهَ الْبَسِيطَةِ حَالَا^(٥)
وَطَالَمَا ضَرَبَ الْمَثَلَ بِالسَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي حَنَانِهِ وَتَوَاضَعِهِ وَإِيْثَارِهِ السَّلَامَ ، كَقَوْلِهِ
فِي تَوَلُّسْتَوَى :

تَطُوفُ كَعِيسَى بِالْحَنَانِ وَبِالرِّضَا عَلَيْهِمْ وَتَغْشَى دُورَهُمْ وَتَزُورُ^(٦)
وَلَمْ يَنْسَ فِي تَوَدِيعِهِ الْآسْتَانَةَ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ الرَّشَادِ أَنْ يَدْعُو إِلَى التَّسَامُحِ الدِّينِيِّ :
أَدَارَ مُحَمَّدٍ وَتَرَاثَ عِيسَى لَقَدْ رَضِيَاكَ بَيْنَهُمَا مُشَاعَا
فَهَلْ نَبِذَ التَّعَصُّبَ فَيْكَ قَوْمَ يَمُدُّ الْجَهْلُ بَيْنَهُمُ الزَّعَا؟^(٧)

(١) الشوقيات ٣٦١/١ (٢) الشوقيات ١٧٠/٤ (٣) الشوقيات ٣٩/٤
(٤) الشوقيات ١٣٥/٣ (٥) الشوقيات ٣٢/٣ (٥) الشوقيات ٢٣١/١
(٦) الشوقيات ٨٩/٣ (٧) الشوقيات ١٨٢/١

وكان لبقا حصيفاً في قصيدته (مسجد أياصوفيا) إذ جعل الكنيسة التي صارت
مسجداً هدية من السيد إلى السيد، من المسيح إلى أخيه محمد عليهما السلام :
كنيسة صارت إلى مسجد هدية السيد للسيد
كانت لعيسى حرماً فانتهدت بنصرة الروح إلى أحمد^(١)
وعجب من تسابق الدول الغربية إلى إشعال الحروب وهي تدين بالمسيحية، وتعلم
أن عيسى كان رسول محبة وسلام، وأعجب العجب أن تشب الدول بعض حروبها
باسم المسيحية، والمسيحية من هذا العدون براء :

عيسى سيدك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امراً هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الوري كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم رَحماً وباسمك تُقَطِّع الأرحام
أنت القيامة في ولاية يوسف واليوم باسمك مرتين تقام

.....

واليوم يهتف بالصليب عصائب هم للإله وروح — ه ظلام
خلطوا صليبك والخناجر والمدى كل أذاة للأذى ورحام
وأخذ يفصل وحشية البلغار وما اجترحوا سنة ١٩١٢ في أدرنة المسلمة^(٢)
وكرر أساءه من حال العالم الغربي في رثائه لتولستوى^(٣) وفي ذكرى شكسبير^(٤).

موازنا :

شارك شعراء آخرون في الدعوة إلى الوحدة، بنصيب أضال من نصيب شوقي ،
قال إسماعيل صبرى في الفتنة التي نجمت سنة ١٩١١ :

معشر القبط يا بني مصر في السرّاء قد كنتم وفي الضراء

.....

خففوا من صياحكم ليس في مصر — ر لأبناء مصر من أعداء

(١) الشوقيات ٢٧/١ (٢) الشوقيات ٢٩٠/١ (٣) الشوقيات ٨٩/٣ (٤) الشوقيات ٥/٢

دين عيسى فيسكنكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملك لنا إذا ما تماسكنا وإلا فمصر للغرباء^(١)
وجزع حافظ إبراهيم من هذه الفتنة ، فاستغاث بالخديو عباس أن يدرأها :
مولاي أمتك الوديعة أصبحت وعرا المودة بينها تنقسم
نادى بها القبطى ملء لهاته أن لا سلام وضاق بها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها فجرى الغي وأقصر المتعلم
ماذا دهى قبطى مصر فصدده عن ود مسلمها وماذا ينقم ؟
وعلام يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكاييد نوم ؟
قد ضمنا ألم الحية — اة وكلنا يشكوفنحن على السواء وأتم
إني ضمن المسلمين جميعهم أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم
إلى أن يقول للخديو عباس :

واجمع شتات العناصر بذمة تأتى على هذا الخلاف وتحسم^(٢)
وأشاد بالوحدة محمد عبد المطلب فى قصيدة منها .

بنينا على آداب عيسى وأحمد منازل عز دُونها يقع النسر^{٥٥}
كلانا على دين به هو مؤمن ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذا مادعت مصر ابنها نهض ابنها لنجدتها سيان مرقس أو عمر
ترى ذكر مصر فى الهياكل قربة^{٥٦} وفى صلوات المسلمين لها ذكر^(٣)

ونددولى الدين يكن بالفرقة ، ودعا إلى الوحدة والألفة ، وجعلهما هما الورع :

أبنى المسيح وأحمد انتبهوا ودعوا رجالا منكم هجّوا^{٥٧}
جاءوا الورى والأمر ملتئم ثم انثنوا والأمر منصّدع
لم يرض أحمد والمسيح بما صنعوا ، فلا ترضوا بما صنعوا

(١) ديوان إسماعيل صبرى ١٨٠ (٢) ديوان حافظ إبراهيم ٢٩١/١ (٣) ديوان محمد عبد المطلب

أرواحكم من بعضها قطع
وجسومكم من بعضها بضع
لا تحسبن خلافكم ورعاً
إن امتلافكم هو الورع^(١)

وكذلك فعل الرصافي في العراق :

أما أن أن تنسى من القوم أضغان
فبني على أس المؤاخاة بنيان
أما أن أن يرمى التخاذل جانباً
فتكسب عزاً بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة
إن التعادى في الديانة عدوان
وما ضر لو كان التعاون ديننا
فتعمر بلدان وتأمّن قطان
إذا جمعنا و—دة وطنية
فإن قام باسم الدين يدعو مفرقاً
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة
أجب أيها الندب المسيحي مسلماً
فلا تحرّما الأوطان أن تتحالفا
ألا فانهضا نحو العدا وكلا كما
إذا علينا أن تعدد أديان ؟
فدعواه في أصل الديانة بهتان
إذا فاتباع الدين ياقوم خسران
صفالك منه اليوم سر وإعلان
يدا بيد حتى تؤكد أيمان
لصاحبه في المازق الضنك معوان^(٢)

ولكن شوقي يفوقهم جميعاً في كثرة دعواته ، وبراعة استمهالته ، وقدرته على إبراز
آثار الاتحاد ، هذا إلى طريقته الفنية التي اختص بها وامتاز .

الباب الثالث

الإسلامية والوطنية

تمهيد

تبين من الفصول السابقة أن شوقي كان مصرياً وطنياً ، وأن وطنيته متعددة الألفانين .

لكن شعره حافل بقصائد عثمانية شتى ، ومن هنا أتهم بضعف الوطنية ، وبالحنين الدائب إلى عرقه ، وبمجاراة شعره للبيت العلوي .

ولست أتعجل رفض هذه التهمة أو تأييدها قبل أن نحتكم إلى شعره ، لنرى ما في الاتهام من حيف أو من صدق .

ومن الإنصاف للبحث العلمي أن نبدأ أولاً بدراسة النزعة الإسلامية أو النزعة العثمانية في مصر والشام والعراق ، لنستبين أكان شوقي بدعاً في هذه النزعة أم عضواً في جماعة تدين بها وتدعو إليها .

الفصل الأول

الإسلامية التركبية في عصره

(١) في مصر

كانت السمّة البارزة في السياسة والأدب هي الجنوح إلى موالاة الخلافة العثمانية .
وثمة بواعث عدة لهذا الجنوح :

(١) فمصر لا تخضع للحكم التركي ومساوئه التي جأر الأحرار بالشكاة منها
في البلاد العربية الأخرى ، لأنها كانت منذ أول القرن التاسع عشر شبه مستقلة .
ثم جاء الاحتلال البريطاني فجعلها تابعة له . أما الشام والعراق وغيرهما فقد كانت
تتحكم حكما تركيا مباشرا .

(٢) والمصريون يجدون في تأييد الخلافة الإسلامية إغزارا للإسلام وللمسلمين ،
وتجميعاً للقوى ، وتوحيداً للحكمة .

(٣) وهم يرون الدول الأوروبية تتألب للقضاء على الخلافة الإسلامية — الجامعة
الروحية للمسلمين حينئذ — ممثلة في تركيا ، بدافع من التعصب الديني ، ومن الجشع
إلى اغتصاب ولايات من تركيا لاحتلالها واستعمارها ، فمن واجبهم أن يؤازروا
الخلافة في محنتها ومحتهم . فقد هالهم أن تتجمع الشعوب الصقلية باسم الجامعة الصقلية
تحت زعامة الروسيا — وبينها وبين تركيا عداؤ قديم متجدد — لتحرر من الحكم
العثماني . فكان الرد الطبيعي على هذا التجمع أن تتجمع الدول الإسلامية تحت زعامة
تركيا ممثلة الخلافة ، وأن يستمسك المسلمون بهذه الخلافة ويؤيدوها .

(٤) وهالهم أن تُبيّت الدول الأوروبية الشر لتركيا ، وتطلع إلى اقتسام ولاياتها ،

وتحرض بعضها الآخر على الاستقلال . وقد تكشف هذا في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م إذ اجتمع لحل مشكلات تركيا في البلقان ، لكنه أسفر عن سعى إلى تمزيق الولايات وابتلاعها .

وقد بدأ تحقيق المطامع بأن احتلت إنجلترا جزيرة قبرص ، واحتلت روسيا بعض أملاك تركيا على البحر الأسود ، واضطرت تركيا إلى التخلي عن رومانيا والصرب . ثم في سنة ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس ، وبعد ذلك بعام واحد نصبت إنجلترا أحابيلها لاحتلال مصر غير عابئة بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، ثم هاجمت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١ وأجبرت تركيا على التخلي عنها بمعاهدة لوزان سنة ١٩١٢ لتفرغ لثورات في البلقان منذرة بالقضاء على المملكة .

فكان الرد الطبيعي على هذا العدوان المتكرر أن يؤيد المستنيريون الخلافة ، وأن يناصروا آل عثمان ، وأن يهتموا أوروبا بأنها تجددتها حربا صليبية ثانية ، وأنها لا تصوب ضرباتها إلى تركيا فحسب ، بل تصوبها إلى الإسلام ممثلا في الخلافة الإسلامية وفي بني عثمان .

(٥) وهم في التفافهم حول الخلافة يحققون ما يأمر به الإسلام من الاتحاد والتناصر والتعاون والتقوى .

(٦) والأدباء والساسة والمصريون جميعاً كانوا في ذلك الوقت لا يجدون تنافياً بين العاطفة الدينية والعاطفة الوطنية . فمن الميسور أن تستقل مصر استقلالاً تاماً ، على حين أنها عضو في الخلافة الإسلامية .

بل كانوا يرون في ارتباطهم الإسلامي بتركيا سلاحاً يفلون به الاستعمار الأوروبي ، كما سنبين في نزوع مصطفى كامل ومحمد فريد .

لهذا كله كان ساسة مصر وأدباؤها أسارى للعاطفة الإسلامية ممثلة في الخلافة العثمانية .

رجال السياسة

كان السياسة ينزعون هذه النزعة الإسلامية :

(١) فقد هب مصطفى كامل لينفخ من روحه العظيم في نفوس مواطنيه حماسة إلى الاستقلال التام ، وبغضة للاحتلال البريطاني ، لكنه لم ينجح إلى قطع علاقة مصر بتركيا .

ذلك بأن مركز مصر — إلى سنة ١٩١٤ — كان محددًا بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وهي معاهدة وقعت عليها الدول والتزمت باحترامها ، وأهم أحكامها الاعتراف باستقلال مصر ، وضمان عرشها في أسرة محمد علي ، وببقاء السيادة العثمانية عليها .

وفي سنة ١٨٨٢ عصف الاحتلال البريطاني باستقلال مصر ، فكان واجباً على مصطفى كامل أن يوجه جهاده إلى الاحتلال البريطاني ، لأن التخلص من السيادة العثمانية يسير التحقيق ، فقد كانت سيادة اسمية ، وكانت تتلخص بمرور الزمن .

وقد تراخت هذه السيادة حتى صارت اسمية لم يبق من مظاهرها سوى الجزية السنوية التي تدفعها مصر (٤٨٦ ٦٨١ جنيه) وقد رهنتها الحكومة التركية لدائنها من الأجانب ، وقبلت الحكومة المصرية هذا التحويل ^(١) .

ولم يكن مناصر من زوال هذه السيادة بعد أن ضعفت تركيا ، وفقدت كثيراً من ولاياتها .

لذلك لم يجد مصطفى كامل من الحكمة أن يكافح الاحتلال البريطاني والسيادة العثمانية في آن واحد ، لأن معاداة مصر لتركيا تضطر تركيا إلى موازنة إنجلترا أو التنازل لها عن سيادتها في مصر لقاء مصلحة أخرى ، وقد كانت إنجلترا تريد ذلك . وليس أدل على صدق هذه الفكرة من أن إنجلترا لم تستطع أن تفرض على مصر حمايتها منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩١٤ ، لأن السيادة العثمانية كانت عقبة في طريق الحماية . فلما دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى ، وتكشف عداؤها لإنجلترا أعلنت إنجلترا الحماية على مصر .

نعم كانت السيادة العثمانية الاسمية معضلة في نظر إنجلترا ، فلم تستطع أن تدعى

شرعية احتلالها لمصر ، بل لقد صرحت نحو سبعين مرة أن الاحتلال إجراء مؤقت ، وأنها ستجلبو عن مصر في القريب العاجل ^(١) .

وقد سجل ذلك اللورد لويد (مندوب بريطانيا في مصر إلى سنة ١٩٣٠) في كتابه (مصر منذ عهد كرومر) فقال : « قد يكون من المفيد أن نذكر بإيجاز الحقائق العامة الرئيسة فيما يتعلق بمركزنا في مصر إبان تلك الآونة .

لقد كان مركزنا غاية في القوة من الناحية العملية ، وغاية في الضعف من الناحية الشرعية .

لأنه من الناحية الفعلية كان مركزنا يستند إلى احتلال الجيش البريطاني . لكن مركزنا من الناحية الشرعية كان مناقضاً تماماً لهذا المركز العملي القوي .

فمن الناحية الدستورية كان الحاكم هو الخديو ، وكان الوزراء هم ناصحيه ومستشاريه ، ولم يكن لفنصل بريطانيا وجود دستوري أو حقوق ناشئة عن أية معاهدة أو اتفاقية أبرمت بين البلدين : مصر وإنجلترا .

ولم يكن الموظفون البريطانيون بالحكومة المصرية من الناحية القانونية أكثر من مرعوسين وتابعين للخديو .

ولم يكن من قيد شرعي على سلطة الخديو سوى قيد واحد معترف به دولياً ، ذلك هو السيادة العليا لسلطان تركيا .

فمصر من الناحية القانونية كانت ولاية عثمانية ، وكان الخديو يتلقى الملك بأمر من السلطان ، ويعترف له بالتبعية ^(٢) .

ثم إن مصطفى كامل كان يحتج على بطلان الاحتلال البريطاني بأنه نقض لمعاهدة سنة ١٩٤٠ التي أبرمتها إنجلترا والدول ، وكانت حجته هذه قوية أصاح إليها أعوانه في مصر وفي خارج مصر . فليس من المعقول أن يتذرع بمعاهدة لندن سنة ١٩٤٠ لإبطال الاحتلال البريطاني ويطالب بإلغاء السيادة العثمانية ، لأنه إذا يؤيد المعاهدة وينقضها .

(١) تاريخ المسألة المصرية . ثيودور روستين . تمهيد . المستر ويلفرد سكاون بلنت صفحة ز - ح

(٢) هل أخطأ مصطفى كامل ؟ مقال لفتحي رضوان بأخبار اليوم ١٣/٢/١٩٥٤

ولم يكن مصطفى كامل داعية إلى أن تنطلق مصر من قيود بريطانيا لتعود فتقيد نفسها بتركيا ، ولم يكن أحد من المصريين ليرضى بعودة هذا القيد ، وإنما كان يريد مصطفى كامل أن تستقل مصر استقلالاً تاماً ، وأن تظل مرتبطة بتركيا بعلاقة الإسلام والتحالف . وخير ما نسوقه دليلاً على ذلك قوله في خطبة ألقاها في ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ في عيد تأسيس الدولة العثمانية : « يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكا أجنبياً عنا . فنحن لا نود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ، ننصرها وتنصرنا ، ونعتز بها و نعتز بنا » (١)

وكتب في اللواء يقول : « أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد ، وأنهم إنما يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهي دعوى لا يقبلها ذولب ، ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فإننا نطلب استقلال وطننا ، وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا » (٢) وصرح في كتاب إلى مدام جوليت آدم بأن السياسة القوية تقتضى أن تكون علاقة مصر بتركيا حسنة مادام الإنجليز يحتلون الوطن العزيز (٣) . ومعنى هذا أن الاحتلال يوجب على المصريين أن يتقوا بخصوم بريطانيا ، فلا مندوحة لهم من محالفة تركيا ، ومحاسنتها .

ولقد بسط هذا الرأي في خطبته بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ بسطاً لا يدع شبهة تعلق بالأذهان ، إذ وضح أن الاستقلال هو الهدف المنشود ، واستنكر أن يفكر مصرى في التحرر من بريطانيا ليتقيد بتركيا ، وجهر بأنه يطالب بالاستقلال على مسمع من الدنيا ، وبين أن مصلحة مصر تقتضى ألا تعادى تركيا في الوقت الذى تتقرب فيه إنجلترا من تركيا . قال :

إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنما يريدون أن تموت الروح الوطنية في مصر ، أى أن تموت الأمة المصرية ، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب .

(١) مصطفى كامل ٣٤٥ (٢) مصطفى كامل ٣٤٣ واللواء ٢ مايو سنة ١٩٠٦

(٣) مصطفى كامل ٣٤٣

رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيهما لتركيا ولاية عادية ،
أى أننا نريد تغيير المحاكمين لا نطلب الاستقلال والحكم الذاتى .
..... فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ، ونطلبه بأعلى أصواتنا ،
وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لامة أو لدولة فإنما نعمل
كغيرنا ، وتتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون .
وإذا كانت إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية ، وتغير سياستها نحوها
تغيرا محسوسا ، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا
قولا وفعلا ، وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا ؟^(١) .

وإذا فلا يصح أن نفهم من (العثمانية) بمصر إلا أن مصر تريد أن تتقوى
بعلاقتها الحسنة بتركيا ، وهى تعلم أن سيادتها التى كانت اسمية قد زالت ، وأنها تبقى
على الخلافة الإسلامية رابطة تجمع الأمم المسلمة وتعززها .

(٢) ولما خلفه محمد فريد انتهج هذه الخطة حيال تركيا ، ليحبط مساعى إنجلترا
لحمل الحكومة التركية على الاعتراف بالاحتلال البريطانى لمصر ، والتنازل عن سيادتها
الاسمية .

ولقد كان متفقاً فى خطته هذه مع رأى الساسة الأوروبيين المخلصين لمصر .
فقد كتب المستر بلنت نصير المسألة المصرية فى مذكراته سنة ١٩٠٨ يقول : « وقد
نصحت لهم — أى للوطنيين المصريين — بالحرص على أن تكون صلات المصريين
بالدولة العثمانية حسنة بوجه خاص ، لأن العلاقة التى تربط مصر بالإمبراطورية العثمانية
هى فى الواقع الضمان الحقيقى لسلامتها من مطامع إنجلترا ، وكرر هذه النصيحة
فى رسالة إلى مؤتمر جنيف فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ إذ قال : « لا تسمحوا بقطع صلاتكم
بالدولة العثمانية ، لأن مركزكم فيها يحول دون أطماع الأجانب فيكم ، وبالرغم
من الصداقة القائمة بين الآستانة ولندن فلا يمكننى أن أصدق أن الإمبراطورية الإسلامية
الكبرى يمكنها بأى حال أن تترككم لدولة مسيحية » . وكرر ذلك فى رسالة إلى مؤتمر
بروكسل سنة ١٩١٠^(٢) .

الأدباء

كذلك كان أدباء مصر أسارى للعاطفة الإسلامية ممثلة في الخلافة العثمانية .

من هؤلاء الأدباء المصريين على أبو النصر ١٨٨٠ م وأحمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وعبد الله فكري ١٨٨٩ وعبد الله نديم ١٨٩٦ وعلى الليثي ١٨٩٦ وإبراهيم المويلحي ١٩٠٦ وعلى يوسف ١٩١٣ والبارودي ١٩٠٤ وعبد المطلب ١٩٣١ وحافظ ١٩٣٢ وشوقي ١٩٣٢ .

وكثير من هؤلاء كانوا قبل شوقي ، وبعضهم عاصره . وسأذكر طرفا من آراء بعضهم تمثل اتجاهه الإسلامي .

(١) كان عبد الله نديم إسلامي النزعة ، أو تركي الوجهة ، يدل على ذلك قوله في خطبة له :

هذه يدى في يد من أضعها ؟

ضعها في يد وطنك ، واعقد خنصرك على محبة أمير المؤمنين الخليفة الأعظم ، وإلا فقطعها خير من وضعها في يد أجنبي يستميلك إليه بوعود كاذبة واهية ، لتكون عون له الأكبر على ضياع قوتك ، وإذلال إخوانك ، ونزع سلطة أميرك وسلطانك . .

(٢) أما حافظ إبراهيم فله في الإسلامية التركية جولات .

فقد هنا السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه سنة ١٩٠١ م . فمجده وأشاد بحكمه ، وحمل على حزب تركيا الفتاة حملة قاسية ، ثم صور مصر سعيدة بحكم الأتراك :

ففي كل رَوْضٍ مِنْكَ طَيْبٌ وَنَضْرَةٌ	وفي كل أرض منك عيدٌ ومَوْكَبٌ
أرى مصرَ والأَنْوَارَ مِنْهَا مُورِدٌ	ومنها لُجَيْنِيٌّ ، ومنهم — مَذْهَبٌ
وأشكالها شَتَّى ، فهذا مُنْظَمٌ	وذلك منشور ، وذاك مُقَبَّبٌ
وبعضٌ تجلَّى في مصابيح ، زَيْتُهَا	يضيء ولا نارٌ ، وبعضٌ مكهربٌ
وأنظر في بستانها النجمَ مُشْرِقًا	فهل أنت يا بستانُ أفقٌ مُكَوَّبٌ ؟

وأسمع في الدنيا — يا دعاء بنصره يردده البيت العتيق ويثرب^(١)
ونعى مجد الترك والعرب في سنة ١٩٠٠، وعتب على الترك أن تركوا مصر
للإنجليز .

فإن تسكن نسبتى للشرق ما نعتى حفا فواها لمجد الترك والعرب
.....

يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا ونحن في الله إخوان وفي الكتب ؟
تركتمونا لأقوام تخالفنا في الدين والفضل والأخلاق والآداب^(٢)
وفي سنة ١٩٠١ هنا السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه^(٣) .
وفي سنة ١٩٠٦ مدح السلاطين والترك بقصيدة^(٤) ، منها .
لقد مكن الرحمن في الأرض دولة لعثمان لا تعفو ولا تشعب
وقام رجال بالإمامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنبوا
وردوا على الإسلام عهد شبابه ومدوا له جاهاً يرجى ويرهب
وفي سنة ١٩٠٨ هنا السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه ، فمدحه بحماية الإسلام ،
ويأصداه الدستور ، وتمنى لمصر وإيران دستوراً مثله :

أثنى عليك الحجاج والحرمان وأجل عيد جلوسك الثقلان
.....

وجمعت بالدستور حولك أمة شتى المذاهب جمعة الأضغان
فغدوت تسكن في القلوب وترتعى حباتها وتحل في الوجدان^(٥)
.....

وفي سنة ١٩١٠ ألقى قصيدة في حفل برياسة رؤوف باشا المعتمد العثماني ، حن فيها
إلى الأتراك ، وحياء السلطان ، ومدحه :

(١) ديوان حافظ ١٣/١ مقبب : على شكل القبة . يضيء ولا نار : براق صاف . مكوكب :
ذو كواكب . البيت العتيق : السكينة . يثرب : المدينة المنورة
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١١٦/٢ (٣) ديوان حافظ ١٥/١ (٤) الديوان ١٧/٢
عثمان : عثمان بن أطفارل مؤسس الدولة العثمانية وإليه تنسب . تولى السلطنة سنة ٦٩٩ ومات سنة ٧٢٦
(٥) ديوان حافظ ٤٤/١

بالذى أجراك ياريح الخُزاي بلغى البسفور عن مصر السلام
واقطنى من كل روض زهرة واجعلهم ————— لتحايانا كما
وانشرى رِيَّك في ذاك الحِمى والشمى الأرض إذا جئت الإماما

.....

أيها القائم بالامر لقد قمت في الناس فأحسنتم القياما^(١)
ورحب بالأسطول العثماني سنة ١٩١٠ ونوه بعظمة الأتراك^(٢). وكذلك فعل
في قصيدته التي أعدها لاستقبال الطيار العثماني فتحي سنة ١٩١٤

واجعل تحيتنا إلى بلد به للملك دار
دار عليهم ————— للخلا فة والهدى رفع المنار
دار للغزاة الفاتحي ————— ن الصفوة الغر الخيار
في كل حاضرة لهم غزو ففتح فانتصار^(٣)

.....

(٣) كذلك كانت نزعة إسماعيل صبرى ، ففي سنة ١٩١١ أغارت إيطاليا على
طرابلس لتنتزعها من تركيا ، فحزن صبرى وحمل على إيطاليا ، وعيها هزيمتها في معركة
عدوة بالحديثة سنة ١٨٩٦ وسكوتها عن الثأر ، ثم حذر الشرقيين من ختل الغربيين :
بعض هذا الجفاء والعدوان راقى الله أمة الطليان
قد ملأت الفضاء غدراً وجهاً وتسنمت غارب الطغيان

.....

إن تسلم على الغريب فسلم في ظلال السيوف والمران^(٤)
ويكرر هذا^(٥). وقد أشاد بعمر طوسون لأنه بذل المال والجهد لإعانة جرحى
الترك في الحرب بين دول البلقان والدولة العلية سنة ١٩١٣ :

(١) ديوان حافظ ٦٢/٢ كام : جمع كم وهو غطاء الزهر
(٢) ديوان حافظ ٦٢/٢ (٣) ديوان حافظ ٨٠/٢
(٤) ديوان إسماعيل صبرى ١٨٣ (٥) الديوان ١٨٦

لله درك كم نهبت من هم — تثني على أهلها الآصال والبكر
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى إن يكثير الدهر عن أحداثه كشرها^(١)
(٤) وفي مصر أيضاً أحمد نسيم، يهنيء السلطان بعيد الفطر، ويثني على حكمه
راضيا به متغبطا:

أقمت عرشك بين الحق والسدد فزاده الله تثبيتاً إلى الأبد
لله درك في الأملاك من ملك أقام ما في قناة الملك من أود
بلغت في الملك شأوا ليس يدركه وصف ونلت الذي مادار في خلد
.....

جاهدت في الملك تحميه وتحفظه جهاد طه مع الأنصار في أحد^(٢)
ويمدح السلطان عبد الحميد ويرد على عائيه:
قوم خوارج لا جاه ولا نسب ولا نخار ولا مجد ولا حسب^(٣)

(٥) كذلك نجد النزعة العثمانية الإسلامية في شعر محمد عبد المطلب، فهو يهنيء
السلطان عبد الحميد بعيد الدستور^(٤)، ويرثي الطيارين التركيين ويحيي طيارين تركيين
آخرين^(٥)، ويذمهم بانتصار الترك على اليونان في حرب سقاريا^(٦)، ويعتقد أن
النصر كان للمسلمين عامة، وأن اليونان لم يكونوا أكفأ لحرب المسلمين:
وما (يونان) إن جهلت بكفء لنا يوم المغار ولا مثالا

وإن نزعت هذه لتتجلى في قصيدته التي قالها في الحرب بين الترك والإيطاليين
بطرابلس، لأنه يصرح بأن الأوروبيين يتألبون على الخلافة، ويدعو المسلمين إلى
أن يسارعوا إلى تأييد الخليفة:

حذار فللإسلام في كل بلدة دهاة إذا ما أظلم الرأي أنقبوا
حراس على ملك (الرشاد) إذا هفا به حادث ثاروا له وتحزبوا

(١) ديوان صبرى ٧٨ (٢) ديوان نسيم ١٦/١ (٣) ديوان نسيم ٧٤/١
(٤) ديوان محمد عبد المطلب ٩٣ (٥) الديوان ٩٥ (٦) الديوان ١٩٨

بنى مصر هو الدين يدعو فأقبلوا على الله فى تأييده وتقربوا
 بنى مصر قد رام الخلافة معشر تنادوا على غدر بها وتألبوا
 إذا ما تنادى المسلمون فإنما لنجدتنا كل الممالك ترقب (١)
 (٦) وعلى شاكاة هؤلاء مصطفى صادق الرافعى ، فقد مدح السلطان عبد الحميد
 بقصائد ثلاث (٢) .

(٢) فى الشام

كذلك كانت السمة البارزة فى أدب الشام هى الإسلامية العثمانية ، عقيدة أورغبة
 أو رهبة (٣) .
 تتجلى هذه السمة فى دواوين الشعراء ، مثل ناصيف البازجى وبطرس كرامة ،
 وفارس الشدياق ، وإبراهيم الأحب ، وعبد الغفار الأخرس ، وعبد الحميد الرافعى .
 ولم تكن مسيحية بعضهم حائلاً بينه وبين موالاته للعثمانيين ، لأنهم فى رأيه
 حكام وساسة ، لا يمثلون دين وعقيدة .

(١) من ذلك قول اليازجى الكبير فى السلطان عبد العزيز :

خليفة الله ظلُّ فى خليقته ظلت به تتقى الدنيا وتستترُ
 لا ترتضى غيره الدنيا لها ملكا لو كان جبريل يأتيها أو الخضرُ
 إذا طلبنا من البارى لنا وطراً فليس إلا بقاء عندنا وطراً

(١) ديوان عبد المطلب ٣١ أنقبوا : أناروا (٢) ديوان الرافعى ١/٣٣، ٤٦، ٤٧/٢ و ٦٩/٢
 (٣) لا يناقض هذا أن بعض الأدباء فى الشام والعراق كانوا يجأرون بالشكوى من مفساد الحكم
 التركى ، لأنهم كانوا يريدون بشكائهم إصلاح الحكم لا تفويض سلطان الخلافة . وهم فى ذلك على عكس
 المصريين ، لأن مصر لم تكن فى القرن التاسع عشر خاضعة خضوعاً مباشراً لحكام أترك . ومن هنا
 لم يحس أنباؤها ما أحسه أهل الشام والعراق لأنهم خاضعون لحكم تركى مباشر .
 راجع (نشوء الفكرة القومية) لساطع الحصرى ١٦٠ - ٢٠٢ وكتاب (أم القرى) للسكواكبي
 ١٦٠، ١٧٢ و (تراجم مشاهير الشرق) لجرجى زيدان ٢/١١٩، ٦١ و (ديوان الزهاوى) ٢٨٠، ٢٩١
 و (اللباب) للزهاوى ١٤ و (ديوان الشبى) ٤١، ٢٧ و (ديوان الرصافى) ٨٨، ٨٩ ومجلة (الهلال)
 جلد ١٧ صفحة ٤١٥

(٢) وقول شبلى الملائط في حفل تكريم خليل مطران بمصر سنة ١٩١٣
إن الشعوب التي تحكمها تركيا راضية بحكمها ، لأنها تعلم أنها خير من الدول الأخرى :

أخطأ الأولى نسبوا البعض عناصر منا شعور شماتة وتحامى
فلنجنُ نعلم أن عرش محمد خير لنا من سائر الحكام
بل نحن نفهم أنه بر بنا من كل مُحْكَم من الآنام

(٣) وكان خليل مطران حفيماً بالأترك . لذلك ينقم في قصيدته (فتاة الجبل الأسود)
على الثوار ، وينوه ببطولة الأترك :

طغت أمة الجبل الأسود على حكم فاتحها الأيد
وما الترك إلا فحول الحروب رضيعو لظاها من المولد
إذا لقحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسود
سواء على المجد أياً تكن عواقب مسعاهم محمد^(١)

ويكرر هذا الشاء في حرب طرابلس الغرب ، وبعثات الهلال الأحمر . ويقول
في حفلة عثمانية بمصر سنة ١٩٠٤ وكانت في ليلة هلال :

أيها الإخوة الأعزاء هذا عيدنا وهو عيد أكرم أمه
أشرك الله أنجم السعد فيه فبدا في العلا هلال ونجمه^(٢)

(٣) في العراق

فإذا ما خطونا إلى العراق فماذا نجد ؟

نجد كثيراً من شعرائه حراساً على الخلافة وعلى الوحدة الإسلامية في ظلها ،
وخاصة بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ .

(١) من هؤلاء الشعراء الرصافي . فله قصيدة (حديث خطير)^(٣) . أنشدت
في بيرت سنة ١٩١٣ يؤثر في ختامها الآستانه على العواصم كلها ، ويؤثر خليج البوسفور
على شتى الأبحر ، ويهدى من روع الخليفة بأن الولايات العثمانية راضية هاتئة

(١) ديوان خليل مطران ١٥٤/١ (٢) الديوان ٢٣٠/١

(٣) المورد الصافي مجلد ٤ صفحة ٣١٦

وإن صرّت الأقاليم نائرة في بعض نواحيها، ويدعو للمسلمين أن يظلوا في رعاية الخلافة العثمانية وفي ظلها :

ما مثلَ عاصمةِ العواصمِ ملجأً كلا وخيرُ الأبحرِ البوس — فور
عرشَ الخلافةِ ما البلادُ بشورة مهما علا فوق الطروس صرير
ما زال يجمعُ أهلها تحت الهلا ل بظلك التوحيدُ والتكبير
ويذكر أن الثائرين لا غرض لهم إلا أن يعيشوا أحراراً في ظل الخلافة ، وأن يطبق حكمهم الدستور في مياستهم :

إن يشتكوا ألساً فليس لنقمة في النفس حرّكها هوى وغرور
أو يرفعوا صوتاً فسَلْ حكاهم هل يحكون كما قضى الدستور ؟
وحينما بلغت الحلقومَ روحُ (الرجل المريض) — كما كان يطلق الغربيون على تركيا
والمسألة الشرقية — واستطاعت إنجلترا وحلفاؤها أن يهيجوا الشعوب الخاضعة
لتركيا ، وأن ينتقموا منها بعد الحرب العالمية الأولى ، جزاء لها على انضمامها لألمانيا ،
ووجد الملك حسين بن علي وبنوه الفرصة سانحة للخلاص من العثمانيين فقاموا
بثورتهم ، واقتطعوا من الخلافة ممالك لهم ، في هذا الحين انحسر ظل العثمانيين عن البلاد
العربية ، واستولى الإنجليز على بغداد ، زاعمين أنهم ينقذونها من مفاسد الحكم التركي ،
فزن الرصافي أشد الحزن ، ورجع حزنه في قصيدته (نواح دجلة) (١) ، جواباً على
قصيدة الشاعر التركي سليمان نظيف بك .

في هذه القصيدة صور الرصافي حزنه الذي أضناه بأن أضفاه على نهر دجلة ، فجعل
ماءه الجاري دموعاً مسفوحة ، وموجه تنهد وعويلاً :

هي عيني ودمعها نضاح كل حزن لمائها يمتاح
كيف لا أذرف الدموع وعزّي بيد الذل هالك مجتاح ؟
قد رميتني يد الزمان بخطب جَلَلٍ ما لئله إصباح

يوم أمسيت لا حُماة تذود الضمى — غنى ولا ظبأ ورماح
 فيأهى هى انسكاب دموعى وخريرى هو البكا والنواح
 ليس ذا الموج فى موجا ولكن هو منى تنهد وصياح
 إن وجدى هو الجحيم ولولا أدمعى أحرقتنى الأتراح
 لو درى منبعى بما أنا فيه من أسى جف مأوه الضحضاح
 عله قد درى بذاك فهذا هو باكٍ ودمعه سفاوح

وعز عليه أن يدع الأتراك العراق نهبا للإنجليز، فى حين أن قلوب العراقيين معلقة
 بالأتراك لا تطيق صبرا على فراقهم، ودفعه حبه لهم إلى أن يلتمس لهم المَعذرة، فهم
 لا بد أن يحزنوا على إخوانهم فى العراق كما حزن العراقيون لهم، وهم لا بد أن يكروا
 على الإنجليز ليجلوهم، وود أن يعودوا سراعا ليزدان بهم العراق كما كان مزدانا،
 ويعظم بالتبعية لهم وقد كانت له تاجا وهاجا:

أين أهل الحفاظ هل تركونى نهبة فى يد العدو وزاحوا ؟
 برحوا وادى السلام عجالاً أجبِد براحهم أم مزاح ؟
 ما لهم يبعدون غنى انتزاحا وعزير منهم على انتزاح ؟
 أو ما يعلمون أن حريمى للمعادين بعدهم مستباح ؟
 فلئن يبعدوا فإن فؤادى لآلهم — — — — — بود طمّاح
 تركونى من الفراق أقاسى ألما ما تطيقه الأرواح
 لورأونى سبياً بأيدي الأعداى ليكوا مثلها بكيت وناحوا
 لا مسأى بعد البعاد مساءً يوم بانوا ولا الصباح صباح
 أتمنى بأن أطير إليهم يجناح وأين منى الجناح ؟
 أنا أدري بأنهم بعد هجرى لم يذوقوا غمضاً ولم يرتاحوا
 بل هم اليوم عازمون على الزحف بجيش به تغص البسطاح

أما أطاعوا أما برّوا أما عطفوا أما احتفّوا بمواليهم أما احتفلوا؟
.....

تأبى الحوادث إلا أن تملّكم ولا ودين التآخى ما بنا ملل

تعقيب على هذا النزوع

عرفنا أن سياسة مصر وأدبائها ، وأدباء الشام والعراق ، كانوا ينزعون نزعة عثمانية .

ورجعنا هذه النزعة إلى العاطفة الإسلامية التي كانت عظمة السلطان على القلوب في ذلك الحين .

ووجدنا في أقوال مصطفى كامل زعيم الوطنية المصرية بعد الاحتلال البريطاني أن الجنوح إلى الخلافة العثمانية لا يناقض الاستقلال الذي تنشده مصر ، بل وجدناه يستعين بالانصواء تحت لواء الخلافة على مناضلة الاحتلال البريطاني وتقويضه .

والآن بعد أن تغيرت الأحداث ، وتطورت الأفكار ، وجَدَّتْ وجهات وأهداف ، يبدو لنا في هذه النزعة ضعف أو اضطراب أو خطَل .

وما ذلك إلا لأننا ننظر بعيون غير عيون هؤلاء ، ونأمل آمالا أبعد مما كانوا يأملون ، ونخضع لمؤثرات لم يكونوا يخضعون لها .

ومن حقهم أن نقدر ظروفهم وملابساتهم ، وألا نكلفهم شططا . ومن حقهم ألا نطالبهم بما تمخض عنه الزمن من بعدهم ، فقد كانوا صورة لزمانهم .

ولو أنهم عاشوا إلى أيامنا هذه لكان هدفهم الاستقلال التام غير مشوب بشائبة تشوه جلاله ، أو تنتقص كاله .

وإذا كنا لا نجاريهم في مذهبهم السياسي فإن الأمانة تقتضينا أن نشفع إلى تحالفنا معهم ببيان الأسباب والبواعث التي أملت عليهم مذهبهم ، وتبيان الأغراض التي توخوها ، وقد فعلنا ذلك .

وإذا فقد تكشف الجو السياسي الذي قرص فيه شوقي قصائده الإسلامية العثمانية .

الفصل الثاني

الإسلامية التركبة في شعره

يا آل عثمانه أبناء العمومة هل

نستكون بهر ما ولا نستكونه ألما ؟

نخمنو عليكم ولا ننسى لنا وطننا

ولا سربرا ولا تاجا ولا علما

(شوقي)

أما وقد فرغنا من دراسة النزعة الإسلامية التركية عند الساسة والأدباء ، فلندرسها عند شوقي بخاصة ، لنتبين سبب ميله إلى تركيا ، أهو العاطفة الإسلامية أم غيرها ؟ ولنتعرف مظاهر هذا الميل ، والغاية التي توخاها شوقي من ورائه ، ثم لنتعرف ما بين عاطفته الإسلامية أو التركية وبين عاطفته الوطنية من علاقة ، أهيا عاطفتان متزجتان ؟ أم متنافرتان ؟ أم متوازيتان متآخيتان ؟ وليس من شك في أن شوقي كان أكثر شعراء مصر تمجيذاً للترك ، وإشادة بالخلافة ، وولاء للخليفة .

ولطالما مجد الترك إذ انتصروا ، ونوه ببطولاتهم ، وضمير أكاليل الغار على هامات قادتهم ، ولطالما رجع على وتر حزين إذ انهزموا ، وبكى الأقاليم والمدن المقتطعة من الخلافة بكاء الواله الحزين .

وكثيراً ما حض على مؤازرتهم في محنهم ، وحث على المسارعة إلى نجدتهم في نكباتهم .

مبعث عاطفته الإسلامية التركية

فلماذا تعلق شوقي بالترك وأشاد بهم ، وطرب لانتصارهم ، وأسى لانكسارهم ؟
(١) لذلك أسباب تحدثت عنها في الفصل الأول من هذا الباب ، تنطبق على شوقي وعلى غيره .

(٢) على أن شوقي مسلم معتز بالإسلام ، متعلق بأمسباب قوته ^(١) ، وهو يجد هذه الخلافة رمزا للدين وعلماء لجلاله .

ومن هم ممثلو العالم الإسلامي كله في ذلك الحين ؟ إنهم الترك الخلفاء على المسلمين منذ بضعة قرون ، وعاصمتهم رمز للرابطة الدينية الروحية . وإذا فإن مناصرتهم مناصرة للإسلام وللمسلمين .

ولسنا نبعد عن الحقيقة إذا ما ذهبنا إلى أن عاطفة شوقي التركية صدى لعاطفته الدينية الإسلامية ، لأنه يناصر الترك حفاظا على الإسلام وعلى المسلمين ، وعلى البلاد العربية ومصر . وقد عرفنا أن الأحداث السياسية ، ومطامع الدول الأوروبية في العالم العربي والإسلامي كانت تضطره إلى أن يربط بين الإسلام وتركيا هذا الربط . ولم يكن يستطيع أن ينحاز عن الخلافة الإسلامية وعن تركيا وهو يعلم أنها الجامعة الإسلامية ، ويرى هو وغيره من الساسة والأدباء أن الدول الغربية تتلطف على تمزيقها واحتلال ولاياتها .

وليس أدل على أن العاطفة الإسلامية كانت أوثق الأواصر التي تصل شوقي بالخلافة العثمانية من أنه وجد في مدحه للسلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ثوابا عند الله وزلفى إليه ، لا طمعا في عطايا السلطان وهباته :

وما زلتُ (حَسَن) المقام ولم تزلْ تَلِينِي وتَسْرِى مِنْكَ لى التَّفَحُّاتُ

زَهَدْتُ الذى فى رَاحَتِكَ وشَاقِي جَوَّازُ عِنْدَ الله مَبْتَغِيَاتِ

ومن كان مثلى أَحْمَدَ الوقت لم يَجْزْ عَلَيْهِ ولو من مثلك الصَّدَقَاتِ ^(٢)

وقوله في قصيدة أخرى إنه يدافع عن الخلافة بحباله ودينه ، وإنه سيقضى حياته كلها ذائدا عن الخلافة :

عهد الخ... لافه في أول ذائد
عن حوضها بيراعه نضاح
حب لذات الله كان ولم يزل
وهوى لذات الحق والإصلاح
إني أنا المص... باح لست بضائع
حتى أكون فراشة المصباح
غزوات (أدهم) كللت بذوايل
وفتوح (أنور) فصلت بصيفاحي
ولت سيوفها وبان قناهما
وشبا يراعى غير ذات براح^(١)

(٣) وثمة باعث آخر ليست له قوة الباعثين السابقين ، ذلك بأن البيت العلوى منحدر من أصل تركي ، والخديوية التي كانت بمصر تتصل بتركيا اتصال نسب ودم وسياسة وسيادة — وإن كان الاحتلال البريطاني يعترض هذه السيادة وينحياها — فعواطف الخديو جانحة إلى تركيا والأتراك ، وشوقي شاعر القصر ، وريب نعمته ، فلا عجب أن يهفو إلى ما يهفو إليه القصر .

لكن هذا الباعث لم يكن قويا ، لأن البيت العلوى لم يكن دائما يكن للترك من الود والإخلاص والإيثار ما يطلق لسان شوقي بتمجيدهم والإشادة بذكورهم مجاملة للبيت العلوى فحسب . ولم ننس بعد أن محمد علي ناضل تركيا نضالا عنيفا طويل الأجل ليستقل بمصر ولم ننس أن الخديو إسماعيل بذل الأموال والجهود لينفصل عن تركيا ويستقل بمصر ، مستقلا تاما . والمنطق الطبيعي أن يتطلع أى خديو إلى الاستقلال ليستكمل أبهة الملك ، ولن يعوقه عن هذا التطلع أنه من أصل تركي .

وإذا فلم يغرد شوقي بقصائده التركية ليرضى القصر فحسب ، وإنما غرد مدفوعا بعاطفة أعظم وأعمق وأحد ، هي العاطفة الإسلامية .

(٤) على أن في دم شوقي قطرات تركية ، تزيد حبا للترك ، وتعلقا بهم . لكن هذا الباعث أضعف من العاطفة الإسلامية ، بدليل أن ولى الدين يكن التركي القح لم يكن يحمل للخلافة من الحب والإجلال والبقيا مثل ما حمل شوقي ، لأن ولى الدين لم يصل عز الإسلام بالخلافة كما وصل شوقي ، ولم يضاف عليها من الجلال الدينى ما أضافه

(١) الشوقيات ١/ ١٠٨ أدهم وأنور: قائدان كبيران . الذوايل : الرماح المدنة . الصفاح : السيوف . والمراد بالرمح والسيوف قلمه وقصائده .

شوقى . وإذا فلم تكن اللحمة التى تصل شوقى بالترك سبباً قوياً فى عاطفته التركية ، لأن ولى الدين كان أقوى منه لحمة ، وأوثق آصرة .

وقد أسلفت فى (حبه لمصر) أنه كان كلفاً بها أيما كلف ، وفى (خفره بمصر) أنه كان بجلجل بعظمتها وبنسبته إليها ، فليس من المعقول أن تغلبه على وطنيته صلة قديمة بعيدة بالترك .

من حقنا بعد ذلك أن نذهب مطمئنين إلى أن العاطفة الإسلامية كانت الباعث الأول ، والدافع الأقوى إلى القصاص الإسلامية التركية التى تغنى بها شوقى .

مظاهر عاطفته الإسلامية التركية

فى ديوان شوقى قصائد كثيرة تتصل بالخلافة العثمانية .

(١) فهو يجد فى انتصار الترك نصرة للإسلام ، وفى ضعفهم ضعفاً له ، لأنهم يمثلون الجامعة الإسلامية فى ذلك الوقت

من ذلك قصيدته (صدى الحرب) التى يجد فيها السلطان عبد الحميد ، وأشاد بانتصار جيوشه ، وأثنى على قواده ، وفصل القول فى المعارك الحربية التى خاضوها ، كقوله :

وسيفك يعلو الحق والحق أغلب	وينصر دين الله أيا ن تضرَب
فأدب به القوم الطغاة فإنه	لنعم المربى للطغاة المؤدب

.....

إذا ما صدعت الحادثات بحده	تكشف داجى الخطب وانجاب غيب
وهاب العدا فيه خلافتك التى	لهم مأرب فيها ولله مأرب (١)

وقصيدته (تحية الترك) حينما انتصروا على اليونان سنة ١٨٩٦ هنأ فيها الخليفة بانتصاره ، وذهب إلى أن هذا الانتصار ليس جبرة للخليفة وحده ، وليس يستحق حمد الله من الخليفة وحده ، وإنما هو انتصار للمسلمين جميعاً ، وجدير بأن يحمداوا الله

الله أكبر كم في الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب
صلح عزيز على حرب مظفرة
فالسيف في غمده والحق في النصب
.....

أخرجت للناس من ذل ومن فشل
شعبا وراء العوالى غير منشعب
لما أتيت بيد من مطالعها
تلقت البيت في الأستار والحبج
وهشت الروضة الفيحاء ضاحكة
إلى (المنورة) المسكية الترب
.....

سرت (دمشق) بنى (أيوب) فانتبهوا
يهنئون (بنى حمدان) في حلب
ومسلو الهند والهندوس في جدل
ومسلو مصر والأقباط في طرب
بمالك ضمها الإسلام في رحم
وشيجة وحوها الشرق في نسب
تقول: لولا الفتى التركي حل بنا
يوم كيوم يهود كان عن كسب^(١)
(٢) ويريد من الترك — ممثلي العالم الإسلامي حينئذ — أن يكونوا أشداء أقوياء
خلقاء بمكائهم الدينية، وبأمل الإسلام المنوط بهم .

لذلك يستحث عزائم شبابهم وشيوخهم إلى الأخذ بأسباب القوة والمجد . كقوله :

الدهر يقظان والأحداث لم تتم
فما رقادكم يا أشرف الأمم ؟
أنتم غدا الملوك والإسلام لا يبرح
منكم بخير غد في المجد مبسم^(٢)
ويدعو المسلمين جميعاً إلى مؤازرتهم والتبرع بالمال لتقوية جيشهم وأسطولهم .
فإنه لما كان في الآستانة شاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العلية من ألمانيا ،
فأخذته هزة الطرب ، وعز عليه أن يرى المسلمين في أقطار الأرض قاعدين عن إعانة
أسطول الدولة ، فقال قصيدته (الأسطول العثماني)^(٣) ، وجه الخطاب في مطلعها
إلى السلطان محمود رشاد ، وجعله عزاً للإسلام :

(١) الشوقيات ٤٨/١ — ٥٣ (٢) الشوقيات ٢٨٠/١ — ٢٨١

(٣) الشوقيات ٢٨٢/١ — ٢٨٦

هَزَّ اللِّوَاءَ بَعَزَكَ الْإِسْلَامُ وَعَنْتَ لِقَائِهِ سَيْفَكَ الْإِيَّامُ
وبعد أن مدحه ، ومدح آباءه ، نوه بالبارجيتين ، ودعا المسلمين إلى الاكتتاب
لتقوية الأسطول العثماني ، أسطول المسلمين :

يَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ فِي أَسْطُولِكُمْ عِزٌّ لَكُمْ وَوَقَايَةٌ وَسَلَامُ
جُودُوا عَلَيْهِ بِمَا لَكُمْ وَأَقْضُوا لَهُ مَا تَوْجِبُ الْأَعْلَاقُ وَالْأَرْحَامُ
ولام الشعوب الإسلامية ، لأنها لم تسعف الدولة بالمال :

لَا الْهِنْدُ قَدْ كَرُمَتْ وَلَا مِصْرٌ سَخَتْ وَالْغَرْبُ قَصَّرَ عَنْ نَدَى وَالشَّامُ
سَيْلُ الْمَمَالِكِ جَارِفٌ مِنْ شِدَّةِ وَقُوَى وَأَنْتُمْ فِي الطَّرِيقِ نِيَامُ
وله قصيدة (الهلal الأحمر)^(١) ، قالها حينما أحيت جماعة الهلال الأحمر المصرية
ليلة لجمع التبرعات لإغاثة المقاتلين في طرابلس الغرب من الجيش العثماني ، حين أغارت
إيطاليا عليها .

وله قصيدة أخرى (في سبيل الهلال الأحمر)^(٢)

(٣) يحزن شوقي وينوح حينما تنقصر الدول الغربية على الخلافة ، أو تنفصل
منها ولاية .

فَلَمَّا سَقَطَتْ أَدْرَنَةُ سَنَةِ ١٩١٢ فِي يَدِ الْبُلْغَارِ ، وَاقْطَعُوها مِنَ الدَّوْلَةِ ، حَزَنَ شَوْقِي
وَتَفَجَّعَ ، وَقَالَ قَصِيدَةَ حَارَةِ سَمَاهَا (الْأَنْدَلُسُ الْجَدِيدَةُ)^(٣) ، لَأَن فِي سَقُوطِ أَدْرَنَةِ
تَقْوِيضاً لِرُكْنٍ مِنْ مَجْدِ الْإِسْلَامِ ، كَمَا كَانَ زَوَالُ الْحُكْمِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْأَنْدَلُسِ تَقْلِيصاً
لِظِلِّهِ الْوَارِفِ :

يَا أُخْتِ أَنْدَلُسَ عَلَيْكَ سَلَامُ هَوَاتِ الْخِلَافَةَ عَنْكَ وَالْإِسْلَامُ
نَزَلَ الْهَلَالُ عَنِ السَّمَاءِ فَلَيْتَهَا طُوِيَتْ وَعَمَّ الْعَالَمِينَ ظِلَامُ
جَرَحَانَ تَمْضِي الْأَمْتَانِ عَلَيْهِمَا هَذَا يَسِيرُ وَذَاكَ لَا يَلْتَامُ
بِكَ أَصِيبَ الْمُسْلِمُونَ وَفِيكَمَا دُفِنَ الْيَرَاعُ وَغُيِبَ الصَّمْصَمُ^(٤)

(١) الشوقيات ٣٠٣/١ — ٣٠٥ (٢) الشوقيات ١٧٢/١ — ١٧٤

(٣) الشوقيات ٢٨٧/١ — ٢٩٥

(٤) اليراع : القصب والمراد الأفلام . الصمصم : السيف لا يفتنى

لم يُطَوِّ مَأْتَمَهَا ، وهذا مَأْتَمٌ لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ثم استخلص العبرة من سقوط أدرنة ، ونصح الترك أن يتحدوا ويتقوا
ويحرصوا على ما بقي من العالم الإسلامي وعزى أدرنة في نكبتها ، وعاد إلى نواحه عليها:

خَفَّتَ الأَذَانُ فما عليك موحّد يسعَى ولا الجُمُعُ الحِسانِ تقام
وخبَّتْ مساجدُ كن نوراً جامعاً تمشي إليه الأسود والآرام^(١)

.....

وأثنى على الأبطال من أهل أدرنة الذين صبروا في الذود عنها خمسة أشهر ،
حتى باعوا كل شبر من أرضها بمهجة من دماء أعدائهم .

(٤) وإذ كان شوقي يجد في الخلافة مجد الإسلام ، وعز المسلمين ، وحمايتهم من
عدوان الطامعين من الغربيين ، فقد جزع حينما ألغى مصطفى كمال الخلافة ، ونفى
الخلافة ، فرثى الخلافة رثاء الملتاع ، وحث العالم الإسلامي على أن يسدى النصح
للغازي ، لعله يشوب إلى رشده فيبني ما هدم .

وأعذر لنفسه في قصيدته هذه — لأنه يحمل فيها على مصطفى كمال ، بعد أن أشاد
به من قبل — بأن الحق أحب إليه وأجدر بالرعاية .
وقد أسلفت في إشادته بمصطفى كمال أنه كان يأمل فيه الخير للإسلام فأشاد به
وآزره .

من هذه القصيدة الباكية التي سماها (خلافة الإسلام) قوله :

عادت أغاني العرس رجع نواح	ونُعِيتِ بين معالم الأفراح
كُفِّنَتْ في ليل الزفاف بشوبه	ودُفِنَتْ عند تبليج الإصباح
ضجَّتْ عليك مآذن ومنابر	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهبة ومصر حزينة	تبكي عليك بمدمع سخاح
والشام تسأل والعراق وفارس	أحما من الأرض الخلافةَ ماح ؟

(١) الأسد : المراد الرجال الشجعان . الآرام : الظباء والمراد النساء الحسان

وَأَتَتْ لَكَ الْجَلَائِلُ مَأْتِمًا فَقَعَدَنْ فِيهِ مَقَاعِدَ الْإِنْوَاخِ
يَا لِلرَّجَالِ لِحُرَّةِ مَوْءُودَةٍ قَتَلْتُ بِغَيْرِ جَرِيرَةٍ وَجُنَاحِ

.....

نَزَعُوا عَنِ الْأَعْنَاقِ خَيْرَ قِلَادَةٍ وَنَضَوْا عَنِ الْأَعْطَافِ خَيْرَ وَشَاحِ
وَعِلَاقَةٍ فَصُمْتُ عَرَى أَسْبَابِهَا كَانَتْ أَبْرَ عِلَاقِ الْأَرْوَاحِ
نَظَّمْتُ صَفُوفَ الْمُسْلِمِينَ وَخَطَّوْهُمْ فِي كُلِّ غُدُوَّةٍ جَمْعَةً وَرَوَاحِ
أَسْتَغْفِرُ الْأَخْلَاقَ لَسْتُ بِجَاهِدٍ مِنْ كُنْتُ أَدْفَعُ دُونَهُ وَالْأَحْيِ
مَالِي أَطَوَّقُهُ الْمَلَامَ وَطَالَمَا قَلَدْتُهُ الْمَأْتُورَ مِنْ أَمْدَاحِي ؟
أَقُولُ مِنْ أَحْيَا الْجَمَاعَةِ مُلْحَدٌ وَأَقُولُ مِنْ رَدِّ الْحَقُوقِ إِبَاحِي ؟
الْحَقُّ أَوَّلَى مِنْ وَلِيِّكَ حُرْمَةً وَأَحَقُّ مِنْكَ بِنُصْرَةٍ وَكَفَاحِ
ثُمَّ صَوَّرَ الْغَازِي جَاحًا مَحْتَاجًا إِلَى مَنْ يَعْظُهُ وَيَهْدِيهِ سِوَاءَ السَّبِيلِ (١)

هدف عاطفته الإسلامية التركية

توخي شوقي من قصائده الإسلامية التركية أن يتقوى المسلمون بوحدة تجمعهم ،
يستطيعون بها الثبات في تيار الأحداث الصاخب الجارف .
وقد عرفنا أن عاطفته الإسلامية كانت الحافز إلى تركيته ، كما جهر بذلك في شعره .
وعرفنا أن سياسة مصر وأدبائها ، وأدباء العالم العربي كانوا موالين للخلافة ،
وأولياء لتركيا .

وقد تكشف هذا الهدف في كثير من شعره الذي سبق . وهو يفصح عن غرضه
في قوله للسلطان عبد الحميد إن العالم الإسلامي ما كان في رابطة روحية قوية
لولا الخلافة :

رَضَى الْمُسْلِمُونَ وَالْإِسْلَامُ فَرَعَ عَثْمَانُ دُمَ فِدَاكَ الدَّوَامُ

أمة الترك والعراق وأهلوه
عالم لم يكن لينظم لولا
ه ولبنان والرّبا والخيّام
أنك السّلم وسطه والوثام
وضع الشرق في يديك يديه
وأنت من حماته الأقسام؟^(١)

وقوله له سنة ١٩٠٥ حينما نجا من قذيفة ألقى عليه :

هنيئاً أم — ير المؤمنين فإنما
هنيئاً لظه والكتاب وأمة
بقاؤك إبقاء لها وحياة
ولولاك ملك المسلمين مضيع
لقد ذهبت راياتهم غير راية
وقوله للسّطان محمد رشاد الخامس :

الملك بين يديك في إقبــــــــاله
رضى المهيمن والمسيح وأحمد
عوذت ملكك بالنبي وآله
عن جيشك الفادى وعن أبطاله^(٢)
ويفصح عن الوشيعة الدينية أيضاً في قوله :
يؤلف إيلام الحوادث بيننا
ويجمعنا في الله دين ومذهب^(٤)
وفي قوله :

تحملكم مصر منها في ضمــــــــائرها
فنحن إن بعدت دار وإن قربت
وتعلن الحب جما غير مّهم
جاران في الضاد أو في البيت والحرم
ناهيك بالسبب الشرقى من نسب
وحبذا سبب الإسلام من رحم^(٥)

خلافة أم أتراك؟

(١) قد يلام شوقي على استمساكه بأن تظل الخلافة حُكْمَةً للترك . فإذا كان
يعتقد أن الخلافة هي الوشيعة الروحية بين المسلمين ؛ وأن البقيا عليها عز للإسلام

(١) الشوقيات ٢٩٦/١ — ٣٠٠

(٢) الشوقيات ٨٨/١ — (٣) الشوقيات ٢٠٤/١ — ٢٠٨ (٤) الشوقيات ٣٠/١ — ٤٧

(٥) الشوقيات ٢٨٠/١ — ٢٨١

ووقاية من مطامع الاستعمار ، فلا عليه ولا على الإسلام من ضرر إذا آلت الخلافة إلى دولة إسلامية أخرى .

وهذا حق في ظاهره . لكن معذرة شوقي أن تركيا كانت في ذلك العصر أقوى الدول الإسلامية جميعاً ، ولم تكن دولة إسلامية أخرى قد بلغت من القوة والرشد ما يؤهلها لزعامة العالم الإسلامي . بل لقد كانت تركيا — على ما أصابها من ضعف — خير الدول الإسلامية قاطبة لزعامة المسلمين زعامة روحية ، وكثير من السياسة والأدب ، يأملون لها أن تسترد قوتها وبسطتها ، وتصلح ما فسد من شؤونها .

فلما قضى الأمر ، وألغى مصطفى كمال الخلافة ، وسار في طريق العزلة ، نزع شوقي يده من الخلافة ومن تركيا ، وعقل لسانه ، فلم ينشئ بيتاً واحداً في الإسلامية العثمانية ، وإنما حمل على العثمانية المعتزلة .

(٢) وليس يقدح في هذه الحقيقة أن كثيراً من الأحرار قد انضموا إلى الملك حسين بن علي لما أعلن ثورته سنة ١٩١٦ حينما نبكل جمال باشا الوالي التركي بأحرار الشام تنكيلاً وحشياً ، وقتل الحكام الأتراك كبار العرب الداعين إلى التحرر السياسي من الحكم التركي ، وساقوا الحرائر سباً إلى الأناضول^(١) . حينئذ لم يجد حسين بن علي بداً من فضاله لتركيا ، ومجاهرتها بالشر ، فأعلن ثورته بالحجاز ، وآزره العرب في الحجاز وسوريا والعراق وفلسطين ولبنان مسلمين ومسيحيين ، طامحين إلى الاستقلال ، لأنهم أيقنوا أن الأتراك إن انتصروا في الحرب العالمية الأولى — بعد أن انضموا إلى ألمانيا — ساموهم خسفاً ، وإن انهزموا احتل الحلفاء بلادهم ، وهما عاقبتان لا تحمد إحداهما ولا الأخرى .

وانتهز الإنجليز هذه الفرصة المواتية لكسر خصومهم ، فحالفوا حسين بن علي ، واستعان بهم ، ومنوه بشروط مغرية^(٢) ، خاسوا بها فيما بعد . وكانت معارك الجيش العربي مع قوات تركيا ، ثم انجلت عن انتصار العرب وجيش الحلفاء^(٣) ، ودخلت الجيوش العربية دمشق وغيرها بين الترحيب والاستبشار .

(٢) المرجع السابق ١٢٠/١ — ١٢٢

(١) الثورة العربية الكبرى ٥١/١ — ١١٩

(٣) المرجع السابق ١٤٥/١ — ٢٨٠

لكن مصر لم تؤيد حسين بن علي ، ولم يؤازره شوقي ، فلماذا ؟
سبب ذلك أنه لم يكن قويا قوة تجعله جديراً بزعامة المسلمين ، ولم يكن الذين والوه
ثأرين على الخلافة ، وإنما كانوا طامحين إلى الاستقلال والحكم القومي . أمام مصر فقد كانت
مستقلة عن تركيا ، ومشغولة بمجاهدة الاحتلال البريطاني ، ومتمتعاً بالحكم القومي
الذي ينشده أعوان الحسين بن علي . ثم إن مصر لم تصطبل بنيران الاضطهاد والعسف
التي اصطلت بها الأحرار في الشام .

(٣) والدليل على أن شوقي كان يريد أن تتولى الخلافة دولة إسلامية قوية قوله
بعد ثورة الحسين بن علي :

من قائل للمسلمين مة — الة لم يوحها غير النصيحة واح
لا تب — ذلوا برد النبي لعاجز عزل يدافع دونه بالراح
بالأمس أو هي المسلمين جراحة واليسوم مد لهم يد الجراح^(١)
فهو يريد من المسلمين ألا يبايعوا بالخلافة ملكاً ضعيف المقدرة ، ويذكرهم
بأنه اتخذ بوعود الإنجليز ، فانضم إليهم في الحرب ، وهم أعداء الدول الإسلامية ،
وينذرهم بأنه سيجلب على المسلمين ضرراً آخر إذا بايعوه بالخلافة .
ثم نشأت في مصر نزعة إلى أن تتول الخلافة إليها ، وكان الملك فؤاد يطمح
إلى ذلك ، لكن شوقي لم ينصره بيت واحد ، لأنه على يقين من أن الخلافة رمز
سام للإسلام وللعالم الإسلامي ، فلا يصح أن يتولاها إلا المستقل القوى ، بل المستقل
الأقوى ، ولم تكن مصر حينئذ مستقلة ، ولم تكن أقوى الدول الإسلامية .

هل العاطفتان متعارضتان ؟

لم تكن عاطفة شوقي الإسلامية التركية لتعارض مع عاطفته الوطنية : فمن الميسور
— كما ذهب مصطفى كامل — أن تستقل مصر استقلالاً تاماً ، وتبقى على صلة
بالخلافة العثمانية ، صلة مودة وحلف .

وقد جهر شوقي بأنه يبتغى أن تستقل مصر استقلالاً تاماً ، على أن ترتبط بالخلافة
برابطة الإسلام ، كما تستقل الدول العربية الآن وترتبط بأصرة الجامعة العربية .
وليس في هذا الارتباط ما ينقص من استقلالها ، أو يجعلها تابعة لتركيا .
يدل على هذه النزعة قول شوقي للسلطان عبد الحميد لما نزل الخديو عباس حلمي
ضيفاً عليه بالآستانة :

إيه عبد الحميد جلّ زمان أنت فيه خليفة وإمام
نستميح الإمام نصراً لخلي
فلحلي وآله والرعايا بك يا حامى الحمى استعصام
وإلى السيد الخليفة نشكو جور دهر أحراره ظلام
وعدوها لنا وعودا كبارا هل رأيت القرى علام الجهام؟
يمنع القيد أن نقوم فهل تاج فبالتاج للبلاد قيام^(١)؟

أرأيت ماذا يطلب من الخليفة؟ إنه يطلب نصر الخديو ومؤازرة الشعب
في كفاح إنجلترا ، ويشكوه من عسف الإنجليز الذين يبيحون الحرية لأنفسهم
ويحظرونها على المصريين ، ويشكوه من وعودهم الكثيرة بالجللاء التي لم يتحقق منها
وعد . فهي وعود خادعة كالسحاب الذي لا مطر فيه ، ويريد أن يساعد الخليفة مصر
على نيل استقلالها التام ، وعلى أن تكون مملكة يحكمها ملك مستقل ذو تاج ، لأن هذه
هى الوسيلة إلى نهوضها .

ثم يجهر بهذه الأمنية ، مصرحاً بأن مصر تحب تركيا لما بينهما من روابط ، لكنها
حريصة على كيائها ، ساعية لاستقلالها ، تريد لنفسها ملكاً ذا تاج ، وعلماً يرمز
للاستقلال ، لأنها إن فقدت هذا كانت أمة لا حياة لها :

يا آل عثمان أبناء العمومة هل تشكون جرحاً ولا نشكو له ألماً؟
قال العذول : خرجنا في محبتكم من الوقار فيا صدق الذى زعما
فما على المرء فى الإخلاص من حرج إذا رعى صلة فى الله أو رحماً

نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطننا ولا سريرا ولا تاجا ولا علما
هذى كراهم أشياء الشعوب فإن ماتت فكل وجود يشبه العدم^(١)

العرب اليوم

تكشفت الأحداث عن انقسام عرى الخلافة العثمانية ، وشرعت الدول العربية
قديمة وناشئة تجاهد المحتلين الغربيين لتتخلص من أوهاق الاحتلال البغيض ، وشاء الله
لبعضها أن يظفر بالاستقلال ، وما زال بعضها يكافح في صبر واستبسال .

لكنها كلها تشعر بحاجتها إلى تجمّع مرهوب ، وتحالف قوى وفى .
وكان الشعراء المعاصرون قد سبقوا رجال السياسة والحرب منذ زمن بعيد ،
فتغنوا بالجامعة العربية ، ثم رنموا بالوحدة المنشودة ، مغبرين عن مشاعر الشعوب
المبرأة من الشهوات والمطامع ، فجاءت الجامعة العربية محققة لبعض الأمل .

وإن العرب ليتشوّفون جميعاً إلى اليوم السعيد الذى تتمخض فيه جامعتهم الفتاة
عن الوليد الحبيب المجيد ، ويأملون أن يستهلّ معجزة فى التاريخ ، فلا يولد كغيره
من المواليد طفلاً ثم يشب ثم يكبر ، وإنما يولد وقد استكمل أسباب النماء والفتاء ،
واستجمع مجد الغابر ، ونهضة الحاضر ، وعزة المستقبل .
وعندئذ يقف كالطود الراسخ الأشم فى مهب الأعاصير العاتية ، لا يتزلزل
ولا يتحلحل ولا يميد .

عندئذ يرفع العرب رءوسهم شُماً ، وتكاد تدب الحياة فى رفات أجدادهم
ترى وعظما

وحينئذ يدرس الدارسون إرهاب الشعراء المعاصرين والكتاب المحدثين بهذا
الوليد المرتقب ، وأغاريدهم التى طالما هزجوا بها شوقاً إليه .

وماذا عسى أن يكون هذا الوليد ؟

إنه الوحدة العربية المنشودة ، مناط الأمل ، ومبعث القوة ، ومعراج المجد والعزة .

المراجع

مرتبة ترتيباً هجائياً

- (١) أبولو (مجلة) ديسمبر ١٩٣٢
- (٢) أبي شوقي . الأستاذ حسين شوقي . مطبعة مصر ١٩٤٧
- (٣) ١١ يولية وضرب الإسكندرية . الأستاذ عباس العقاد . مطابع دار أخبار اليوم
- (٤) الامتعمار والمذاهب الاستعمارية ، الدكتور محمد عوض محمد . دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٢ - ١٩٥٣
- (٥) إسماعيل المفترى عليه . يميز كرايتيس ، ترجمة الأستاذ فؤاد صروف . مطابع الصاوى .
- (٦) أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه . الأستاذ محمود الحفيف ، مطبعة الرسالة ١٣٦٦ - ١٩٤٧
- (٧) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار ١٣٥٠ - ١٩٣١
- (٨) تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) عبد الرحمن الجبرتي . دار الطباعة ١٢٩٧ هـ
- (٩) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر . الأستاذ عبد الرحمن الرافعي . مطبعة النهضة بمصر ١٣٤٧ - ١٩٢٩
- (١٠) تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية . الأستاذ محمد تاج الدين الرئيس . مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٠
- (١١) تاريخ العصر الحديث في مصر . الدكتور محمد صبرى . مطبعة مصر ١٩٢٨
- (١٢) تاريخ المسألة المصرية . ثيودور روثستين . ترجمة الأستاذين عبد الحميد العبادي ومحمد بدران . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤١ - ١٩٢٣
- (١٣) تاريخ مصر الحديث . الأستاذ جرجي زيدان . مطبعة الهلال ١٩٢٥

(١٤) تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل . الأيوبي . مطبعة دار الكتب
١٣٤١ - ١٩٢٣ .

(١٥) تخلص الإبريز إلى تلخيص باريز . رفاة الطهطاوى . مطبعة بولاق ١٢٦٥ هـ .

(١٦) تطور الصحافة المصرية . الدكتور إبراهيم عبده . مطبعة التوكل سنة ١٩٤٥ .

(١٧) تراجم مشاهير الشرق . الأستاذ جورجى زيدان ١٩٢٢ .

(١٨) التعليم في مصر . أمين سامى باشا . مطبعة المعارف ١٣٣٥ - ١٩١٧ .

(١٩) تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩١١

الفيكونت كنشتر . مطبعة المقطم سنة ١٩١٢

(٢٠) تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩٠٧

السير إلدون غورست . مطبعة المقطم سنة ١٩٠٨

(٢١) تقرير عن المالية ... سنة ١٩٠٩ السير إلدون غورست . مطبعة المقطم

سنة ١٩١٠

(٢٢) ثورة سنة ١٩١٩ الأستاذ عبد الرحمن الرافعى . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٥ - ١٩٤٦

(٢٣) الثورة العراقية والاحتلال الإنجليزي . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

مطبعة النهضة ١٣٥٥ - ١٩٣٧

(٢٤) الثورة العربية الكبرى . الأستاذ أمين سعيد . مطبعة الحلبي بمصر .

(٢٥) ثورة على بك الكبير . الأستاذ أنور زقلمة . مطبعة لجنة البيان العربى

(٢٦) جمال الدين الأفغانى . الأستاذ قدرى حافظ طوقان . مطبعة بيت المقدس ١٩٤٧

(٢٧) حافظ وشوقى . الدكتور طه حسين .

(٢٨) حقائق الأخبار عن دول البحار . الأستاذ إسماعيل سرهنك . المطبعة الأميرية ١٣١٤ هـ

(٢٩) خاطرات جمال الدين الأفغانى . محمد الخزومى باشا . المطبعة العلمية ببيروت ١٩٣١

(٣٠) ديوان أحمد شوقى (الشوقيات) . أحمد شوقى .

(١) الطبعة الأولى بمطبعة الآداب ١٨٩٨ م

(٢) الطبعة الثانية (فى أربعة أجزاء)

(٣١) ديوان أحمد نسيم . مطبعة الإصلاح بمصر ١٣٢٦ - ١٩٠٨

(٣٢) ديوان إسماعيل صبرى . إخراج الأستاذ أحمد الزين . مطبعة لجنة التأليف

١٩٣٨ - ١٣٥٧

(٢٣) ديوان البارودى (١) إخراج الأستاذين على الجارم ومحمد شفيق معروف .

مطبعة دار الكتب ١٩٤٠

(٢) الطبعة الأولى . إخراج المنصورى

(٣٤) ديوان حافظ إبراهيم . إخراج الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم

الإيبارى . مطبعة دار الكتب ١٩٣٧

(٣٥) ديوان خليل مطران . مطبعة المعارف بمصر

(٣٦) ديوان الرصافى (١) المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٣ - ١٩٢٥

(٢) مطبعة دار المعرض ببيروت

(٣٧) ديوان الزهاوى (١) الديوان ١٩٢٤ (٢) اللباب ١٩٢٨

(٣٨) ديوان الساعاتى . محمود صفوت الساعاتى . مطبعة المعارف ١٣٢٩ - ١٩١١

(٣٩) ديوان الشيبى . الشيخ محمد رضا الشيبى . مطبعة لجنة التأليف ١٣٥٩ - ١٩٤٠

(٤٠) ديوان ولى الدين يكن . مطبعة المقتطف والمقطم ١٣٤٣ - ١٩٢٤

(٤١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث . الدكتور أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف

١٩٤٨ .

(٤٢) سعد زغلول . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٥ - ١٩٣٦

(٤٣) شعراء مصر وبيئاتهم . الأستاذ عباس العقاد ١٩٣٧

(٤٤) شعراء الوطنية . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى الطبعة الأولى ١٣٧٣ - ١٩٥٤

(٤٥) شوقى شاعر العصر الحديث . الدكتور شوقى ضيف . دار المعارف بمصر ١٩٥٣

(٤٦) شوقى أو صداقة أربعين سنة . الأمير شكيب أرسلان . مطبعة عيسى البابى

الحلبى ١٣٥٥ - ١٩٣٦

(٤٧) عصر إسماعيل . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى . مطبعة النهضة بمصر .

١٣٥١ - ١٩٣٢

- (٤٩) عصر محمد على . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .
 (٥٠) على بك الكبير . الأستاذ محمد رفعت رمضان ١٩٥٠
 (٥١) على بك الكبير (مسرحية) أحمد شوقي .
 (٥٢) العوامل الفعالة فى الأدب العربى الحديث . الأستاذ أنيس المقدسى . بيروت .
 (٥٣) فى الأدب الحديث . الأستاذ عمر الدسوقي . مطبعة لجنة البيان العربى ١٩٥٠
 (٥٤) الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث . الأستاذ مينخايل شاروڤيم .
 المطبعة الأميرية ١٣١٥ — ١٨٩٨ .
 (٥٥) لمحة عامة إلى مصر . كلوت بك . ترجمة محمد مسعود . مطبعة أبو الهول بمصر .
 (٥٦) اللواء . جريدة الحزب الوطنى .
 (٥٧) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية . الأستاذ ساطع الحصرى . مطبعة الرسالة
 ١٩٥١
 (٥٨) محمد فريد . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى . مطبعة لجنة التأليف ١٢٦٧ — ١٩٤٨
 (٥٩) مذكرات أحمد عرابى . أحمد عرابى . دار الهلال فبراير ومارس ١٩٥٣
 (٦٠) المرشد الأمين للبنات والبنين . رفاعة الطهطاوى . مطبعة المدارس ١٢٨٩ هـ
 (٦١) المسألة المصرية فى دورها الأخير . مجموعة تشتمل على تقرير ملنر وأهم الردود
 الوطنية عليه . القاهرة سنة ١٩٢١
 (٦٢) المشير (مجلة) . سليم سرركيس .
 (٦٣) مصر القديمة . الأستاذ سليم حسن . مطبعة دار الكتب المصرية
 (٦٤) مصطفى كامل . الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ١٣٥٧ — ١٩٣٩ .
 (٦٥) معروف الرصافى . الدكتور بدوى طبانة .
 (٦٦) مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية . رفاعة الطهطاوى .
 مطبعة شركة الرغائب بمصر ١٣٣٠ — ١٩١٢ .
 (٦٧) منتخبات الجوائب ١٣٩٢ هـ .
 (٦٨) المعلوم والمجهول . ولى الدين يكن ١٩٠٩ .
 (٦٩) نشوء الفكرة القومية . الأستاذ ساطع الحصرى .
 (٧٠) مقالات مذكورة فى الهوامش .

كتب مطبوعة للمؤلف

١ - وحي النسيب في شعر شوقي

٢ - فن الخطابة

٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي

٤ - الغزل في العصر الجاهلي

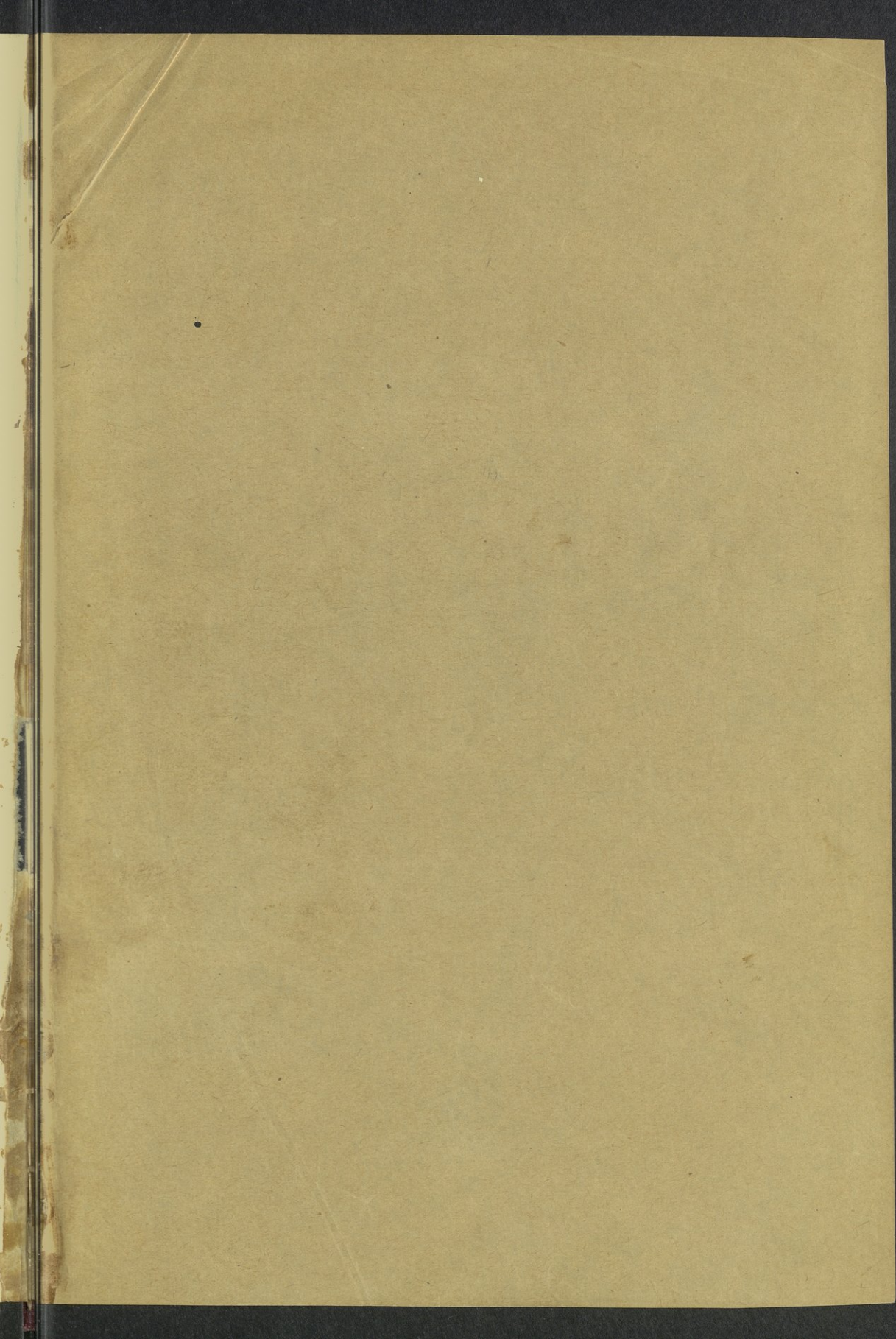
٥ - مع ابن خلدون

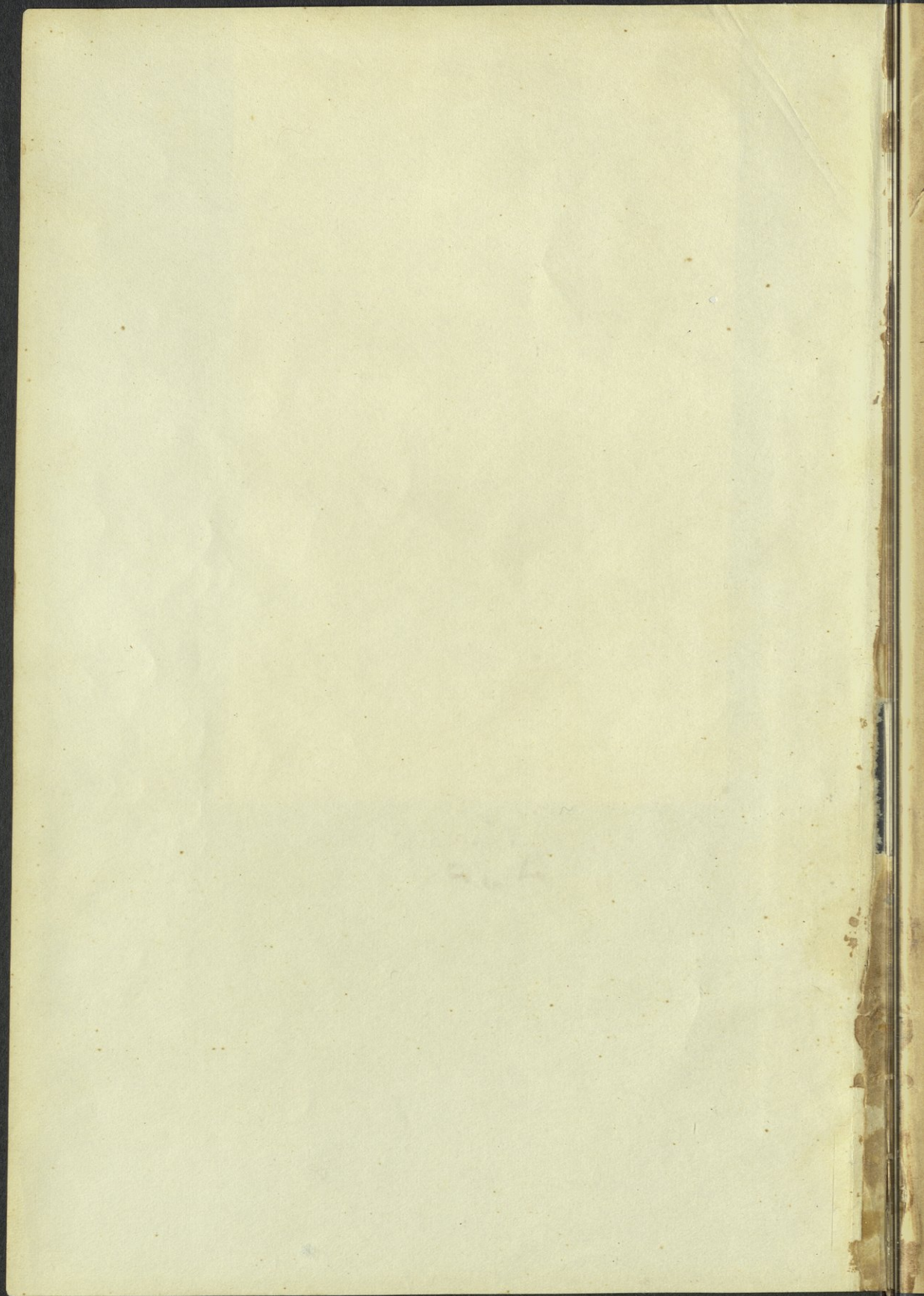
٦ - المرأة في الشعر الجاهلي

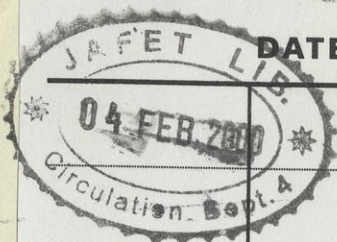
٧ - وطنية شوقي

٨ - سوسن (قصة مصرية)

تم بحمد الله







DATE DUE



AUG 2004

الحوقى، احمد محمد

وطنية شوقي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033902

American University of Beirut



General Library

892.78
Sh 5985YkuA
C.1